شعر البصرة

في العصر الأموي

دراسة في السياسة والاجتماع

تأليف

د. عون الشريف قاسم

دار الثقافة

بيروت - لبنان

شِعرُ البَصرة

في العَصرِ الأمويِّ

دراسة في السِياسةِ والاجتماع

تأليف
د. عون الشريف قاسم
كليّة الآداب - جامعة الخرطوم

دار الثقافة
بيروت - لبنان

١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م

البَابُ الأول

مجتمعُ البَصرَة

الفصل الأول

الحياة السياسية

نقطة البداية

اضطلعت منطقة البصرة بدور في حياة شبه جزيرة العرب قبل الإسلام شبيه بالدور الذي اضطلعت به دويلتا غسَّان ولَخْم في علاقتهما بالامبراطوريتين البيزنطية والساسانية. فقد كانت غارات الأعراب في صحرائهم المجاورة متصلة على القرى والحاميات الفارسية في المنطقة، واتخذت شكلاً منظماً خاصة بعد النجاح الكبير الذي أحرزه بنو بكر بن وائل في موقعة ذي قار (حوالي عام ٦١١ م) حين هزموا القوات الساسانية في ميدان المعركة وأخذوا يغيرون على الأطراف الغربية من امبراطوريتهم[١] .

وقد لجأ الفرس قبلها إلى المصانعة والمهادنة في محاولة لكفّ شرّ هذه الهجمات المتتالية عليهم، فتعاملوا مع كبرى القبائل إلى جوارهم وهي بكر، فعيَّنوا رئيسها قيس بن مسعود الشيباني حاكماً على منطقة الأُبُلَّة. قال المرزباني: «وكان قيس عاملاً لكسرى هرمز بن أبرويز على طفّ العراقين والأُبُلَّة .. وكان قيس ضَمِن

---

١ انظر Cambridge Med. History, ii, 329 وما بعدها، الأغاني ٢٠/١٣٣ ؛ دائرة المعارف الإسلامية مادة «بصرة» ؛ صالح العلي ١–٣ .

لكسرى أحداث بكر بن وائل، فتعبثت بكر بأصحاب كسرى فحبسه بإيوان حُلوان حتى مات في حبسه »[٢] .

ولعلَّ قبيلة بكر كانت تسعى للقيام بدور شبيه بما كان عليه الحال في الحيرة. فقد ذكرت المصادر أنه « لما هلك النعمان جعلت بكر بن وائل تغير في السواد فوفد قيس بن مسعود إلى كسرى فسأله أن يجعل له أكلاً وطُعْمة على أن يضمن له على بكر أن لا يدخلوا السواد ولا يفسدوا فيه فأقطعه الأُبُلَّة وما والاها وقال: هي تكفيك وتكفي أعراب قومك »[٣] . ولما وصل المسلمون إلى منطقة البصرة عام ١٢ هـ (٦٣٣ م) « لم تكن يومئذ إلّا الخُرَيْبة وكانت منازل خربة وبها مسالح لكسرى تمنع العرب من العيث في تلك الناحية »[٤] .

وقد كانت المنطقة مألوفة لدى العرب من ناحية هامة أخرى. فقد كان النشاط التجاري الذي يتمركز في فرضة الأُبُلَّة يجذب القوافل التجارية العربية إلى هذه البقعة التي عرفها العرب في جاهليتهم باسم « أرض الهند »[٥] . ومن المرجّح أن بداية سوق البصرة الشهير بالمربد ترجع إلى هذه المرحلة المبكرة في العصر الجاهلي. وكون هذه السوق تقع إلى ثلاثة أميال غربي البصرة على طرف الصحراء[٦] قد يقوم شاهداً على أن نموّ هذه السوق كان مستقلاً عن المدينة سابقاً لنشأتها. ومن الجائز أن السلطات الفارسية في سعيها لدرء خطر هؤلاء المتبدين من العرب وإبعادهم عن الاتصال المباشر بالمنطقة المأهولة قد حدَّدت مكان السوق على طرف الصحراء بهذه

---

٢ المرزباني: معجم الشعراء ٢٠٠ – ٢٠١ ؛ دائرة المعارف الإسلامية مادة « بكر » .

٣ الأغاني ١٣٢/٢٠ .

٤ الدينوري: الأخبار الطوال ١٢٣ .

٥ الطبري ٢٣٧٨/١ ؛ الهمداني: صفة جزيرة العرب ٢٠٤ ؛ ياقوت: معجم البلدان ٦٤١/١ ؛ دائرة المعارف الإسلامية (الأولى) مادة (الأبلة). وتُسمَّى أيضاً « فرج الهند » الطبري ٢٠١٦/١ ، ٢٣٨٠ .

٦ ياقوت: معجم البلدان ٤٨٤/٤ .

الكيفية، ومن ثَمَّ عرفت منطقة المربد بباب البادية[٧] .

ولا بد أن العرب المجاورين للفرس، خاصة بني بكر بن وائل، كانوا – لخبرتهم الطويلة في الإغارة على أطراف الامبراطورية والتحرش بها – أسرع من غيرهم في ملاحظة الضعف والخور الذي بدأ يتسرب إلى استحكامات الفرس وأدوات دفاعهم على الحدود، ومن ثمَّ بدأوا يستأنفون غاراتهم القديمة على المناطق الغنية إلى جوارهم قبل أن تصل الحملة الرسمية للمسلمين بقيادة عُتْبة بن غَزْوَان بفترة من الزمن[٨]. وكان قائد بكر في هذه الغارات المبكرة سويد بن قُطبة العِجْلي[٩] .

ومع أن عتبة وصل المنطقة في سنة ١٤ هـ (٦٣٥ م) إلّا أن مدينة البصرة لم تُشَيَّد كمصر – أي مدينة حدود أو ثغر[١٠] – قبل سنة ١٧ هـ[١١]. وقد تمَّ اختيار موقعها على تخوم الصحراء بعد محاولات ثلاث باءت جميعها بالفشل وتعرضت فيها حياة الجند للخطر والمرض لوخامتها[١٢]. وقد أكدت تجربة ثلاثة أعوام من القتال المتصل – كان معسكر الجيش ينتقل فيها من مكان لآخر – المخاطر الكبيرة التي تتهدد العرب من غرسهم أنفسهم وسط هذا البحر العظيم من السكان المعادين لهم. وكان واضحاً أن موقعاً على أطراف الصحراء أضمن للسلامة إن دعت الضرورة للاتصال السريع بداخل الجزيرة لمواجهة أي خطر داهم على ساكني المصر[١٣]. وقد تحكمت الضرورات العسكرية في اختيار الموقع وما تلاه من خطط. فقد كان هدف العرب الأول محاصرة القوات الساسانية في المنطقة ومنعها

---

٧ انظر الطبري ٢٣٧٩/١ ؛ شارل بلا: الجاحظ (ترجمة ابراهيم كيلاني) ٣٣ ؛ المقدّسي: أحسن التقاسيم ١١٧
٨ ياقوت ٦٣٨/١ ؛ الدينوري: الأخبار الطوال ١٢٢ .
٩ البلاذري: فتوح البلدان ٣٣٧ – ٩ ؛ ٤٧٥ .
١٠ أحمد صالح العلي: النظم الاقتصادية والاجتماعية في البصرة ١–٣ .
١١ الطبري ٢٤٨٦/١ .
١٢ الطبري ٢٣٨٠/١ ؛ ابن الأثير: الكامل ٤١١/٢ .
١٣ البلاذري: فتوح ٤٨٣ – ٤ ؛ ياقوت ٦٤٠/١ .

من إمداد القوات الفارسية إلى الشمال والتي كانت تواجه زحف المسلمين الكبير على موقعها[١٤] .

وكان من آثار نجاح المسلمين السريع في الشمال أن اندفعت القوة الصغيرة التي كان يقودها عتبة مهاجِمةً حاميات الفرس في الأُبُلَّة واجبرت المدافعين عنها على الفرار. وكان قد انضمت جماعات من قبائل بكر وتميم إلى جيش عتبة[١٥] . وما إن انتشرت أخبار هذا النصر المؤزر حتى تقاطرت أفواج الأعراب من كل حدب وصوب وقد استرعتهم أنباء الغنائم التي ظفر بها إخوانهم السابقون[١٦] . وقد كانت قبيلة تميم المصدر الرئيسي لكثير من هذه الأفواج المتقاطرة من الأعراب فيما تذكر الروايات[١٧]

وكان العرب في غاراتهم الأولى يعتمدون على معسكرات متنقلة؛ وما إن تضخم عدد المحاربين ومن انضم إليهم من رجال القبائل حتى بدأ التفكير في إقامة مصر دائم لتلبية حاجات المحاربين المتزايدة وتنظيم أمور الناس الذين أخذوا يتكاثرون بازدياد الفتوحات[١٨] . وكانت البداية متواضعة، فضربوا الخيام والقباب والفساطيط، ولم يكن لهم بناء[١٩] ، ثم بنوا مساكن بالقصب منها المسجد ودار الإمارة وفيها السجن والديوان، فكانوا إذا غزوا نزعوا ذلك القصب وحزموه ووضعوه حتى يرجعوا من الغزو، فإذا رجعوا أعادوا بناءه[٢٠] . ثم استعملوا من بعد ذلك اللَّبن والطين وسقف العشب. وذكر الجاحظ: «أنه لما بنى عتبة بن غزوان وأصحابه بناء اللَّبن كتب

---

١٤ ياقوت ٦٣٨/١ ؛ الطبري ٢٣٧٧/١ – ٨ .

١٥ ياقوت ٦٣٨/١ .

١٦ الدينوري ١٢٤ .

١٧ ابن الفقيه: البلدان ١٨٨ .

١٨ ياقوت ٦٤٠/١ ؛ البلاذري: فتوح ٤٨٣ – ٤ .

١٩ البلاذري: فتوح ٤٧٦ .

٢٠ البلاذري ٤٨٣ – ٤ ؛ الطبري ٢٤٨٧/١ .

إليهم عمر : قد كنت أكره لكم ذلك، فإذا فعلتم ما فعلتم فعرّضوا الحيطان وارفعوا السَّمْك، وقاربوا بين الخشب »[٢١] .

وكانت أبواب الغنى التي تتفتح أمام الغزاة كلما أوغلوا في مسعاهم حافزاً قوياً لسيلٍ متصل من المهاجرين من كل أجزاء شبه جزيرة العرب عامة والمناطق المجاورة، خاصة من البحرين واليمن. وكان المقاتلون يأتون أولاً دون نسائهم[٢٢] مما يوضِّح طبيعة هذه الغارات الأولى ونظرة العرب إليها كأمر عارض محدود المدى والزمان. ولكن سير الأمور وتشعبها غيَّر من هذه النظرة، وجعل اختطاط قاعدة ثابتة لضبط التحركات الحربية في المنطقة وتنظيمها أمراً ضرورياً كما رأينا. فبنى المسلمون سبع دساكر في الخريبة والزابوقة وبني تميم، وفي الأزد في بعض الروايات[٢٣] ، ووزعت الخطط على الناس بحسب انتماءاتهم القبلية[٢٤] .

ومن المهم أن يلاحظ الدارس هنا أن هذه القبائل التي انساحت تغزو وتغنم وتُوَزَّع عليها الخطط في المصر لم تُتْرَك في شكّ من أمرها حيال السلطة الفعلية التي تتحكم في سير الأمور في هذه الأصقاع. فقد انتهز عمر بن الخطاب أول فرصة سنحت له وعزل مجاشع بن مسعود السُّلَمي الذي وضعه عُتبة خليفة له قبيل مغادرته البصرة إلى المدينة إلى غير رجعة عام ١٧ هـ وعيّن بدلاً عنه المغيرة بن شعبة الثقفي قائلاً « لعمري إن أهل المدر لأولى ان يستعملوا من أهل الوبر ، يعني بأهل المدر المغيرة لأنه من أهل الطائف وهي مدينة، وبأهل الوبر مجاشعاً لأنه من أهل البادية »[٢٥] .

---

٢١ الجاحظ : البيان ٢/٢٢٦ ؛ البلاذري ٤٨٤ .

٢٢ كان بين جماعة عتبة التي بلغ عددها ستمائة ست فقط من النساء، ياقوت ٦٣٩ .

٢٣ ياقوت ١/٦٣٩ ، ٦٤١ .

٢٤ الدينوري ١٢٥ .

٢٥ ياقوت ١/٦٤٢ ؛ ابن الأثير : الكامل ٢/٣٧٩ – ٣٨٠ .

ولكن تطور البصرة الحقيقي يرجع في أصوله إلى ولاية أبي موسى الأشعري التي امتدت من عام ١٧ هـ إلى عام ٢٩ هـ (٦٣٨ - ٦٥٠ م) مع توقّف لعام واحد بين عامي ٢١ - ٢٢ هـ (٦٤٢ - ٦٤٣ م). وقد كان اجتماع كل هذه القبائل في مكان حضري واحد تجربة مثيرة بما تنطوي عليه من احتمالات الصدام والشقاق بين هذه الجماعات المتنافرة. والواقع أن حِدّة النزاع كانت قد بدأت ترتفع قبل وصول أبي موسى الأشعري إلى المصر كما يفهم من الكلمات التي ذكرها عمر لأبي موسى وهو يعينه والياً على البصرة قائلاً «إني أبعثك إلى أرض قد باض بها الشيطان وفرَّخ فالزم ما تعرف ولا تستبدل فيستبدل الله بك»[٢٦]. وبنى أبو موسى المسجد ودار الإمارة باللَّبن والطين، وغُرِست النخل لأول مرة، وكان أبو بكرة أول من غرسها[٢٧]. ومُنِحت الأراضي التي ليست من أرض الخراج للأفراد يزرعونها بموافقة الخليفة عمر[٢٨]. ويبدو أن الرغبة في حيازة الأرض وزراعتها كانت من القوة بحيث اضطر الخليفة إلى أن يكتب إلى أهل البصرة لما بلغه أنهم قد اتخذوا الضياع وعمروا الأرضين «لا تنهكوا وجه الأرض فإنّ شحمتها فيه»[٢٩].

ومثل هذا التطور الحضري الواسع يقف في تفرّد في مجال المقارنة بنشأة القاعدة العسكرية التي كانت غايتها خدمة الأغراض الحربية للجيوش الغازية. ومن الواضح ان قسماً كبيراً ومهماً ممن استقروا بالمصر شرع منذ البداية في إقامة أسس ثابتة لمجموعة حضرية مستقرة لا تؤثر عليها تحركات الجيوش التي تخرج للغزو. ومع أن المدينة ظلت تحافظ على طبيعتها ووظيفتها العسكرية لأكثر من قرن، إلّا أن هذا القسم المستقر من السكان والذي لم يتأثر كثيراً بموجات الهجرة لميادين

---

٢٦ الطبري ٢٥٣١/١ ؛ ابن سعد: الطبقات ١/٤ ص ٨١ .

٢٧ ابن الفقيه: البلدان ١٨٨ .

٢٨ البلاذري: فتوح البلدان ٤٩٠ .

٢٩ الجاحظ: البيان ٢٢٦/٢ .

القتال إلى الشرق، هو الذي ترك أثره الواضح على تاريخ الإسلام في هذه المرحلة التكوينية .

ولم تكن المراحل الأولى لتطور المصر خالية في كل الأحوال من العقبات والعوائق. فسرعان ما وضح في مرحلة مبكرة أن سيل المهاجرين الذي أخذ ينثال إلى داخل المصر بدافع الثراء العريض الذي حازه الفاتحون الأُوَل وظلّ يغري كل من جاء بعدهم، ظلّ في اطراده على حين أخذت الغنائم في التقلص. وكان من نتائج الانحسار السريع في موجة الفتح الذي تعرضت له المدينة في هذه المرحلة التكوينية الهامة من تاريخ تطورها الحضري أن أُضطر قسم كبير من سكانها المتزايدي العدد إلى البحث عن وسائل أخرى لكسب لقمة العيش مما ضاعف من سرعة المدّ الحضاري وقوى من دوافعه. ولعلّ هذه الأزمة المبكرة هي التي دفعت حاكم البصرة عام ٢٢ هـ/٦٤٣ م إلى الشكوى للخليفة عمر بن الخطاب من كثرة أهل البصرة وعجز خراجهم عنهم مما لا يمكن معالجته إلّا بنقل بعض أراضي الكوفة الخراجية إليهم وقد أقرَّهم عمر على ذلك على مضض من أهل الكوفة الذين كانوا يدّعون تلك الأراضي[٣٠] . وقد أفصح الأحنف بن قيس زعيم تميم حين وفد على عمر عن قضية البصرة حين قال له: «يا أمير المؤمنين إنك لَكَما ذكروا، ولقد يعزب عنك ما يحقّ علينا إنهاؤه إليك مما فيه صلاح العامة، وإنما ينظر الوالي فيما غاب عنه بأعين أهل الخير ويسمع بآذانهم. وإنا لم نَزَل ننزل منزلاً بعد منزل حتّى أرْزَنا إلى البر، وإن إخواننا من أهل الكوفة نزلوا في مثل حدقة البعير الغاسقة من العيون العِذاب والجِنان الخِصاب فتأتيهم ثمارهم ولم تُخْضَد، وإنا معشر أهل البصرة نزلنا سَبْخة هَشَّاشة زَعِقَة نشَّاشة طَرَف لها في الفلاة وطرف لها في البحر الأُجاج يجري إليها ما جرى في مثل مريء النعامة، دارنا فَعْمة ووظيفتنا ضيّقة وعددنا كثير وأشرافنا قليل وأهل البلاء فينا كثير ودرهمنا كبير وقفيزنا صغير، وقد وسَّع الله

---

٣٠ الطبري ٢٦٧٢/١ – ٣ .

علينا وزادنا في أرضنا فوسِّع علينا يا أمير المؤمنين وزِدْنا وظيفة تُوَظِّف علينا ونعيش بها ، فنظر إلى منازلهم التي كانوا بها إلى أن صاروا إلى الحَجَر فنفلهموه وأقطعهموه ، وكان مما كان لآل كسرى فصار فيئاً فيما بين دجلة والحَجَر فاقتسموه »[٣١] .

قبائل العرب بالبصرة

وقد امتزجت الجوانب المدنية من حياة البصرة بجوانبها العسكرية بحيث أصبح الفصل بينهما من الصعوبة بمكان عظيم. فقد كان ازدهار الحياة الحضرية المطرد يعتمد إلى حد كبير على الدّخل الناجم عن الفتوح الجديدة. وظل غالبية السكان العرب ، كما سيتضح بعد قليل ، ينالون عطاء منتظماً من بيت المال وإن لم يشتركوا في المواقع الفعلية في ميادين القتال. ولكن هذا العطاء كان يصرف لهم مقابل استعداد القبائل المختلفة لإمداد الجيش بالمحاربين متى طلبت منهم السلطات ذلك. وقد ضمن هذا النظام مدداً متصلاً من الجنود المحاربين الذين كانوا يدفعون بالزحف الإسلامي خطوات إلى الشرق ، وضمن في نفس الوقت سيلاً متصلاً من الأموال التي كانت تساهم في بناء المجتمع الحضري المتطور في المصر. ولعلنا واجدون في هذه الثنائية في شخصية البصرة التفسير المنطقي لتاريخها العاصف المليء بالثورات والحروب. فأنفة هذه القبائل البدوية من الانصياع لسلطان مركزي كانت الدولة حريصة على فرضه ، قوّتها سياسة نفس الدولة التي ظلت تحافظ على الهيكل القبلي لأغراض حربية ومالية. وقد أضفى هذا التناقض الدقيق على شخصية البصرة حيوية دافقة ومنحها روحاً متمردة ثائرة .

وكان لطبيعة التكوين السكاني أثرها على حياة المدينة. فمعظم من استقروا في المدينة وما جاورها كانوا من قبائل شرق جزيرة العرب مثل تميم وبكر وعبد

---

٣١ الطبري ١/٢٥٣٨ – ٩ ؛ الجاحظ : البيان ١/٢٥١ – ٢ .

القيس مما ثاروا على سلطة الدولة المركزية بعد وفاة الرسول ﷺ ، وهذا يفسِّر إلى حدّ كبير استمرار الكثيرين منهم في تحدّي معظم الجهود المبذولة لكسر شوكة التنافس القبلي داخل المصر. ولكننا لا بد أن نلاحظ في هذا المجال أنه على الرغم من أن الاحتكاك القبلي كان دائماً خطراً كامناً حتى في أيام عمر بن الخطاب الأولى[٣٢] ، إلّا أن تأثير الإسلام على العلاقات بين القبائل كان بعيد المدي. وما حدث بعد حروب الرِّدَّة حين أكدت الحكومة المركزية في المدينة موقفها بفرض سلطانها على القبائل المتمردة لم يكن أكثر من وحدة شكلية قامت بين هذه القبائل واستمرت حتى مقتل عثمان في عام ٣٥ هـ/٦٥٦ م. وكان لمشاعر الحماسة القوية – التي استقطبت عواطف العرب ودفعتهم لدك حصون الامبراطورية الساسانية – مفعولها الكبير في حمل هذه القبائل على تناسي خلافاتها لبعض الوقت. ومع أن معظمهم لم يكونوا ملمين إلماماً دقيقاً بتفاصيل دينهم الجديد إلّا أن انخراطهم في جيش واحد يحارب باسم الإسلام ويتلقى أوامره عن سلطة مركزية في المدينة كان في حدّ ذاته مفهوماً ثورياً سيغير مع الزمن وجودهم تغييراً شاملاً. ولئن كان تنظيم الجيش يقوم على أساس الانتماء القبلي وذلك بوضع أفراد القبيلة المحاربين تحت قيادة قائد منهم، فإن القيادة العامة كانت في يد الخليفة أو من ينوب عنه من القادة العسكريين. وكانت القبائل المختلفة تحارب لا لتحقيق غاياتها هي في المكان الأول كما كانت تفعل في الماضي، وإنّما لتحقيق غاية أعم وأشمل هي مصلحة الجماعة الإسلامية التي تعبّر عنها الخلافة. وبذلك تنازل العرب عن منعتهم وسلطانهم وأخضعوا أنفسهم لسلطة الدولة المركزية وأصبحوا يعملون كجزء منها. وبمثل هذا الفهم لطبيعة علاقتهم بالسلطة يصبح احتمال بعث الحياة القبلية على الأساس الجاهلي القديم احتمالاً بعيد الوقوع. وقد سعى الإسلام لإزالة بعض الأسباب التي كانت تدعو إلى المنافسة والحرب. فصرف ولاءهم بالتدريج من

٣٢ انظر الجاحظ : البيان ٢/٢٣٣ حيث يشير في وضوح إلى الاحتكاك بين القبائل في خطاب إلى أبي موسى الأشعري ينصحه فيه بمعاقبة المعتدين .

القبيلة إلى الدولة. وقسم الغنائم والأعطيات بينهم بمقتضى أُسس عادلة تخضع لنظام مالي صارم .

ولكن القبلية لم تتلاش، وإن نجحت الظروف الجديدة في تغييرها وتطويرها. فقد برزت إلى الوجود قبلية جديدة في إطار إسلامي آخذة الخلافة في الاعتبار كقوة للتوحيد والربط من جانب، وكعظمة للنزاع والصراع من جانب آخر. ولكن مدى نشاطها كان على وجه العموم محدوداً ببعض العوامل السياسية والاجتماعية والدينية النابعة من نمو الدولة الإسلامية وتطورها .

مقتل عثمان وآثاره

بمثل هذه الأفكار العامة عن الوحدة الإسلامية اندفعت قبائل العرب إلى الشرق وسكن بعضها البصرة. وكانت سياسة عمر بن الخطاب واضحة في أمر الدعوى إلى الجاهلية والقبلية وأخذ الداعين إليها بالحزم، وقد سلفت الإشارة إلى خطابه لأبي موسى الأشعري في ذلك. وقد كانت الجهود المشتركة التي يبذلها الأفراد من مختلف القبائل في الجيوش الموحَّدة التي كانت تُبْعَث من البصرة، والعلاقات المتبادلة بين مختلف المجموعات داخل المدينة نفسها مما غذَّى من روح التآزر والتكاثف بين ساكني المصر.

وكان هناك تطور بعينه يتدرج مع الزمن وقد بلغ بموت عمر في ٢٣ هـ/٦٤٤ م قمته. فقد بدأ الدفع القوي لمدّ أطراف الامبراطورية يحدث أثره على شبه جزيرة العرب عامة وعلى المدينة المنورة خاصة، وجذبت الأمصار زبدة الشعب العربي وأحدثت بذلك فراغاً هائلاً في قلب جزيرة العرب. وبعد أن أصبحت هذه الأمصار مراكز للقوة العسكرية صارت مستودع القوة الحقيقية في الامبراطورية واستلبت بذلك حظاً عظيماً من نفوذ مدينة الرسول بحسبانها مقرّ الحكومة المركزية. وقد ازداد موقف المدينة ضعفاً باعتمادها المتزايد على الدخل الذي كان يأتيها من الأمصار

خاصة العراق. وقد عزَّز ذلك من مركز الأمصار وقلب ميزان القوى لصالحها وهو وضع لا بد أن تستغله في الوقت المناسب[٣٣] . وقد كان لنظام عمر الدقيق وسياسته الحازمة أثرها الكبير في تفادي كثير من المشاكل أو تأجيل ظهورها لبعض الوقت. وكانت القضايا التي واكبت تطور الدولة في بداية عهدها أقل حدَّة، وهو أمر طبيعي في كل البدايات .

وفي خلافة عثمان (٢٣ - ٣٥ هـ/٦٤٤ - ٦٥٦ م) برزت كثير من الميول والتيارات التي كانت تختمر وتتحسس طريقها إلى الظهور. فقد بدأ دولاب العمل الحكومي يتضخم ويتعقد، وكانت حدود الامبراطورية تتسع بقدر يفوق الإمكانيات الإدارية للدولة في المدينة. وقد بدأت المشاكل والمشاق التي كان العرب يواجهونها في مناطق استقرارهم الجديدة في الأمصار تظهر في أبعادها الحقيقية، وكان لا بد من تقديم الحلول العاجلة لها. وأهم من ذلك أن جيوش المسلمين كانت تواجه مقاومة متزايدة في زحفها إلى الشرق، وأصبح تحقيق النجاح في ميادين القتال باهظ الثمن .

وقد كان لبعض إجراءآت عثمان آثارها على سير التطور العام للأحداث. إذ زادت الضغوط والهزات الناجمة عن التحول الاجتماعي والسياسي حِدَّة وعنفاً. ففكرة «الرابطة الإسلامية» التي كانت تقوم مقام السياج للامبراطورية وتمثل الضمان لوحدتها تعرضت في زمانه لتحدّ خطير من تزايد قوة قريش عامة وبني أُمية خاصة. ومن ثمَّ تعرَّض ميزان القوى الدقيق الذي كان ينظم علاقات قبائل العرب لهزة فقد وضح أن هـذه القبيلة وهـذا الفرع منها يستغلان الجهـد الجماعي لمصلحتهما[٣٤] .

---

٣٣ انظر في ذلك طه حسين: الفتنة الكبرى .

٣٤ عبَّر عمرو بن معدي كرب شاعر اليمن وفارسها عن سخط العرب على تغول قريش حين خاطب عمر ابن الخطاب بقوله :

وفي عام ٢٩ هـ/٦٥٠ م أبدل عثمان أبا موسى الأشعري بابن خاله عبد الله بن عامر، وفي عهده اشترك أهل البصرة في فتح إصْطَخْر وفارس وخراسان وسجستان وبلغت حدود الدولة الإسلامية ما وراء النهر .

نظام الأحلاف القبلية

كان الوضع القبلي في البصرة بعد مقتل عثمان أبعد ما يكون عن الوضوح . فالأحلاف بين المجموعات المختلفة كانت تبدو وكأنها وليدة لضغط الحوادث التي تتابعت على المصر أكثر من كونها نتاجاً لخط سياسي واضح. فمع أن البصرة عُرفت بتأييدها الكبير لعثمان وكانت مقرّ أنصاره من العثمانية[٣٥] . إلّا أن موقف الجماعات فيها لم يكن موحَّداً. وكان الهيكل القبلي العام داخل المدينة قد بدأ يأخذ شكله النهائي. وحتمت انتماءات القبائل والفروع حسب أصولها المشتركة تقسيم المدينة إلى خمسة مناطق قبلية عرفت بالأخماس. ومع أن إصطلاح الخُمس والأخماس ظهر لأول مرة قُبيل واقعة صفين (٣٧ هـ/٦٥٨ م)[٣٦] ، إلّا أن التقسيم الفعلي حدث في أغلب الظن قبل ذلك بكثير. فكان خمس تميم وخمس أهل العالية يمثلان القبائل المضرية، وكان خمسا بكر وعبد القيس يمثلان القبائل الربعية في حين كان خمس الأزد يمثل القبائل اليمنية[٣٧] .

وكان عام ٣٦ هـ/٦٥٦ م حدًّا فاصلاً لا في تاريخ البصرة وحدها بل في تاريخ

إذا قتلنا ولا يبكي لنـــا أحـــد   قالت قريش: ألا تلك المقادير !

نُعطي السوية من طعن لـــه نفـــذ   ولا سوية إذ تعطى الدنانـــير   عقد ١/٢٩٨

٣٥ انظر العقد الفريد ٧/٢٨٠ . وقد كان هذا المصطلح يدل أولاً على الجماعة التي كانت تناصر الخليفة المقتول وتدافع عن حقه، ثم تطور مع الزمن وأصبح عنواناً لمذهب فلسفي ديني كتب عنه الجاحظ كتابه المشهور «العثمانية» .

٣٦ انظر نصر بن مزاحم: صفين ١٣١ ؛ وانظر أيضاً الطبري ١/٣٤٥٥ .

٣٧ انظر بلا (الفرنسية) ٢٢ – ٣٤ لتفصيل أوفى عن الأخماس .

الإسلام كله. إذ وقفت أغلبية مضر ما خلا بني سعد من تميم مع قبيلة الأزد اليمنية تناصر عائشة وسُمُّوا العثمانية لهذا السبب، بينما وقفت أغلبية ربيعة من بكر وعبد القيس تناصر علياً. ومع أهمية الاعتبار الديني وبروزه إلّا أنه لم يكن السبب الأساسي وراء هذه التكتلات، إذ كان للمصالح الخاصة للقبائل والجماعات نصيبها الكبير في تحديد المواقف. وسنلحظ منذ هذه اللحظة استمرار بعض عادات الجاهليين واحياء نعراتهم مما أصبح له أقوى الأثر في تشكيل الوضع السياسي عامة. ففي الوقت الذي دفع الوازع الديني قلة من الأفراد ليقفوا موقف الحياد من الصراع القائم(٣٨) دفعت روح التكاتف القبلي بني سعد من تميم برئاسة الأحنف بن قيس للوقوف بعيداً عن كلا المعسكرين المتحاربين مع أنهم كانوا من العثمانية(٣٩)، وذلك لأن أنصار عثمان طالبوا بحياة حُرْقوص بن زهير من بني سعد الذي اضطلع بدور كبير في قتل الخليفة عثمان. واجاروا أخاهم وبذلك انحازوا عن الحلف القبلي الكبير الذي الذي كانوا يرتبطون به. وقد شعرت ربيعة (بكر وعبد القيس) بالخطر الماحق الكامن في التقاء مضر والأزد حين تصدّت قواتهما للنفر الستمائة الذين خرجوا من البصرة على عثمان وقتلتهم شرّ قتلة(٤٠). وقد أظهر طلحة والزبير تفضيلهما لمضر حين خصاها بأعلى الأعطيات وحرما ربيعة التي قابلت ذلك بالهجوم على بيت المال، ولكنها رُدَّت على أعقابها وقد تكبدت أعظم الخسائر(٤١). وبذلك أصبحت بكر وعبد القيس بعد موقعة الزَّابوقة قبيل وصول عليّ في حكم المنفي من البصرة، وكان عليهما أن تنتظرا وصول عليّ خارج البصرة(٤٢). وقد حددت هذه الموقعة التي حدثت داخل المدينة شكل التكتلات القبلية في موقعة الجمل. وأكدت انقسام البصرة

---

٣٨ انظر ابن سعد ١/٧ ص ٨٢ ؛ ٢/٤ ص ٢٧ ؛ ابن الأثير: الكامل ١٧١/٣ .

٣٩ الطبري ٣١٣١/١ ؛ ابن الأثير ١٧٨/٣ .

٤٠ الطبري ٣١٥٦/١ .

٤١ الطبري ٣١٣١/١ .

٤٢ نفسه .

إلى معسكرين متحاربين: ربيعة في مقابلة مضر والأزد. ولكن هذا الانقسام لم يبلغ من الحدّة مبلغاً تتقلص معه بعض العوامل الهامة الأخرى التي كانت تعمل في ذات الوقت وانتهت، كما سيتضح لنا، بانقسام كثير من القبائل الكبرى مما زعزع من روح التكاتف الجماعي الذي كان يصل بينها[٤٣] .

وكانت معركة الجمل (٣٦ هـ/٦٥٧ م) البوتقة التي التقت عندها جميع العناصر وتشكل بعدها النموذج المعقد لالتقاء قبائل البصرة وتحالفها الذي استمر خلال العهد الأموي. ففي الوقت الذي كانت القبائل فيه تنحاز لجانب دون الآخر لحسم موضوع عام كأمر الخلافة، كانت تسعى بشتى الطرق والأساليب لتأمين مصالحها الخاصة. وكان الاعتبار الأول في مناصرتها لأي من الجانبين المتنافسين على الخلافة مبلغ الفائدة التي يمكن أن تجنيها ممن تناصره في حالة فوزه بالخلافة. وكان مدى التقلب في انحياز القبائل للأحلاف القائمة تعبيراً صادقاً عن تنافر المصالح للمجموعات المختلفة وتناقضها داخل المدينة .

وانتهت هزيمة عائشة ومناصريها من أهل البصرة بوضع المدينة في يدي عليّ ابن أبي طالب الذي عيّن عبد الله بن عباس والياً عليها. وكانت النتيجة المباشرة للهزيمة هرب بعض العثمانية للجزيرة التي كانت في سلطان معاوية[٤٤] وانحياز عدد كبير من البصريين لعليّ خاصة بني سعد الذين كانوا قد وقفوا قبلها على الحياد[٤٥] . وفي موقعة صِفّين (٣٧ هـ/٦٥٨ م) وقف ممثلو الأخماس البصرية تحت قياداتهم إلى جانب عليّ[٤٦] . وقد خرج القراء – الذين سنسمع عنهم الكثير – من هذه المعركة مجموعة متميزة بقيادة مِسْعَر بن فَدَكي[٤٧] .

٤٣ الطبري ٣١٦٨/١ – ٩ ؛ ٣١٧٨ ، ٣١٧٩ ؛ انظر ص ٢٥ – ٢٨ من هذا الكتاب .

٤٤ صفين ١٦ ، ٣٩ .

٤٥ الطبري ٣٤١٤/١ .

٤٦ الدينوري ١٧٦ ؛ صفين ١٣١ – ٢ .

٤٧ صفين ٢٣٥ ، الطبري ٣٢٨٣/١ .

وكانت معركة صفين وما أعقبها من مهزلة التحكيم وما نجم عنها من مجزرة النهروان التي قتل فيها الخوارج وكان معظمهم من البصرة[٤٨] ، مما أكد اقتناع كثير من العرب أن الصراع الذي كان يدور من أجل الخلافة كان صراعاً لصالح هذا الفريق من قريش أو ذاك. وقد وضح فتور أهل البصرة عامة حيال هذه القضية في تردد وامتناع كلا العثمانية وأنصار عليّ من الانحياز إلى الجانب الذي ناصروه. فلم تنجح نداءآت عليّ المتكررة لأهل البصرة لمدّه بالمحاربين إلّا في جذب ما يقرب من ثلاثة ألف محارب من جملة الستين ألف محارب الذين كانوا بالبصرة كما يذكر ابن عباس والي عليّ على البصرة[٤٩] . وفي عام ٣٨ هـ/٦٥٩ م بعث معاوية عبد الله بن الحضرمي إلى البصرة لإثارة أهلها على عليّ[٥٠] . ومع أن هذه الحادثة انتهت بإحراق ابن الحضرمي[٥١] ، إلّا أن أهميتها الفعلية كانت في تأجيج نار الصراع القبلي وتوسيع شقة الخلاف بين الأطراف المختلفة. فالعثمانية من مضر والأزد كانوا منقسمين في موقفهم حيال ابن الحضرمي : فتخلى عنه بنو قيس من مضر لميل زعيمهم الضحاك بن قيس لعليّ، بينما ناصرته تميم المضرية لأنه لجأ إليهم وطلب منهم الإجارة. أما ربيعة التي كانت تناصر علياً من قبل فقد امتنعت عن نصرة زياد بن أبيه نائب ابن عباس وممثل عليّ لأن زعيم بكر مالك بن مِسْمَع كان يميل إلى بني أمية[٥٢] ، بينما أجارت الأزد – التي كانت مخالفة لعليّ – زياداً لأنه لجأ إليها للإجارة[٥٣] . وناصر بنو سعد – الذين كانوا على الحياد من قبل – الأزد لأن زعيمهم جارِيَة بن قُدَامة رأى في ذلك صلاحهم[٥٤] .

---

٤٨ الطبري ١/٣٣٨٢ : انظر دائرة المعارف الإسلامية مادة الخوارج. وانظر Watt: Integration, 94-104.

٤٩ الطبري ١/٣٣٧٠ – ١ .

٥٠ نفسه ٣٤١٤ .

٥١ نفسه ٣٤١٥ – ٧ .

٥٢ نفسه ٣٤١٤ .

٥٣ نفسه .

٥٤ ابن الأثير ٣/١٥٦ – ٧ ؛ الزهيري ١٧١ – ٢ .

وهكذا انتهت حرب الإسلام الأهلية بتأكيد دور القبائل في الصراع من أجل الخلافة. وبدأ نظرها ينصرف إلى هذا الموضوع من زاوية مصالحها القبلية. وكان انعدام الخط السياسي الواضح الذي يسيطر على جو المدينة ويكسبها ضرباً من التوحد كما كان الحال في الكوفة أو الشام أو الحجاز مما دفع بالبصرة إلى حمأة الصراع وجعل منها مسرحاً للولاءآت المتنافرة أصبح بعده حفظ التوازن بين القبائل داخل المدينة من الصعوبة بمكان عظيم. وقد أدى انشغال أهل البصرة بقضاياهم الداخلية وصراعهم حولها إلى تقليص اشتراكهم الفعال في قضايا العصر الكبرى. وكان التطور الداخلي للمدينة يحدث مشاكله الخاصة، ولكنه كان في نفس الوقت يخلق ظروفاً مواتية لنمو نظرة إقليمية موحدة تتخطى سياج الهيكل القبلي القائم .

العصر الأموي

شهد عهد معاوية ويزيد (٤١ – ٦٤ هـ/٦٦١ – ٦٨٣ م) إقرار السلام والنظام في البصرة بعد فترة ولاية عبد الله بن عامر القصيرة (٤١ ٤٤ هـ/٦٦١ – ٦٦٤ م) التي اتسمت بالفوضى وانتشار الفساد[٥٥] . وخضع المصر في زمن زياد (٤٥ – ٥٣ هـ/ ٦٦٥ – ٦٧٢ م) وابنه عبيد الله (٥٣ – ٦٤ هـ/٦٧٢ – ٦٨٣ م) لإجراءآت إدارية حازمة غايتها وضع حدّ لكل ألوان التمرد والخروج على سلطة الحكومة. وكان هذا يعني في المقام الأول إخضاع القبائل وتقليم أظافرها بمنعها من إحياء عاداتها الصحراوية القديمة في تحدّي السلطات وتجاهل قوانين الدولة. ولم تكن تلك بالمهمة الهينة، وقد كلفت محاولة إدراكها باهظ الأثمان[٥٦] . وكانت خطبة

---

٥٥ الطبري ٦٧/٢ .

٥٦ ابن الأثير ٣٨٤/٣ حيث يذكر أن سَمُرة بن جُنْدَب نائب زياد قتل ثمانية آلاف رجل في ستة أشهر فقال له زياد أتخاف أن تكون قتلت بريئاً. فقال لو قتلت معهم مثلهم ما خشيت. وقال أبو السوّار العدوي قتل سمرة من قومي في غداة واحدة سبعة وأربعين كلهم قد جمع القرآن. وركب سمرة يوماً فلقي أوائل =

زياد بن أبيه الشهيرة[٥٧] دليلاً حياً على مبلغ الفوضى والعجز الإداري التام الذي صارت إليه البصرة منذ واقعة الجمل عام ٣٦ هـ/٦٥٧ م . وقد بدأ زياد بفرض الحظر التام على المدينة واحتكم إلى السيف في حالة كل مخالفة. وقد أتى هذا العنف الإداري أكله مع الزمن. إذ ساعدت فترة العشرين عاماً من الرقابة الإدارية الصارمة على وضع البصرة في طريق التقدم الحضاري من جميع الوجوه. فتطورت المدينة تطوراً عظيماً في السكان والثروة والثقافة. ووجهت المدينة طاقاتها العسكرية المشتركة لحرب الخوارج الذين كانوا يهددون حياتها .

ولكن موت يزيد الأول في عام ٦٤ هـ/٦٨٣ م وما تبعه من أزمة حول الخلافة أطلق كل ما كان حبيساً في قلوب البصريين من غضب وحقد على سياسة الكبت والإرهاب التي كان يسلكها الحكام الأمويون في البصرة. فهرب عبيد الله بن زياد من البصرة، ووقعت المدينة مرة أخرى في أيدي القبائل. وكان مما أضفى على الصراع من أجل السلطة داخل المدينة بعداً جديداً زاده تعقيداً ظهور عامل خارجي هام في ميدان الصراع. فقد بدأ المصر ينجرف بالتدريج إلى حمأة الحزازات القبلية التي كانت تستعر في المشرق. وبدأ الميدان الشرقي الذي يغلب عليه خيرة الجند البصري[٥٨] يسلب البصرة من قدر كبير من حريتها ومقدرتها على أخذ زمام المبادرة في كثير من قضايا العصر. فقد أخذت الحزازات وأوجه الصراع التي كانت تقوم بين القبائل البصرية في خراسان وهي تمثل أغلبية الجيش هناك، تترك آثارها على البصرة، وتفسد العلاقات بين المستقرين من مختلف فروع القبائل. وقد أدى ذلك، كما سيتبين لنا فيما بعد، إلى تقلص الأثر العام لعناصر التحضُّر الأخرى التي كانت تعمل

= خيله رجلاً فقتلوه فمرّ به سمرة وهو يتشحط في دمه فقال ما هذا فقيل أصابه أوائل خيلك فقال إذا سمعتم بنا قد ركبنا فاتقوا أسنتنا .

٥٧ الطبري ٢/٧٣ .

٥٨ الطبري ٢/١٢٩٠ – ١ حيث يذكر أنه كان على أيام قتيبة بن مسلم ٤٠,٠٠٠ من أهل البصرة و ٧,٠٠٠ من أهل الكوفة و ٧,٠٠٠ من الموالي .

في رفق وبطء لإزالة أسباب النزاع بين ساكني المصر. وهكذا أدت الأهمية المتزايدة لأحداث الجبهة الشرقية، والأثر العميق الذي صارت تحدثه على سير الأمور في البصرة، إلى صرف أنظار البصريين مرة أُخرى عن المسائل العامة وتوجيه كل طاقاتهم للانجراف في صراعهم الداخلي. وقد قلل هذا، كما لاحظنا من قبل، من أهمية البصرة كقوة يحسب لها حساب في أي صراع كبير يتعلق بموضوع الخلافة.

وقد دفع بغض أهل البصرة حكم بني أمية معظم الأطراف لمبايعة عبد الله ابن الزبير[٥٩]. وأقروا عبد الله بن الحارث الهاشمي والياً عليهم[٦٠]. ولكن الأحداث في خراسان أخذت تلقي بظلها الكثيف على حياة البصرة في هذه الفترة بالذات. فقد أوقع عبد الله بن خازم السلمي المضري من قيس بربيعة في هرات وهزمهم هزيمة منكرة[٦١]. وقد أحيا ذلك العداوة القديمة بين فرعي عدنان: ربيعة ومضر. وكان ردّ الفعل المباشر لذلك أن حمل البصريون من مضر وربيعة السلاح وتهيأوا للعراك انتصاراً لإخوانهم في خراسان. ولكن قوة مضر وعلى رأسها قبيلة تميم الكبيرة كانت تفوق قوة ربيعة. فاضطرت ربيعة للجوء إلى الأزد طالبة النصرة وتجديد الحلف القديم الذي كان قائماً بينهما في الجاهلية[٦٢]. وهكذا تجدد الحلف بين بكر أكبر فروع ربيعة والأزد، وحاربت قواتهما المشتركة تميماً وأحلافها لمدة تسعة أشهر[٦٣]. وأصبحت مسرحاً للخراب والدمار والسلب والنهب والنيران والفوضى الشاملة. وانتهز الازارقة من الخوارج الذين أُطلقوا من سجون البصرة[٦٤] الفرصة فوجهوا إلى المدينة ضربات عنيفة زادت السوء سوءاً. وذاق جميع الأطراف الأمرين على أيديهم.

---

٥٩ البلاذري: أنساب الأشراف ١٨٨/٥ .
٦٠ الطبري ٤٤٤/٢ ؛ الدينوري ٢٩٢ ؛ النقائض ١١٢ .
٦١ ابن الأثير ١٣٠/٤ ؛ النقائض ٧٢٧ .
٦٢ الطبري ٤٤٩/٢ – ٤٥١ ؛ النقائض ١١٣ ، ٧٢٨ – ٩ .
٦٣ البلاذري: أنساب ٤ ب / ١١٥ .
٦٤ الدينوري ٢٩٢ .

وشغل الناس بأمر الخوارج الذين طغى خطرهم على كل موضوع سواه. وقد كانت حدة هجماتهم المتزايدة التي أصبحت تهدد وجود البصرة كمصر هي التي عجلت بوقف المعارك بين أطراف النزاع في البصرة. وقد ضاعف انتشار وباء عنيف في هذه الفترة من سوء الأحوال[٦٥]. واستنجد أهل البصرة بعبد الله بن الزبير الذي بعث إليهم بالحارث بن عبد الله الملقب بالقُبَاع والياً عليهم[٦٦]. وتمّ الصلح بين الأطراف المتحاربة وتوجهت الجهود لمحاربة الأزارقة، وكان يقود أهل البصرة المهلب بن أبي صفرة. وقد انتهت هزيمة المختار الثقفي في الكوفة عام ٦٧ هـ/٦٨٦ [٦٧] بخضوع كل العراق لسلطان مصعب بن الزبير، بينما وضعت معركة مرج راهط بين كلب اليمنية وقيس المضرية كل الشام تحت إمرة عبد الملك بن مروان ومناصريه من أهل اليمن. وأصبحت المواجهة بين المطالبين بالخلافة من الزبيريين والمروانيين قاب قوسين أو أدنى. وكعادة أهل البصرة لم يكن موقفهم حيال هذه الأحداث موحّداً. ومع أن معظمهم ناصر مصعباً على المختار الثقفي وبايع ابن الزبير، إلّا أن عدداً منهم تنكر لذلك حين دخل خالد بن عبد الله بن أَسِيد البصرة من وراء مصعب يدعو الناس لبني أمية[٦٨]. وقد دخل قبلها بعض كبار رجالات البصرة في مفاوضات سرية مع عبد الملك[٦٩]. ولكن جميع هؤلاء لم يفوا بما عاهدوا عليه بني أمية من تقديم العون للكتيبة الشامية خارج البصرة حين هاجمها مصعب وهزمها في موقعة الجُفْرة عام ٧١ هـ/ ٦٩٠ م[٧٠].

وقد باءت محاولة الأمويين بالفشل لأن خلافات أهل البصرة الداخلية قد

---

٦٥ الطبري ٢/٥٨٠ ؛ البلاذري: أنساب ٤ب/١٢٣ ؛ ابن الأثير ٤/١٧٣ .

٦٦ البلاذري: أنساب ٥/١٨٨ ، ٢٢٠ .

٦٧ الدينوري ٣١٢ – ١٤ .

٦٨ الطبري ٢/٧٩٩ ؛ البلاذري: أنساب ٤ب/١٥٥ .

٦٩ البلاذري: أنساب ٥/٢٨٠ .

٧٠ الطبري ٢/٨٠٠ ؛ ابن الأثير ٤/٢٣٥ ؛ البلاذري: أنساب ٤ب/١٦٠ – ١ .

طغت على موضوع النزاع الأصلي. إذ وقف التميميون يناصرون عَبَّاد بن الحُصَيْن التميمي الذي كان قائماً على شرطة ابن معمر نائب مصعب في البصرة. وناصر الربعيون والأزد مالك بن مِسْمَع زعيم بكر الربعية الذي أجار خالد بن أَسِيد مبعوث بني أمية. واستمر القتال بين الطرفين أربعين يوماً قبل أن يتفقا على إبعاد خالد من البصرة كحل وسط للنزاع[٧١]. ومن المهم أن نلاحظ هنا أن القيسيين لم يناصروا حليفتهم المضرية تميم كما فعلوا من قبل أيام فتنة عام ٦٤ هـ حين وقفوا بجانبها يحاربون قوات ربيعة والأزد مشتركة. وقد جاء هذا الانقسام في الصف المضري بالبصرة نتيجة لما كان يحدث في خراسان من صدام. وقد تحكمت نفس العوامل الأولى التي أحدثت انقسام أهل البصرة إلى معسكرين كبيرين متنازعين في الموقف مرة أخرى، وأحدثت انقساماً كبيراً في المعسكر المضري. فنفس عبد الله بن خازم القيسي الذي تسبب في إحداث الهزة الأولى عاد مرة أخرى يهاجم حلفاءه السابقين من تميم الذين ردّوا الصاع بقتله[٧٢]. وهكذا ازداد الموقف السياسي في البصرة تعقيداً من جراء الحدث الجلل. ومنذ هذه اللحظة يصبح الصراع الداخلي صراعاً بين أربع مجموعات هي القيسية والتميمية والربعية واليمنية. وذلك أدق تعقيداً مما كان عليه وضع السياسة الأموية عامة التي كانت تقوم على الصراع بين المعسكرين الكبيرين: عرب الجنوب من اليمنية الذين تمثلهم كلب، وعرب الشمال من العدنانية الذين تمثلهم قيس عيلان.

وقد انتهت هزيمة مصعب ومقتله عام ٧٢ هـ/٦٩١ م بوضع البصرة مرة أخرى في قبضة الأمويين الذين استغلوا الخلافات القبلية لصالحهم. وقد وجدت سياستهم في التمكين لسلطانهم بتشجيع الصراع القبلي وضرب الناس بعضهم بعضاً تربة خصبة في البصرة كما نتبين من سير الأمور في ولاية بشر بن مروان القصيرة المدى

---

٧١ ابن الأثير ٢٥٢/٤ – ٣ .

٧٢ ابن الأثير : الكامل ١٧١/٤ – ٣ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢٨٢ ؛ الزهيري ١٧٨ .

(٧٤ هـ/٦٩٣ م). وفي هذه الأثناء كانت هجمات الخوارج تزداد عنفاً وتقلق بال الحاكمين والمحكومين على السواء. وكان المهلب يعاني من نقص الرجال والعتاد لغيرة بشر بن مروان وسعيه الحثيث لإبطال مسعاه وفضح قومه آل المهلب[٧٣]. ونزل موت بشر عام ٧٤ هـ/٦٩٣ م برداً وسلاماً على جند البصرة الذين كانوا يحاربون الخوارج فتسللوا من ميادين القتال إلى البصرة. وبلغ الخطر مبلغاً دعا إلى اجراءآت الكبت والعنف التي طبقها الحجاج (٧٥ – ٩٥ هـ/٦٩٥ – ٧١٤ م) الذي خلف بشراً وقد فعلت خطب الحجاج العنيفة وقتله بعض من تلكأ فعلها في نفوس الناس « ففزع أهل البصرة فخرجوا حتى تداكّوا على العارض بقنطرة رامَهُرْمُز ، فقال المهلب جاء الناس رجل ذكر » فيما يروي الطبري[٧٤]. وقاد الحجاج نفسه كتيبة يحمي بها ظهر المهلب ولكن منعه الزيادة التي زادها ابن الزبير في أعطيات الناس ، والتي أقرها مصعب[٧٥] ، أثارت عليه ثائرة أهل البصرة ، فخرج عليه عبد الله ابن الجارود من عبد القيس في جماعة من وجوه القوم. وأصبح الحجاج على شفا الهلاك ، فتدخلت عصبية قومه قيس في الوقت المناسب ، وانقذته من موت محقق. وأعلنوا أنهم لن يدعوا قيسياً يقتل ويسلب[٧٦] ، وقد أعطى ذلك الحجاج الفرصة لتنظيم قواته واضعاف معارضيه وهزيمتهم وقتل زعمائهم[٧٧]. وكانت هذه الثورة في جوهرها انعكاساً للتنافس القبلي. فقد رأت ربيعة والأزد في تولية الحجاج انتصاراً لمضر ، بينما رأت فيه تميم انتصاراً لقيس. وقد كان لهذه الشكوك والمخاوف ما يبررها ، إذ لم يمض من الزمن إلّا القليل حتى دلّل الحجاج على تحيزه لقومه وتفضيله إياهم على الآخرين[٧٨]. وقد أصبح جلياً أنه لا يمكن المحافظة على سلطة

---

٧٣ شارل بلا ٢٧٠ ، Wellhausen: Arab Kingdom, 227-8

٧٤ الطبري ٢/٨٧٣ – ٤ .

٧٥ نفسه

٧٦ ابن الأثير ٤/٣١١ .

٧٧ الطبري ٢/٨٧٣ – ٤ ؛ ابن الأثير ٤/٣١٢ – ٤ .

٧٨ انظر المبرد: الكامل (المرصفي) ٣/١٧٩ – ١٨٠ لمثال على هذه العصبية المضرية .

الدولة إلّا عن طريق سند قبلي قوي .

وقد أدت سياسة العنف التي سلكها الحجاج وما نجم عنها من هزات اجتماعية ودينية إلى جانب تفضيله قيساً إلى ثورة عبد الرحمن بن الاشعث عام ٨١ هـ/٧٠١ م وبهزيمته سيطرت قيس على كل العراق والمشرق سيطرة تامة. وبادر الحجاج بتنحية يزيد بن المهلب اليمني من خراسان ووضع قتيبة بن مسلم الباهلي القيسي في مكانه. وتعرّض لآل المهلب بالتعذيب والسجن حتى عام ٩٠ هـ/٧٠٩ م، حين هربوا من سجنه واستجاروا بسليمان بن عبد الملك حاكم فلسطين حينذاك. وشفع لهم سليمان عند الخليفة الوليد فعفى عنهم[٧٩] ، وفي هذه الأثناء بنى الحجاج عاصمته في واسط بين البصرة والكوفة[٨٠] . ومن هناك أخضعت الحامية الشامية المقيمة كل المناطق التي كانت تحت سلطانه إلى أن توفي عام ٩٥ هـ/٧١٤ م.

وانتهت السياسة الأموية بأن أصبح الخلفاء في أواخر عهدهم رؤساء لأحزاب بعينها أكثر منهم خلفاء لامبراطورية موحدة[٨١] . فاعتلاء سليمان عرش بني أمية عام ٩٦ هـ/٧١٥ م أحدث انقلاباً تاماً في سياسة الدولة، إذ كان انتصاراً للحزب اليمني على الحزب القيسي. وأحدث هذا آثاره البعيدة على العراق وخراسان، وكان من نتائجه أفول نجم قيس التي دامت سيطرتها لأكثر من عشرين عاماً. فقتلت قوات اليمن وربيعة وتميم مشتركة قتيبة بن مسلم في خراسان[٨٢] ، وأعيد يزيد بن المهلب والياً على العراق[٨٣] ، ثم على خراسان عام ٩٧ هـ/٧١٦ م .

وما كان لجهود عمر بن عبد العزيز الذي جاء عام ٩٩ هـ/٧١٧ لإصلاح

---

٧٩ ابن الأثير ٤/٢٠٧ ، ٢١٥ ، ٢٢٣ .

٨٠ الطبري ٢/١١٢٥ – ٦ .

٨١ انظر Hitti: History of the Arabs, 281

٨٢ الطبري ٢/١٢٨٩ – ٩٨ .

٨٣ نفسه ١٣٠٥ .

الحال وبث دماء جديدة في الجسد المتصلب، أن يكتب لها النجاح إذ كان الفساد قد استشرى بحيث لا يرجى صلاحه. فسجن يزيد بن المهلب، وجهد في صد تيار المد القبلي الجارف، ولكن دون جدوى. وبوفاته المبكرة عام ١٠١ هـ/٧١٩ – ٧٢٠ م صعد يزيد بن عبد الملك إلى العرش، وكانت أمه مضرية متعصبة لقومها، وتحت تأثيرها احتضن الحزب القيسي. وفي هذه الأثناء تكهن يزيد بن المهلب بما تدبره له الأيام وما يكنه له الخليفة الجديد، فأفلت من سجنه وهرب إلى العراق، وحاول الاستيلاء على البصرة أمام مقاومة عنيفة من قيس وتميم. وأزالت هزيمته على يدي مَسْلَمة بن عبد الملك خطر انتصار يمني في شرق الامبراطورية، وهو خطر حقيقي دفع بالأطراف المتناحرة من قيس وتميم لتسوية خلافاتها لمواجهة العدو المشترك. ولكن العلاقات بينها عادت إلى ما كانت عليه من شحناء حين عيّن يزيد بن عبد الملك عمر بن هبيرة وهو قيسي من فزارة والياً على العراق. وبانتقال هشام بن عبد الملك عام ١٠٥ هـ/٧٢٣ م إلى المحور اليمني تبلور الصراع واحتدّ بين معسكري عدنان وقحطان. وعزل هشام عمر بن هبيرة عن العراق وولى بدله خالد بن عبد الله القسري من اليمن والياً على العراق، وعلى خراسان عام ١٠٦ هـ/ ٧٢٤ م[٨٤]. وكان القسري متعصباً على مضر. فسجن سلفه القيسي ابن هبيرة والشاعر التميمي الفرزدق، وقتل عمر بن يزيد الأُسَيْدي[٨٥]، واضطهد أخوه أسد الكثيرين منهم بخراسان. وأمام هذا الخطر المشترك التقت قيس وتميم مرة أخرى في معسكر مضري واحد لمواجهة اليمن وربيعة. وهذا يفسر لنا تصرف شاعر كالفرزدق حين مدح ابن هبيرة عندما هرب من السجن، وكان قد تعرض له بالهجاء قبلها[٨٦]، وتصرف قيس التي استعطفت هشاماً ليطلق سراح الفرزدق. واتحد الطرفان في الشكوى من سياسة الكبت والإرهاب التي سار عليها القسري اليمني. واستجاب

---

٨٤ الطبري ١٤٨٤/٢ .

٨٥ نفسه ١٤٩٥ .

٨٦ نفسه ١٤٩٧ – ٨ ؛ ابن الأثير ٥٦/٥ .

هشام لذلك بعزل خالد القسري عن خراسان، ولكن المضريين واصلوا سعيهم حتى عزلوه عن العراق أيضاً عام ١٢٠ هـ/٧٣٨ م. واستعادت مضر مركزها القيادي بتعيين يوسف بن عمر الثقفي (١٢٠ - ١٢٦ هـ/٧٣٨ - ٧٤٤ م) والياً على العراق[٨٧] ، ونصر بن سيَّار والياً على خراسان .

وهذا التحول الكبير في ميزان القوى الذي جعل من المناطق الغنية إلى الشرق المركز الفعلي للنشاط السياسي مما قلص من نفوذ البصرة وقصر دورها في توجيه الأحداث على مجرد ترديد صدى المعارك البعيدة، لم يكن يخلو من آثاره الحميدة على تطور الحياة الحضرية في المصر[٨٨] .

---

٨٧ نفسه ١٦٥٨/٢ ، ١٧١٧ ، ١٧٢٥ ؛ ابن الأثير ١٦٣/٥ ؛ الزهيري ١٨٢ - ٣ .

٨٨ انظر عن الحالة السياسية الزهيري ١٦٩ - ١٨٤ .

الفصل الثاني

الحياة الاجتماعية

لقد وضح من عرضنا العام للتيارات السياسية التي تعاورت على حياة الجماعة بالبصرة مدى التعقيد والمصاعب التي صاحبت تطور المصر ولازمت تقدمه الاجتماعي. ولكن ذلك لا يؤخذ بمعزل عن التطور العام في المدينة، وإلّا خرج الباحث بصورة قاتمة من صور الاضطراب العام والفساد لا تتفق وواقع الحال. ولكي توضع الصورة في إطارها الصحيح لا بد من اعتبار العناصر الأخرى التي أسهمت في نمو المدينة المطرد رغم كل القوى التي كانت تقف في سبيل تطورها كمركز حضري .

القبيلة في إطار حضري

وكانت عناصر البداوة والقبلية التي ظلت تعمل لهدم أسس الحياة المدنية تصطرع مع قوى أخرى خفية تعمل من جانبها لإحداث التفاهم والانسجام داخل المصر ، وكان نفوذ هذه القوى التقليدية يتقلص مع الزمن بازدياد التحضر والاستقرار. وقد تضخم عدد السكان الذين كان يكفيهم في بداية أمرهم لحم جزور واحد[1] ، وتكاثروا مع توسع الفتوحات. وفي مدى عشرين عاماً بلغ عدد من أُدرجوا في الديوان ما يقرب من الستين ألفاً عدا النساء والأطفال والموالي والعبيد[2] . وإذا استثنينا

---

١ ياقوت ٦٤١/١ .

٢ الطبري ٣٣٧٠/١ .

قلة من وجهاء القوم كصحابة الرسول وبعض كبار الشخصيات، فإن الغالبية العظمى من هؤلاء قد هاجروا مع قبائلهم، واستقروا في المصر على أساس انتمائهم القبلي كما لاحظنا من قبل .

وقد لاحظنا من قبل غلبة العنصر العدناني البدوي الذي كان شديد التمسك بعاداته البدوية وعصبيته القبلية، وفي هذا مفارقة كبيرة لما كان عليه الوضع في الكوفة حيث كانت أغلبية القوم من القبائل اليمنية الأصل التي ألفت إلى حدّ ما فكرة الخضوع المنظم للسلطة بحكم موروثها القديم[٣] .

وقد أشرنا إلى انه رغم تخطيط المدينة على أساس الأحياء القبلية فقد وضعت السلطات الإدارية في يد حاكم المصر الذي كان مسئولاً للحكومة المركزية . وكانت الأخماس ذاتها نتيجة حتمية للظروف السائدة في المصر آنذاك. وكان للاعتبارات الإدارية والعسكرية أكبر نصيب في نشأتها. إذ كانت من بعض الوجوه وحدات إدارية، مثل أسباع الكوفة، وعلى أساسها أيضاً قامت الوحدات العسكرية. وكان على العرب تطويع نظمهم البدوية لظروف الحياة المستقرة في المدينة. وكان نظام «العشيرة» القديم أداة صالحة للتطبيق العملي من الوجهة الإدارية والسياسية. وقد تعدل بما يناسب المفاهيم الإسلامية العامة وطبّق في المصر . فلأفراد العشيرة المساواة في الحقوق والواجبات أمام القانون، فهم على سبيل المثال يرثون من لا وريث له من أفراد عشيرتهم، ويدفعون الدية عن أي فرد منهم ارتكب جريمة قتل غير متعمّد. ولكن هذه المسئولية لا تتعدى أفراد العشيرة المدرجة أسماؤهم في ديوان الأعطيات بالمصر[٤]. وكان معنى ذلك في واقع الأمر انفصال هؤلاء عن إخوانهم في الصحراء الذين ينتمون إلى نفس العشيرة[٥] . ونسبة لأن هجرة العشائر

---

٣ ماسينون: خطط الكوفة ١٢ – ١٣ .

٤ انظر الشيباني: الجامع الكبير ٢٠٩ – ٢١٠ ؛ أبو يوسف: آثار ٢٢١ ؛ صالح العلي ٣٠ .

٥ ابن سلام: الأموال ٢٢٧ ؛ Wellhausen, Skizzen, iv, 25

والقبائل لم تكن منظمة فلم تتخذ هذه الوحدات في البداية أساساً لتوزيع الأعطيات وكان التفاوت في عدد أفراد العشائر المختلفة الناجم عن اضطراب الهجرات داعياً لاتخاذ نظام العرافات أساساً لتوزيع الأموال. فيوكل لكل عرافة قدر من المال لتوزيعه على مستحقيه. وكانت الأموال تُسلَّم لرؤساء الأخماس (أو الأسباع في الكوفة) ومن ثمَّ يسلمها هؤلاء للعرفاء ومساعديهم للتوزيع[٦]. وقد أدى هذا بالضرورة إلى تقسيم القبائل الكبيرة إلى وحدات صغيرة تلبية للحاجات الإدارية لتوزيع الدخل.

وكانت الفوضى التي أعقبت موت عثمان قد بلغت درجة كادت تعطل سير الفتوحات وحالت دون انثيال الأموال من المناطق الشرقية إلى البصرة. وقد أعاد زياد تنظيم الإدارة في المصر بأن جعل العشيرة هي الوحدة فيما يتعلق بتوزيع الأموال، وعيّن عريفاً مسئولاً عن توزيع العطاء لكل عشيرة، فطابق بذلك ما بين النظام المالي والنظام الاجتماعي القائم على العشيرة والقبيلة. وكان العرفاء مسئولين عن التجنيد إن دعا الحال[٧]، إلى جانب مسئولياتهم المالية، وقد أكسبهم وضعهم كعمال للحكومة مركزاً قوياً في قومهم[٨].

وقد خلق نظام الديوان ضرباً من الوحدة بين قبائل العرب التي كانت تنال أعطيات متساوية في عمومها من الدولة، ولكنه لم يكن يشمل في حكمه الكثرة الغالبة من غير العرب والعرب الذين لم تدوّن أسماؤهم في الديوان[٩]. وكان على أهل العطاء الخدمة في الجيش، وكانت العشيرة وحدة التجنيد، وعليها تقديم العدد المطلوب من المحاربين عند اللزوم. وهكذا أصبحت العشيرة أصغر وحدة حربية

---

٦ الطبري ٢٤٩٦/١ ؛ العلي ٩٨ – ٩ .

٧ الطبري ٨٦٦/٢ ، ٨٧٠ ، ٩٠٢ ؛ انظر العلي ٣٧ وما بعدها .

٨ ابن سعد: الطبقات ٢٩٣/٥ .

٩ الطبري ٢٤١٤/١ حيث قال عمر «الفيء لأهل هؤلاء الأمصار ولمن لحق بهم وأعانهم وأقام معهم ولم يفرض لغيرهم» .

في الجيش. وقد أملت الاعتبارات الحربية تجميع هذه العشائر في مجموعات أكبر يصل بينها النسب المشترك[١٠] ، كما ظهر في واقعة الجمل حيث برزت ثلاث مجموعات كبيرة هي تميم وبكر والأزد[١١] وكانت كل مجموعة ثلاث بطون على رأس كل بطن قائد .

وكان التنظيم الجديد الذي أجراه زياد ينبني على تقسيم البصرة إلى أخماس يشمل كل منها مجموعة من البطون والعشائر لكل منها رئيسها الذي تحدّدت مسئولياته. ولكن سلطة القبيلة الأم لم تكن في كل الأحوال غالبة على فروعها التي ظلت تشكل الوحدات الأساسية في النظام الاجتماعي والمالي والإداري، وظل أفرادها ينتمون في أنسابهم وأسمائهم إلى جدهم القريب المشترك لا إلى أصلهم القبلي البعيد. وكثيراً ما أدت الخلافات والمشاحنات بين هذه الفروع القبلية المتنافسة التي تنتسب إلى أصل واحد إلى إضعاف تضامن المعسكر القبلي الأم، كما حدث لتميم حين انشقت إلى ثلاث فرق في واقعة الجمل[١٢] . ولكن التجمع القبلي كان، كما اتضح من تحليلنا السياسي، ذا أهمية خاصة في المعارك الكبرى لقدرة التجمع الكبير على حماية أفراده وفعاليته في الدفاع عنهم مما لا يتيسر للفروع الصغيرة متفرقة. وفوق ذلك كان التعامل مع ممثلي التجمعات الكبرى أيسر وأكثر فعالية بالنسبة للحكومة القائمة .

وقد لاحظنا من قبل كيف أضعف نظام الديوان روح النضامن القبلي حين قصر العطاء على بعض العرب دون الآخرين. وقد استدعى هذا النظام تدوين من كان في خدمة الجيش الفعلية دون سواهم. وكان العدد الفعلي لمن في الديوان خاضعاً للحاجة إلى المزيد من الجند، وكانت هذه الحاجة خاضعة بدورها للجهود

---

١٠ Wellhausen: Skizzen, IV, 27.

١١ الطبري ٣١٦٩/١ ، ٣١٧٩ ، ٣٣١١ .

١٢ نفسه ٣١٧٩ .

التي يحتاجها الموقف في ميادين القتال[١٣]. وكان لا مناص من أن تجد الأعداد المتزايدة من المهاجرين الجدد أنفسها خارج إطار السلطة الفعلية للعشيرة أو الفرع القبلي. إذ كل ما قل الدخل عن استيعاب الزيادة المطردة في السكان قلَّ عدد أصحاب الأُعطيات في الديوان، الذي هو روح الدولة ومصدر فعاليتها. وبذلك انصرف كثير من سكان البصرة إلى كسب أرزاقهم عن طريق التجارة وما إليها. وكانت طبيعة كثير من المهن التي امتهنوها تحتّم عليهم إقامة علاقات جديدة مبنية على المصالح المشتركة بينهم وبين أناس آخرين لا يمتون إليهم بصلة رحم، أو تربطهم بهم علاقة دم. وكان نمو مثل هذه العلاقات الحضرية كفيلاً بدفع الكثيرين من ساكني المصر للتخلص من كثير من رواسب حياتهم القبلية.

نمو الجهاز الاداري :

كانت الحياة المدنية وما تتطلبه من ضوابط والتزامات كفيلة باحداث أعمق التغييرات في حياة القبائل العربية التي استقرت في المصر وفي علاقاتها العامة، فقد أدى ربط النظام القبلي عامة بالجهاز الإداري للدولة بالضرورة إلى تدهور واضح في سلطة القبائل ومراكزها. فاستقرار هذه القبائل في المصر وخضوعها لسلطة الأمير الحاكم الذي لم يكن يستمد سلطانه من علاقة الدم التي تربطه بالآخرين أضعف من فعاليتها السياسية، وقلّل من شأن الرابطة التي كانت تقوم بين أفرادها على أساس صلة الدم والقربى. وكان نفوذ الأمير الذي كان يشمل كل المصر ويتعداه في بعض الأحيان، مما قلص من دائرة نفوذ الزعماء القبليين الذين كانوا في معظم

---

١٣ «كان يضاف بين آونة وأخرى إلى أهل العطاء عدد ممن لم يكن يأخذونه وخاصة عندما يكون الدخل وافراً وبيت المال قادراً على الدفع أو عندما تشتد الحاجة إلى المقاتلة. وكانت هذه الاضافات تحدث بكثرة أولاً للفتوح. ثم حدثت في زمن زياد عندما نقل ٤٠ ألفاً إلى خراسان. والراجح أن الدولة لم تجبر الناس على أن يكونوا من أهل العطاء وإنما كانت تتطلب ممن يأخذ العطاء أن يسكن المصر وأن يلبي الدعوة إذا ضرب عليه البعث» صالح العلي ١٤١ - ٢ .

الأحوال يخضعون في توليهم مناصبهم للحكومة المركزية[١٤]. وهكذا صارت الزيادة المطردة في سلطة الأمير على حساب القبائل التي فقدت بالتدريج حريتها على الحركـة .

وكانت مهمة الأمير في حفظ الأمن والنظام داخل المصر مهمة بالغة الصعوبة في البداية، لجموح المتبدين من الأعراب وتمسكهم بعاداتهم الرعوية. وكلما زادت سلطاته واكتسب الفعالية اللازمة أصبح مركز القوة الحقيقية التي يدين لها الجميع بالولاء. وقد دفعت سيطرته على النظام المالي ونفوذه على زعماء القبائل بهؤلاء الزعماء للتنافس فيما بينهم ليكسبوا رضاه ولينالوا بالتالي قدراً أكبر من السلطة على قبائلهم من جراء ذلك. وقد أدى ذلك بالضرورة إلى اضعاف قوتهم الفعلية وتبديد ما كان لهم من أهمية. وما كان من الممكن للمجتمع البدوي أن يحافظ بصرامة ولمدى طويل من الزمن على التوازن بين نظمه الموروثة وسلطة الأمير الصاعدة التي لا تقهر[١٥]. وكان نمو المصر يدعو لإقامة جهاز إداري يتطلب استخدام الموظفين لإدارته . وكان معظم هؤلاء يعينون في البداية من غير العرب، ولم تكن لهم بالتالي قبائل تحميهم، ومن ثَمَّ كان ولاؤهم للأمير وحده، وكان ذلك مما دعّم من سلطة الأمير. وكانت الشرطة من الأدوات الهامة التي اعتمد عليها الأمير لتركيز سلطانه. ولعلّ من أقدم الشواهد على ذلك السيابجة الأربعمائة الذين أوكل إليهم حراسة بيت المال والسجن منذ أيام أبي موسى الأشعري[١٦] . وقد انشأ زياد حرساً من خمسمائة يقوم عليه اثنان من كبار رجالات العرب[١٧] . وكان للعرفاء دورهم الكبير في تنفيذ أوامر الأمير. وكان رؤساء الأخماس خاضعين لسلطته[١٨] ، وما تبقى لهم من نفوذ

١٤ الجاحظ: البيان ١/٢٠٠ – ١ ، ٣/٧٤ : ابن عبد ربه: العقد الفريد ١/٢٩٦ .

١٥ البلاذري: أنساب ٤ب/٢٩ .

١٦ الطبري ١/٣١٢٥ .

١٧ نفسه ٢/٧٩ .

١٨ البلاذري: أنساب ٤ب/٧٩ .

لم يكن يتعدى دائرة قبائلهم .

وكان أوائل الأمراء يتولون قيادة الجيوش بأنفسهم، ولكنهم مع توسع الفتوح، وازدياد المسئوليات الإدارية، صاروا يتخلون بالتدريج عن هذه المهمة، ويكلونها إلى رجال بارزين يتم تعيينهم بقدر كفاءتهم الشخصية ومركزهم في قبائلهم . وكان هذا مما دفع بمثل هؤلاء الرجال للاهتمام الخاص بمصالح قبائلهم التي يستمدون منها بعض نفوذهم. وباكتمال بناء الامبراطورية وتقلص الفتوح كانت حاجة الدولة للإداريين الأكفاء لضبط الأمور في البلاد المفتوحة أكثر منها للقادة العسكريين وكانت القدرة الإدارية على وجه العموم أهم في الاعتبار من السند القبلي الذي يتمتع به الشخص المعني. وكانت الفوائد والامتيازات التي تضفيها هذه الوظائف على محتليها عظيمة وجلية[١٩]. ولم يكن السبيل لحيازتها سبيل العشائر أو القبائل بل كان سبيل الأمير. وقد عظَّم هذا من شأن الأمير وأمدّه بقوة جديدة وأصبح كل من يتطلع لملء منصب من المناصب الإدارية مثل العامل أو العريف أو القاضي أو سواها في حاجة للاتصال الوثيق بحاشية الأمير أو بطانته. وقد بلغ من قوة هذا الاتجاه أن كتب زياد ابن أبيه خمسمائة من شيوخ البصرة في الديوان في صحابتهم ورزقهم ما بين الثلاثمائة والخمسمائة دينار[٢٠]، زيادة على أعطياتهم في أغلب الظن. واستعان بعدة من أصحاب رسول الله ولاهم بعض المناصب[٢١] .

وكل ذلك مما زاد من عدد الرجال البارزين الذين أصبحت مصالحهم الشخصية تزداد ارتباطاً بمصالح الأمير وإدارته. وكانت قوة هذه الفئة الإدارية الحاكمة تزداد مع الزمن، وتطغى على المجتمع القبلي وغيره من الفئات التي كانت تفقد

---

١٩ صار الناس يتندرون في أيام زياد بقولهم «حبذا الإمارة ولو على الحجارة» فتوح ٣٩٠ .

٢٠ الطبري ٢/٧٨ .

٢١ نفسه ٢/٧٩ .

نفوذها بالتدريج. ولم تعد هذه العناصر ذات وزن كبير إلّا في أوقات الأزمات والفوضى حين يتفرط عقد النظام، وتتخلى قبضة الإدارة الحديدية عن السيطرة، وعندها تجد هذه العناصر فرصتها في فرض وجودهـــا عن طريـــق الثورة والصدام والتمرد .

وقد بلغت قوة الأمير وفعالية جهاز أمنه مرتبة في أيام زياد وابنه عبيد الله (٤١ – ٦٤ هـ/٦٦١ – ٦٨٤ م) والحجاج (٧٥ – ٩٥ هـ/٦٩٥ – ٧١٤ م) لم يعد معها مجال لنقد السياسة الرسمية إلّا عن طريق العنف كما تشهد بذلك ثورات المجموعات المختلفة من خوارج وشيعة وسواهما. وقد استعان الحكام في سبيل تدعيم سلطتهم بكل وسائل الترغيب والترهيب. فاستغلوا الشعراء والقُصّاص[٢٢] في الدعاية لآرائهم وهجاء خصومهم. وكان التوسع في شعر المديح استجابة لحاجة حقيقية في المجتمع. ولجأ الحكام للتهديد[٢٣] والسجن الذي يرى فيه العرب عاراً، والنفي[٢٤] وغير ذلك من صنوف القهر لكسر حدّة المقاومة في المصر .

ومما يجدر ذكره هنا أن حماسة الخوارج في مجموعاتهم المختلفة للخروج على حكم بني أُميّة أصابت البصرة بأضرار بالغة. فأوقفت هجماتهم المتصلة حركة التجارة وعرضت حياة المواطنين للخطر والهلاك. وتساوى في التأثر بذلك أغنياء الناس وفقراؤهم. ومهد هذا الخطر الخارجي السبيل لجمع شتات الفرق المتدابرة في كثير من المناسبات، مما قوى من سلطة الدولة .

---

٢٢ انظر Goldziher Memorial Volume, Pederson, "Qussas", i, 233 (Budapest, 1948); والمقريزي: الخطط ٢/٢٥٣ ؛ بلا ١٠٨ – ١١٠ .

٢٣ البلاذري: أنساب ٤ب/٨٩ .

٢٤ ابن سعد: الطبقات ١/٧ ص ٧٧ ، ٧٩ .

أثر البادية وخراسان

وكان هناك عنصر آخر يزيد هذه الصورة تعقيداً. فلم تكن الحياة في المصر، منبتة الصلة بصحراء البصرة، حيث ظلت الحياة تسير على وتيرتها السابقة غير متأثرة إلّا في أضعف الحدود بمؤثرات الحضارة المنبثقة من حياة المدينة. فاستمرت أجزاء كبيرة من القبائل التي استقر بعضها بالمصر تجوب الصحراء طلباً للماء والكلأ. وقلما تأثر أسلوب حياتها بالهزة التي أحدثها الدين الجديد. فظلوا على تمسكهم بعاداتهم الجاهلية لا يردعهم عنها أي سلطة رسمية فعالة. وإذا استثنينا السعاة الذين يأتون إليهم في فترات معينة من السنة لجمع الضرائب والزكوات فإنهم نادراً ما يحسون بالوجود الرسمي في حياتهم[٢٥] .

ولكن هؤلاء البدو كانوا على صلة بالمصر من عدة وجوه. فقد كان نشاط المدينة التجاري يجذب جمهرتهم، وكان سوق المربد الشهير الذي يقوم بتلبية حاجياتهم شاهداً حياً على الدور الهام الذي كانوا يضطلعون به في حياة المدينة التجارية. وكان لهم أقاربهم واخوانهم من أفراد قبائلهم الذين يقيمون بالمصر. وفوق ذلك كانوا مصدراً لا ينضب لمد الجيش بالمحاربين. وكانوا في أوقات الأزمات حين تضعف سلطة الدولة كثيراً ما يزحمون صفوف من ينتمون إلى قبائلهم من سكان المصر ويشتركون معهم في قتالهم[٢٦]. وكان مردّ كثير من موجات العنف

---

٢٥ انظر كامل المبرد (المرصفي) ٢/١٣٠ لرواية عن شيخ من العرب لم يكن على علم بموت الخليفة عمر ابن الخطاب في فترة ما بعد عام ٦٥ هـ ، وانظر الحماسة (تحقيق فريتاق) ٨٠٠ لرواية عن بدوي لم يكن قد سمع بالأذان قبل حضوره للبصرة .

٢٦ الكامل للمبرد ٢/١٢٩ حيث يتحدث عن أعراب تميم الذين ردفوا تميم البصرة في واقعة المربد بعد موت يزيد بن معاوية. انظر أيضاً الطبري ١/٣٠٨٠ حيث يذكر الأعراب في معرض الحديث عن مقتل عثمان. وانظر كامل المبرد ٢/١٢٤ لرواية عن حرب بدأت في البادية ثم انتقلت إلى البصرة .

والفوضى التي تلم بالبصرة وتهدد وجودها إلى تكاثر أعدادهم في المصر بدرجة تفوق حدود الديوان ومقدرته على استيعابهم. وكان تغول هذا العنصر البدوي على حياة البصرة المدنية كثيراً ما أضعف من فعالية العوامل الأخرى التي ذكرناها في معرض الحديث عن عناصر الاستقرار .

وكان مما يضاعف من أثر شد الصحراء وجذبها على حياة المصر أثر خراسان البعيدة. وقد نبهنا من قبل إلى النتائج السياسية والاجتماعية المترتبة على ذلك. وذكرنا أن الأعداد الكبيرة من جند البصرة الذين استقروا في حاميات الشرق ومعسكراته أصبحوا نهباً للتمزق والفرقة من جراء التنافس القبلي والعصبية. وكانت خدمة الجيش، التي تضع اهتماماً خاصاً للانتساب القبلي، مما غذى من روح العصبية القبلية. وكانت الظروف القاسية التي وجد فيها هؤلاء العرب أنفسهم تدفع بهم تدريجياً إلى التخلي عن كثير من الروابط والصلات التي اكتسبوها من إقامتهم بالبصرة. وقد تلاشت في هذه الأصقاع كل عوامل التحضر التي أثرت على حياتهم بالمصر وخففت آنذاك من آثار الاحتكاك القبلي. وحلّت محلّها ظروف جديدة شبيهة بظروف حياتهم في الجاهلية من ناحية التحلل من إسار السيطرة الرسمية والحرية على الحركة وشن الغارات[٢٧] . وكان إغراء الثروات الضخمة التي تنتظرهم وشعورهم بقوتهم الذاتية وبعدهم عن سيطرة الدولة المباشرة، مما غذّى من روح التكاتف القبلي ورشحه ليصبح من أكثر السبل فعالية لضمان المساندة وتأكيد الحماية في هذه المناطق القاسية. وقد رأينا أن معظم الأموال التي تنهمر على البصرة كانت نتيجة مباشرة لجهد هؤلاء الرجال، وهذا يفسّر إلى حدّ كبير الأثر القوي الذي كان لأحداث الشرق على حياة البصرة اليومية .

٢٧ انظر الطبري ١٣٠١/٢ حيث أورد قصة وكيع بن أبي سود التميمي الذي أمر بضرب عنق رجل سكران فقالوا له إن السكران ليس عليه القتل وإنما عليه الحد، فأجابهم «لا أعاقب بالسياط ولكني أعاقب بالسيف» كما يجري بذلك العرف الجاهلي .

وفي بعض الأحيان كان يبدو وكأن أثر هؤلاء الأعراب القريبين والبعيدين على حياة البصرة السياسية والاجتماعية يفوق أثر المجموعة المستقرة المتحضرة، التي كثيراً ما وجدت نفسها أسيرة الصدام بين اتجاهي البداوة والحضارة والمتناقضين. والواقع أنه يمكن اعتبار تاريخ البصرة العاصف خلال العصر الأموي صراعاً متصلاً بين هذين الاتجاهين. وكثيراً ما كان هذا الصراع يتشكل بالظروف المحيطة، وكانت نتائجه لذلك شديدة التعقيد، مستعصية على الفهم، لتشابك القوى المصطرعة وتعددها وتباين مصادرها في الداخل والخارج. وكان هذا التناقض الظاهري يتجلى في وضع المدينة الغريب. ففي الوقت الذي كانت فيه مسرحاً للصدام والثورة كانت تنتظمها تيارات ثقافية قوية دينية وأدبية تزداد قوة مع الزمن وتشكل حياة المصر وتدفعها باطراد في سبيل التحضر والرقيّ.

القُرّاء

كانت تعاليم الإسلام التي تدعو إلى وحدة العقيدة دون اعتبار النسب تحدث آثارها الحميدة على سير الحياة في المصر في بطء واطراد. ولعلَّ أهم مجموعة برز فيها هذا الأثر بوضوح هي مجموعة القُرّاء الذين كانوا يتلون القرآن ويتدارسونه، ومن صفوفهم خرج كثير من الخوارج. وكان أبو موسى الأشعري من أوائل الذين علّموا القرآن بالمصر. وقد سأل عمر بن الخطاب أن يبعث معه جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ يعلّمون الناس دينهم فبعث معه عشرة[٢٨] أو تسعة وعشرين[٢٩] من الصحابة. وكان أبو موسى نفسه من القُرّاء، ولذلك كان شديد الاهتمام بنشر الإقراء. وليحفّز الناس على ذلك اقترح على عمر أن يزيد من أعطيات القُرّاء

٢٨ الدينوري: الأخبار الطوال ١٢٥ .

٢٩ الطبري ١/٢٥٣١ .

بصرف النظر عن قبائلهم أو اشتراكهم الفعلي في الفتوح[٣٠]. وقد شجع ذلك كثيراً من العرب والموالي الذين دخلوا في الإسلام حديثاً على الانصراف لدراسة القرآن وتلاوته، حتى صاروا مع الزمن مجموعة متماسكة لها نفوذها القوي، وقد لعب هؤلاء أدواراً هامة في حياة المدينة السياسية والاجتماعية. فحاربوا كمجموعة متميزة في صِفِّين، وكانوا هم السبب في قضية التحكيم المشهورة. وتحمسوا لقضية المسلمين من الموالي وذادوا عن حقوقهم كما تشهد بذلك وقفتهم ضد إجراءآت الحجاج الذي أمر بارجاع الموالي إلى قراهم[٣١]. إذ انضموا إلى ابن الأشعث، وكانت لهم فرقة مستقلة في هذه الثورة يقودها أحد قوّادهم[٣٢]. ولكن فشل هذه الثورة زعزع من مركزهم في المدينة وعرّضهم لعقاب الحجاج وتأديبه[٣٣].

الموالي :

في الوقت الذي كانت فيه العناصر العربية تتصارع من أجل السيطرة على المدينة وإكسابها الشخصية العربية المتميزة بالكثرة العددية في المراحل الأولى من تطور البصرة، كان هناك عنصر آخر يعمل من جانبه في صمت واطراد لتعديل هذه الصورة. وقد كانت رغبة العرب الجامحة في الحفاظ على شخصيتهم بالابتعاد عن الشعوب التي اخضعوها[٣٤] عسيرة التحقيق في الواقع. فقد تبينت للمستوطنين الأوائل في المصر ضرورة الاستعانة بكل صنوف الحرفيين والمهنيين الذين لا تستقيم حياة الحاضرة بدونهم. وكان تحررهم من ربقة الكدح اليومي ضرورة لازمة لإفراغ

---

٣٠ ابن سعد ٤/١١ ؛ أبو نعيم: حلية الأولياء ٢/٩٤ ؛ الدينوري ١٢٥ «فرض عمر للناس على منازلهم وقراءتهم للقرآن» ابن سعد ٣/٢١٤ ، عقد ١/٢٩٧ .

٣١ الطبري ٢/١١٢٢ ؛ البلاذري: أنساب «أهلواردت» ١١/٣٣٦ .

٣٢ البلاذري: أنساب ١١/٣٣٦ .

٣٣ ابن عبد ربه: العقد ٣/٣٦٧–٨ ؛ وانظر نولدكة: تاريخ القرآن ٣/١٦٣–٩ ؛ بلا ٧٣–٨٠ .

٣٤ الطبري ١/٢٥٤٥ .

جهودهم في ميادين القتال. وفوق حاجتهم للبنائين والعمال المهرة لشق القنوات وعقد الجسور فقد كانت هناك زيادة مطردة في امتلاك الأراضي الزراعية حول البصرة وكان معظمها من الأراضي العشرية[٣٥] التي يحق للمسلمين امتلاكها بالمقارنة بالأراضي الخراجية التي استمرت في أيادي مالكيها السابقين كما كان الحال في الكوفة[٣٦]، وقد خلق هذا حاجة ماسة للعمال الزراعيين لا يمكن تلبيتها إلّا بفتح الباب لهجرة الفلاحين الوطنيين من المناطق المجاورة. وفوق ذلك فقد ورث العرب جهاز الإدارة الساساني وورثوا معه موظفيه وعماله الذين كان معظمهم من أصل فارسي. وكان سيل العبيد وأسرى الحرب لا ينقطع عن المدينة.

وهكذا ومنذ البداية أخذت جماعات من هؤلاء الموالي تشترك اشتراكاً فعلياً في حياة البصرة الاجتماعية والسياسية وكان عددها يزداد مع الزمن. وقد أسلم في ولاية أبي موسى الأشعري حوالي أربعة آلاف من الأساورة وكانوا فرقة من الجيش الساساني وفرض لهم في العطاء كجند المسلمين وسمحوا لهم بالإقامة بالبصرة وحالفوا قبيلة تميم[٣٧]. وكان الزُّط والسيابجة الذين كانوا في أغلب الظن من أصل هندي[٣٨] يقومون بمهمة حفظ الأمن وحراسة السجون. وقد وُكِل إليهم حراسة بيت المال عام ٣٦ هـ/٦٥٧ م في أيام الفتن التي أعقبت موت عثمان، مما يدل على تقدير الحكام العرب لخدماتهم في هذا المجال. وكان ميدان النشاط التجاري يفتح مجالات واسعة لكل ألوان المهارات والمهن. وقد بلغت نسبة استقرار هؤلاء الموالي بالمصر مدى أفزع الحاكمين. ويذكرون أن معاوية بن أبي سفيان أفضى إلى الأحنف بن قيس وسَمُرَة بن جُنْدب وكلاهما من البصرة بخوفه من غلبة هؤلاء

---

٣٥ الإصطخري: مسالك ٨٠ ؛ ابن حوقل: صورة الأرض ٢٢٤ .

٣٦ الاصطخري نفسه ٨٢ .

٣٧ البلاذري: الفتوح ٥٢٠ .

٣٨ نفسه ٥٢٢ ؛ قارن بلا ٣٧ – ٨ .

الموالي وخشيته من وثبتهم على العرب وإزالة سلطانهم، وحدثهم انه ينوي قتل نصفهم تاركاً نصفهم الآخر للقيام على الأسواق والطرق. فدافع الأحنف عنهم دفاعاً مؤثراً بينما وافق سمرة على خطة معاوية، وأخذ معاوية برأي الأحنف[٣٩]. ويبدو أنه اكتفى بنقل عدد كبير من الزُّط والسيابجة إلى سواحل الشام[٤٠].

وفي مثل مجتمع البصرة القائم على العصبية والتحزب حيث كانت الغلبة فيه للعنصر العربي، كان السبيل الأوحد لتحقيق مصالح غير العرب استغلال نظام الولاء، وذلك بأن يربط الفرد نفسه بإحدى القبائل أو العشائر العربية فتحميه وتدافع عن حقوقه. وكان نظام الجوار القبلي إلى جانب نظام الولاء سائدين في المصر، وكان على الأفراد والجماعات اللجوء إليهما إن أرادوا الاشتراك الفعلي في أي مظهر من مظاهر الحياة بالمدينة. وكان نظام الولاء انجع السبل لتحقيق ما يصبو إليه غير العربي.

ومن المهم أن نلاحظ هنا أن لفظة «مولى» اصطلاح عام يشمل مجموعات مختلفة من الناس. فهو يشمل المعتقين من العبيد الذين فضلوا الإقامة مع مالكيهم السابقين على أسس مشروطة، كما يشمل الأحرار من غير العرب الذين اختاروا الارتباط بأسرة عربية بعينها. ولكنهم جميعاً يحملون أسماء العرب الذين يرتبطون بهم مسبوقة بكلمة «مولى» ليستدل الناس على أن العلاقة التي بين الطرفين علاقة اجتماعية وليست علاقة دم. وكان لهذا النظام فوائده التي لا تنكر ولكنه كان في نفس الوقت يفرض الالتزامات والشروط. فكان معظم الموالي لا يستحقون العطاء وإن استحقه بعضهم فحظهم منه دون حظ العرب[٤١]. وكان الموالي الأحرار يشكلون معظم طبقات المهنيين الذين استقروا بالمصر ووضعوا أنفسهم تحت حماية

---

٣٩ العقد الفريد ٣/٣٦٤.

٤٠ البلاذري: فتوح ٥٢٤.

٤١ المسعودي: مروج الذهب ٥/١٧٤؛ البلاذري: أنساب ٤ب/٥٨ – ٩.

بعض الأسر العربية القوية النفوذ، وهو وضع أكسبهم كثيراً من الفوائد. وكانت هذه الطبقة من الموالي أكثرهم فعالية. فهم يرجعون بأنسابهم إلى أصول كريمة وكانوا دون شك ثمرة ثقافة ناضجة وأبناء حضارة عالية وأسلم الكثيرون منهم وكانوا يشعرون بالمساواة مع العرب. وأخذوا يتدارسون القرآن ويتعلمون العربية في حماسة ونشاط. وما كانوا في معظم الأحوال يخضعون للخدمة العسكرية نسبة لتربيتهم المدنية، ولم تكن علاقتهم الجديدة بمواليهم العرب من القوة والإلزام بحيث تحتّم عليهم الاشتراك معهم في حروبهم. ويبدو أن عدد هذه الطبقة من الموالي كان كبيراً في البداية حين كانت قوة القبيلة العربية في عنفوانها، وبازدياد سلطة الأمير ونمو الحياة الحضرية المطرد تغير الحال نسبياً ولم تعد من حاجة ملحة لطلب الحماية من أي قبيلة عربية .

وقد استفادت المجموعات المختلفة من غير العرب من فرص الحماية والجوار هذه في فترة مبكرة. فقد أصبح الأساورة موالي لبني سعد من تميم[٤٢] ، وأصبح الزُّط والسيابجة موالي لبني حنظلة من تميم[٤٣] . وقد بنى زياد ساحة لهم أسكن فيها أربعة آلاف من البُخَارية كانوا يعرفون ببخارية زياد[٤٤] . وقد اتصل بعض العرب الذين خالطوا الفرس مثل بني العَمِ من الأهواز بتميم أيضاً[٤٥] .

ولم يكن هذا النظام مقصوراً على المجموعات وحدها بل كان يشمل الأفراد أيضاً. فقد استفادت منه صفوة المجتمع الساساني التي لم تقع في الأسر ولم تستعبد، واستفادت الطبقات المثقفة والإداريون والمهنيون الذين كان العرب في أمس الحاجة لخدماتهم، واستأنف هؤلاء نشاطهم عن هذا السبيل تحت الإدارة الجديدة. وعلى

---

٤٢ البلاذري: فتوح البلدان ٥٢٠ .
٤٣ نفسه .
٤٤ ابن الفقيه: كتاب البلدان ١٩١ .
٤٥ الطبري ٢٥٣٧/١ – ٨ .

الرغم من أن اللغة الفارسية ظلت لغة الديوان لأكثر من نصف قرن[٤٦] إلّا أن الموالي لاحظوا في فترة مبكرة من تعاملهم مع الوضع الجديد أنهم لن يحظوا بمكانة حقيقية في المجتمع العربي الإسلامي دون النفوذ أولاً إلى داخل الكيان الاجتماعي، وكانت صلتهم بمواليهم من العرب هي المقدِّمة. وتبيَّن لهم أن انخراطهم في المجتمع الجديد يعتمد إلى حدّ كبير على درجة التعرب وتشرب روح الإسلام التي يحققونها. وكان لا بد لعلاقة الولاء بين العربي وغير العربي التي يطغى عليها الجانب العربي من أن تبلغ غايتها المنطقية من التعرب الخالص قبل أن يقف غير العربي على قدم المساواة مع موالاة العربي على الأقل في مجال التفاهم اللغوي والديني. وقد قدح هذا الإحساس في نفوس الموالي رغبة جامحة لتحسين مستواهم والأخذ بنصيب من الامتيازات التي كان العرب يتمتعون بها، وذلك بالتوفر على دراسة العربية والدين الإسلامي والأخذ بناصيتهما .

ولم يمض طويل وقت حتى تبيّن لهم أن السبيل إلى المساواة لم يكن بالسهولة التي ظنوها أول مرة. فقد كان تناقض المصالح وصدامها في غير صالح الموالي في بداية الأمر. وكان العرب على وعي تام بمركزهم الممتاز. فقد وضعهم انتصارهم على البيزنطيين والساسانيين في القمة كطبقة حاكمة تجبى إليها كل خيرات الامبراطورية، وذلك مما قوى من ثقتهم بأنفسهم كصفوة مختارة بالقياس إلى رعاياهم. وقد دفعهم هذا الشعور إلى التمييز ضد الموالي في المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ليحافظوا على موقع القوة الذي يحتلونه .

وكان التناقض الظاهري في هذا الموقف انه حوالي عام ٧٠٠ م لم يعد دين محمد حكراً على قومه، بل أصبح المسلمون من العرب قلة بالقياس إلى غيرهم من الشعوب المقهورة خاصة الفرس. وكان هذا التحول يحدث تغييراً سريعاً وبعيد

---

٤٦ ينسب تعريب الديوان إلى الحجاج (٨٥ – ٩٥ هـ). انظر الجاحظ: البيان ٣/٢٦ هامش ٣ .

المدى ليس في تاريخ البصرة الاجتماعي والسياسي فحسب، بل في تاريخ الامبراطورية جمعاء. فقد كانت مصالح العرب الذاتية كطبقة حاكمة تتعارض تعارضاً تاماً مع مدِّهم نفس الحقوق والامتيازات التي يتمتعون بها إلى هذه الجموع الحاشدة من غير العرب. ورغم أن هذه المصالح كانت حقيقية ومحسوسة إلّا أنها لم تكن قائمة إلّا على أوهى الأسس وأضعفها. إذ كان عناد العرب وتعنتهم مخالفاً لتعاليم الدين الجديد الذي باسمه بنوا الامبراطورية وتذرعوا لرعاياهم. وكان الأمل في تحقيق المساواة التي دعا إليها الإسلام هو الدافع الأساسي لقبول أعداد كبيرة من غير العرب للعقيدة الجديدة. فقد كان قبولهم الدين الجديد يبشِّر بفتح آفاق جديدة في الحياة لم يكونوا ليستطيعوا تحقيقها لو احتفظوا بعقيدتهم السابقة. وكانت الامبراطورية العربية على أي حال دولة دينية من ناحية نظرية، الإسلام فيها القاسم المشترك بين العرب وغير العرب. وبقبول غير العرب الإسلام اكتسبوا نظرياً حقوقاً مماثلة لحقوق العرب، وإن كان هؤلاء في الواقع يقاومون هذه المزاعم ويرفضونها وسرعان ما تبين لغير العرب ان الإسلام وحده غير كاف لتحقيق طموحهم في مجتمع يغلب عليه العرب. وكان عليهم فضلاً عن الإسلام النفوذ من جدار العصبية العربية. وسنرى فيما بعد أن نظام الولاء والسبل الكثيرة التي سعى بها هؤلاء القوم لنسبة أنفسهم للعرب كلها قد فشلت في تحقيق بعض ما كانوا يؤملون، وإن مهدت لهم الطرق لتحسين أحوالهم ورفع مستوى حياتهم .

وكان تأثير هذه الحركة بعيد المدى. فقد وصل ضغط الموالي على المصر كما رأينا حد الخطر في بعض الفترات. وكانت نتيجة ذلك هبوط عام في نسبة سكان الريف مما نجم عنه انهيار في الزراعة انتهى بهبوط حاد في مستوى الدخل العام. وقد دفعت الأزمة الاقتصادية الناجمة عن ذلك الحجاج للجوء إلى تلك التدابير الصارمة من ردّه أهل القرى إلى قراهم التي جاءوا منها بالجملة وإخضاعهم للضرائب التي رُفعت عنهم بقبولهم الإسلام. وجاءت تدابير عمر بن عبد العزيز المضادة لإصلاح ما فعل الحجاج وإعادة بعض الأمور إلى نصابها. ولكن المرارة

التي خلفتها هذه التدابير في النفوس كانت عظيمة ودفينة .

وقد كان ضغط هذه الجموع على موارد المصر ومزاحمتهم العنيفة للعرب في كل نواحي الحياة مما ولّد الخوف والحقد في نفوس هؤلاء العرب وأشعرهم بالخطر الذي يهدد مكانتهم في الحياة. وقد أحدث تحولهم المطرد من طبقة عسكرية إلى رعايا عاديين كبقية رعايا الامبراطورية، أثره الكبير في ميزان القوى. إذ سرعان ما زالت من أيديهم كثير من مظاهر القوة التي كانت وقفاً عليهم. وفي سبيل وقف مد الموالي الصاعد وتعويق تقدمهم فرض العرب عليهم صنوفاً من التدابير المهينة المميزة[٤٧] . فلم يسمحوا لهم مثلاً بشغل بعض المناصب العامة التي تكسب شاغلها بعض النفوذ والسلطة كمنصب القاضي[٤٨] وقائد الجيش. ولم يحدث أن عين قاض من الموالي إلّا في بداية القرن الثاني الهجري حين عيِّن الحسن البصري أول قاض من الموالي على البصرة أيام عمر بن عبد العزيز[٤٩] . وكان محرماً عليهم الزواج من العربيات، والمصادر حافلة بمشاهد المهانة والإذلال التي يتعرضون لها إن تخطّوا ذلك[٥٠] .

---

٤٧ العقد الفريد ٣/٣٦٤ - ٨ لبعض الأمثلة .

٤٨ حين عيَّن الحجاج سعيد بن جبير قاضياً على الكوفة صاح الناس «لا يصلح للقضاء إلّا عربيّ» كامل المبرد (طبعة رايت) ١٨٢ .

٤٩ الطبري ٢/١٣٤٧ ؛ ابن سعد: الطبقات ٥/٢٥١ ؛ وكيع: أخبار القضاة ٢/١ وما بعدها .

٥٠ الأمثلة على الموالي الذين تزوجوا عربيات عديدة. انظر الباب الخامس من هذا الكتاب. وانظر لسان العرب ج ١٠/١٠٣ لفقرة من خطاب عمر بن عبد العزيز بشأن هذا الزواج حيث يقول «لا يتزوج من الموالي في العرب إلّا الأشر البطر ولا من الموالي في العرب إلّا الطمع الطبع». وكانت ردود الفعل العربية عنيفة في كثير من الأحيان كما حدث في حالة البصري الشهير عبد الله بن عون الذي تزوج عربية فجلده بلال بن أبي بردة (ابن سعد ٧ ج ٢/٢٦)؛ انظر الأغاني ١٤/١٥ لمثال آخر ؛ وقد تعرّض الحجاج ابن يوسف الذي كان متهماً في نسبه لنفس المعاملة حين أرغمه عبد الملك بن مروان على تطليق زوجته القرشية (العقد ١/٣٠٢) .

وكان مما يبطل من فعالية هذه الأدوات الدفاعية ميل العرب إلى الزواج من نساء الموالي واتخاذهم سراري. وقد بلغ هذا الزواج منهن مبلغاً عظيماً كما يشهد بذلك دفاع الأحنف بن قيس زعيم تميم عن الموالي أمام معاوية الذي سلفت الإشارة إليه[٥١]، إذ قال: «أرى أن نفسي لا تطيب، يُقْتَل أخي لأمي وخالي ومولاي وقد شاركناهم وشاركونا في النسب»[٥٢] وقد ظلت ثمرات هذه المصاهرات تفعل فعلها في تشكيل الأساس الاجتماعي والثقافي للمصر. وكان من الطبيعي أن يتأثر الأبناء بثقافة أمهاتهم وعاداتهن ومن الأمثلة المبكرة في هذا المجال شخصيات بارزة كعبيد الله بن زياد الذي سرت العجمة إلى لسانه العربي لكثرة مخالطته للموالي إذ كان يعيش وسط أخواله الأساورة، ومثله كثيرون كعبد الله بن خازم[٥٣] وعبيد الله بن أبي بكرة[٥٤] والحارث القباع[٥٥] وخالد بن أسيد[٥٦] وخالد القسري[٥٧] وقد طغى العنصر الفارسي على البصرة في نهاية العصر الأموي إلى درجة تجلت في شخصية المدينة وصبغتها بصبغتها. وقد رووا أن أبا عمرو بن العلاء الفقيه اللغوي الذي كان عربياً قال لأهل الكوفة «لكم حذلقة النَبَط وصلفهم، ولنا دهاء الفرس وأحلامهم»[٥٨] وقد ضمنت كثرتهم العددية استمرار دوران الحياة الإدارية والاقتصادية والثقافية في المصر دون توقف حتى في أكثر الأوقات اضطراباً حين كانت القبائل مشغولة بقتل بعضها بعضاً.

---

٥١ انظر ص ٤٤ أعلاه.

٥٢ العقد ٣/٣٦٤.

٥٣ انظر ابن الأثير: الكامل ٣/٣٠٥؛ وانظر ابن حجر: تهذيب التهذيب ٢/١٤٤ لمثال آخر.

٥٤ ابن سعد ١/٧ ص ١٨ - ٩.

٥٥ نفسه ٥/١٨ - ٩.

٥٦ البلاذري: أنساب ٤ ب.

٥٧ انظر الباب الرابع من هذا الكتاب.

٥٨ الجاحظ: البيان ٢/٨٦.

التجارة

كان تطور البصرة إلى مركز تجاري مزدهر يهيء أساساً ثابتاً تقوم عليه نهضة المدينة ونموها المتصل، ويضمن استمرار ذلك حتى في الوقت الذي استنفدت فيه أغراضها كقاعدة حربية، ولم يعد هنالك من مبرّر لتوسعها وتقدمها على ذلك الأساس. وقد كان للنشاط التجاري النصيب الأوفر في دفع حركة التحول الحضاري وتغيير تلك النواة العسكرية التي يغلفها سياج سميك من البداوة إلى مجتمع مستقر يفيض بالخير والبركات .

وقد أعظم الإسلام من شأن التجارة، ولذلك صرف كثير من صحابة الرسول وغيرهم ممن استقر بالبصرة جهودهم لها. ووجد عدة من القرشيين والثقفيين الذين أقاموا بها الفرصة سانحة لإبراز ملكاتهم في هذا المجال. وقد جمع رجال مثل أنس بن مالك[٥٩] ، وأبو بكرة، ونافع بن الحارث[٦٠] ، وزياد وأبناؤه ثروات ضخمة وقد أتاح نظام «البدل» الذي يستطيع الرجل بمقتضاه أن يبعث بـ «بديل» عنه ليقاتل في الجيش، الفرصة لعدد كبير من ذوي النفوذ أن يستقروا بالبصرة ويشاركوا بفعالية في حياتها التجارية. وكان مثلهم في ذلك الأمراء وعمالهم وموظفوهم الذين كانت طبيعة أعمالهم تقتضي إقامتهم بالمدينة، فاشتغلوا بالتجارة واحتازوا وافر الأرباح[٦١] . ونشط الرأسماليون والتجار والمهنيون من الفرس وأداروا أعمالهم في حرية تحميهم الدولة أو نظام الولاء، واستخدمت الحكومة بعضهم في مصالحها المختلفة كسك العملة، وجبي الأموال، والوظائف الكتابية والإدارية التي أتاحت لهم الفرص للاشتغال بالتجارة إلى جانب أعمالهم الرسمية .

---

٥٩ ابن سعد ١/٧ ص ١١ حيث يذكر أنه من أحرص أصحاب محمد على المال: وانظر ابن العماد: الشذرات ١/١٠٠ - ١ .

٦٠ ابن سعد ١/٧ ص ٥٠ .

٦١ ابن قتيبة: عيون الأخبار ١/١٧٥ ، صالح العلي ١٣٩ - ١٤٠ .

وفي أيام الولاة المذكورين كعبد الله بن عامر الذي بنى السوق[٦٢] وزياد[٦٣] وعبيد الله ابنه والحجاج شقت القنوات وأجريت الأنهار وازدهرت المواصلات المائية. وسرعان ما حلَّت البصرة محل فرضة الأُبُلَّة القديمة كأعظم مركز تجاري على الطريق التجاري القديم الذي كان يربط الشرق والهند والروم. وازدهر سوق المربد واجتذب تجارة البدو إلى درجة أخملت معظم الأسواق التي كان العرب يتاجرون فيها في شرق الجزيرة أيام جاهليتهم. وقد أصبح هذا السوق إلى جانب أهميته التجارية مركزاً يتجمع فيه العرب على اختلاف ألوانهم ودرجاتهم من البدو والحضر .

أما المدى الذي أثر به هذا النشاط التجاري على الوضع القبلي في المصر تأثيراً مباشراً فذلك مما يصعب تقديره. فمن بعض النواحي كان ازدياد عدد الأغنياء في فرع من الفروع عامل قوة للفرع أكثر منه عامل إضعاف. إذ كثيراً ما كانت العشائر تستفيد من ثروات أفرادها الأغنياء الذين كانو يعطون الفقراء والمساكين من قبائلهم ومن غيرها، ويبذلون الأموال في سماحة وكرم، مما ساعد على توزيع الثروات وتبديدها في كثير من الأحيان[٦٤]، ومنع من خلق طبقة مستقرة من كبار الرأسماليين. ولعلَّ هذا يفسِّر ندرة الأخبار المروية عن أي عداء ظاهر للأغنياء في البصرة من ناحية، واستمرار ضرب من الكيان القبلي فيها لفترة طويلة رغم ظهور مجموعة كبيرة من الأغنياء في حياتها. والواقع أن الاعتبارات السياسية كانت على وجه العموم أكثر العوامل فعالية في المحافظة على نوع النظام القبلي الذي كان سائداً بالمصر. وهذا بالطبع لا يعني التقليل من شأن التجارة كعامل حضاري في مجتمع مختلط كمجتمع البصرة، خاصة حين يقارن بمجتمع آخر كمجتمع مكة قبل الإسلام حيث عزَّز النشاط التجاري الوضع القبلي[٦٥]. فقد كانت كل العوامل

٦٢ ابن سعد ٥/٣٣ .

٦٣ ابن الأثير: الكامل ٣/٣٧٦ ؛ الطبري ١/٧٧ - ٩ .

٦٤ ابن سعد ٣/١٥٦ - ٧ ؛ البلاذري: أنساب ٤ب/٣ ؛ ٥/٢٥٧ ؛ ابن قتيبة: عيون ١/٢٣٩ - ٥٠ .

٦٥ Watt: Muhammad at Mecca; Integration, 5-14.

التي ذكرناها في معرض حديثنا عن تحضر المصر، إلى جانب وجود هذا الجانب الضخم من غير العرب من سكانه مما شجع على إقامة العلاقات التجارية بين العرب وغيرهم، قد ساعد على تقويض القبلية وتصفيتها كنظام في نهاية المطاف. فقد أخذت العلاقات القائمة على المصلحة المتبادلة تحل محل تلك القائمة على القرابة ورابطة الدم. وبتقلص الدخول التي تأتي بها الغزوات اضطرت أعداد متزايدة من العرب لإقامة العلاقات مع زملائهم التجار من غير العرب مما أحدث آثاره البعيدة المدى على صورة الهيكل الاجتماعي عامة. ومما يشهد بالدور الكبير الذي كانت تضطلع به طبقة التجار في حياة المصر في فترة مبكرة كعام ٦٤ هـ/٦٨٣ م أن المهلب بن أبي صفرة اضطر إلى الاستعانة بهم لتمويل حربه مع الخوارج[٦٦] .

الوعي المدني

كانت كل هذه العوامل المساعدة على الاستقرار والتحضر تتضافر وتمتزج لتحدث تياراً قوياً من الوحدة داخل هذا التعدد والتنوع في مظاهر الحياة الذي ألمعنا إليه. فقد كانت النظرة المحلية المحصورة في الإقليم بارزة حتى في المسائل القبلية التي تتعارض في كثير من الأحيان مع أي محاولة للبحث عن الذات خارج نطاق القبيلة. فكثيراً ما ارتفع هذا الشعور بالانتماء إلى البصرة فوق كل الخلافات القبلية والسياسية. وكان الأحنف بن قيس التميمي يعبر عن هذه العاطفة في مرحلة مبكرة من حياة البصرة حين خاطب جموع الأزد وربيعة الذين كانوا يعارضون مضراً قومه بعد موت يزيد الأول بقوله: «انتم اخواننا في الدين وشركاؤنا في الصهر وجيراننا في الدار ويدنا على العدو؛ والله لأزد البصرة أحب إلينا من تميم الكوفة، ولأزد الكوفة أحبّ إلينا من تميم الشام»[٦٧] . وكان تقسيم القبائل إلى جماعات توزعت

---

٦٦ المبرد: الكامل (رايت) ٦٢٧ ، ٦٦٥ .

٦٧ الجاحظ: البيان ١١٢/٢ ؛ المبرد: الكامل (المرصفي) ١٢٧/٢ .

على الأمصار قد أدى بالضرورة إلى إضعاف روح التضامن القبلي التي كانت سائدة حين كان الشمل مجتمعاً. إذ واجهت هذه الجماعات ظروفاً مختلفة في بيئاتها الجديدة التي استقرت فيها، وقد صاغت هذه الظروف البيئية حياة المجموعة الواقعة تحت تأثيرها بطريقة تجعلها مختلفة عن حياة أي مجموعة في أي بيئة أخرى، وان كانت تمت إليها بأقرب الأسباب. وهكذا صارت الظروف المحيطة هي التي تحدد مصالح هذه المجموعات وتتحكم في تصرفاتهم. وقد تصوغ هذه الظروف مصالح مجموعة بعينها بحيث تجعلها مناقضة لمصالح إخوانهم في منطقة أخرى .

وكانت مثل هذه الاعتبارات على وجه العموم هي التي دفعت قبائل الكوفة لمقاتلة إخوتهم من قبائل البصرة الذين ينتمون إليهم في معركة الجمل، فقد كانت تميم الكوفة تحارب تميم البصرة وهكذا كان شأن بقية القبائل[٦٨] . وكانت نفس الدوافع تعمل عملها في معركة صفين[٦٩] وغيرها من المعارك، حيث كانت المجموعات القبلية تحارب المجموعات التي تنتمي إليها في الجانب الآخر، إذ كان الاعتبار الأول للإقليم وللزعيم السياسي الذي يؤيدونه. وحين استفحل الصراع القبلي في خراسان، وأحسَّ قتيبة بن مسلم الباهلي البصري بأن سليمان بن عبد الملك مقدِم على تنحيته من الولاية، أخذ يسب جميع القبائل، وكان معظمهم من قبائل البصرة، فلامته قبيلته باهلة بقولها «ما رأينا كاليوم قط، والله ما اقتصرت على أهل العالية وهم شعارك ودثارك حتى تناولت بكراً وهم أنصارك، ثم لم ترض بذلك حتى تناولت تميماً وهم اخوتك، ثم لم ترض بذلك حتى تناولت الأزد وهم يدك ... »[٧٠] .

وكانت الضرورات الاقتصادية تضطرهم أحياناً للوقوف كبصريين خاصة

---

٦٨ الطبري ٣٢٠٢/١ - ٣ .

٦٩ نفسه ٣٢٨٧ .

٧٠ نفسه ١٢٨٩/٢ .

في منافستهم العنيفة مع الكوفة[٧١]. وقد عبّر الأحنف بن قيس عن هذه الوقفة الجماعية حين تحدث بلسان البصرة أمام الخليفة عمر بن الخطاب كما مرَّ بنا من قبل[٧٢]. وقد تجلّى هذا التضامن في مناسبة أخرى حين وقف أهل البصرة وقفة رجل واحد في نزاعهم مع أهل الكوفة حول ملكية بعض المناطق التي اشتركوا معهم في افتتاحها[٧٣]

وكل هذه الميول والاتجاهات تبرز مدى التحول الذي طرأ على مفهوم العصبية. فقد أصبح النزوع إلى المدينة يحل بالتدريج محل النزوع إلى القبيلة. ولكن الآثار السالبة للتطورات الأخرى كثيراً ما عاقت من اطراد هذا التحول. إذ كثيراً ما تعرض تماسك المجتمع البصري للضعف من جراء اتجاهين واضحين، أولهما تنوع المصالح الجزئية واختلافها، فقد حالت هذه دون بروز اتجاه سياسي واضح في المدينة تلتزم به غالبية السكان. وكان انقسام القبائل الكبيرة إلى فروع صغيرة مستقلة إلى حدّ كبير عن بعضها يحول في ذات الوقت دون هذه القبائل وبروز قيادات قوية لها فعالية يقبلها الجميع وذلك خسارة على المصر أيضاً . فقد اكتسب المهلب - ألمع شخصيات البصرة - شهرته من قتاله للخوارج، وكان يقضي معظم حياته العاملة خارج البصرة في ميادين القتال. وجهد الأحنف بن قيس[٧٤] زعيم بني سعد من تميم في إبعاد نفسه وقومه عن الاشتراك في المزاحمات التي كانت تحدث، وكان دائم الدعوة إلى الحياد. ولعله لندرة القيادة المحلية القوية كان معظم حكام البصرة من خارجها. وحتى حين أتيحت لأهل البصرة الفرصة لاختيار حاكم منهم

---

٧١ انظر الثعالبي: لطائف المعارف ١٦٧ - ٩ ؛ المقدّسي ٣٣ ؛ ابن الفقيه ١٤٤، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٩٠، ١٩١، ٣١٥ ؛ البغدادي: تاريخ بغداد ١/٤٤، ٤٩ .

٧٢ انظر ص ١٣ أعلاه .

٧٣ الطبري ١/٢٦٧٢ - ٣ .

٧٤ دائرة المعارف الإسلامية مادة الأحنف .

بعد هروب عبيد الله بن زياد حاكم بني أمية عام ٦٤ هـ/٦٨٣ م استقرّ رأيهم على قرشي قليل الخطر هو عبد الله بن الحارث. ولهذا السبب استطاعت الارستقراطية القرشية والثقفية المحافظة على التوازن بين قبائل البصرة رغم ضعف سندها القبلي[٧٥] .

---

٧٥ انظر عن الحالة الاجتماعية الزهيري ١٨٤ - ٢٠١ .

الفصل الثالث

الحياة الثقافية

كانت حياة البصرة الثقافية انعكاساً حقيقياً لأوضاعها السياسية والاجتماعية. فقد كانت التيارات المتصارعة التي صاحبت انتقال العرب البطيء من حالة البداوة إلى مرحلة الحياة الحضرية الناضجة تبث بدورها ضروباً مختلفة من التيارات الفكرية تمثل في عمومها كل وجوه التعقيد والتناقض في المجال الاجتماعي. وقد تبين لنا من قبل أن تطور المصر الاجتماعي لم يكن متساوقاً في كل الأحوال، وكثيراً ما شاهدنا مراحل مختلفة من التطور تتجاور على الصعيد الاجتماعي الواحد. فصورة البصرة التي تمزقها الخلافات السياسية والقبلية، والتي تمثل في جوهرها قبضة الحياة التقليدية البدوية على حياة المدينة، وشدّها للوراء لفترة طويلة من الزمن، لا تستقيم مع الواقع إلّا حين نقرنها بصورة البصرة الأخرى حيث نشاهد أسس الحياة الاجتماعية والثقافية الراسخة وهي تقوم في ثقة وإصرار بجهود مجتمعها المختلط ونشاطه. وفي المجال الثقافي كان بعث الشعر الجاهلي وتأثيره العميق على الشعراء الأمويين الأوائل يصاحبه ويؤثر فيه حركات ثقافية أخرى انتهت بتحويل وجهة المصر الدينية والأدبية والفلسفية .

الاتجاهات الدينية

كان فخر أهل الكوفة حين زعموا أن سبعين بدرياً من صحابة الرسول أقاموا

بين ظهرانيهم في حين لم تحظ البصرة بغير عُتْبَة بن غَزْوَان[1] ، فخراً تعوزه الدقة. ولكنه على أي حال يشير إلى ضعف الأثر الذي خلفته أغلبية الصحابة الذين أقاموا بالبصرة في الأجيال اللاحقة. ومع أن ابن سعد يجاوز بعددهم المائة والأربعين[2] إلّا أن الباحث لا يبعد عن الحق إن ذكر أن معظم هؤلاء لم يروا النبي إلّا عرضاً حينما شاهدوه ضمن وفود قبائلهم في عام الوفود سنة تسعٍ للهجرة[3] ، وأن أكثرهم لم يسكن البصرة بل أقام ببادیتها[4] . ويبدو أن بعض من بعثهم عمر لتعليم الناس دينهم لم يفلحوا في حمل الناس على مواصلة الاستماع إليهم كما كان الحال مع هشام بن عامر إذ كان رجال من الحي يتخطونه إلى عمران بن الحصين وغيره من أصحاب رسول الله، فكان يقول: إنكم لتتخطوني إلى رجال لم يكونوا أحضر لرسول الله ﷺ ولا أوعى لحديثه مني[5] .

ولعله لهذا الضعف المبكر في التعليم الديني يعزى فقدان البصرة لأي قيادة دينية فعَّالة تنير للناس طريقهم وتوجههم لمواجهة الازمات الكثيرة التي تعرضت لها المدينة. وقد برز ذلك في أوضح صوره في مواقف أصحاب الجمل. فقد كان علي حريصاً على ابتعاد طلحة والزبير عن الكوفة لأن «فيهم رؤوس العرب وأعلامهم»[6] ، بينما كان طلحة والزبير حريصين على الوصول للبصرة لأنها «البلد المضيّع»[7] في تصورهما، إذ تفتقر إلى القيادة الفعالة .

---

١ ابن الفقيه: كتاب البلدان ١٦٦ .

٢ ابن سعد ١/٧ ص ١–٦٤ .

٣ وردت أسماء ٢٥ منهم في وفد تميم و ٧ في وفد عبد القيس. انظر ابن سعد .

٤ انظر ابن سعد حيث يذكر أسماء عدد من الصحابة من تميم بالذات .

٥ ابن سعد ١/٧ ص ١٧ .

٦ الطبري ٣١٣٨/١ .

٧ نفسه ٣١٠٠ ، ٣١٠٤ .

وقد ظل تعليم القرآن الكريم الذي بدأه أبو موسى في فترة مبكرة من عهد ولايته بإذن عمر بن الخطاب وتشجيعه أهم أوجه النشاط الثقافي بالمصر وأبقاها. وقد أخذت هذه الحركة تزداد بازدياد تطور المصر. وقد بلغ عدد القراء حوالي الثلاثمائة قبل أن يغادر أبو موسى البصرة عام ٢٩ هـ/٦٥٠ م[٨]، وكان نشاطهم السياسي المشهود دليلاً على أهمية الدور الذي كانوا يقومون به في حياة البصرة السياسية والاجتماعية .

وفي هذا المجال لا بد أن نلاحظ انه على الرغم من أن منحى التطور الثقافي في البصرة كان على وجه العموم انعكاساً لتكوين سكانها المختلط إلّا ان رغبة غير العرب للاشتراك الفعلي في حياة المدينة عن طريق امتلاك ناصية لغة العرب ودينهم تبدو واضحة في مجال المقارنة بعدم اكتراث العرب واحتقارهم في بعض الأحيان لمثل هذه الدراسات المنظمة[٩] وكان انشغالهم بالحروب وعدم تصورهم لأي فائدة محسوسة يمكن أن يجنوها من انصرافهم لدراسة الشئون الدينية والثقافية قد ترك المجال للموالي للسيطرة على هذه الميادين سيطرة تكاد تكون تامة. ويمكن للباحث ملاحظة نشاطهم المتزايد في حقل النظر الديني بإلقاء النظرة السريعة على جريدة الأسماء التي يوردها ابن سعد لطبقات التابعين الأربع الذين استقروا بالبصرة. فالطبقة الأولى التي تحوي واحداً وعشرين منهم فيها موليان[١٠]، والطبقة الثانية التي تشمل خمسة وخمسين فيها سبعة من الموالي[١١]، وفي الطبقة الثانية التي تضم سبعة عشر موليان[١٢]، بينما تشمل الطبقة الرابعة ثلاثين من الموالي من جملة الأربعة والستين

---

٨ أبو نعيم: حلية الأولياء ٢٥٧/١ ؛ بلا ٧١ – ١٠٨ .

٩ الجاحظ: البيان ٣٠٦/١ – ٧ .

١٠ ابن سعد ٦٥ – ١٠٢ .

١١ نفسه ١٠٣ – ١٦٦ .

١٢ نفسه ٢/٧ ص ١ – ١٣ .

تابعياً[١٣]. ولم تكن أهمية الموالي الثقافية أمراً يقتصر على القوة العددية. إذ لا بد من التنبيه هنا إلى أن عدداً كبيراً من موالي البصرة الأُوَل كانوا من سبى عين التمر التي كانت مقراً للمسيحية شمال الكوفة، وافتتحها خالد بن الوليد عام ٦٣٣ م. وقد عاش بعض هؤلاء لبعض الوقت في جزيرة العرب قبل أن ينتقلوا إلى البصرة. فسيرين مولى أنس بن مالك عاش بعض الوقت في المدينة[١٤]، بينما لعب حُمْران ابن أبان مولى عثمان بن عفان دوراً نشطاً في خلافة مولاه[١٥]. وكان الحسن البصري قد ولد بالقرب من مكة وتربى في وادي القرى[١٦]. وكان أبو العالية رُفَيْع بن مَهْران (ت ٩٠ م) يفخر بحفظه القرآن بعد وفاة الرسول بعشر سنين[١٧]، ويُعَدُّ في الطبقة الأولى من التابعين. ولم يقف طموحه عند نقل الحديث الذي كان يروى بالبصرة بل سافر للمدينة المنورة ليسمع من الصحابة ويشاهدهم[١٨]. ولذلك لا عجب أن سيطر هؤلاء الموالي على حقل الدراسات الدينية والثقافية في البصرة في مرحلة مبكرة. وقد أكسبتهم مساهمتهم الفعالة في كثير من وجوه الحياة الروحية والثقافية للمدينة احترام الجميع وتقديرهم. فكان ابن عباس يرفع أبا العالية على السرير بينما تجلس قريش أسفل[١٩]. وكان الصحابي الجليل أنس بن مالك يقول للناس: سلو الحسن (البصري) فإنه حفظ ونسينا[٢٠]. وكان تأثير الحسن يتعدى المجال الثقافي كما يشهد بذلك تأثيره على الحياة السياسية في البصرة. فقد بلغ من تأثيره في هذا السبيل أن قالوا لابن الأشعث حين ثار على الحجاج: «إن سرّك أن يُقتَلوا

---

١٣ نفسه ١٤ – ٥٠ .

١٤ نفسه ١/٧ ص ٨٦ – ٧ .

١٥ ابن سعد ١/٧ ص ١٠٨ .

١٦ نفسه ١١٤ .

١٧ نفسه ٨١ .

١٨ نفسه ٨٢ .

١٩ ابن العماد: شذرات الذهب ١٠٢/١ .

٢٠ ابن سعد ١/٧ ص ١٢٨ ؛ ابن حجر: تهذيب التهذيب ٢٦٤/٢ .

من حولك كما قُتِلُوا حول جمل عائشة فأخرج الحسن، فأرسل إليه فأكرهه»[٢١]. وكان نفوذه كبيراً في ثورة يزيد بن المهلب عام ١٠١ هـ/٧٢٠ م فقد كان يقود المعارضة ويثبط الناس عن آل المهلب[٢٢].

ومما تجدر ملاحظته أن معظم هؤلاء العلماء سواء أكانوا من الموالي أو من العرب أكدوا في تعاليمهم ولاءهم لفكرة الجماعة كما يتبين من نشاط أفراد منهم كعِمْران بن حُصَيْن (ت ٥٢ هـ / ٦٧١ م) ومطرِّف بن الشِّخِّير (ت ٨٧ هـ / ٧٠٦ م) اللذين عبَّرا عن اهتمامهما البالغ بالجماعة وضرورة الوقوف بجانبها حين تتعرض وحدتها للخطر من جراء تناحر الأحزاب والجماعات[٢٣]. فاعتزل مطرّف في فتنة ابن الأشعث وفي فتنة ابن الزبير، ودعته الحرورية لمذهبها فرفض. وقال عمران بن حصين: ألا احدّثك حديثاً لعلّ الله أن ينفعك به في الجماعة إني أراك تحب الجماعة؟ قال قلت: لأنا أحرص على الجماعة من الأرملة، لأني إذا كانت الجماعة عرفت وجهي[٢٤]. وكان اعتدالهم وتوسلهم في المسائل الدينية والسياسية قد ساهم في إكساب شخصية البصرة تلك المسحة السُّنِّية التي تميل إلى الطاعة والأخذ بناصر الجماعة ما أمكن. وكانت هجماتهم المتوالية على الخوارج والشيعة والقدرية وكراهيتهم العظيمة لمن أسموهم «أهل الأهواء» وهم كل المخالفين لأهل السنة تخفف من حدة التوتر السياسي والاجتماعي وتلطف من تأثيره على حياة المدينة الداخلية، وتجذب نحوهم عواطف قسم كبير من السكان. وهذا الموقف المعتدل يفسِّر إلى حّد كبير انعدام أي شعور قوي بالكراهية نحو العرب – المسمى بالشعوبية – بين الموالى الذين وهبوا أنفسهم للدراسات الدينية بالمقارنة بالآخرين

---

٢١ ابن سعد ٧/ ص ١١٨ – ٩.

٢٢ الطبري ١٣٩١/٢ – ٣ ؛ ابن خلكان ٢٧٤/٢ – ٥.

٢٣ ابن سعد نفسه ١٠٤.

٢٤ نفسه ١٠٣ – ٤.

ممن اشتغلوا في ميادين الثقافة الاخرى[٢٥] .

كان تفاعل الثقافات المتعددة المصادر من فارسية وهندية ويونانية وغيرها مما كان له مجتمع البصرة المختلط بمثابة البوتقة، يمد الأحزاب السياسية الأولى سواء أكانت تلك أحزاب الشيعة أو الخوارج أو العثمانية أو المرجئة أو غيرها بمذهبيات معقدة كان لها الفضل في تحويل طبيعتها السياسية الأولى بالتدريج إلى مرحلة أكثر شمولاً من النظر الفلسفي المتعمق، الذي يتعرض لكثير من القضايا ومن بينها المسائل الدينية في إطار المذهب المتكامل. وكان مذهب المعتزلة بالذات قد أخذ في الظهور كمذهب واضح قبل نهاية العصر الأموي[٢٦] .

ومن الجدير بالذكر هنا أن عدم اهتمام الأمويين النسبي بانتشار الأفكار وسريانها في الناس ما دامت لا تتعرض لسلطانهم أو تشكل تحدياً لدولتهم، قد ساعد عموماً على حرية تبادل الآراء خاصة في المجال الديني. فتركت التيارات المسيحية واليهودية آثارها على رواية الأحاديث وتفسير القرآن ومدارس الكلام . وأخذت الديانات الفارسية القديمة تطل برأسها على استحياء وخفاء بعد أن زالت الصدمة العنيفة التي واجهتها بظهور الإسلام في البداية. ويجب أن لا تخدعنا ندرة المعلومات عن هذا المصدر ومدى تأثيره عن تصور أهميته الحقيقية. فقد كان تأثيره عظيماً على الحياة الفكرية. وقد نجم عن عدم اهتمام الأمويين بحماية أخلاق الناس ودينهم كما حاول الخلفاء العباسيون من بعدهم، أن وجدت كل ألوان العقائد والديانات تربة خصبة للنمو والانتشار. ولم تتجه العناية لما يحدث في هذا المجال إلّا بظهور العباسيين الذين كانت سياستهم ترتكز على استغلال الشعور الديني لأغراض السياسة، وعندها تبيّن للناس مدى انتشار هذه المذاهب الأجنبية

---

٢٥ ابن الأنباري: نزهة الألباء ١٧ ، ٨٤ .

٢٦ انظر Watt: 'The Political Attitudes of the Mu'tazilah', Journal of the Royal Asiatic Society, Parts 1-2, April, 1963, pp. 38-57.

وتسربها في المجتمع الإسلامي. وفي هذه الفترة تقيد اصطلاح «أهل الأهواء» الذي كان يطلق على أصحاب المذاهب الدينية المتطرفة في أواخر العصر الأموي، وأصبح الاسم الجديد الذي يشملهم في أوائل العصر العباسي هو «الزنادقة»، واتخذت الدولة كل التدابير اللازمة لصد مدّهم الطاغي .

الدراسات اللغوية والنحوية :

رغم ان الدراسات الدينية وثيقة الصلة بالدراسات اللغوية إلى درجة يصعب فصلها، إلّا ان إسهام البصرة الحقيقي كان في مجال الدراسات اللغوية والأدبية أكثر منه في مجال الدين. فطغيان العنصر الأجنبي على المدينة، ورغبته الجامحة في تعلم لغة الحكام الجدد، كان يهيء السبيل لحركة لا تفتر مع الزمن. فقد تعلم غير العرب الأوائل مباديء اللغة عن العرب، وشرعوا بدورهم في تسهيل مهمة تعلم اللغة على اخوانهم الموالي بوضع القواعد وتنظيم أسس الدراسة. وسرعان ما كشفت هذه الحركة عن المشاكل والتعقيد الذي يحف بها، إذ كانت ترتبط بقضايا أساسية لا بد من وضعها في الاعتبار. فرغم أن الحركة كانت حركة تطوعية، إلّا أنها لم تكن تخلو من آثارها الخطيرة على المجتمع والدين. وكان تعلم اللغة وسيلة لغاية هي القدرة على التفاهم في المجالين الاجتماعي والديني. وكان الجانب الديني أكثر إثارة للإهتمام إذ كان خطر تحريف النص القرآني وإفساده بواسطة هؤلاء الموالي المسلمين الذين يجهلون العربية عظيماً وحقيقياً. وقد استدعى استفحال الفوضى اللغوية التدخل الرسمي. وكانت الخطوة التي خطاها زياد (٤٥ – ٥٣ هـ / ٦٦٥ – ٦٧٢ م) حين اقترح اتخاذ التدابير لإرساء القواعد لضبط تعليم اللغة، استجابة لحاجة حقيقية محسوسة[٢٧] . فقد كان مما يعمق من مسألة الموالي قضية الأميين من الأعراب الذين أخذوا يتعلمون كتابهم المقدس في أعداد متزايدة. وكان قصور الخط العربي

---

٢٧ ابن النديم: الفهرست ٦٠ ؛ ابن الأنباري: النزهة ٣ – ٤ ؛ أما الحديث عما قام به عليّ بن أبي طالب في هذا المقام فثار جدل طويل .

وانعدام علامات الإعجام والشكل يضاعف من المشقة التي يواجهها المعلمون والمتعلمون على السواء، وإلى هذه الفترة ترجع المحاولات التي تنسب إلى أبي الأسود الدؤلي (ت ٦٧ هـ / ٦٨٦ – ٧ م) من أنه سهل المهمة بنقط المصحف وابراز علامات الشكل[٢٨] ، أو بوضع أسس النحو عامة[٢٩] ، أو بإنجازه المهمتين معاً[٣٠] . والناظر في كتب الأقدمين لا يخفى عليه فشو اللحن من جراء محاولات الموالي الأوائل الذين اضطروا إلى تعلم العربية وهم في مقتبل العمر. ولكن الأجيال التي جاءت بعدهم كانت أحسن حالاً إذ ولدوا في المصر وتربوا في محيط عربي وكانت فرصتهم في تعلم اللغة وإجادتها أكبر. فقد شعر الناس بأبعاد قضيتهم وأحسوا بالحاجة لبذل الجهود لمساعدتهم في امتلاك ناصية اللغة. وكانت أساليبهم في استعمال اللغة التي تثير ضحك عامة العرب وسخريتهم في بعض الأحيان، تقابل بالجدية والاهتمام من قبل بعض العلماء والباحثين[٣١] . فتذكر المصادر في هذا المجال اسم أبي الأسود الدؤلي مرة أخرى، وتقرنه بالمحاولات الأولى لتعليم اللغة العربية تعليماً منظماً[٣٢] . وكان أشهر تلاميذه عَنْبَسة بن مَعْدَان وميمون الأقرن من الفرس[٣٣] . وإلى جهودهما وجهود أقرانهما نصر بن عاصم (ت ٨٩ هـ / ٨ – ٧ م) ويحيى بن يَعْمَر (ت ١٢٩ هـ / ٧٤٧ م)[٣٤] يرجع الفضل في إقامة الأسس العلمية للنحو العربي. وقد استعان الموالي بموروثهم الثقافي وطبقوا الطريقة المنهجية المنظمة التي استفادوها من ثقافتهم الفارسية على دراسة النحو العربي. وخضع النحو بالتدريج للتعقيد الصارم وصار بالمقارنة بفروع الأدب الأخرى أكثرها تنظيماً وبمجيء الجيل

---

٢٨ ابن النديم: الفهرست نفسه ؛ السيوطي: البغية ٢٧٤ ؛ المزهر ٢/٢٤٦ – ٧ ؛ بلا ١٢٨ – ١٣٥ .

٢٩ الفهرست ٦١ ؛ ياقوت: ارشاد ٥/٢٦٣ ؛ النزهة ٥ ؛ الرازي: الزينة ١/٧٣ .

٣٠ ياقوت: ارشاد ٦/١٠٠ ، ٧/٢٠٠ ؛ Haywood: Arabic Lexicography, 11-16

٣١ الفهرست ٦٠ .

٣٢ المزهر ٢/٢٤٧ .

٣٣ الفهرست ٦٢ .

٣٤ المزهر ٢/٢٤٧ ، ٢٤٩ .

الثاني من اللغويين برز إلى الوجود كنظام علمي سويّ. وبلغ العلم أشدّه على يدي عبد الله بن أبي إسحق الحضرمي (ت ١١٧ هـ / ٧٣٥ م) وعيسى بن عمر الثقفي (ت ١٤٩ هـ / ٧٦٦ م) وكلاهما مولى، وأبي عمرو ابن العلاء. فابن الحضرمي وسَّع القياس[٣٥] في محاولة لضبط القواعد وتوسيع دائرة تطبيقها بغرض السيطرة على علم النحو كمعيار شديد الانضباط. وتذكر المصادر أنه ذهب أبعد من ذلك فبحث في فلسفة النحو بشرحه للعلل النحوية[٣٦]. وكان عيسى بن عمر من أوائل العلماء الذين سجلوا علمهم بالكتابة. فيذكرون أنه كتب ما يزيد عن السبعين كتاباً في النحو لم يبق منها سوى الجامع وهو مصنف ضخم في النحو والإكمال (أو المكمل) مختصر له[٣٧].

وقد صرف هؤلاء العلماء الأُوَل كل طاقاتهم لدراسة القرآن واللغة العربية ونالوا اعتراف العرب بهم كثقات في ميادين اللغة والنحو. وقد اضطر بليغ مشهور وخطيب مفوّه كالحجاج أن يسأل يحيى بن يَعْمَر عن فصاحة كلامه[٣٨]، مما يدل على نفوذ هؤلاء العلماء من جهة وميل كثير من العرب الذين استقروا في الحاضرة إلى فقدان فصاحتهم وسليقتهم اللغوية من جهة أخرى. فقد وجدوا أنفسهم تحت ضغط متواصل للتخلي عن قدر كبير من قاموس الصحراء واخضاع لغتهم لضرورات الحياة المدنية. وسرعان ما أصبح الاتجاه لحفظ سلامة اللغة وفصاحتها بالتقعر وتصيد الألفاظ الحوشية والغريبة الذي قد يصل أحياناً إلى الاختراع والوضع[٣٩]، مدعاة للسخرية والتندر. وقد ترك الناس مثل هذا التنطع لبعض علماء الغريب

---

٣٥ السيرافي: أخبار النحويين البصريين ٢٥ ؛ النزهة ١٠ .

٣٦ ابن الأنباري: نزهة الألباء ١١ ؛ السيوطي: بغية الوعاة ٢٨٢ .

٣٧ السيوطي: المزهر ٢/٢٤٨ .

٣٨ ياقوت: إرشاد الأريب ٧/٢٩٦ .

٣٩ المزهر ٢/٢٤٦ ؛ السيرافي: نفسه ١٩ .

كيحيى بن يَعْمَر وعيسى بن عمر اللذين كانت أساليبهما المتكلفة مصدر متعة وتفكه[٤٠]

وكان لهذه الحركة آثارها في ميدان آخر . فقد أخذ بعض هؤلاء العلماء الأوائل على عاتقهم مهمة إخضاع فن الشعر الذي كان أهم نشاط عقلي للعرب ، للتقنين والتقييد. وكان هجاء الفرزدق العنيف لعنبسة[٤١] وعبد الله بن الحضرمي[٤٢] وسخريته منهما كمولِيين ، ردّ فعل طبيعي لتدخلهما في فن كان العرب يرون أنفسهم أصحاب الكلمة الأخيرة فيه وفي تقويمه .

الدراسات الأدبية :

بلغت الحركة الثقافية التي بدأت بمحاولات الرواد الأوائل المتواضعة في دراسة القرآن الكريم واللغة العربية شأواً بعيداً والقرن الأول لما يبلغ مداه. ففي الوقت الذي كان فيه الشعراء الفحول يشنفون أسماع جماهيرهم في المربد بإنشاء قصائدهم أو يناقضون بعضهم بعضاً فيفخرون بفضائل قبائلهم وينعون على خصومهم نقائصهم ، مرددين بذلك صدى الصراع والخلاف الذي كان يستعر بين الأطراف التي ينتمون إليها ، كان مسجد البصرة الشهير يتحول إلى مركز ثابت للعلم والدراسة. وقد توسعت الحلقات الصغيرة المتواضعة التي كان يجلس فيها رجال كعمران بن حصين في بداية الحركة[٤٣] . وصار اتساع مجال المعرفة يدفع بالعلماء للتخصص، وفي أيام الحسن البصري (ت ١١٠ هـ / ٧٢٨ م) أصبح علماء اللغة (أهل العربية) جماعة متميزة لها حلقاتها الخاصة بجانب حلقات المحدثين ورواد الأشعار والقراء

---

٤٠ إرشاد الأريب ٢٩٦/٧ ؛ النزهة ١٢ ؛ الجاحظ : البيان ١٧٣/٢ .

٤١ السيرافي ٢٤ ؛ النزهة ٧ ؛ إرشاد ٩٢/٦ ؛ البغية ٣٦٨ .

٤٢ النزهة ١١ ؛ البغية ٢٨٢ ؛ وانظر الباب الخامس من هذا الكتاب .

٤٣ ابن سعد ١/٧ ص ٥ — ٦ .

والقصاص وسواهم[٤٤]. وفوق ذلك انتظم التخصص دراسة الفنون الأدبية المختلفة رغم طبيعة التعليم الموسوعية في هذه المرحلة التكوينية. وقد كان هناك من الدواعي والدوافع الاجتماعية والثقافية ما دفع بالدراسات الأدبية خطوات إلى الأمام .

وقد نجم هذا الاهتمام البالغ باللغة والشعر من اجتماع عاملين مهمين. أولهما رغبة قبائل العرب في إحياء أمجاد ماضيها بغرض رسم صورة مشرقة لحاضرها في مجال المقارنة بخصومها السياسيين. وقد أدى ذلك إلى استغلال واسع للشعر الجاهلي وغيره كوسيلة للدعاية، وانتهى ذلك بجمع الشعر الجاهلي كما سيتضح لنا في فصل تالٍ من هذا الكتاب. وثانيهما رغبة دارسي القرآن الكريم واللغويين في إيجاد الشواهد. فقد كان هؤلاء في مساعيهم لشرح كلمات القرآن وتفسير معانيه واستنباط قواعد النحو يردون نفس المورد، ويستعينون بالمادة الشعرية كمصدر لشواهدهم. وكان تدقيق هؤلاء العلماء الأوائل في معالجة مادتهم الجاهلية وتقديرهم لها الذي يكاد يصل درجة التقديس يرجع في بعض ما يرجع إلى التقدير الكبير الذي كانت القبائل العربية تكنه لموروثها الشعري الذي تتجلى فيه أصداء ماضيها الأثير، والذي كان ما يزال ذا معنى في حياتها في بداية العصر الأموي. ولكن استخدام هؤلاء الرواد للشعر كأداة لغوية، أي اتخاذه وسيلة لغاية، ترك آثاره البعيدة على دراسة الشعر وتذوقه لآماد طويلة .

وكانت أهم شخصية في حقل الدراسات الأدبية أبا عمرو بن العلاء معاصر ابن الحضرمي وقد ارتقت الدراسات الأدبية على يديه درجات سامية. وكان أبو عمرو إلى جانب تفوقه في النحو متضلعاً في الدراسات القرآنية والشعر[٤٥]. وذكروا أن كتبه التي كتبت عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له إلى قريب من السقف،

---

٤٤ ياقوت: ارشاد ١٣٥/٤ .

٤٥ السيوطي: المزهر ٢٤٧/٢ ؛ انظر الباب السادس من هذا الكتاب ؛ دائرة المعارف الإسلامية .

ثم انه تقرأ فأحرقها كلها، فلما رجع بعد إلى علمه الأول لم يكن عنده إلّا ما حفظه بقلبه ، وكان عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية[٤٦] . وكان يفضل الشعر الجاهلي على كل ما سواه من الشعر المحدث، ويلتزم ذلك في إصرار حتى قال الأصمعي : جلست إلى أبي عمرو عشر حجج ما سمعته يحتج ببيت إسلامي[٤٧] . ولكن إحساسه العميق بقيمة الشعر جاهليه وإسلاميه وتذوقه لهما قد مهد الطريق لدراسة الشعر على أسس أكثر تنظيماً وضبطاً في العصر العباسي .

وقد أثر التحول الاجتماعي على المجال الثقافي من ناحية هامة أخرى. فقد لاحظنا من قبل أن تحضر العرب المتصل بإقامتهم في المصر وما نجم عنه من اتصالهم المستمر بغير العرب أدى إلى إضعاف سليقتهم اللغوية وسلب الكثيرين منهم القدرة على التعبير الفصيح بالمقارنة برصفائهم من رجال البادية[٤٨] . وقد لاحظ العلماء هذا التحول في مرحلة مبكرة واتخذوا التدابير اللازمة التي تضمن لبحوثهم الحيلولة دون تسرب الضعيف من اللغة. فاعتبروا سكان الحاضرة والبدو القريبين منهم مباءة لتأثير العنصر الدخيل ولا يصح الاستشهاد بكلامهم[٤٩] . وهكذا انتقل البحث عن اللغة الصحيحة إلى أعماق الصحراء حيث ظنوا أن فصاحة اللغة ما زالت بخير. ولكن هؤلاء البدو سرعان ما اكتشفوا الحاجة الماسة لكلامهم فغزوا المصر يمدون اللغويين بما كانوا يجدّون في البحث عنه. وأصبح المربد سوقاً رائجة لكلام البدو وغرائبهم التي كان علماء اللغة يتصيدونها في حماسة بالغة .

وفي نهاية عصر بني أمية حين أخذت المعارك القبلية تفقد حدتها، وأصبح الشعراء الذين يرددون صداها في سبيلهم للانقراض، ظل الاهتمام بالشعر واللغة

---

٤٦ إرشاد ٢١٦/٤ ؛ البغية ٢٦٧ ؛ الجاحظ : البيان ٢٥٦/١ .

٤٧ الجاحظ : البيان ٢٥٦/١ .

٤٨ الرازي: الزينة في الألفاظ الإسلامية ٧١ .

٤٩ السيرافي ٩٠ ؛ وانظر الباب السادس من هذا الكتاب .

يتقد في قلوب فقهاء اللغة وعقولهم ، فاستمروا في تسجيلهما ودراستهما. ولكن الشعراء الذين كانوا من قبل مصدر المادة اللغوية التي يعتمد فقهاء اللغة عليها ، أصبحوا يدورون في نهاية المطاف حول محور العلماء ويتلقون عنهم الهداية والنصح ، وأخذت المدارس الكلامية تستعين بما ترجم عن اليونان والفرس والهنود. كل هذا إلى جانب التحول الكبير في المجال الثقافي والاجتماعي لصالح الموالي مما أحدث آثاره العميقة في جو البصرة الثقافي .

البَابُ الثاني

منزِلة الشِعرُ في مجتمع البَصرة

الفصل الأول

تفرّد الشعر البصري

لا يبدو شعر البصرة بمقارنته بغيره من شعر الأمصار الإسلامية الأخرى مختلفاً فحسب بل متفرداً في أكثر من وجه. ومع أن هذا القول قد يصح على كل انتاج أدبي إذ التاريخ الأدبي لأي مصر من الأمصار متفرد من حيث هو نتاج لتفاعل عناصر متميزة اجتماعية واقتصادية وسياسية وغيرها عاشتها المنطقة المعنية، إلّا أنه ينطبق على البصرة أكثر من انطباقه على أي منطقة أُخرى. وهذا التفرد لا يقف عند حدّ الشعر وأنواعه بل يشمل الدور الذي لعبه في حياة البصرة. والنظرة السريعة للموقف الأدبي المعاصر في الأمصار الأخرى كفيلة بوضع البصرة في موقعها الصحيح .

فمن تضافر ظروف الحجاز الاجتماعية والسياسية نشأ شعر الغزل. وبرع الشعراء سواء في المدن أو البوادي في تجويد آلة فنهم، فنجم عن ذلك لونان من الغزل. وكان ظهور طبقة من الشباب القرشي الغني الفارغ في المدن المحروم من كل نشاط سياسي، والذي كان الأمويون يغدقون عليه الأموال ويشجعونه على الانصراف للهو والعبث، قد ساعد في انتاج اللون التحقيقي من شعر الغزل[1]. وكان فقر

---

١ انظر طه حسين: حديث الأربعاء ج ٢ ;Nicholson: Literary History of the Arabs, 236-8.

البادية النسبي الذي فعل فيه الإسلام فعله، إضافة إلى اندفاع أعراب الجزيرة إلى الأمصار مع الجيوش الغازية وما يحدثه ذلك في نفوسهم من لواعج الحرقة والحنين والتشوق إلى ديارهم، كل ذلك فتح المجال واسعاً لشعر المدرسة العذرية. وكلا المجموعتين التحقيقية والعذرية أسهمت في تطوير ذلك الشعر الذي تتجلى فيه شخصية الشاعر وفرديته إلى جانب تصويره لروح العصر والعاطفة المسيطرة على بيئته سواء أكانت المتعة الحسية والبحث عن اللذة في المدن أو الحرمان المضني، والتحرق الحزين في غيرها. وكان هذا الانشغال بشعر الحب واللذة من جانب آخر يضيِّق من دائرة التنوع الشعري مما حدَّ من تأثير الشعر عامة على المجتمع.

أما في الكوفة، صنو البصرة، فقد ساعدت غلبة القبائل اليمنية الجنوبية الظاهرة على القبائل الشمالية النزارية في تخفيف حدَّة الصراع القبلي لا الصراع السياسي. والشعر الذي عبَّر عن هذا الوضع له أهميته الخاصة من حيث تصويره لعقائد الأحزاب الدينية السياسية خاصة الشيعة والخوارج.

أما بيئة الشعر الثالثة: الشام حيث كان البلاط الأموي، فقد كانت تردِّد على وجه العموم أصداء الشعر في المناطق الأخرى ولم يكن لها من فضل على الحركة الشعرية في عصر بني أمية إلّا في أضيق الحدود[٢].

وفي البصرة دون غيرها نجد ألوان الشعر التي تتجلى فيها بطريقة أقرب إلى الشمول أوجه التطور الاجتماعي المختلفة ومراحله، والتي كانت من الحيوية والقوة بحيث تركت آثارها التي لا تمحى على المناطق الأخرى في الامبراطورية الإسلامية. والواقع أن العلاقة الحميمة بين شعر البصرة وحياتها اليومية كانت من القوة بحيث يحسٍّ المتتبع لما ترويه المصادر العربية عنها وكأنه لم يكن للبصريين من شاغل

---

٢ انظر Nallino: La Literature Arabe (Paris 1950), 242-254 وانظر الزهيري ٢٩١ – ٣٠٣.

يشغلهم غير قول الشعر وروايته. وهذا الإحساس الذي تتركه هذه الروايات في النفس – مع تطرفه وبعده الواضح عن الواقع – يؤكد جدية هذا الشعر والدور الهام الذي كان يقوم به في حياة البصرة. وبالنظر إليه كجزء من النشاط العقلي العام حيث ازدهرت فنون القصاص والوعاظ وغيرهم وأخذت تتصارع وتتنافس لجذب انتباه الناس والسيطرة على عقولهم وأذواقهم، فإن الشعر كان قوة حقيقية فعالة وكان يؤثر على حياة البصرة ويتأثر بما يجري فيها إلى درجة لم يعهدها أي مصر آخر .

ولكي نتصور أهمية هذا النشاط الشعري ومدى إعجاب المجموعات المختلفة به وإكبارهم له فلا بد من إشارة سريعة لأهم العوامل التي بلغ بها هذا الشعر مكانته العالية في مجتمع البصرة .

غلبة النِّزارية :

إن منزلة البصرة الخاصة بحكمها مقراً لقبائل يغلب عليها العنصر النزاري، وما كان منه في شرق الجزيرة بالذات وعلى رأسه تميم، هذه المنزلة تفسِّر لنا إلى حدّ كبير كثيراً من الاتجاهات والظواهر الخاصة بالبصرة. فغلبة تميم بالذات كان لها آثار بعيدة المدى على المجالين الاجتماعي والأدبي. وأول هذه الآثار استمرار التقليد الجاهلي في قول الشعر بعد توقف قصير بسبب الهزة العنيفة التي أحدثها ظهور الإسلام في حياة العرب. فقد عُرِفت تميم بتراثها الأدبي الثَّر وتمَّ الاعتراف بها كمستودع للشعر العربي في الإسلام. ولم يكن التميميون رواة لقدر ضخم من الشعر الجاهلي فحسب[٣] بل كان فيهم خير شعراء الإسلام. قال أبو عبيدة معمر ابن المثنى: «كان الشعراء في الجاهلية من قيس وليس في الإسلام مثل حظ تميم

---

٣ انظر الفصل السادس من هذا الكتاب ص ٣٠٠ – ٣٠٢ لقصة الفرزدق. وانظر زكي ٢٢٣ – ٢٢٥ .

في الشعر »[٤] وكانت فروع هذه القبيلة تمثل من نواح متعدِّدة تقاليد العرب الأساسية في مجال الاجتماع والأدب، ومن ثمَّ كان حرصها الشديد على المحافظة على الأسلوب الجاهلي في نظم الشعر وقوله مما وضع البصرة موضعاً متميزاً من غيرها من الأمصار. وكان قرب البصرة من البادية العربية مما قوى من هذا الاتجاه، ولكننا لا نُغْفِل في هذا المجال العوامل المخفِّفة الأخرى[٥] التي كانت تحوِّر نمط الحياة العام وتحدِث آثارها في درجات مختلفة ومتفاوتة على نتاج الشعراء. فقد كانت الآلام المصاحبة لفترة الانتقال الحضاري واضحة في اتجاهاتهم وآثارهم الأدبية. ولعلَّ ما يبدو من هذه الآثار متناقضاً ومتضارباً في بعض الأحايين كان صورة صحيحة لزمانهم الذي كان شديد الاضطراب. فالمشاكل العديدة التي صاحبت تحول البدويين البطيء إلى طور الحضارة وما لازم ذلك من مضاعفات المعارك السياسية الأخرى في الداخل والخارج قد أثرت في مجرى الشعر الذي قيل تحت هذه الظروف وحدّدت طبيعته. فتركت الخلافات القبلية المتوطنة وما نجم عنها من عديد القضايا التي تصوّر عناد البدو وتمردهم، بصماتها القوية على كثير من شعر العصر، وأصبح الشعر باطراد – أكثر من أي وسيلة أخرى – أداة التعبير الأولى عن الاتجاهات السائدة والوعاء الأمثل لهموم العصر الملحة .

وليس أصدق من كلمة محمد بن سلام الحكيمة عن الشعر العربي عامة في الحديث عن البصرة. فقد قال «وكان الشعر في الجاهلية ديوان علمهم ومنتهى حكمهم به يأخذون وإليه يصيرون فجاء الإسلام، فتشاغلت عنه العرب، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم، وَلَهَت عن الشعر وروايته فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار، راجعوا رواية الشعر، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب وأنفوا وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا

---

٤ الأغاني ٦/١٩ ؛ ياقوت: إرشاد ٢٥٨/٧ .

٥ انظر الباب الأول ص ٤٩ – ٥٥ ، ٥٩ – ٦٩ .

أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير[٦]. وكانت قلة الشعر في أيام الإسلام الأولى واضحة. وقد بلغ الأمر في هذا الشأن أن الشعراء الذين عرفوا بإحسانهم في الجاهلية ثم هاجروا إلى البصرة لم يعجزوا عن المحافظة على مستواهم القديم فحسب بل نزلوا عنه درجات حين قالوا الشعر في الإسلام. وأصبح كثير من الشعراء المجيدين كالنَّمِر بن تَوْلَب[٧] والمُخَبَّل السَّعْدي[٨] وعمرو بن الأهتم[٩] وغيرهم لا يذكرون إلّا بأمجادهم السالفة في الجاهلية. فقد فلَّ ظهور الإسلام وما نجم عنه من انهيار مطرد للمجتمع الذي عهدوه من حدّ عبقريتهم الشعرية[١٠]، ودعت الظروف الجديدة سواء في البادية أو المدينة لبروز جيل جديد من الشعراء يختلفون في اتجاهاتهم ومشاربهم اختلاف مظاهر حياة المصر العاصفة، وقد ظهر هذا الجيل بالفعل يعبّر عن الوضع الجديد بكل ما فيه من تنوّع وغنى .

الأمويون والشعر :

بانحسار آثار الصدمة الكبرى التي تعرَّضت لها الحياة العربية بظهور الإسلام، وبعد أن اتضح أن النظام القديم يمكن تطويعه ببعض التحوير ليناسب الظروف الجديدة ويخدم غاياتها، انتظمت المجتمع الإسلامي حركة عنيفة هدفها وصل الماضي بالحاضر وتهيئته ليلائم متطلبات الحياة الجديدة. وقد وضح من دراستنا السالفة ان الطاقات الجبارة الناتجة عن تضافر جهود القبائل العربية، والتي توجهت لإعلاء كلمة الإسلام داخل جزيرة العرب وخارجها، سرعان ما أصابها الوهن بتبديدها في ذلك الصراع الطويل لحسم موضوع الخلافة بعد مقتل عثمان. وكان انتصار بني أمية الذين اشتهروا بتمسكهم بتقاليد الجاهليين فاتحة لعهد جديد

---

٦ ابن سلام: الطبقات ٢٢ – ٢٣ .

٧ الأصفهاني: الأغاني ١٥٧/١٩ ؛ المبرد: الكامل (المرصفي) ١٩/٣ – ٢٠ .

٨ الأغاني ٤٠/١٢ – ٤٥ .

٩ المبرد: الكامل ٦٨/٢ ؛ ابن قتيبة: الشعر ٦١٤/٢ – ١٥ ؛ الجاحظ: البيان ٥٣/١ – ٤ ، ٢٧٨ ؛ المفضليات ١٢٥ ، ٤٠٩ .

١٠ انظر ابن قتيبة: الشعر ٢٦٥/١ ؛ المرزباني: الموشح ٦٢ لأثر الإسلام على الشعر .

وبداية لتغييرات بعيدة المدى في نظرة الحاكمين والمحكومين على السواء إلى الشعر. وليس غايتنا هنا ان ندحض ما يوجه إلى الأمويين من اتهام بالانحراف عن تعاليم الإسلام واغفال لها في معاملاتهم وحكمهم؛ ولكن الأمر المؤكد أنهم شجعوا بمختلف الأساليب والسبل إحياء تراث العرب التقليدي وثقافتهم وعلى رأس ذلك الشعر. ولعلهم كانوا في ذلك أعراضاً لظاهرة عامة أكثر منهم سبباً لها، فهم يستجيبون لداعيها دون أن يكون لهم سلطان عليها. وتفسير ما حدث من رجعة إلى تراث الجاهلية على عهد بني أمية بأنه نكوص عن الإسلام وردّة إلى حياة الجاهلية تفسير قاصر يبتر النتائج عن أسبابها ويهمل في تعليله للظواهر دوافعها الحقيقية. فرجعة العرب على عهد بني أمية إلى تراث الجاهليين كانت رجعة موجهة بتأثير الإسلام، غرضها الغوص في أعماق الماضي لأخذ خير ما فيه، ثم الرجعة إلى الحاضر لإثراء الشخصية، وذلك بوصلها بجذور ماضيها بحيث يكون حاضرها المشرق امتداداً لماضيها المجيد. كانت الشخصية العربية محتاجة لتأكيد عناصر القوة فيها لتتحمل أعباء الرسالة التي ألقاها على كاهلها دين الإسلام. ومن هنا جاء هذا الاهتمام الكبير بتراث الجاهليين. أدى هذا الاهتمام بالأمويين إلى النظر إلى الشعر نظرة تكاد تخالف نظرة من سبقهم. فقد روى عن عمر بن الخطاب أنه قال: «كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه»[11]، وكان يعني بذلك أن القرآن قد حلَّ محله في الإسلام، وذهب أبعد من ذلك بتحريمه كل ألوان الشعر التي تذكر الناس بالجاهلية، فكان يسجن من يخالف أمره من الشعراء[12] أحياناً، وينقص عطاءهم أحياناً أخرى[13].

---

١١ ابن سلام: طبقات ٢٢.

١٢ انظر ابن قتيبة: الشعر ١/٢٨٧ لسجنه الحطيئة.

١٣ انظر الأغاني ١٨/١٦٥ حيث انقص عطاء الأغلب العجلي بخمسمائة درهم. ولكننا مع ذلك لا نعدم اشارات في المصادر لتشجيعه الناس على رواية الشعر فقد ذكروا أنه كتب لأبي موسى: «مُر من قبلك بتعلم الشعر فإنه يدل على معاني الأخلاق وصواب الرأي ومعرفة الإنسان». والواضح أنه منع الشعر الفاحش. وروى عنه الجاحظ قوله: خير صناعات العرب أبيات يقدمها الرجل بين يدي حاجته يستميل بها الكريم ويستعطف بها اللئيم. البيان ٢/٨١.

وسلك عثمان بن عفان مسلكه فسجن شاعراً تميمياً من لصوص العرب لهجائه أم خصومه[١٤]. وكان علي بن أبي طالب على براعته في الشعر فيما زعموا سيء الظن بالشعر فقد ذكروا أن غالباً أبا الفرزدق جاء به إلى علي بعد الجمل بالبصرة فقال: «إن ابني هذا من شعراء مضر فاسمع منه. قال: «علمه القرآن». فكان ذلك في نفس الفرزدق فقيد نفسه في وقت وآلى أن لا يحل قيده حتى يحفظ القرآن[١٥]. وقد توعَّد ابن عباس والي علي على البصرة الشاعر ابن فسوة وسجنه يوماً واحداً ثم طرده من البصرة[١٦]. ولعله لنفور هؤلاء الحكّام الأُوَل من الشعر يعزى بعض السبب في قلة الشعر الذي يمجد أفعالهم ويمدحهم في حين كان ذلك ديدن الشعراء قبلهم وبعدهم إذ ما أكثر ما مدحوا من سبقهم في الجاهلية ومن جاء بعدهم من الولاة. وكان اتجاه الأمويين كما يمثله معاوية بن أبي سفيان مخالفاً لذلك مخالفة تكاد تبلغ مرتبة المناقضة. فقد ذكروا أنه كتب إلى زياد: إذا جاءك كتابي فأوفد إلي ابنك عبيد الله. فأوفده عليه فما سأله عن شيء إلّا أنفذه له حتى سأله عن الشعر فلم يعرف منه شيئاً. قال: فما منعك من روايته ؟. قال: كرهت أن أجمع كلام الله وكلام الشيطان في صدري، فقال: اعْزُب ! والله لقد وضعت رجلي في الرّكاب يوم صفّين مراراً، ما يمنعني من الانهزام إلّا أبيات ابن الإطنابة حيث يقول :

أبت لي عفـــتي وأبى بلائي وأخذي الحمد بالثمن الربيح

وكتب إلى أبيه: أن روّه الشعر، فروّاه فما كان يسقط عليه منه شيء[١٧].

وكان عبد الملك بن مروان أوضح سبيلاً في تشجيعه حفظ الشعر وروايته حين قدم الكوفة فجعل يعرض أحياء العرب للبيعة فقام إليه معبد بن خالد الجديلي

---

١٤ البلاذري: أنساب ٨٤/٥ – ٥ ؛ وانظر الباب الخامس أدناه .

١٥ الأغاني ٦/١٩ .

١٦ نفسه ١٤٤/١٩ ؛ وانظر الباب الخامس أدناه .

١٧ السيوطي: المزهر ٣١٠/٢ – ١١ ؛ ابن رشيق: العمدة ٢٩/١ .

وكان قصيراً دمياً وقام إليه رجل آخر طرير حسن الهيئة وسألهما عن ذي الإصبع العَدْواني وكان منهم وطلب إنشاد شعره فلم يجب الرجل الطرير وأجاب معبد. قال معبد: فقال عبد الملك لصاحبي: كم عطاؤك قال سبعمائة. ثم قال لي: كم عطاؤك ؟ قلت أربعمائة. قال أنت أحق بالسبعمائة. خذوا من عطاء هذا ثلاثمائة فزيدوها في عطاء هذا. فانصرفت وعطائي سبعمائة وعطاء صاحبي أربعمائة. قال: فرغب الناس من يومئذ في الأدب[١٨] .

وكان الحجاج يسير في نفس الاتجاه باستشهاده بغريب الشعر خاصة الجاهلي منه أكثر من استشهاده بآيات القرآن الكريم في خطبه. وكانت العناية متجهة لتشجيع رواية الشعر وقوله وكثيراً ما غضت السلطة الطرف عن تطرف الشعراء ونزقهم ما داموا لا يوجهون ذلك لنظام الحكم القائم .

الشعر والقبائل :

ولم يقف تأثير الأمويين على المجال الأدبي عند هذا الحد بل تعداه إلى جوانب أخرى. فقد عمقت سياستهم في استغلال الخلافات القبلية لصالح أسرتهم الحاكمة أسباب النزاع بين مختلف الطوائف والجماعات وأسهمت في انتاج ألوان من الشعر غايتها الأساسية إعلاء شأن المجموعة التي ينتسب إليها الشاعر[١٩] . وكانت نتيجة هذه السياسة في ميدان الشعر ازدهار الهجاء والمدح والفخر ازدهاراً لم يسبق له مثيل. صحيح أن هذه الفنون الشعرية كانت بضاعة الشعراء المزجاة قبل الإسلام، ولكنها لم تبلغ المنزلة التي بلغتها في زمن بني أمية وفي البصرة بالذات من حيث الكثرة والحيوية، وتعليل ذلك يسير فقد أخذ الشعر يصبح باطراد من أهم وسائل الدعاية السياسية التي يعترف الجميع بفعاليتها. وكانت القبائل التي تتصارع في بعض الأوقات

---

١٨ العسكري: المصون ١٦٩ – ١٧٢ ؛ الأغاني ٣/٣ – ٤ .

١٩ سنفصل القول في هذه المسألة في الباب الثالث .

لتمهد لنفسها مكاناً في حلبة المعترك السياسي كثيراً ما لجأت إلى شعرائها تعضد بهم دعاويها وكان هؤلاء يطنبون في ذكر أمجادها ومساوىء خصومها. وكان نتيجة ذلك أن الشعر أصبح أكثر من أي وقت آخر شديد الالتصاق بمجرى الحياة اليومية في البصرة إلى درجة بدا بها في بعض الأحيان كما ذكرنا من قبل وكأنه شغل النا س الشاغل .

وقد بلغت أهمية الشعر كوسيلة لاعلاء شأن القبيلة وتضخيم صورتها درجة دفعت كثيراً من القبائل التي وجدت حصيلتها من الشعر قليلة إلى تزييف شعر المديح ونحله شعراءها قبل الإسلام[٢٠] . ونلاحظ هنا أنه حتى هذه النغمة الشخصية القوية التي تظهر في كثير من شعر الهجاء لهذه الفترة متفرعة عن تيارات التنافس القبلي السائدة، والعنصر الشخصي فيها مظهر للشخصية الجماعية الكامنة .

ولكن رغم هذا الوضع فلا بد من الحذر في معالجة العلاقة بين كثير من هذا الشعر وحقائق الحياة، فإن حظ الشعر كان يتأرجح مثل حظ القبائل بين طرفي نقيض. وقد ذكرنا من قبل أن قوة الشعور القبلي وضعفه يعكس من بعض الوجوه مدى سيطرة الدولة وحظ ذلك من القوة والضعف. فحين تضعف السيطرة المركزية أو تنهار يبلغ الشغب القبلي أحياناً درجة الحرب الفعلية وينبري الشعراء للتعبير عن صدى هذه المعارك في أشعارهم بحكم وضعهم كمتحدثين بلسان الأطراف المتحاربة التي ينتمون إليها. وفي أوقات السلم حين تفرض الدولة سلطانها وتكبح جماح التمرد والثورة، تستكين القبائل كأحزاب لحكم القانون وتخضع للسلطة، ويخلد الشعراء مثلها للهدوء والسكينة وينصرفون إلى ذلك النشاط العادي من منافستهم لبعضهم بعضاً في ذكر مآثر قبائلهم وتصوير أمجادها الغابرة، وبذلك يبقون قضايا الصراع القبلي الكبرى حية في عقول الناس وقلوبهم، أو يستمرون بذلك الصراع

---

٢٠ ابن سلام: طبقات ٣٩ - ٤٠ .

على نطاق ضيِّق لا يتجاوز في بعض الأحوال المستوى الشخصي كما كان الشأن بين جرير والفرزدق اللذين كانا من تميم ولكنهما ينتميان إلى فرعين مختلفين. وكان أمرهما شاهداً قوياً في مجال الشعر على ذلك التأرجح بين حدَّي الجدية المفرطة والعبثية المضحكة للنشاط القبلي حين يُدار تحت سلطة مركزية. فعلى الرغم من أن النزاع بين الشاعرين الكبيرين كان يصطبغ في بعض مراحله بصبغة العداء الشخصي الحاد حيث يكال الشتم والسباب الفاحش وتقذف النساء من كلا الجانبين بأقبح التهم، فإنه في صميمه صدى لصورة من التنافس القبلي أعمق جذوراً وأوسع مدى. والأمر المؤكد أن العلاقات الشخصية التي كانت تقوم بين معظم الشعراء غير هذين في هذه الفترة كانت جزءاً لا يتجزأ من أوجه الصراع الكبير بين القبائل، وكانت الظروف السائدة هي التي تحدّد درجة الالتحام حيث يمتزج العنصر الشخصي بالعنصر الجماعي. فعلى الرغم من أن مفهوم الوحدة العضوية القديم للقبيلة كان يتعرض لضغط متصل في حياة الحاضرة إلَّا أنه لم يتلاش كليَّة وبقي حيًّا في نفوس العرب حتى بعد أن ذابت القبائل نفسها في إطار المجتمع الحضري. وهذا المفهوم لا يقيم حداً واضحاً بين الفرد والمجموعة التي ينتمي إليها. ولذلك فالهجاء الذي يوجه لفرد لا يقف تأثيره عند الفرد المهجو بل ينظر إليه كهجاء للمجموعة التي ينتمي إليها. فعندما سمع الحسن البصري قول الشاعر :

لولا جرير[٢١] هلكت بَجيلة نعم الفتى وبئست القبيلـة

سأل سامعيه إن كان البيت مدحاً أم هجاء. وعندما أجابوه بأن الشاعر مدح الرجل وهجا قومه قال لهم «ما مُدِحَ من هُجِيَ قومُه»[٢٢]. وهذا يفسر الجهود الكبيرة التي كان الشاعران وغيرهما من شعراء القبائل يبذلونها في ذكر مآثر قبائلهم وتعداد فضائلها حتى في أكثر المناقضات مساساً بأشخاصهم كأفراد كما سيتبين لنا بعد قليل .

---

٢١ جرير بن عبد الله البجلي صحابي مشهور .

٢٢ الأغاني ١٩/١٤ .

الشاعر بين القبيلة والدولة :

كانت الصلة الوثيقة بين هذا الشعر والحياة البصرية مثار جدل كبير ومصدر تكهنات حول جدية الدور الذي كان يضطلع به في مجتمع البصرة. هل كانت غايته امتاع المتفرغين من أهل البصرة، ويراد به إلى التسلية وقطع أوقات الفراغ لقبائل العرب التي استقرت في العراق، ولم يكن يراد به جداً ولا ما يشبه الجد»[٢٣] ؟ أم أنه كانت له جوانب عملية متعلقة بحياة الناس ؟ وكل هذا التساؤل يُلْقي بدوره تساؤلاً آخر عن علاقة الشاعر بمجتمعه. ومعنى ذلك اننا محتاجون في تقويمنا لأهمية الشعر الحقيقية في مجتمع البصرة لتعيين مقام الشاعر نفسه وتتبع طالع حظه في المجتمع الذي ينتج له شعره. فمكانة الشاعر في المجتمع تعكس بوضوح مكانة الشعر في ذلك المجتمع. وبما أن الشاعر البصري ليس إلّا حلقة في سلسلة التطور للشعر العربي فلا بأس من إشارة سريعة لمنزلة الشاعر السابقة خاصة في الجاهلية، إذ أن ما نراه في البصرة لا يعدو أن يكون امتداداً لما كان في ذلك الماضي. قال أبو عمرو بن العلاء: «كانت الشعراء عند العرب في الجاهلية بمنزلة الأنبياء في الأمم حتى خالطهم أهل الحضر فاكتسبوا بالشعر فنزلوا عن رتبتهم. ثم جاء الإسلام ونزل القرآن بتهجين الشعر وتكذيبه، فنزلوا رتبة أخرى. ثم استعملوا الملق والتضرع فقلوا واستهان بهم الناس»[٢٤]. ويفصل الجاحظ القول في ذلك حين يذكر أن «الشاعر كان أرفع قدراً من الخطيب وهم إليه أحوج لردّه مآثرهم عليهم وتذكيرهم بأيامهم، فلما كثر الشعراء وكثر الشعر صار الخطيب أعظم قدراً من الشاعر»[٢٥]. وهذا التدهور في مكانة الشاعر كمتحدث بلسان قومه الذي بدأ في أواخر الجاهلية سيستفحل مع الزمن كما توحي بذلك كلمات أبي عمرو السالفة. وبظهور الإسلام تعرض استقلال القبيلة لتدهور مطرد. وحلّ

---

٢٣ شوقي ضيف: التطوّر والتجديد في الشعر الأموي .

٢٤ الرازي: كتاب الزينة ١/٩٥ .

٢٥ الجاحظ: البيان والتبيين ٣/٢٧٢ .

محله تحكُّم الدولة الذي كان يتطلب – على الأقل من ناحية نظرية – خضوع العرب وتقديم ولائهم كمواطنين وليس كقبليين. وقد ظل الكيان القبلي يتحوَّر ويتشكل طوال فترة بني أمية ولفترة كبيرة من عهد بني العباس بحيث ينتج مجتمعاً حضرياً أكثر تجانساً وترابطاً. وصارت القبلية حتى في البصرة التي عرفت بتمردها تنحصر باطراد في إطار جامد يفرضه الإسلام وترعاه الخلافة التي يدين لها العرب كمسلمين بالولاء. وفي بعض الأحيان ونتيجة للسياسة الأموية المرسومة، كانت هذه القبلية تلعب دورها كجزء من إطار السياسة العام، ولكن اتصالها الذي لا ينفصم بكيان المجتمع الأكبر لم يكن موضع شك بأي حال من الأحوال. وكان الصراع حتى في أوج استعاره موجهاً في المكان الأول للحصول على أكبر نصيب من السلطة أو الحظوة لدى الخليفة الحاكم أو ولاته. وقد كان هذا الوضع مصدر حيرة لكثير من الشعراء الذين وجدوا أنفسهم في حالة تمزق بين ولائهم لقبائلهم وخوفهم من الحكام ورجال الإدارة الذين كان همهم الشاغل تقليم أظافر القبلية وشل حركتها. وقد برهنت سلطة الدولة في نهاية المطاف على تفوقها، وخضع الشعراء على تفاوت فيما بينهم لإغراء الأمراء وإرهابهم. فبينما صرف بعض الشعراء كل جهودهم لخدمة الأمير وكادوا أن يصلوا في معيته إلى مرتبة شاعر البلاط كما كان شأن يزيد بن مفرِّغ في حضرة عَبَّاد بن زياد بن أبيه، جمع بعضهم، كما كان أمر جرير مع الحجاج، بين وظيفة المحامي عن شرف القبيلة ووظيفة شاعر الأمير. أما الشعراء الذين كانت تستبدّ بهم نعرتهم القبلية كالفرزدق والذين كانوا يجدون من أنفسهم دافعاً قوياً لنصرة قومهم في كل حالة فإن تحدّيهم لسلطة الدولة القاهرة كان دائماً كما تبين للكثير منهم، باهظ الثمن[٢٦].

ورغم كل هذا فمن الممكن أن نلحظ مطابقة بين موقف الشعراء عامة من الدولة وبين منحى التطور العام الذي كان البدو يخضعون بمقتضاه في اطراد وتلازم

---

٢٦ سنفصل القول في ذلك في الباب الرابع.

لسلطة الدولة. فنتبين شعوراً قوياً بالمنعة والحرية والاستقلال الذي قد يصل أحياناً درجة التحدي السافر لدى بعض الشعراء في بداية العصر الأموي. فقد وجه الشاعر الفرزدق في صباه قصيدة عنيفة لمعاوية بن أبي سفيان يؤنبه فيها على احتجازه ميراث الحتات المجاشعي أحد زعماء تميم ويقول له فيها :

أتأكل ميراث الحُتات ظُلامةً   وميراث حرب جامدٌ لك ذائبه
أبوك وعمّي يا معاويَ أورثـا   تراثاً فيحتاز التراث أقاربـه
فلو كان هذا الدِّين في جاهلية   عرفت مَنْ المولى القليلُ حلايبه

وهو لا ينسى أن يفاخر الخليفة ويتحداه ويخاطبه باسمه دون تفخيم أو لقب :

ولو كان هذا الأمر في غير ملككم   لأدّيته أو غـصّ بالمـاء شاربـه
وكم من أب لي يا معاوي لم يكـن   أبوك الذي من عبد شمس يقاربه[٢٧]

فما كان من معاوية إلّا أن أدّى إلى أهل الحتات ما منعه عنهم أولاً وهو راغم[٢٨]. ودخل الفرزدق على سليمان بن عبد الملك فقال له: «من أنت ؟» . وتجهم له كأنه لا يعرفه فقال له الفرزدق: «وما تعرفني يا أمير المؤمنين» ! قال «لا». قال: «أنا من قوم منهم أوفى العرب، وأسود العرب وأجود العرب، وأحلم العرب، وأفرس العرب، وأشعر العرب». قال: «والله لتبينن ما قلت أو لأوجعن ظهرك ولأهدمنّ دارك»، فذكر له في تفصيل ذلك حاجب ابن زرارة، وقيس بن عاصم، وعتّاب بن ورقاء الرياحي، والحريش بن عبد الله السعدي، وقال وأما أشعر العرب فهأنذا بين يديك يا أمير المؤمنين ! فاغتمّ سليمان مما سمع من فخره ولم ينكره. وقال: «ارجع على عقبيك فما لك عندنا شيء من خير»، فرجع الفرزدق وقال:

أتيناك لا من حاجة عرضت لـنـا   إليك ولا من قِلّة في مجاشـع[٢٩]

---

٢٧ ديوان الفرزدق ٤٥/١ .

٢٨ الطبري ٩٧/٢ ؛ الأغاني ٣٧/١٩ ؛ النقائض ٦٠٩ ؛ ابن سلام ٢٥١ ؛ دائرة المعارف الإسلامية الفرزدق .

٢٩ العقد الفريد ٦٣/٢ - ٤ .

وهناك شاعر تميميّ آخر يدعى أبا حُزَابة ألحّ عليه قومه في الذهاب للخليفة وقالوا له: «لو أتيت يزيد بن معاوية لفرض لك وشرّفك وألحقك بعلية أصحابه فلست دونهم»، وكان أبو حزابة يومئذ غلاماً حدثاً وكان معاوية حيًّا أميراً يومئذ، فلما أكثر عليه قومه في ذلك وفي قولهم «إنك ستشرف بمصيرك إليه» قال:

يشرفني سيفي وقلب مجانب ... لكل لئيم باخل ومعلهج

فلما أكثر عليه قومه وعنفوه في تأخره أتى يزيد بن معاوية فأقام ببابه شهراً لا يصل إليه فرجع وقال: «والله لا يراني ما حملت عيني الماء إلّا قتيلاً أو أسيراً»، وأنشأ يقول:

فوالله لا آتي يزيد ولو حوت ... أنامله ما بين شرق إلى غرب
لأن يزيداً غيّر الله ما به ... جنوح إلى السوأى مصرّ على الذنب

ومضى يهجوه ويهجو بني حرب ويعيّره بشربه الخمر ويتساءل في سخرية:

أيشربها صرفاً إذا الليل جنّه ... معتقة كالمسك تختال في القلب
ويلحى عليها شاربيها وقلبه ... يهيم بها إن غاب يوماً عن الشرب[٣٠]

ولكن مثل هذا التمادي في التحدي كان مسموحاً به في الحدود التي لا تجعل منه خطراً على الحاكمين وسبيلاً لإثارة عواطف المحكومين عليهم. وسنتبين أن الأمراء الأشداء كزياد ومصعب والحجاج لم يكونوا يترددون في حبس من يتحداهم من الشعراء وقتلهم إن دعت الضرورة.

وقد جاءت الدولة لتلعب دورها الايجابي كعامل مساعد في إضعاف اعتماد الشاعر على مجموعته القبلية في كسب عيشه، وذلك بتهيئتها بديلاً أكثر إغراء ومنفعة. وكانت المكاسب المتاحة لمن ربطوا أنفسهم بمعية الأمير وانفتاح باب الثراء والنفوذ أمامهم قد أثر على مجرى الشعر من أوجه عديدة. فقد كان الأمويون

---

٣٠ الأغاني ١٥٤/١٩ .

بمقتضى سياستهم المرسومة مفرطي الكرم مع الشعراء الذين يمدحونهم ويرفعون من قدرهم. وكانوا على وعي تام بعداوة الكثيرين من سكان العراق والحجاز لحكمهم ولذلك لجأوا لكافة أساليب الترغيب والترهيب لكسبهم لجانبهم. وكان الشعراء أداة الدعاية التي لا يختلف على فعاليتها الناس، وأصبح العثور على شاعر مجيد يخدم أغراضهم المعلنة مما يثلج صدورهم ويلقى منهم الترحيب والفرحة. وظل بلاط الخلفاء ومجالس الولاة والأمراء في الأمصار مثابة لكل ذي شاعرية. وفي الذي حدث لجرير دلالة على الأهمية التي كانوا يضعونها لنشاط الشعراء. فقد ذكروا أنّه قدم على الحكم بن أيوب وهو خليفة الحجاج يومئذ فمدحه، فلما قدم عليه استنطقه فاعجبه ظرفه وشعره فكتب إلى الحجاج: «أنه قدم عليّ أعرابيّ شيطان من الشياطين». فكتب إليه: «أن أبعث به إليّ». ففعل. فقدم جرير على الحجاج فأكرمه وكساه جبة صبرية وانزله فمكث أياماً[٣١]. ولم يلبث جرير أن أصبح شاعر الحجاج، ولكن الحجاج رأى أن يذهب شاعره للخليفة قائلاً: «ان الطاقة تعجز عن المكافأة ولكني موفدك على أمير المؤمنين»[٣٢] فبعث بجرير إلى عبد الملك بن مروان. ومع أن الخليفة تجهّم للشاعر أول الأمر لمدحه الحجاج وحين قالوا له: «هذا جرير ابن الخطفى مادحك وشاعرك». قال: «بل مادح الحجاج وشاعره»، لكنه ما لبث أن استمع إليه وأعجب بشعره فمنحه مائة من الإبل وصحافاً من الفضة[٣٣].

وكان إسهام مثل هؤلاء الشعراء في إنجاح السياسة الأموية في العراق وغيره عظيماً رغم مظاهر التمرد والعصيان التي كانت تبدو منهم في بعض الأحيان[٣٤].

٣١ نفسه ٤٨/٧ .

٣٢ العقد الفريد ٣١١/١ .

٣٣ الأغاني ٦٦/٧ – ٧ ؛ ابن سلام ٣٥٧ ؛ الجاحظ: كتاب التاج ١٣٢ – ٤ ؛ وقد بعث الحجاج أيضاً العجاج وابنه رؤبة للوليد بن عبد الملك (الأغاني ٨٨/٢١) بينما استدعى عبد الملك ذا الرمة لبلاطه (الموشح ٢٣٩) .

٣٤ انظر الباب الرابع من هذا الكتاب .

وظل بعض الشعراء الذين لم يميلوا لربط أنفسهم ببلاط بعينه أو لصرف جهودهم للدعاية لاتجاه سياسي معين كما كان حال الفرزدق، ظل هؤلاء يقدمون خدماتهم في أكثر أحوالهم لمن يدفع أعلى الأثمان، وذلك لحاجتهم الماسة إلى المال. وكان مما دعم مركز هذه الفئة المتاجرة بلسانها تطور آخر قد لاحظنا جوانب منه من قبل – فالسلسلة المتصلة من الدعاية والدعاية المضادة التي انتجتها السياسة الأموية هيأت المناخ الصالح لازدهار الهجاء والمدح ليس على المستوى القبلي فحسب كما أشرنا إلى ذلك من قبل بل على المستوى السياسي والشخصي أيضاً. وقد اعترى هذين "لمنين تطوّر كبير وأصبح الناس ينظرون إلى الآثار المترتبة عليهما في ضوء جديد. إذ لم تعد هذه الآثار مجرد كلمات مزخرفة يطلقها الشاعر في الهواء لإرضاء غرور الممدوحين وطمأنة جموح المهجوين، بل أصبحت مكاسب مادية محسوسة تجنيها القبائل والجماعات وكل الطامحين من ذوي التطلع إلى مراكز السلطة والنفوذ. فقد كان في مقدور الشعراء بناء شخصية الأمير المتطلع إلى المنصب المرتقب وتزيين صورته، وكان مثل هذا الفرد حريصاً على بذل الغالي والنفيس في سبيل تحقيق غايته، ولذلك لم يأل هو وأمثاله جهداً في جذب كبار شعراء زمانهم لا لإرضاء نزواتهم الشخصية فحسب بل لأنهم يعلمون أن السمعة الطيبة والذكر الحسن والصورة المتألقة هي أقصر السبل وأسرعها إلى دوائر الحاكمين، وكانت هذه الدوائر نفسها تستخدم عين الأدوات لإحداث الآثار المطلوبة في عقول المحكومين وقلوبهم. وقد عبَّر عبد الرحمن ابن أم الحكم عن هذه النظرة النفعية لموضوع المدح والهجاء حين قال للفرزدق في تبرّم وملل: «أبا فراس دعني من شعرك الذي ليس يأتي آخره حتى ينسى أوله، وقُل فيّ بيتين يعلقان بالرواة وأنا أعطيك عطية لم يعطها أحد قط قبلي»، فغدا عليه وهو يقول:

وأنت ابن بطحاوي قريش وإن تشأ ... تكـن في ثقيف سيل ذي خَدَر غمر
وأنت ابن سوّار اليديـن إلى العِـلى ... تكفت بك الشمس المضيئة للبدر

فقال: «أحسنت، وأمر له بعشرة آلاف درهم»[٣٥]. ومثل هذا الحرص الشديد على الذكر الحسن والبعد عن كل ما يشين السمعة أو يخمل الذكر كثيراً ما دفع بالناس، كما سيتبين لنا فيما بعد[٣٦]، إلى تطرّف وتزيّد يذكّراننا بما كان يحدث في الجاهلية، وكان الأمر يدعو في بعض الحالات إلى تدخل الدولة الرسمي لفض النزاع وكبح جماح التناحر الذي لم يكن يتسق وروح الإسلام.

وكان الهجاء بدوره سلاحاً في أيدي الحاكمين يسلطونه على خصومهم فيشينون سمعتهم ويحطون من مكانتهم. وأوضح شاهد على ذلك ما فعله الحجاج بالمهلب بن أبي صفرة حين أوعز للفرزدق أن يهجوه ويتناول قومه[٣٧]. ولكن آل المهلب سرعان ما أغروا نفس الشاعر فمدحهم ورفع من شأنهم. ومثل هذا الصنيع من بعض شعراء العصر الذين لم يهمهم في كثير أو قليل أن يتعاملوا مع جانبي الصراع ولا يترددون في هجاء نفس الشخص الذي مدحوه[٣٨]، زرع الخوف في نفوس الناس ومنح هؤلاء الشعراء قوة جبارة استغلوها أشنع استغلال. وقد عبّر بشار الذي قال أكثر شعره في عصر بني أمية عن هذه الظاهرة حين قيل له: «انك لكثير الهجاء!» فقال: «اني وجدت الهجاء المؤلم آخذ بضبع الشاعر من المديح الرائع، ومن أراد من الشعراء أن يكرم في دهر اللئام على المديح فليستعد للفقر وإلّا فليبالغ في الهجاء ليخاف فيعطى»[٣٩]. ولذلك كان كثيراً ما يعقب المدح بالهجاء.

وكان هذا الخوف حقيقة واقعة كما تشهد بذلك الروايات المتواترة عما كان

---

٣٥ العقد الفريد ٢٤٢/١؛ ابن رشيق: العمدة ١٢٨/٢.

٣٦ انظر الباب الخامس من هذا الكتاب.

٣٧ انظر Hell: "al-Farazdaq's Leider", ZDMG, LIX, 589-624; LX, 1-48

وهناك أمثلة أخرى كما فعل يزيد الأول حين أوعز للأخطل أن يهجو الأنصار (ابن سلام ٣٩٧ – ٨) وكما فعل يزيد الثاني حين أمر الشعراء بهجاء يزيد بن المهلب (نفسه ٥٤٢ – ٣).

٣٨ ذكروا أن جريراً لم يهج أحداً مدحه أو يمدح شخصاً هجاه (النقائض ١٠٤٩).

٣٩ الأغاني (دار الكتب) ٢٠٧/٣.

يحدث للقبائل والأفراد في هذا المجال. فقد اضطرت مجموعات قبلية عديدة للتخلي عن حماية أفرادها وخذلانهم لتنجو من الهجاء. فحين هاجى العباس الكندي جريراً أتته كِنْدة فاستَعْدَوْه من نفسه وطلبوا أن لا يذكرهم في هجائه. وذهبوا أبعد من ذلك فذكروا له مساوئه حين قال لهم جرير: «فأخبروني بمساويه ان كنتم صادقين»، قال ففرشوه أمره أي بسطوه له[٤٠]. ومثل ذلك حدث لأحمر بن غدانة من عبد القيس حين هجا جريراً فما كان من عبد العزيز بن عمرو بن مرجوم وكان سيّد عبد القيس بالبصرة وأبوه سيد وجدّه سيّد، فشدّه وثاقاً فأرسل به إلى جرير وقال احكم فيه. فمدح جرير عبد العزيز وقومه[٤١]. وقد فعل ذلك بنو حرام حين هجا رجل منهم الفرزدق فجاء به قومه يقودونه إليه فقالوا: «ها هو بين يديك فإن شئت فاضرب وان شئت فاحلق لا عدوى عليك ولا قصاص قد برئنا إليك منه»، فخلّى عنه وقال:

ومن يـك خائفـاً لأذاة شعري ... فقد أمـن الهجاء بنو حـرام
هم قـادوا سفيهـهـم، وخافوا ... قلائد مثل أطواق الحمام[٤٢]

ولم تجد أم ذي الأهدام نفيع أحد بني جعفر ممن هجا الفرزدق من وسيلة تنجي قومها من لسانه غير المجيء إلى قبر غالب أبي الفرزدق فعاذت به[٤٣]. وقد وضح خوف البصريين من لسان الفرزدق حين امتنع معظمهم عن مساعدة النوّار زوج الفرزدق حين عزمت على طلب الطلاق منه، إذ تزوجها دون رضاها، فرأت أن ترفع الأمر لعبد الله بن الزبير في المدينة. ولم يقف بهم التواطؤ عند حدّ امتناعهم عن مدها بركوبة تمتطيها، بل ذهبوا أبعد من ذلك حين رفض الشهود الذين كانوا

---

٤٠ ابن سلام ٣٨٠ – ٣ .
٤١ نفسه ٣٨٣ – ٥ .
٤٢ العمدة ٦٦/١ ؛ ابن سلام ٢٧٤ ؛ الأغاني ١١/١٩ .
٤٣ ديوان الفرزدق ٣٦٧/١ ؛ النقائض ٥٢٥ .

يعلمون عدالة قضيتها أداء الشهادة لصالحها[٤٤]. ولم يكن هذا الخوف محصوراً في البصرة فقد تعدّاها إلى المدينة حيث وجد الأنصار أنفسهم في موقف حرج إذ اضطروا لبعث شيوخهم في وفد للفرزدق الذي ألمّ بمدينتهم يستميحونه العذر ويطلبون منه ألّا يهجوهم بسبب شاب منهم أبدى تشككه في شاعريته فقالوا له: «يا أبا فراس انك قد عرفت حالنا ومكاننا من رسول الله ووصيته بنا وقد بلغنا أن سفيهاً من سفهائنا تعرّض لك فنسألك بحق الله وبحق المصطفى محمد لما حفظت فينا وصية رسول الله ووهبتنا له ولم تفضحنا». فوهبهم لقرشي ترجّاه[٤٥].

ولكن هذا الخوف الذي كان يزرعه الشعراء في القلوب يتفاوت بتفاوت أقدار الناس وخطرهم. فهنالك من الناس من لم يكن يأبه لمدح شاعر أو هجائه. فقد روى الفرزدق: «لقيت نبطياً بيثرب فقال لي: أنت الفرزدق؟ قلت نعم. قال: أنت الذي يخاف الناس لسانك؟ قلت نعم. قال: فأنت الذي إذا هجوتني يموت فرسي هذا؟ قلت لا. قال فيموت ولدي؟ قلت لا. قال فأموت أنا؟ قلت لا. قال: فأدخلني الله في حرِ أم الفرزدق من رجلي إلى عنقي. قلت ويلك ولم تركت رأسك؟ قال حتى أرى ما تصنع الزانية[٤٦]!

وقد عبّر جرير عن ذلك حين قال له ابنه: «ما هجوت قوماً قطّ إلّا فضحتهم إلّا التيم». قال: «يا بني لم أجد بناء فأهدمه ولا حسباً أضعه». وكانوا رعاء غنم[٤٧]. وقد كان جرير هجاه شاعر يقال له البَرْدَخْت. فقال: «وما معنى البردخت؟». قالوا له الفارغ. فقال: إذاً والله لا أشغله بنفسي أبداً وسالمه»، وعلّق ابن رشيق على ذلك بقوله «هذا وهو جرير الذي غلب شياطين الشعراء وسكّن شقاشق الفحول»[٤٨].

---

٤٤ الأغاني ٧/١٩.

٤٥ نفسه ٣٨/١٧ – ٩؛ النقائض ٥٤٧ – ٨.

٤٦ العقد الفريد ١٣٦/٤؛ الأغاني ٣٧/١٩.

٤٧ ابن سلام ٣٧٢.

٤٨ العمدة ٢٠٣/١.

وقد دلّ ذلك على أن نفس عملية الهجاء قد تنجم عنها نتائج عكسية إذ يمكن للشاعر الفحل أن يسلِّط الأضواء – حتى حين يهجو – على الخاملين من الأفراد والجماعات فيكسبهم بذلك الشهرة والرواج. وقد وضّح ذلك الفرزدق حين ذكر في معرض هجائه لباهلة :

وكم من لئيم قد رفعت له اسمـــه وأطعمته باسمي وليس بطاعم[٤٩]

وكم من الشعراء ممن حاول التعرض لجرير ليهجوهم فينالوا حظاً من اهتمام الناس[٥٠]. وقد حاول ذلك بشّار في صباه ولكن جريراً أعرض عنه وكان الشاعر يقول متحسراً «لو هجاني لكنت أشعر الناس»[٥١]. وكان اللعين المنقري يسعى لنفس الغاية حين أقحم نفسه في الصراع المُسْتَعِر بين جرير والبعيث ولكنهما لم يلقيا إليه بالاً[٥٢] .

ولكن الأمر كان يختلف جداً مع من كان شرفهم ومكانتهم مصدر إغراء كبير لتقحم المنتفعين من الشعراء. فقد ذكروا أن المهلب لما أراد الخروج إلى الازارقة لقي جرير والفرزدق فقال له: «يا أبا فراس هل لك أن تكلِّم المهلب حتى يضع عني البعث وأعطيك ألف درهم ؟» فكلم الفرزدق المهلب فأجابه. فلامه جذيع رجل من عشيرته وشكا ذلك إلى خيرة زوج المهلب وقال لها: «لا يزال الآن الرجل يجيء فيسأل في عشيرته وصديقه». فلامت خيرة المهلب فقال لها المهلب: «إنَّما

---

٤٩ ديوان الفرزدق ٢٤٦/٢ ؛ وانظر كامل المبرد (المرصفي) ١٦٧/١ حيث يقول ابن ميادة :

أرادت وذاكم من سفاهة رأيها لأهجوها لما هجتني محـــارب

معـــاذ إلهـــي انـــني بعشيرتي ونفسي عن ذاك المقـــام لراغب

و ص ١٩٠ حيث يقول الشمردل:

يا أيها المبتغي شتمي لأشتمـــه إن كنت أعمى فإني عنك غير عم

٥٠ ابن سلام ٣٨٠ .

٥١ الأغاني ٢٤/٣ .

٥٢ ابن سلام ٣٤٣ .

اشتريت عرضي منه»[٥٣] . ولما سئل المهلب عن رايه في جرير والفرزدق وهو بإزاء الخوارج قال: «لا أقول فيهما شيئاً» – وكره أن يعرّض نفسه – «ولكن أدلكما على من يهون عليه سخطهما: عبيدة بن هلال اليشكري» (الخارجي)[٥٤] .

واستعان الأمويون بالشعر لخدمة غاياتهم في مجال آخر. فقد كانوا على وعي بالحكمة القائلة: فرِّق تَسُدْ، فاستخدموا الشعراء في بذر بذور الفرقة بين الناس وصرف أنظارهم عن قضايا الحكم بإغراقهم في صراعاتهم الداخلية خاصة في أوقات السلم والاستقرار. فقد أشعل عبيد الله بن زياد صراعاً شعرياً طويلاً بين حارثة بن بدر التميمي وأنس بن زنيم الليثي وكانا من أخص خلطائه[٥٥]. واشتهر بشر بن مروان بتأجيجه نيران الخصومة بين الشعراء والتي كانت تنتهي بإقحام القبائل. وهو الذي افترع الصراع بين جرير وسُراقة البارقي حين أوعز إلى هذا الأخير أن يهجو جريراً وكان يقيم آنذاك بصحراء الدهناء وأرسلوا إليه أبيات الهجاء ليجيب عليها[٥٦] مما يوضّح طبيعة هذا الصراع المفتعلة. وكان بشر هذا السبب المباشر في إذكاء المناقضة الشهيرة بين جرير والأخطل[٥٧] وما جرَّته في اعقابها من مضاعفات باستقطابها على المستوى الشعري كل العداوات القبلية والسياسية التي كانت قائمة بين قيس وتميم من جانب وبين قيس وتغلب من جانب آخر .

وكانت عادة بعض الخلفاء وأمرائهم – خاصة سليمان بن عبد الملك[٥٨] وبشر ابن مروان[٥٩] – أن يستدعوا الشعراء المتخاصمين إلى مجالسهم ويطلبون منهم التفاخر

---

٥٣ الأغاني ٢٨/١٩ .

٥٤ نفسه ٥٥/٧ ..

٥٥ نفسه ٢٣/٢١ – ٢٥ . البلاذري: أنساب ٤ب/٨١ .

٥٦ ابن سلام ٣٧٧ ؛ البلاذري: أنساب ١٦٩/٥ – ١٧٠ ، ١٧٤ – ٥ .

٥٧ البلاذري: أنساب الأشراف ١٦٩/٥ ؛ ابن سلام ٤٤٢ – ٣ .

٥٨ الأغاني ٢٣/١٩ .

٥٩ نفسه ٥٢/٧ .

والمنافرة. وقد يذهب بعض الشعراء في ذلك مذهباً بعيداً كما حاول جرير مع عديّ بن الرقاع العاملي الذي كان خاصاً بالوليد مداحاً له. فقد أذن الوليد للناس ذات عشية فدخلوا وأخذ الناس مجالسهم وتخلف جرير. وبينما هم كذلك إذا بجرير قد مثل بين السماطين يقول: «السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في ابن الرقاع المتفرقة أولّف بعضها إلى بعض». فقال الوليد: «والله لهممت أن أخرجه على ظهرك إلى الناس». فقال جرير وهو قائم كما هو:

فإن تنهني عنه فسمعاً وطـاعة وإلّا فإني عـرضة للمراجم

قال فقال له الوليد: «لا كثر الله في الناس أمثالك». فقال جرير: «يا أمير المؤمنين إنما أنا واحد قد سعرت الأمّة فلو كثر أمثالي لأكلوا الناس أكلاً». قال فنظرت إلى الوليد تبسم حتى بدت ثناياه تعجباً من جرير وجَلَدِه. قال ثم أمره فجلس[٦٠]. ولم يجد حاكم حازم كالحجاج غضاضة في أن يدعو جريراً والفرزدق ليأتياه في قصره في لباس آبائهما في الجاهلية. فجاء الفرزدق وقد لبس الدِّيباج والخز وقعد في قُبّة (خباء من أدم يكون للملوك والأشراف)، وشاور جرير دهاة بني يربوع فقالوا: ما لباس آبائنا إلّا الحديد. فلبس جرير درعاً، وتقلّد سيفاً، وأخذ رمحاً، وركب فرساً، وأقبل في أربعين فارساً من بني يربوع، وجاء الفرزدق في هيئته، فقال جرير:

لبست سلاحي والفرزدق لُعبـة عليه وشاحاً كُرَّج وجـلاجلـه
أعـدّوا مـع الخز الملاب فإنّما جرير لكم بعل وأنتم حلائله[٦١]

ولم يفت الشاعرين ما كان يرمي إليه الأمير إذ بمجرد أن غادروا قصره بدأا في التراشق بالهجاء، فوقف جرير في مقبرة بني حصن، ووقف الفرزدق في المربد،

---

٦٠ نفسه ٧٢/٧.

٦١ نفسه ٧١/٧؛ ابن سلام ٣٤٦، ٣٦٨؛ النقائض ٦٢٤.

والناس يسعون فيما بينهما بأشعارهما. قال ابن زياد: فكنت اختلف بينهما يومئذ، فكأن جريراً كان يومئذ أظفرهما[٦٢] .

وفيما عدا زياد بن أبيه الذي تعقَّب الفرزدق، وطارده خارج البصرة[٦٣] ، والوليد ابن عبد الملك الذي أمر بجلد جرير وابن لجأ لعصيانهما[٦٤] ، فإنّ الاتجاه العام كان تشجيع مثل هذه التصرفات. وهذا طبعاً لا ينفي أنه كانت هناك حالات كثيرة يلجأ فيها الحكام تحت ستار المحافظة على الأمن العام أو حماية الأخلاق، إلى مصادرة حريات الشعراء الذين يختلفون معهم بشتى السبل والأساليب. فتعرض الفرزدق للحبس مرتين أيام خالد القسري اليمني[٦٥] وعمر بن هبيرة القيسي[٦٦] لتعصبه الشديد لتميم، وفي فترة متأخرة وقبل انهيار حكم بني أمية أثار المعتزلة الشعور العام على بشار الذي تعرّض لزعيمهم الغزّال فاتهموه بانتهاك حرمة الأخلاق العامة وافساد الشباب بشعره الفاحش ونفوه من البصرة لبعض الوقت[٦٧] .

---

٦٢ نفس المصادر .

٦٣ انظر الباب الثالث من هذا الكتاب .

٦٣ انظر الباب الثالث من هذا الكتاب .

٦٤ الأغاني ٦٩/٧ ، ٧٣ - ٤ (حيث يذكر عمر بن عبد العزيز)؛ ابن سلام ٣٦٩ .

٦٥ ابن سلام ٢٦٩ ؛ الأغاني ٢٤/١٩ ؛ انظر الباب الرابع .

٦٦ الأغاني ١٤١/١٨ .

٦٧ الجاحظ: البيان ٣٦/١ .

الفصل الثاني

الشعر والشعراء

الرواج الشعبي :

كل هذه العوامل عززت مركز الشعر في مجتمع البصرة وضاعفت من أهميته وأصبحت الحاجة ملحة لقوله. وكان على الشعراء تلبية هذه الحاجة بشعر يتناسب ومتطلبات العناصر والجماعات المختلفة في ذلك المجتمع. فكان عليهم أن يهادنوا – وفي كثير من الأحيان أن يمدحوا – الحكام ليضمنوا فيضاً متصلاً من المال. وفي هذا تعليل كثرة شعر المدح في انتاج معظم الشعراء منذ أيام أبي الأسود الدؤلي من غير استثناء لبعض الخوارج كعِمْران بن حِطَّان. وكان عليهم إضافة إلى ذلك الدفاع عن قبائلهم وعشائرهم ومهاجمة خصومها ومنافسيها كما سنتبين ذلـك فيما يـلي .

ولكن هؤلاء الشعراء كانوا أيضاً على وعي تام بتطور آخر مثير ينتظم مجتمعهم ويؤثر من نواح كثيرة على نظرتهم للشعر، ويدفعهم في بعض الأحيان لقوله. فقد كان سوق البصرة الشهير بالمربد يتطور بسرعة فائقة لتصبح له مكانة شبيهة بتلك التي كانت لسوق عكاظ في الجاهلية، فتهيأ فيه المجال الواسع لتبادل السلع وتبادل الشعر وأصبح مثابة لكبار الشعراء من العراق ومن كل أجزاء شبه جزيرة العرب. وكان لكبار شعراء البصرة خاصة جرير والفرزدق والراعي النميري وأحياناً ذو الرمة

حلقات معروفة فيه يوجهون منها شعرهم لجماهيرهم[١]. وكان لهذا النشاط الشعري أهميته الكبيرة كما يستدل من كلمات جرير حين قال للراعي: «إنّ أهلي ساقوا بي وبراحلتي حتى وضعوني بقارعة الطريق بالمربد والله ما أكسبهم دنيا ولا أخرى إلّا لأسبّ من سبهم من الناس، وأن عُبَيداً بعثه أهله على رواحلهم من أكناف خُلُص وهبُّود يلتمس عليها الميرة والخير وأيْمُ الله لأوقِرنّ رواحله مما ساء نسوة بني نمير»[٢]. وبذلك أصبح المربد مركزاً للإشعاع الفكري والأدبي طوال فترات الإبداع الذهبية في تاريخ البصرة. ومما ضاعف من قيمته أن معظم القضايا العامة كانت تحسم فيه وقد لخص الجارود ابن سَبْرَة هذه القيمة حين نصح أصدقاءه بقوله «عليكم بالمربد فإنه يطرد الفكر ويجلو البصر ويجلب الخير ويجمع بين ربيعة ومضر»[٣].

وكانت جماهير السوق عظيمة العدد مختلفة الجهات والأوطان وبذلك أصبح كل نجاح يحرزه شاعر من الشعراء يتردد صداه في كل أقطار الامبراطورية كما تبين لراعي الإبل إثر لقائه الشهير مع جرير فقد بلغت الفضيحة قومه في قلب صحراء البصرة قبل وصوله السريع إليهم[٤]. ولم تكن حساسية هذا الجمهور المتلقي لتفوت على الشعراء ومن ثمّ كانوا يبذلون قصارى جهدهم لإرضائه والتأثير عليه. فحين سمع جرير الحكم بأن جريراً أشعر عند العامة والفرزدق أشعر عند العلماء صاح: «أنا أبو حزرة غلبته ورب الكعبة والله ما في كل مائة رجل عالم واحد»[٥]. وقد أكد ذلك اليزيدي حين روى أن «الفرزدق والأخطل تذاكرا جريراً فقال

١ الأغاني ١٦٩/٢٠ .

٢ النقائض ٤٢٨ ، ٤٣١ .

٣ البيان والتبيين ٢٧٢/١ .

٤ الأغاني ١٦٩/٢٠ – ١٧٠ ، ٥٠/٧ قال الراعي وحلف بالله «انا وجدنا في أهلنا: فغض الطرف انك من نمير، وأقسم بالله ما بلّغه إنسي قط وإن لجرير لأشياعاً من الجن» ٥٠/٧ .

٥ الأغاني ٧٢/٧ .

له الأخطل: والله إنك وإياي لأشعر منه غير أنه أعطى من سيرورة الشعر شيئاً ما أعطيه أحد. لقد قلت بيتاً ما أعرف في الدنيا بيتاً أهجى منه :

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم   قالوا لأمهم بولي على النار

وقال هو :

والتغلبي إذا تنحنح للقرى   حكّ استه وتمثل الأمثالا

فلم يبق سقاء ولا أمة إلّا رواه. قال: فقضينا يومئذ لجرير أنه أسيّر شعراً منهما[٦]. والواضح أن انجراف كبار شعراء النقائض في الخوض في وحل السباب والفحش مرده إلى محاولتهم الاحتكام إلى مشاعر الجماهير وإلهاب عواطفهم بهذه الصور العارية المكشوفة. ويبدو أن قذف المحصنات وحرائر النساء واستخدام كثير من الألفاظ الجنسية دون مواربة أو تورية مما قد يجرح من إحساس القارىء لشعرهم في زماننا هذا[٧]، يبدو أن ذلك كان مصدر متعة كبيرة لسامعيهم وإن كان بعضهم يتقزز منه ويرى فيه مخالفة واضحة لروح الإسلام[٨]. ومما يوضح هذا الاتجاه قصة الرجل المتحرج الذي قال للمحدِّث الكبير ابن سيرين وهو قائم يستقبل القبلة يريد أن يكبِّر : أأتوضأ من الشعر ؟! فانصرف الشيخ بوجهه إليه وقال:

ألا أصبحت عرس الفرزدق ناشزاً   ولو رضيت رمح استه لاستقرت

ثم كبَّر[٩]. وحين علم المحدِّث الشهير سعيد بن المسيَّب أن هناك جماعة من الناس لا يرون قول الشعر وينهون عنه قال «لقد نسكوا نسكاً أعجمياً»[١٠] .

ومن الواضح — كما سنفصل فيما بعد — أن معظم هؤلاء الشعراء لم يكونوا

---

٦ الموشح ١٤٠ – ١

٧ آخر طبعات ديواني الفرزدق وجرير (١٩٦٠) البيروتية خالية من كل ذلك .

٨ ابن قتيبة: عيون الأخبار ٨/١ .

٩ الأغاني ١٥/١٩ .

١٠ البيان والتبيين ١٧٤/١

جادّين في كثير من الأحيان في هذه التهم التي يلصقونها بنساء مخاصميهم. وقد ندم الشاعر المخضرم المخبَّل السَّعْدي على ما فرط منه من اتهام باطل لخُلَيْدة حين هجا أخاها الزِّبْرِقان بن بدر التميمي[١١]، واعترف بذلك على الملأ حين قال :

لقد ضَلَّ حِلْمي في خُلَيْدة ضَلَّة سأُعتب قومي بعدها وأتوب
وأشهد والمستَغْفَرَ الله أنني كذبت عليها والهجاء كذوب[١٢]

وكان جرير يقول: إذا هجوت فأضحك، وينشد :

إذا سعلت فتاة بني نمير تلقَّم باب عضرطها الترابا
ترى برصاً بأسفل اسكتيها كعنفقة الفرزدق حين شابا[١٣]

ويبدو أن كثرة هذا الشعر الفاحش وسيرورته في الناس كانا استجابة لحاجة عامة في نفوس الناس. فالشعراء بقولهم هذا الكلام كانوا يلبون مطالب الجماهير المتعطشة والتي كانت تجد في ذلك متعة كبيرة لا في البصرة وحدها بل في كل انحاء الامبراطورية الإسلامية. وفي فترة لاحقة ترسَّم بشار خطى من تقدمه من هؤلاء الشعراء وقال شعراً يشبع حاجات الطبقات المختلفة في مجتمع البصرة. وكان شعره المكشوف العاري أكثر إحكاماً وأخفى صنعة من انتاج سابقيه، فكان في شعره متعة لعلية القوم وطبقاتهم الدنيا. وقد بلغ ذلك شأواً بعيداً حتى ذكروا «انه ليس في البصرة غزل ولا غزلة إلّا ويروى من شعر بشار ولا نائحة ولا مغنية إلّا وتتكسب به، ولا ذو شرف إلّا وهو يهابه ويخاف معرَّة لسانه»[١٤]. وخلافاً لمن تقدمه اتخذ أسلوبين في النظم يتوجه بهما لجمهوره المتلقي. فحين يخاطب علية القوم والحكام والأمراء يحافظ على أسلوبه الفخم الضخم ولكنه حين ينظم في الغزل وسواه

---

١١ الأغاني ٤٢/١٢ .

١٢ نفسه ٤٣/١٢ – ٤ ؛ ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٣٨٣/١ .

١٣ العقد الفريد ١٥١/٦ .

١٤ الأغاني ٢٦/٣ .

من المواضيع التي يتذرع بها لإمتاع عامة الناس وإشباع رغباتهم الدفينة المكبوتة[١٥] فإنه يلجأ إلى أسلوب هيِّن يسير مباشر يفهمه الرجل العادي. ولذلك أصبح ديدن الناس خاصة الشباب منهم حفظ شعره كما ذكر المعتزلة وخصومه الآخرون في حملتهم العنيفة عليه[١٦] .

سيرورة الشعر وروايته :

وكانت الحماسة التي يتلقى بها الناس هذا الشعر تتجاوز حدود البصرة. فكان الناس في مكان بعيد كالمدينة يتتبعون آخر أنبائه ورواياته في شوق وتحرق. فذكر عبد الرحمن بن حرملة قال: «لما ورد علينا هجاء جرير التيمي قال لي سعيد بن المسيب المخزومي القرشي سيد التابعين والفقهاء: تروّأ لنا مما قال شيئاً ؟. فأتيته وقد استقبل القبلة يريد أن يكبِّر. قال لي: أرويت شيئاً. قلت نعم. فأقبل علي بوجهه فأنشدته للتيمي وهو يقول: هيه هيه ! ثم أنشدته لجرير فقال: أكله أكله ! »[١٧] . وكان شيخ من أهل المدينة يقول «ما كنت أريد أن أجلس إلى قوم إلّا وفيهم من يحدّث عن الحسن وينشد للفرزدق»[١٨] . ولم يكن هذا الاهتمام قاصراً على العلماء والشيوخ بل كان ينتظم الأفراد العاديين في كل أرجاء الامبراطورية كما يُستدل من قصة الفتاة البدوية باليمامة التي زعمت أنها تحفظ كل شعر جرير والفرزدق[١٩] . وكما يستشف من قصة البدوي العذري الذي أبدى معرفة فائقة بشعر جرير في حضرة الخليفة عبد الملك بن مروان[٢٠] .

---

١٥ البهبيتي: تاريخ الشعر العربي ٣٥٣ .

١٦ الأغاني ٤١/٣ ؛ انظر الباب السابع أدناه .

١٧ ابن سلام ٣٧١ .

١٨ البيان ١٤٢/٣ - ٣ .

١٩ الأغاني ٥٦/٧ .

٥٠ نفسه ٥٤/٧ .

أما في داخل المدينة فقد تبلغ حماسة الناس لما يقال من شعر ما تبلغه حماسة الناس في زماننا هذا حين يشجعون فريقاً رياضياً بعينه أو يتتبعون ما يجري في ميدان سباق الخيل أو حلقة الملاكمة. فكان الناس يجلسون بباب الفرزدق ليسمعوا منه فيما يروي أبو مالك الزيدي الذي ذكر أنهم جلسوا ببابه ينتظرونه فخرج عليهم في ملحفة فقال: «يا أعداء الله ما اجتماعكم ببابي والله لو أردت أن أزني ما قدرت»[٢١]. وكان هذا الاهتمام من العمق بحيث لم تضعف منه ظروف الحرب كما توضح ذلك قصة المهلب مع جماعة من جنوده حين احتكموا إلى أعدائهم الازارقة[٢٢]. وكانت عادة عبيدة بن هلال الخارجي الذي رشحه المهلب كأحسن من يحكم بين جرير والفرزدق[٢٣]، إذا تكاف الناس من الحرب ناداهم: «ليخرج إلي بعضكم». فيخرج إليه فتيان من العسكر، فيقول لهم: «أيّما أحبّ إليكم، اقرأ عليكم القرآن أو أنشدكم الشعر؟». فيقولون: «أما القرآن فقد عرفناه مثل معرفتك فأنشدنا». فيقول لهم: «يا فسقة! والله قد علمت أنكم تختارون الشعر على القرآن»، ثم لا يزال ينشدهم ويستنشدهم حتى يملوا ثم يفترقون[٢٤].

ولم يكن الشعراء خاصة جرير والفرزدق يكتفيان بقول الشعر ثم يدعانه يسير في الناس دون بذل الجهد. إذ كثيراً ما سعيا لإيصاله إلى الناس، فقد ذكروا أن الفرزدق أتى مجلس بني الهُجَيْم في مسجدهم فأنشدهم. وبلغ ذلك جريراً فأتاهم من الغد لينشدهم كما أنشدهم الفرزدق، فقال له شيخ منهم: «يا هذا اتقّ الله! فإن هذا المسجد إنّما بُنِيَ لذكر الله والصلاة!» فقال جرير: «أقررتم للفرزدق ومنعتموني» وخرج مغضباً وهو يقول:

---

٢١ الأغاني ١٩/٣٦.

٢٢ انظر ص ٩٢ أعلاه.

٢٣ الأغاني ٧/٥٥.

٢٤ نفسه ٦/٧.

إنّ الهجيم قبيلة ملعونة حُصٌّ اللحى متشابهو الألوان[٢٥]

وحكى خالد بن كلثوم الكلبي قال: مررت بالفرزدق وقد كنت دوّنت من شعره وشعر جرير وبلغه ذلك، فاستجلسني فجلست إليه وعذت بالله من شرّه وجعلت أحدثه حديث أبيه فأذكره له بما يعجبه. ثم قال: أنشدني بعض أشعار ابن المراغة، فجعلت أنشده حتى انتهيت. ثم قال: فأنشد نقائضها التي أجبته بها. فقلت: ما أحفظها. فقال: يا خالد أتحفظ ما قاله فيّ ولا تحفظ نقائضه والله لأهجون كلباً هجاء يتصل عاره بأعقابها إلى يوم القيامة إن لم تقم حتى تكتب نقائضها وتحفظها وتنشدنيها. فقلت: أفعل، فلزمته شهراً حتى حفظت نقائضها وأنشدته خوفاً من شرّه[٢٦].

وهناك من الشواهد ما يشير إلى أن معظم هذا الشعر كان مدوناً إما بواسطة الشعراء أو كُتَّابهم أو رواتهم. والمصادر حافلة بالإشارات عن الرواة الذين كانوا يرافقون الشعراء ويلازمونهم ويكتبون عنهم كما يفعل الكاتب الخاص أو السكرتير بالمفهوم الحديث. فقد أملى جرير قصيدته المشهورة في الراعي مولى من بني يربوع بالبصرة كان شديد الإعجاب بشعر جرير[٢٧]، وحين وقف في المربد ينشدها الناس كان الشاعر يصيح: «يا بني تميم! قَيِّدوا، قيِّدوا!»[٢٨]. وكان للفرزدق عدد من هؤلاء الكتَّاب أو الرواة منهم عُبَيْد[٢٩] وأبو شَفْقَل[٣٠] اللذان ذكرت المصادر اسميهما. ويبدو أن عُبَيْداً كان يرافق الشاعر في جولاته كما يُستدل من قصة الفرزدق مع ذي الرمة حين أمره بضم أبيات ذي الرمة لشعره فقال له ذو الرمة:

---

٢٥ ابن سلام ٣٥٩ – ٣٦٠ ؛ الأغاني ٦٠/٧ ؛ ديوان جرير ٤٧٩ .

٢٦ الأغاني ١١/١٩ – ١٢ .

٢٧ نفسه ٥٠/٧ وراويته يدعى حسين انظر النقائض ٤٣٠ .

٢٨ ابن سلام ٣٧٤ .

٢٩ النقائض ١٠٤٩ .

٣٠ الأغاني ٣٦/١٩ .

« نشدتك الله يا أبا فراس ! » فقال له: « أنا أحقّ بها منك ! »[٣١] . وكان الشعراء يصحبون رواتهم حتى في المربد حيث يلقون قصائدهم على جمهورهم مشافهة، وقد كان الفرزدق يصحب راويته حين هجا جرير الراعي النميري بالمربد[٣٢] .

وقد دَلَّل ذو الرمة على أهمية كتابة الشعر ووضح ضرورتها وإن كان هو ينكر معرفته بالكتابة لأنهم كانوا يرونها عيباً[٣٣] لأسباب نعرضها فيما بعد[٣٤] . فقال لعيسى ابن عمر[٣٥] ذات مرة: « اكتب شعري فالكتاب أحبّ إليّ من الحفظ، لأن الأعرابي ينسى الكلمة قد سهر في طلبها ليلته فيضع في موضعها كلمة في وزنها ثم ينشدها الناس، والكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاماً بكلام »[٣٦] . وفي مناسبة أخرى قال لنفس العالِم: « أنت والله أعجب إلي من هؤلاء الأعراب، أنت تكتب وتؤدي ما تسمع، وهؤلاء يهون على أحدهم وقد نحتُّه من جبل أن يجيء به على غير وجهه »[٣٧] . ولعلَّ هذا الاهتمام البالغ برواية الشعر وكتابته هو الذي حدا به لاختيار صالح بن سليمان راوية له، فقد أنشد يوماً قصيدة له وأعرابي من بني عدي يسمع، فقال: « أشهد عنك أنك لفقيه تحسن ما تتلوه »، وكان يحسبه قرآناً[٣٨] .

ولكن كتابة الشعر ما كانت دائماً لتفيد الراوي حين يكون الشاعر كثير التقلب يوالي شعره بالتبديل والتغيير كما كان حال ذي الرمة الذي بلغ من هذا الأمر مبلغاً

---

٣١ نفسه ٢٢/١٩ — ٢٣ ؛ الموشح ١٠٧ ؛ ابن سلام ٤٧٠ — ١ ؛ العمدة ٢٨٥/٢ .
٣٢ الأغاني ٥١/٧ .
٣٣ ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٥٠٧ ، الأغاني ١٢١/١٦ ؛ العسكري: ديوان المعاني ١٢٠/٢ .
٣٤ انظر الباب السادس من هذا الكتاب .
٣٥ انظر الباب الأول الفصل الثالث، والباب السادس أدناه .
٣٦ الجاحظ: الحيوان ٢١/١ .
٣٧ الموشح ١٧٨ .
٣٨ الأغاني ١١٢/١٦ .

دفع بعض رواته لتأنيبه بقوله: «أفسدت عليّ شعرك!»، وذلك أن ذا الرمة كان إذا استضعف الحرف أبدل مكانه[٣٩].

وكان بعض الشعراء رواة لشعراء آخرين معاصرين لهم. فذو الرُّمَّة كان راوية للراعي النميري[٤٠]، وسلم الخاسر كان تلميذ بشار وراويته[٤١]. وكانت رواية الشعر قد راجت وأصبحت مهنة مجزية في مجالس الخلفاء والأمراء كما يشهد بذلك النجاح الذي أحرزه حماد الراوية وقَتادة وخلف الأحمر وغيرهم من مشاهير الرواة[٤٢].

فحركة نشر الشعر كانت حركة دائبة يشترك فيها الشعراء ورواتهم وغيرهم من المهتمين بالأدب. وكان الشعراء علاوة على ذلك شديدي الاهتمام بالأثر المباشر الذي يحدثه شعرهم على المستمعين. فقد تبيَّن لهم – كما تبيَّن للفرزدق[٤٣] – أن قدراً يسيراً من انتاجهم الذي أفنوا الليالي في تحبيره ونظمه يلصق بذاكرة المستمع العادي، ومن ثَمَّ وجَّهُوا طاقاتهم للتركيز على عدد من أبيات القصيدة يُشبِّعونها بشحنات عاطفية قوية تضمن لها السيرورة والانتشار. ولذلك لم يبلغ جرير من الرضى – وقد نظم ثمانين بيتاً من الهجاء في الراعي – مبلغاً إلَّا حين نظم بيته:

فغُضَّ الطرف إنَّك من نمير ... فلا كعباً بلغت ولا كلابا

وعندها أمر كاتبه أن يستريح وينام قائلاً «حسبُك اطفىء سراجك ونم فقد فرغت منه (يعني قتلته)»[٤٤]. وحين سئل الفرزدق: ما اختيارك في شعرك للقصار؟

---

٣٩ الموشح ١٨٤؛ انظر ١٨٠ – ١٨١.

٤٠ نفسه ١٧٠، ١٨٣.

٤١ الأغاني ٢١/١١٠.

٤٢ انظر الباب السادس أدناه.

٤٣ انظر ص ٨٨ أعلاه.

٤٤ النقائض ٤٣٢؛ انظر ٤٢٩.

قال: «لأني رأيتها أثبت في الصدور وفي المحافل أجول»[٤٥]. وقد أكَّد ذلك الجاحظ حين قال «وإن أحببت أن تروي من قصار القصائد شعراً لم يسمع بمثله فالتمس ذلك في قصار قصائد الفرزدق، فإنك لم تر شاعراً قط يجمع التجويد في القصار والطوال غيره»[٤٦]. ولعلَّه لهذا السبب عُدَّ هذا الشاعر من أكثر الشعراء بيتاً مُقلَّداً[٤٧]. وكان اهتمامه الكبير بهذا النوع من الشعر المركز المشحون كثيراً ما يدفع به إلى اغتصاب أشعار الآخرين من معاصريه وضمها إلى شعره عنوة واقتداراً. وقد فعل ذلك مع ذي الرمة[٤٨] والشمردل[٤٩] وجميل[٥٠] وابن ميادة[٥١] وكثيرين غيرهم[٥٢]

وكان يقول «ضوال الشعر أحب إلي من ضوال الإبل وخير السرقة ما لم تقطع فيه يد»[٥٣]. وقد عبَّر بشار عن هذه الظاهرة حين افتخر بكثرة الأبيات النادرة التي اشتملت عليها قصائده الاثنتا عشر ألفاً فيما زعم[٥٤]. وقد غضب على سلم الخاسر وخاصمه لأنه عمد إلى بيت من أبياته السائرة فحوّره وغيَّر من ألفاظه وبذلك أخمل بيت أستاذه، فقال له بشار: «أفتأخذ معانيَّ التي قد عنيت بها

---

٤٥ الأغاني ١٩/٣٣ .

٤٦ الجاحظ: الحيوان ٣/٣١ .

٤٧ ابن سلام ٢٥٩ حيث يعرّف المقلّد بأنه البيت المستغني بنفسه والمشهور الذي يضرب به المثل .

٤٨ الموشح ١٠٧ ؛ ابن سلام ٤٧٠ – ١ .

٤٩ الموشح ١٠٨ ؛ العمدة ٢/٢٨٥ ؛ النقائض ٣٧٥ .

٥٠ الموشح ١٠٩ .

٥١ الأغاني ٢/٩١ ، ١٩/٧ ؛ الخزانة ١/١٥٣ ؛ الموشح ١٠٨ .

٥٢ انتحل الفرزدق بيتين للراعي (الموشح ١٠٨ – ٩)؛ قال أبو عبيدة: «كان الفرزدق يجتلب القصيدة ويجتلب المعنى». وقال يحيى بن عليّ بن المنجم: «إنما فعل الفرزدق بجميل وذي الرمة وغيرهما هذا لأنه لمّا مرّ به شعر جيّد رأى نفسه أحق به من قائله لفضله عليه في الشعر، ولأنه من جنس جيده لارديء قائله» (الموشح ١١٠). ولعلَّ هذا الذي حدا بالأصمعي للقول بأن تسعة أعشار شعر الفرزدق لشعراء غيره وقد اعتبر المرزباني هذا الحكم من المبالغات الجائرة (الموشح ١٠٥ – ٦) .

٥٣ الموشح ١٠٦ ؛ الأغاني ١٩/٢٢ .

٥٤ ديوان بشار ١ المقدمة ص ٨٤ .

وتعبت في استنباطها فتكسوها ألفاظاً أخفّ من ألفاظي حتى تروى ويذهب شعري ؟ لا أرضى عنك أبداً »[٥٥]

وهكذا كان الشعراء يحسون بجمهورهم ويدركون أثر أشعارهم ومدى انتشارها وقصائدهم حافلة بالإشارات إلى ذلك. فكان الفرزدق يسمى قصائده « القوافي الشوارد »[٥٦] وقد بيَّن مدى انتشارها بأساليب مختلفة. فقال مرة :

بلغن الشمس حيث تكون شرقاً ومسقط قرنها من حيث غابا
بكل ثنية وبكل ثغر غواربهن تنتسب انتسابا[٥٧]

وخاطب جريراً بقوله :

تعنَّى يا جرير لغير شيء وقد ذهب القصائد للرواة
فكيف تردّ ما بعمان منها وما بجبال مصر مشهرات[٥٨]

وكان جرير يرد عين المورد حين قال :

وجهزت في الآفاق كل قصيدة شرود ورود كل ركب تنازع
يجزن إلى نجران من كان دونه ويظهرن في نجد وهن صوادع[٥٩]

وكثيراً ما فخر بذلك في مثل قوله :

وإني لقوّال لكل غريبة ورود إذا الساري بليلٍ ترنَّما
خروج بأفواه الرواة كأنها قَرا هندوانيّ إذا هزّ صمما[٦٠]

---

٥٥ الأغاني ٤٩/٣ .
٥٦ النقائض ١٢٥ .
٥٧ نفسه ٤٧٧ .
٥٨ نفسه ٧٧٤ ؛ ديوان الفرزدق ١٤٢/٢ ، ٢٠٢ ، ٢١٦ ، ٢٤٦ ، ٣٤٦ .
٥٩ النقائض ٦٨٨ .
٦٠ ديوان جرير ٤٤٦ ؛ ٤١٧ ؛ النقائض ٢٩٦ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ .

العلاقات بين الشعراء :

رغم أن نشاط الشعراء جزء لا يتجزأ من النشاط العام المرتبط بحركة التطور الثقافي والعقلي في مجالات اللغة والأدب إلَّا أنه قد تأثر كثيراً ببعض الظواهر والاعتبارات الاجتماعية لانغماس معظم الشعراء بوجه أو آخر في شئون مجتمعهم ففي الربط القوي بين الشعر والشرف في حكم الناس على جودة شعر الشعراء وأصالته إشارة واضحة إلى أثر المعايير الاجتماعية القوي على الشعر. وقد وضح البَعِيث ذلك حين مالأ بني سليط على جرير وقال لهم « لقد وجدنا الشرف والشعر في بني النوار »[٦١] ووردت نفس الفكرة في شعر الصَلَتان العبدي حين حكم بين جرير والفرزدق :

أَلَا إنمـــا تحظى كليـــب بشعرها وبالمجد تحظى دارم والأقارع[٦٢]

وقيل إن الفرزدق رضي بهذا القول لمَّا فضَّل قومه على بني كليب وقال: إنما الشعر مروءة من لا مروءة له، وهو أخس حظ الشريف. وأما جرير فإنه غضب وهجا الصلتان وقومه[٦٣] .

وهذه الصلة الوثيقة بين المعايير الاجتماعية والأدبية واضحة في جوانب مختلفة خاصة في العلاقة بين الشعراء. وما تقدم من صدام بين الصلتان العبدي وجرير مثال واحد لمجموعة كبيرة من الخصومات يبدو العنصر الأدبي فيها مغموراً في ثنايا القضايا الكبرى للمجتمع. فالشعراء الذين عارضوا جريراً كالبعيث[٦٤] والراعي[٦٥]

---

٦١ انظر الباب الثالث والسادس .

٦٢ ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٤٧٧/١ .

٦٣ نفسه ٤٧٨ هامش ١ .

٦٤ انظر الباب الثالث أدناه .

٦٥ النقائض ٤٢٧ – ٤٣٢ ؛ الأغاني ١٦٩/٢٠ – ١٧١ ؛ ابن سلام ٣٧٣ .

والأخطل[٦٦] وخُلَيْد عينين[٦٧] وذي الرمة[٦٨] وابن لجأ[٦٩] وأحمر بن غُدَانة[٧٠] وسراقة البارقي[٧١] وغيرهم[٧٢] ، أو الذين عارضوا الفرزدق كنفيع ذي الأهدام[٧٣] ومُخَرِّق بن شُرَيْك[٧٤] والأشهب بن رُمَيْلَة[٧٥] وغيرهم[٧٦] وإن كانوا مدفوعين في معارضتهم تلك بدوافع اجتماعية وسياسية في الأعم الغالب إلّا أنهم عبروا في ميلهم للشاعر الذي اختاروه بمدح شعره وتمجيد ملكته الأدبية لأن نجاح الشاعر كشاعر نجاح للقبيلة التي يحمي ذمارها ويدافع عن أحسابها. ومثل هذا الفهم لأهمية الشعر في الدفاع عن القبيلة هو الذي كان يدفع بعظيم كمحمد بن عُمَيْر بن عُطَارد[٧٧] لرشوة الشعراء ليعلنوا تفوق مواطنه المجاشعي الفرزدق على جرير. فقد ذكروا أنه بذل جائزة مقدارها أربعة آلاف درهم وفرساً للشاعر الذي ينظم قصيدة يفضل فيها الفرزدق على جرير ولم يقبل العرض إلّا سُرَاقة البارقي[٧٨] . وقيل إنه حمل للأخطل ألف درهم وبغلة وكسوة وخمراً حين زار بشر بن مروان حاكم العراق وقال له «لا تعن على شاعرنا (أي الفرزدق) واهجُ هذا الكلب الذي يهجو بني دارم فإنك قد كنت قضيت له على صاحبنا»[٧٩] .

---

٦٦ صالحاني: نقائض جرير والفرزدق ؛ النقائض ٤٩٤ – ٩ .

٦٧ ابن سلام ٣٤٥ ، ٣٨٥ .

٦٨ نفسه ٤٦٩ ؛ الأغاني ٦١/٧ .

٦٩ النقائض ٤٨٧ – ٤٩١ ؛ ابن سلام ٣٦٣ – ٤ ؛ العقد الفريد ٢١١/٦ ؛ الأغاني ٦٨/٧ .

٧٠ النقائض ٣٨٣ – ٥ ؛ ابن سلام ٣٨٦ .

٧١ ابن سلام ٣٧٧ ؛ البلاذري: أنساب الاشراف ١٦٩/٥ – ١٧٠ ، ١٧٤ – ٥ .

٧٢ انظر الأغاني ٤٣/٧ – ٤٩ حيث يروي جرير للحجاج صراعه مع تسعة عشر شاعراً .

٧٣ ابن سلام ٢٦٣ ؛ النقائض ٩٠٧ .

٧٤ ديوان الفرزدق ٣٧٠/١ ؛ النقائض ٨٤٦ .

٧٥ الأغاني ١٥٩/٨ – ١٦١ ؛ ابن سلام ٢٥١ .

٧٦ انظر العمدة ٦٥/١ لصدامه مع زياد الأعجم .

٧٧ انظر المبرد: الكامل ١٧٩/٣ – ١٨٠ لمكانته .

٧٨ الأغاني ٦٧/٧

٧٩ النقائض ٤٩٤ .

وفي هذا العدد الكبير من الشعراء الذين سلفت الإشارة إليهم في معرض الحديث عن الخصومة بين جرير والفرزدق دلالة واضحة على تأثير هذين الفحلين على النشاط الأدبي. فقد ظلا حتى موتهما عام ١١٠ هـ / ٧٢٨ الشخصيتين الرئيسيتين اللتين كانت تدور حول فلكهما معظم شعراء العصر. وبما أنهما كانا أقوى معبر عن روح التناحر والتنافس القبلي فقد فرضا على أغلبية الشعراء والأدباء المعاصرين لهما داخل البصرة وخارجها مهمة ثقيلة على النفس ألا وهي ضرورة الانحياز لهذا الجانب أو ذاك. وكانت هذه المحالفات الشعرية على الصعيد الأدبي إلى حدّ كبير صورة مصغرة للوضع الاجتماعي[٨٠]. وأصبح الناس يعدون هذه المناقضات الشعرية حروباً ومعارك كما جاء في بيت جرير:

لقد ذقت مني طعم حرب مـريرة ... وما أنت إن حاربت قيساً بسالم[٨١]

أو كما جاء في شعر الفرزدق:

عطفت عليك الحرب إني إذا ونـى ... أخو الحرب كرّار على القِرن معطف[٨٢]

كما اعتبر الشعر نفسه سلاحاً أو صواعق كما جاء في بيت جرير:

أعـد الله للشعراء مـــني ... صواعق يخضعون لها الرقـابـا[٨٣]

وكان جرير مشهوراً بهجائه العنيف للشعراء الآخرين[٨٤] وإن كان يزعم ان هؤلاء الشعراء كانوا يبدؤونه ثم لا يحلم[٨٥]. وذكروا أن الشعراء كانوا يتعرضون لهجائه[٨٦] وانه غلب في معاركه ما لا يقل عن ثمانين شاعراً. ومن كل الشعراء الذين

---

٨٠ انظر الباب الثالث.

٨١ النقائض ٤٢٧.

٨٢ نفسه ٥٧٥.

٨٣ نفسه ٤٤٣.

٨٤ ابن قتيبة: الشعر والشعراء ١/٤٣٧.

٨٥ الأغاني ٧/٥٦؛ الشعر والشعراء ١/٤٣٨.

٨٦ ابن سلام ٣٨٠.

خاصموه لم يصمد له إلّا الفرزدق والأخطل. قال الأصمعي : «كان ينهشه ثلاثة وأربعون شاعراً فنبذهم وراء ظهره ويرمي بهم واحداً واحداً، ومنهم من كان ينفخه فيرمي به وثبت له الفرزدق والأخطل»[٨٧]. وهكذا كان الراعي النميري – الذي وُصف بأنه كان فحل مضر حتى ضغمه الليث أي جرير[٨٨] – يقول لقومه «علامَ يلومني الناس أنْ غلبني هذا ؟»[٨٩]. وقدَّم سُرَاقة البارقي نفسه لجرير حين سأله: «يا فتى من أنت ؟» قال: «بعض من أخزى الله على يدك»[٩٠].

وكان يشاركهم هذا الخوف من جرير معظم معاصريه. فقد ذكروا أن الفرزدق كان يجزع وينتقع لونه إذا أنشد شعراً لجرير حتى يعلم أنه ليس فيه[٩١]. ولعلَّ خير ما يصوّر اعتداد جرير بنفسه وقوته قصته مع الفرزدق حين قدم الفرزدق الشام وجرير بها فقال له جرير: «ما ظننتك تقدم بلداً أنا فيه». فقال له الفرزدق: «إني طالما أخلفت ظن العاجز»[٩٢]. ولقد اضطر عدي بن الرقاع العاملي شاعر الوليد بن عبد الملك حين احتدّ الجدل بينهما في حضرة الخليفة أن يثب إلى رجل الوليد فيقبلها قائلاً «أجرني منه». فقال الوليد لجرير: «لئن سميته لأسرجنك ولألجمنك وليركبنك فتعيّرك بذلك الشعراء»، فكنّى جرير عن اسمه حين هجاه[٩٣]. وحين تبيَّن رؤبة خوف أبيه العجاج من جرير حين هدده سأله عن ذلك فأجابه «والله لو علمت أنه لا ينفعني إلَّا السُّلاح لسلحت»[٩٤] وقد تعرَّض ذو الرمة لمهانة كبيرة

---

٨٧ الأغاني ٤٠/٧ ؛ ٥٩ .

٨٨ ابن سلام ٤٣٥ .

٨٩ النقائض ٤٣٠ .

٩٠ البلاذري: أنساب ١٧٥/٥ .

٩١ ابن سلام ٣١٧ – ٨ ؛ الأغاني ٣٤/١٩ لقصة أخرى .

٩٢ الأغاني ٣٤/١٩ ؛ انظر ٢٩/١٩ لقصة أخرى .

٩٣ ابن سلام ٣٢٤ ؛ انظر ص ٩٣ – ٩٤ أعلاه .

٩٤ الأغاني ٨٨/٢١ .

في مجلس عام حين تورّط في مجابهة مع جرير، فقد قالوا ان جريراً دخل على المهاجر بن عبد الله وهو والي اليمامة وعنده ذو الرمة ينشده فقال المهاجر لجرير: «كيف ترى؟» قال: «لقد قال وما انعم». فغضب ذو الرمة ونهض وهو يقول: «أنا أبو الحارث واسمي غيلان». فنهض جرير وقال:

إني امرؤ خلقت شكساً أشوسا ان تضرساني تضرسا مضرّسا
قد لبس الدهر وأبقى ملبسا من شاء من نار الجحيم اقتبسا

قال: فجلس ذو الرمة وحاد عنه فلم يجبه[٩٥].

بيد أنه رغم روح العداء التي كانت تنتظم الشعراء نتيجة لروح التناحر والتنافس التي كانت تقلق حياة البصرة، فقد كان الشعراء عامة يحسون برابطة المصلحة التي تصل بينهم كمجموعة متميزة. فقد كانوا باعترافهم[٩٦]، وبما يذكرونه عن زملائهم[٩٧]، يحسون بوضعهم كشعراء. فالجهود الكبيرة التي يبذلونها في سبيل التفوق على الآخرين[٩٨]، وانتشار أسلوب المرافدة الذي يسمح الشاعر بمقتضاه لرفيقه أن يستعين بشعره في دفاعه عن نفسه، والذي كان ينتظم عدداً كبيراً من شعراء العصر[٩٩]، كل ذلك يشير إلى شعور قوي بروح التضامن الأدبي. وكان الشعراء فوق ذلك يعون بتميز غيرهم من زملائهم الذين كان ينهجون نهجاً مغايراً لأغلبيتهم. فنشأة المدرسة الرجزية الراجحة التي كان مقرَّها البصرة كانت إلى جانب ظوهر أخرى سنتعرض لها فيما بعد – استجابة لتحدّ أدبي ولغوي طرحه جو التنافس الشعري في البصرة. ومع أن الخلافات الفكرية والمذهبية أنتجت ألواناً مغايرة من

---

٩٥ نفسه ٦٠/٧ .

٩٦ ديوان جرير ٤١٧ ، ٤٤٦ ؛ ديوان الفرزدق ١٥٩/٢ .

٩٧ الموشح ١٧٢ ؛ الخزانة ١٠٧/١ ؛ الأغاني ٦٥/١ ؛ ١٣٨/٤ ؛ العقد الفريد ٢٣٦/٦ .

٩٨ مثلاً العمدة ٢٠٩/١ ؛ الأغاني ٣٢/١٩ بين جرير والفرزدق .

٩٩ مثلاً ابن سلام ٤٧٣ – ٥ ؛ الأغاني ٦١/٧ – ٣ ؛ ١١٦/١٦ – ٨ ؛ العمدة ٢٨٦/٢ .

الشعر إلّا أنها لم تحل بين الشعراء وتقديرهم لبعضهم بعضاً. فحين تذاكر الناس الشعراء أمام الفرزدق قال: «إن ها هنا لرجلين لو أخذا في معنى الناس لما كنا معهما في شيء، فسألناه من هما فقال السيد الحميري (الشيعي) وعِمْران بن حِطّان (الخارجي)، ولكن الله عزّ وجلّ شغل كل واحد منهما بالقول في مذهبه»[١٠٠]. وكان عاصم بن الحدْثان عالماً ذكياً وكان رأس الخوارج بالبصرة وربما جاء الرسول من الجزيرة يسأله عن الأمر يختصمون فيه، فمرّ به الفرزدق، فقال لابنه أنشد أبا فراس فأنشده:

يغشون حومات المنون وانها ... في الله عند نفوسهم لصغار
يمشون في الخطيّ لا يثنيهم ... والقوم ان ركبوا الرماح تجار

فقال له الفرزدق: اكتم هذا لا يسمعه النساجون فيخرجوا علينا بسيوفهم (وفي رواية عيون الأخبار بحفوفهم أي مناسجهم). فقال أبوه: هو شاعر المؤمنين وأنت شاعر الكافرين[١٠١].

وعبارة الفرزدق السابقة التي ذكر فيها «معنى الناس» ويقصد بها ما كان يتناوله معظم معاصريه من مدح وهجاء وتناقض قبلي وأدبي، تُغْفِل من الحساب عدداً من الشعراء وان كانوا يأخذون في «معنى الناس» إلّا أنهم كانوا بجانب ذلك يعبرون في شعرهم عن جوانب أخرى من مظاهر التطور الحضري كانت تفعل فعلها في تغيير المجتمع البصري وتحويره[١٠٢]. فطغيان سلطة الدولة الذي استغرق على وجه ما جهود شاعر كابن مُفَرِّغ الذي كاد يقصر كل شعره على هجاء أبناء زياد[١٠٣] قد أثر على اتجاه زعيم قبلي مرموق كحارثة بن بدر الغداني الذي وصف

---

١٠٠ الأغاني ٣/٧.

١٠١ العقد الفريد ٨٤/١.

١٠٢ انظر الباب الأول الفصل الثاني.

١٠٣ الأغاني ٥٢/١٧ – ٦٧ ؛ ياقوت: الإرشاد ١٩٢/٧ – ٢٠٨ ابن قتيبة: الشعراء والشعراء ٣١٩/١ – ٢٣ ؛ انظر الباب الخامس أدناه.

بأنه «شاعر تميم ورجلها»[١٠٤] . فمع أنه كان يخوض في المناقضات الشعرية التقليدية[١٠٥] إلّا ان نقائضه مع أنس بن زنيم كانت تمثل مستوى مختلفاً من الشعر يعبّر لا عن حدة الصراع القبلي كما هو الشأن في النقائض الأخرى بل عن غلبة سلطة الدولة وارتقاء الوعي الفردي في مجتمع الحاضرة. فاتجاه الأفراد في السلوك والتعامل كأفراد أو كموظفين لا كقبليين يطغى على كثير من شعرهما كما يطغى على كثير من شعر أبي الأسود الدؤلي. وألهمت الحركات الدينية السياسية شعراء كعِمْران بن حِطّان والسيد الحميري وغيرهما ممن كان يمثلون نهجاً في الشعر البصري يعكس جانباً آخر من جوانب الحياة البصرية الغنية .

---

١٠٤ نصر بن مزاحم: صفين ٢٩ .

١٠٥ الأغاني ٢١/٢١ - ٢٢ .

١٠٦ نفسه ٢٢/٢١ - ٢٣ ، ٣٢ - ٣٣ .

البَابُ الثالث
الشِعْر وَالحيَاة القبَلِيَّة

الفصل الأول

فن النقائض

فنّ بصري :

أسهم بعث الروح القبلية إسهاماً كبيراً في ازدهار فن الهجاء الشعري المعروف بالنقائض الذي كان ينتظم عدداً كبيراً من الشعراء في عصر بني أمية داخل البصرة وخارجها. بيد أن السواد الأعظم ممن اشتركوا في حرب النقائض كانوا من البصريين وكان معظم هؤلاء من التميميين. فإذا تغاضينا عن تدخل الشاعر التغلبي الشهير الأخطل – الذي تمَّ بإيعاز من بشر بن مروان والي العراق الأموي – أصبح هذا الفن الشعري نتاجاً بصرياً تطوَّر وازدهر في بيئة المصر الحاضرة منه والبادية .

ومع أن فن النقائض كان معروفاً في صور أولية في الجاهلية[1] وصدر الإسلام[2] إلّا أنه لم يَنْمُ ويزدهر في مكان مثلما نما وازدهر في منطقة البصرة. وهذا التطور كان وثيق الصلة بالوعي القبلي وما نجم عنه من تزاحم وتنافس، ولم يكن ذلك في مكان بمثل الوضوح والقوة التي كان عليها في البصرة وباديتها. ومع أن المراحل الأولى لهذه النقائض الشعرية كانت انعكاساً لحوادث محلية تافهة إلّا أنها سرعان ما

---

١ انظر الأغاني ١٠/٢٠ ؛ ١٦/٥٣ ؛ ديوان الأعشى ٧٤ – ٨٢ ؛ ابن الأثير : الكامل ١/٤٩٥ – ٥٠٥ .

٢ انظر ابن هشام: السيرة ٣/٦٤ ، ١٩٩ ، ٢٠٩ – ٢١١ ، ٢٢٠ ، ٢٢٤ – ٦٦ ؛ أحمدالشايب: تاريخ النقائض ٣٥ – ١٧٦ ؛ وانظر محمود غناوي الزهيري: نقائض جرير والفرزدق لدراسة مفصلة .

عظمت وتضخمت واكتسبت أبعاداً جديدة بحيث لم تعد تنتظم الأسر والفروع الصغيرة في قلب الصحراء، كما كان الحال أولاً، فحسب، بل تعدت ذلك لتضم في إطارها العريض كل الهيكل القبلي والسياسي الذي كانت تقوم عليه حياة المصر بأجمعه، وقد تتسع دائرتها أحياناً لتنتظم أجزاء أخرى من الامبراطورية أيضاً. فتطور فن الشعر البصري هذا يصح أن يعتبر إلى حدّ كبير معياراً لا بأس بدقته للتطور، السياسي والاجتماعي الذي ألمَّ بحياة البصرة ذاتها .

وكانت العلاقة القوية التي نشأت بين البادية وما نتج عن ذلك من تأثر وتأثير في كلا الجانبين قد مهدت السبيل لتحول سريع في مجرى ذلك الشعر القبلي الذي كان في بدايته استجابة لتحديات البيئة البدوية وما تفرضه حياة الصحراء على ساكنيها من المشاكل وقضايا. وكان كل ذلك محدوداً بحدود البيئة الضيِّقة. بيد أن تدهور الأمور في أوقات الأزمات والفوضى السياسية إلى ما كان عليه الحال في أيام الجاهلية من تناحر وسعي وراء الثأر وما إلى ذلك من رواسب الحياة القديمة - مما سنتوسع في تفصيله فيما بعد[٣] - كان يسهم إسهاماً كبيراً في تنشيط قدر كبير من هذا الشعر ومده بقواه الدافعة. هذا فضلاً عن أن المنازعات الصغيرة حول الآبار والمراعي وغيرها من أسباب الخلاف بين سكان الصحراء - التي كانت تدعو في الماضي إلى شن الغارات واشعال الحروب - قد أصبحت الآن مدعاة لبث خصومات يقوم الشعر فيها مقام السلاح. وبتضاؤل احتمالات نشوب الحرب الفعلية بين القبائل وتحديد مداها أصبح الشعر أداة هامة للتعبير عن العواطف الحبيسة والرغبات المكبوتة التي كانت الغارات والحروب تعبيراً عنها. وبمرور الزمن صارت هذه البدايات المتواضعة للخصومات الشعرية المترتبة على خصومات محلية قليلة الخطر، تتسع في مداها استجابة لاطراد حركة التطور الاجتماعي والسياسي في البصرة خاصة وفي الامبراطورية عامة، وما فتئت أن عبَّرت بعد حين عن كل

---

٣ انظر الباب الخامس الفصل الأول .

العلاقات المتشابكة: السياسية والقبلية والاجتماعية والثقافية التي كانت البصرة وغير البصرة مسرحاً لها. وكان هذا الشعر القبلي من الحيوية بحيث احتل أرفع مكان لا في مجتمع البصرة المعاصر فحسب بل في كل العصور التي تلته .

ولعلّه من الخير أن نغوص في خضم هذا البحر المتلاطم من الشعر القبلي بغرض تَبَيُّن تياراته المختلفة واتجاهاته ومدى تصويرها لحياة المجتمع وحياة الناس .

مقدّمات الخصومات الشعرية :

كان الجيل الجديد من الشعراء البصريين الذي وقع على اكتافهم عبء التعبير عن الضغوط والمشاق التي صاحبت تطور مجتمعهم الجديد قد نشأ في الغالب الأعم في أطراف المدينة أو في باديتها. ومع أن معظمهم ولد في الإسلام إلّا أنهم ترعرعوا في بيئة كانت تخضع في كثير من جوانبها لمواضعات الجاهلية أكثر من خضوعها لمواضعات الإسلام. وأتاح لهم هذا البعد النسبي عن المصر حيث يحسّ الجميع بسلطة الدولة وهيمنتها المباشرة، قدراً من الحرية في استغلال الخلافات القبلية بقدرٍ ، وإن عارض اتجاه الدولة في سعيها للحد من التنافس القبلي، إلّا أنه يستقيم مع الاتجاه العام للسير بهذا التنافس إلى أقصى مداه على أن لا يصل مرتبة الحرب ما دامت الدولة باسطة سلطانها على الجميع ، حامية لحقوقهم رادعة لنزقهم. فكانت عادة الشعراء – وهم يسعون في نفس الاتجاه – ان يتشبثوا بما يطرأ على حياتهم من حوادث النزاع ويستخدموها ذريعة للتعبير عن روح التمرد والقلق والتحدي التي تضطرم في نفس أهل البادية وهم يواجهون سلطة الدولة وطغيانها .

وأكثر شعراء هذه الطبقة تقدماً الفرزدق الذي ذكرت المصادر أنه كان شاعراً مفلقاً أيام مجيء عليّ البصرة حوالي ٣٦ هـ[٤]. فقد قال هو عن نفسه مرة: كنت

---

٤ الأغاني ٦/١٩ ؛ المرزباني: معجم الشعراء ٢٦٦ .

أجيد الهجاء في أيام عثمان[٥]، وقال مرة أخرى: كنت أهاجي شعراء قومي وأنا غلام في خلافة عثمان فكان قومي يخشون معرَّة لساني من يومئذ[٦]. وقدَّمه والده لعليّ بن أبي طالب قائلاً «إن ابني هذا أحد شعراء مضر فاسمع منه»[٧]. ولعلَّ في حياة هذا الشاعر ونشاطه الشعري خير تصوير للعنصر القبلي في حياة البصرة في كل أبعاده ومظاهره. ففي نزاعه المبكر مع الأشهب بن رُمَيْلَة صورة حيَّة لما كانت عليه الأمور في مرحلة متقدمة حين أخذت المشاعر القبلية تتوفز وتستعيد سيرتها الأولى مباشرة بعد مقتل عثمان واستمرت في غليانها وجموحها حتى ولاية زياد بن أبيه عام ٤٥ هـ / ٦٦٥ م. وفيه إلى جانب ذلك إشارة إلى النمط المعهود من التورط الذي يبدأ عادة بحادثة تافهة ولكنها سرعان ما تقود إلى سلسلة متصلة من ردود الفعل يتردد صداها في جميع الجهات وقد تترك آثاراً تستوجب تدخل السلطة الحاكمة. فيذكرون أن الفرزدق هجا بني فُقَيْم من تميم حين توصلوا لصلح مع بني العَنْبَر من تميم بشأن بئر تنازعوا عليها[٨]. فقال في بني فقيم:

وآب الوفد وفد بني فقيم ... بألام ما تؤوب به الوفود

أتونا بالقدور معدّليها ... وفاز الجَدُّ بالجُدّ السعيد[٩]

فبلغهم الهجاء فاستشاطوا غضباً وشكوه إلى أبيه غالب ولكن الشاعر نفى عن نفسه التهمة وأنشأ أبياتاً أخرى يردّ بها عن نفسه ما ذكره بنو فقيم يقول فيها:

يا قوم إني لم أرد لأسبكم ... وذو الطِنِىء محقوق بأن يتعذرا

تناهوا فإني لو أردت هجاءكم ... بدا وهو معروفٌ أغرَّ مشهرا

---

٥ الأغاني ٦/١٩.

٦ نفسه ٤٨/١٩.

٧ نفسه ٦/١٩.

٨ النقائض ٢١٥ ؛ ديوان الفرزدق ١٣٩/١ ؛ انظر ابن سلّام ٢٧٢ حيث يذكر أن بني فقيم ذهبوا للثأر فرجعوا بالدية.

٩ نفسه.

إذا قال غاوٍ مــن معدّ قصيدةً ... بها جَرَب كانت عليّ بزوبرا
أَينطقها غيري وأُرمى بذنبهــا ... وهذا قضاء حقّه أن يغيرا[١٠]

ولما سمع أبوه ذلك لاحظ الشبه القوي بين القولين ولم يشك في أنه قائل الهجاء فأسلمه إلى بني فقيم الذين كانوا من أقربائهم الأقربين[١١]. ورغم أنهم لم يعاقبوه حينذاك على ما بدر منه إلّا أنهم حفظوها في نفوسهم، وفتحت هذه الحادثة باباً للخلاف بين البيتين ظل يفسد ما بينهما لآماد طويلة. وبعد ذلك بقليل تعدَّى نفر من بني فقيم وأقربائهم من بني نهشل على حياض كانت لأبيه غالب فنفرَّهم عنها وجرح بعضهم وقال فيهم أبياتاً يتحداهم بها[١٢]. ولئن ردّ عليه بنو فقيم الصاع في مرحلة متأخرة بعقر بعير أبيه وتسببوا بذلك في موته كما تذكر إحدى الروايات[١٣] فإن همهم الأول والمباشر كان الصدام الشعري الذي وجدوا أنفسهم في لجته. ويبدو أنهم لم يكن لهم شاعر من أنفسهم فجهدوا في البحث عمن يقوم بالدفاع عنهم. وحين تقدّم الأشهب بن رُمَيْلة شاعر بني نهشل يخطب إحدى بناتهم انتهزوها فرصة وجعلوا هجاء الفرزدق شرطاً لإتمام مراسيم زواجه من فتاتهم[١٤]. وتطور النزاع بين الشاعرين وتوسّع وأحسّ القوم بخطره فلجأ بنو فقيم وبنو نهشل إلى السلطة فاستعدوا زياداً على الفرزدق فطلبه فهرب منه[١٥]. وكان مسلكه الشائن قبل ذلك مع فتاة من بني مِنْقَر من تميم قد جلب عليه سخط هذا الفرع الآخر من تميم. فقد أنقذ

---

١٠ النقائض ٢١٥ .

١١ ابن سلام ٢٧٢ ؛ النقائض ٢١٥ .

١٢ ديوان الفرزدق ٢٠٤/١ ؛ النقائض ٢١٦ .

١٣ النقائض ٢١٧ .

١٤ الأغاني ٤٣/١٩ .

١٥ الطبري ٩٤/٢ ، ٩٥ ؛ الأغاني ٣٠/١٩ ، ٤٣ ؛ العقد ١٦٩/٥ ؛ النقائض ٦٠٩ ؛ ابن سلام ٢٥١ ؛ لهجائه لفقيم انظر ديوان الفرزدق ١٣٥/١ ، ١٣٩ ، ٣٠٩ ؛ ١٥٢/٢ ؛ في بني نهشل ٣٦/١ ، ٥٢ ، ١٥١ ، ٢٠٤ ، ٣٥٢ ، ٣٧٧ – ٨١ ، ٣٨٥ ؛ ٤٢٦ ؛ ٩١/٢ ، ٩٦ ، ٢٠٧ – ٩ ؛ انظر الأغاني ١٥٩/٨ – ١٦١ .

الشاعر الفتاة من ثعبان كاد يودي بحياتها ولكنه سعى من بعد ذلك لاستغلال فضله بالتقرّب منها فردعته[١٦] وبلغ الخبر أهلها فانتقموا منه بأن ألصقوا بأخته جِعْثِن تهمة الاتصال بأحد فتيانهم[١٧] . ومن الواضح أن كل هذه الحوادث الحقيقي منها والمصطنع إنما كانت تتخذ تكأة ليمارس عن طريقها هؤلاء المتبدّون لعبتهم المفضلة في التقاذف بالتهم والخوض في وحل الشتائم. فكانت هذه الفضائح الشخصية المتبادلة بمثابة الوقود الذي يؤجج نار التنافس القبلي المستعرة منذ أزمان ومما يؤيد هذا الزعم أن معظم هذه القضايا الأولية سرعان ما يسدل عليها النسيان ستاره ويطفو الموضوع الأساسي – موضوع الفخر القبلي – إلى السطح ويظل العنصر الطاغي على مسرح النشاط الشعري. فكان الفرزدق في معظم هجائه لبني فقيم يصفهم باللؤم كما في قوله :

يحـلّ اللـؤم مـا حلَّـت فقـيم ... وإن ساروا بأقصى الأرض سارا[١٨]

وكان يلصق نفس الصفة ببني نهشل كما في قوله :

لعمري لئن قلّ الحصى في بيوتكم ... بني نهشل مـا لؤمكم بقليـل[١٩]

وفي مجال آخر وبعد أن سأل الله أن لا يصلح ما بينهم وان يزيد الذي بينه وبينهم بعداً قال لهم :

غضبتم علينا أن علتكم مجاشـع[٢٠] ... وكان الذي يحمي ذماركم[٢١] عبدا[٢٢]

---

١٦ ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٤٤٤ .

١٧ نفسه .

١٨ ديوان الفرزدق ٣٠٩/١ ؛ انظر أيضاً ١٣٥/١ ، ١٥١ .

١٩ نفسه ٩١/٢ .

٢٠ قبيلة الشاعر .

٢١ أي الأشهب بن رميلة .

٢٢ ديوان الفرزدق ١٥١/١ ؛ انظر أيضاً ٣٧٧/١ – ٣٨١ ؛ لهجاء مماثل موضوعه بنو منقر ٣٥/٢ .

ومع أن المصادر لم ترو لنا إلّا مقطوعات مبتسرة من الشعر تتصل بهذه الخلافات الشعرية المبكرة إلّا أنها حافلة بالإشارات إلى دلالاتها الاجتماعية. ولئن كانت هذه الخلافات في شكلها الأولي هذا محدودة المدى فهي تحمل في ثناياها بذور صراعات المستقبل الكبيرة. وهي من هذه الناحية إحدى مظاهر الانبعاث العام للروح القبلية الذي أثاره مقتل عثمان. وقد شهدت سنوات الحكم الأموي الأولى حتى عام ٤٥ هـ / ٦٦٥ ولاية عبد الله بن عامر المتسامحة. وكان من نتائج ترفقه في زمان عمت فيه الفوضى وانفرط عقد النظام عقب سنوات الحرب الأهلية الأولى المليئة بالاضطراب أن استشرى جموح قبائل البصرة واستبد بها الطغيان. وحين أشار عليه ناصحوه بأن يأخذهم بالشدة ويتخذ من الاجراءآت ما يردع تمردهم وعصيانهم أجابهم بقوله «إني أكره أن أصلحهم بفساد نفسي»[٢٣]. ولم يجد معاوية مناصاً من عزله وتولية زياد الذي عرف عنه الحزم والتشدد في الضرب على أيدي العابثين. وكان هذا يعلم بمدى الضرر الذي يلحقه نشاط متمرد مستهتر كالفرزدق بحياة المصر. وقد لفت الفرزدق نظر زياد أكثر من مرة. فقد وقف ذات مرة في مكان عام بسوق المربد ودعا الناس في أسلوب جاهلي لينهبوا أمواله وملابسه[٢٤]. وكان أبوه غالب قد أغضب السلطة قبلها بمثل هذا الصنيع[٢٥]، ومن ثمَّ رأى زياد في ذلك سابقة خطيرة من شأنها أن تدفع الناس لتقليدها واتخاذها مثالاً يحتذى[٢٦]، فأرسل الخيل في طلبه ولكن الشاعر استطاع الهروب ولجأ إلى الصحراء. ومما زاد من غضب زياد عليه طريقته الفظة في مخاطبة معاوية بشأن ميراث الحُتَات[٢٧]. ويبدو أن زياداً اكتفى في البداية بإبعاده عن المصر. إذ ذكروا أن الفرزدق كان

---

٢٣ ابن الأثير: الكامل ٣/٣٦٨.
٢٤ الطبري ٢/٩٥.
٢٥ انظر الباب الخامس أدناه.
٢٦ ابن الأثير: الكامل ٣/٣٨٨.
٢٧ النقائض ٦٠٨؛ انظر ص ٨٥ أعلاه.

إذا نزل زياد البصرة نزل الكوفة وإذا نزل زياد الكوفة نزل الفرزدق البصرة. وكان زياد ينزل البصرة ستة أشهر والكوفة مثلها[٢٨] . فلما استعدت عليه بنو فقيم وبنو نهشل ازداد عليه غضباً وكان ذلك عام ٥٠ هـ / ٦٦٩[٢٩] . فكتب زياد إلى عامله على الكوفة عبد الرحمن بن عُبَيد: إنما الفرزدق فحل الوحوش يرعى القفار، فإذا ورد عليه الناس ذُعِر ففارقهم إلى أرض أخرى فرَتَع. فاطلبه حتى تظفر به. قال الفرزدق: «فطُلبت أشد طلب حتى جعل كل من يؤويني يخرجني من عنده فضاقت عليّ الأرض»[٣٠] . واضطر إلى الهرب من سلطان زياد جميعاً إلى الحجاز حيث لجأ إلى واليه الأموي سعيد بن العاص فأجاره[٣١] . وظل في منفاه هذا حتى موت زياد عام ٥٣ هـ / ٦٧٢ م حيث رجع إلى موطنه[٣٢] .

وكانت تدابير زياد الحازمة[٣٣] التي امتدت إلى عهد ابنه وخليفته عبيد الله قد وضعت حداً لكثير من مظاهر العبث والفوضى التي سبقتها. وعمّ المصر والبادية هدوء نسبي فيما يختص بالعلاقات القبلية. بيد أن زياداً وابنه عبيد الله خاصة قد أسهما من جانبهما إسهاماً كبيراً في إذكاء نار العداء القبلي، كما كان يفعل عبد الله بن عامر الذي سبقهما إلى الامارة[٣٤] ، وكان عبيد الله بن زياد أول من طلب المثالب وعنى بجمعها ليعارض الناس بمثل ما يقولون فيه[٣٥] . وكان – كما ذكرنا من قبل[٣٦] – يغري بين الشعراء ليصرف أنظار الناس عن معارضة الحكام

---

٢٨ الطبري ٢/١٠١ .

٢٩ نفسه ٢/٩٤ .

٣٠ نفسه ٢/٩٩ ؛ الأغاني ١٩/٣١ ؛ ابن سلام ٢٥١ .

٣١ الطبري ٢/١٠٨ .

٣٢ نفسه .

٣٣ انظر ص ٢٣ أعلاه .

٣٤ الجاحظ: البيان ١/٢٥٤ .

٣٥ البلاذري: أنساب الاشراف ٤ب/٨١ .

٣٦ انظر ص ٩٣ أعلاه .

ويشغلهم بأنفسهم. ولكن زياداً وابنه كانا يعلمان عن خبرة وتجربة المخاطر الكامنة وراء هذا النشاط الشعري إن أُطلق له العنان. فقد دلت تجربة زياد السابقة مع الفرزدق وتجربة عبيد الله مع ابن مفرِّغ التي سنتناولها بعد، ان تدخل الأمير المباشر في كثير من الأحيان كان العامل الحاسم الوحيد لوضع حدّ لاستهتار مثل هؤلاء الشعراء وكف أذاهم عن الناس وعن هيبة الحكم .

الخصومات الشعرية تنتقل إلى المصر :

ما فتئت أهمية المصر المتزايدة ودورها المطرد النمو الذي أصبح يلعبه في حياة القبائل العربية سواء في البصرة أو باديتها أن تجلى في اتجاه البدو لنقل خصوماتهم الشعرية التي كانت صدى لظروفهم الصحراوية إلى داخل المدينة. وبذلك صارت هذه المناقضات التي عكست في فترة متقدمة خلافات الأسر والبطون في البادية، تعبر إلى جانب ذلك عن القضايا الكبرى للصراع القبلي والسياسي في المصر. وقد تجلّى إدراك زياد لهذه الظاهرة وما ينجم عنها من مخاطر في ردّ فعله العنيف على نشاط الفرزدق ومطاردته له. وكان زياد محقاً في تصوره فقد بلغ السيل بعده الزُّبى. ولعل خير ما يصور تطور هذه الظاهرة البطيء والمضاعفات التي انتظمت خط سيرها قصة بني سليط المشهورة مع بني الخطفى من كليب الذين منهم جرير وكلاهما من يربوع فرع من تميم، وقد تنازعت الأسرتان حول ملكية ماء فانبرى بنو الخطفى – وكان فيهم شعر – لبني سليط فآذوهم بالهجاء، ولم يكن في بني سليط شاعر يردّ عنهم عادية خصومهم فلجأوا إلى أحد بني عمومتهم غسَّان بن ذُهَيْل فاستعانوا به على أعدائهم، وكان جرير اليافع يدافع عن شرف قومه ويعارض غسَّان وعدة من الشعراء سواه[٣٧] .

---

٣٧ النقائض ٥ – ٦ ؛ انظر الشايب ٢٤١ ، ٣١٢ ؛ غناوي الزهيري ٦٧ .

وإذا اعتمدنا ما رواه أبو عبيدة عن سير هذه المناقضات[٣٨] تبيَّنا أهميتها البالغة لدى الجوانب المصطرعة في مهدها الصحراوي. إذ يتضح أنهم كانوا يولونها عناية فائقة لا تتناسب وتفاهة الحوادث الأساسية التي كانت سبباً في إثارتها. وكما كان الحال في نموذج متقدم[٣٩] فإن الصراع الشعري المتولد عن الخصومة يظل مستعراً زماناً طويلاً بعد زوال أسبابها ونسيانها. وإذا استرجعنا هيئة الشاعر وهو يمتطي ظهر بعيره ويخاطب الجمع القبلي مثلما كان يفعل أسلافه من الجاهليين[٤٠] تبيَّن لنا أن هذا الشعر كان يلبي حاجات في نفوس الناس تستبد بأطراف النزاع وتفرض على الشعراء ضرورة التعبير عنها. وتلقائية هذه المساجلات الأولى واضح في شكلها وفي محتواها. فمعظمها[٤١] مقطوعات قصيرة منظومة من بحر الرجز الذي يبدو أنه كان يلبي حاجة الارتجال والقول من وحي الخاطر. والصبغة الشخصية الصارخة لهذا الشعر التي تجلت في الألفاظ الجنسية الفاضحة التي كان الشاعران يتراشقان بها ويلصقانها بجانبي النزاع تعكس روح الخصومة الأولى في حيوية وصدق. فيوغل جرير في وصف الحدَّة الجنسية لمجموعة من الجحاش ثم يهديها لخصومه[٤٢]. ولكن هذا العنصر الجنسي الصارخ الذي أوغل فيه كلا الشاعرين ما فتىء أن أفسح المجال إلى ضرب متعقل من الشعر كان الشاعر يحرص فيه على إبراز محاسن قومه، خاصة بعد أن توسع النزاع بدخول الشاعر التميمي البَعِيث الذي كان من بني مجاشع، منافسي يربوع التقليديين. ومثل هذا التطور طبيعي إذ أن مجال القول أمام جرير وغسّان اللذين ينتميان لنفس الفرع كان محدوداً، ولا بد أن ينتهي إلى مساجلة يكون العنصر الشخصي فيها أبرز من العنصر الجماعي على وجه العموم.

---

٣٨ نفسه ٦ .

٣٩ انظر ص ١٢١ – ١٢٢ أعلاه .

٤٠ النقائض ٢ .

٤١ نفسه ٣ – ٦٣ .

٤٢ النقائض ٣ .

وبتدخل البَعِيث اتسع مجال الصراع وتعدَّى حدود الأسرة الصغيرة ليضم في إطاره مظاهر الخلاف الدائمة التي كانت بين بطني تميم يربوع ومجاشع منذ الجاهلية. وكان تدخل البعيث في هذا النزاع، فوق ذلك، رمزاً حيًّا للصورة التي يتطور بها النزاع الصغير ليصبح معركة متعددة الجوانب. فالسهولة التي يمكن بمقتضاها لكلمة عابرة أن تحدث سلسلة متصلة من ردود الفعل - كما كان الشأن هنا - تشير إلى أن الجو العام كان مهيأ لمثل هذه المعارك .

وكانت للبعيث صلة بعيدة ببني سليط من طريق جدته النَّوار[٤٣] . وحين ردّ عليه جماعة منهم إبله التي سرقها بعض اللصوص لم يجد من تعبير عن تقديره لهم وعرفانه بجميلهم أفضل من مؤازرتهم والانخراط في صفهم على خصومهم من بني كليب. فقد ذكروا أنه شهد لهم بالفضل على أعدائهم حين قال: «وجدنا الشعر والشرف في بني النوار»[٤٤] وغضب بنو كليب لذلك وصعب عليهم أن يفهموا حشر مجاشعي نفسه في أمر يخص عشيرتين من يربوع. وقد عبّر عن غضبهم عَطِيَّة بن جِعال اليربوعي[٤٥] . بيد أن الأمر الأقرب إلى الاحتمال أن بني سليط الذين عرفوا بعجزهم في ميدان الشاعرية بادروا، كما فعلوا مع شعراء آخرين، بدعوة البعيث لينتصر لهم على جرير الذي أفحم شاعرهم غسان وكاد يسكته[٤٦] . وهكذا جرّ البعيث، بدخوله المعركة، قومه بني مجاشع إلى حلبة المراشقة وعرّضهم لسخرية جرير المريرة. وفي هذه الأثناء كان الشاعران قد وقعا في دوّامة الجموح القبلي الكبرى التي كانت تمتد في اطراد وسرعة لتشمل البصرة وباديتها، ووجدا أنفسهما في حاجة أكثر من أي وقت مضى لإبراز أمجاد الجانب الذي ينتمي إليه

٤٣ نفسه ٣٨ .

٤٤ نفسه ؛ انظر الشايب: تاريخ النقائض ٢٤١ وما بعدها ؛ غناوي الزهيري: نقائض جرير والفرزدق ٦٧ ، ٧٥ .

٤٥ نفسه .

٤٦ ابن سلام ٣٢٦ .

الواحد منهما وإشانة سمعة الجانب الآخر المضاد. ولم يكن البعيث شاعراً قليل الخطر[٤٧]، فكان بنو كليب يرون في شعره أشد ما هُجُوا به خاصة قوله :

ألست كليبياً إذا سيم خُطَّة ... أقرَّ كإقرار الحليلة للبعل
وكل كليبيّ صحيفة وجهه ... أذلّ لأقدام الرجال من النعل
وكل كليبي يسوق أتانه ... له حاجة من حيث تُثْفَر بالحبل
سواسِية سود الوجوه كأنهم ... ظَرَابيّ غِربان بمجرودة محل[٤٨]

ولكن البعيث رغم هذا لم يكن ليقوم لجرير فغلبه هذا بالهجاء ونال من شرف قومه مجاشع وفضح نساءهم وقد اعترف البعيث بالغلبة حين « ضج إلى الفرزدق واستغاثه » كما قال ابن سلام[٤٩]، وكان الفرزدق مجاشعياً مثله، فقال له :

لعمري لئن ألهى الفرزدق قيده ... ودُرِّج نَوار ذو الدِّهان وذو الغِسْل
ليبتعثن مني عُداة مجاشع ... بديهةَ لا داني الجِراء ولا وَغْلِ[٥٠]

واشارته إلى قيد الفرزدق ترمز إلى غرابة أطوار هذا الشاعر وتناقضه الوجداني حيال تحديات عصره من جانب كما ترمز من جانب آخر إلى طغيان هذه التحديات التي ألزمت الشاعر أن يقيّد نفسه وأن يقسم ألّا يفك قيده حتى يحفظ القرآن[٥١]. ويبدو من شعره أنه تعرَّض لأزمة روحية عابرة يدلّ عليها اعترافه بالضلال الذي كان عليه طيلة حياته كما في قوله :

ثلاثين عاماً ما أرى من عَمَاية ... إذا برقت إلّا شددت لها رحلي[٥٢]

---

٤٧ وضعه ابن سلام على رأس الطبقة الثانية من الاسلاميين . انظر ٤٥١ .
٤٨ النقائض ١٥٧ ؛ ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٤٧٢ .
٤٩ ابن سلام ٤٥٢ .
٥٠ نفسه ٣٢٧ .
٥١ نفسه ؛ المبرد: الكامل ١/١١٤ – ١١٦ ؛ انظر الباب الخامس أدناه .
٥٢ ديوان الفرزدق ٢/١٥٣

بيد أنه من اليسير على الباحث أن يتبين أن فترة الانضباط النسبي التي انتهت بالشاعر إلى نوبة التقوى هذه بحيث قيد رجليه ليتفرغ لحفظ القرآن، كانت تطابق ولاية عبيد الله بن زياد الذي استطاع بدهائه وفعالية تدبيراته المترفقة أن يوفق بين كثير من المصالح المتعارضة وأن يصرف أنظار المجموعات المتصارعة عن أسباب نزاعها إلى حين. فتذكر المصادر أن الشاعر ذهب إلى مكة حاجاً وألزم نفسه عهداً يدل عليه قوله :

ألم تـرني عاهـدت ربي وانـني ... لبين رتـاج قائمـاً ومُقـام
عـلى قسم لا اشتم الـدهر مسلماً ... ولا خارجاً من فيَّ سـوء كـلام
ألم تـرني والشعر أصبـح بينـنا ... دُروء من الإسلام ذات حرام[٥٣]

وكانت في السرعة التي تراجع بها الشاعر عن توبته بمجرد أن انفجرت العداوات القبلية من جديد بعد موت يزيد الأول إشارة إلى طغيان المدّ العاصف الذي لم يكن في مقدور الشعراء الذين على شاكلته مقاومته بيسر .

وقد رووا أن نساء بني مجاشع بلغهن فحش جرير بهن فأتين الفرزدق وهو في قيده فقلن له: قبح الله قيدك فقد هتك جرير عورات نسائك فلحيت شاعر قوم. فأحفظنه ففض قيده[٥٤] . وهكذا ألزم ضغط الرأي العام الشاعر التصدي للدفاع عن شرف قومه. وقد عبَّر عن عواطفه في قوة حين فكّ قيده وقال :

ألَا استهزأت مـني هنيدة أن رأت ... أسيراً يـداني خطوه حلق الحجل
ولـو علمت أنّ الوثـاق أشـده ... إلى النار قالت لي مقالة ذي عقل
لعمري وقـد قيدت نفسي لطالما ... سعيت وأوضعت المطية للجهـل
فإن بك قيدي كان نـذراً نذرتـه ... فما بي عن أحساب قومي من شغل

---

٥٣ النقائض ١٢٦ .

٥٤ ديوان الفرزدق ١٥٢/٢

أنا الضامن الراعي عليهـم وإنّما يدافع عن أمثالهم أنا أو مثلي[٥٥]

ولئن امتنع في البداية عن ذكر جرير ونأى عن هجاء قومه كليب وحصر نفسه في الدفاع عن قومه مجاشع ولم يتورع من التصدي للبعيث بالهجاء، فإن مسلك جرير، كما سنفصله من بعد، وضع الفرزدق في موقف استحال معه المحافظة على موقف الدفاع المجرد، واحتدمت المعركة بينهما ولم يعد لهما من خيار سوى إلقاء كل سلاحهما فيها[٥٦] .

وهكذا نزل شاعرا تميم الكبيران إلى الحلبة في زمان كان وضع البصرة الداخلي فيه في أسوأ أحواله فيما يتعلق بالصلات بين القبائل. فإن قبلنا ما أكده ابن سلّام من أن الهجاء بينهما لجّ نحواً من أربعين سنة[٥٧] كتقدير قريب الاحتمال، وبما أنهما توفيا خلال سنة ١١٠ هـ / ٧٢٨ م، فيمكننا أن نفترض أن صراعهما يرجع إلى فترة قبل موت يزيد الأول عام ٦٤ هـ / ٦٨٣ م .

وهناك من الشواهد ما يدلّ على أن الخصومة الشعرية التي اشتعلت في فترة متقدمة في البادية قد انتقلت إلى المدينة خاصة بعد تورط الفرزدق فيها وكان يسكن حينذاك البصرة. وذكر ابن قتيبة أن جريراً كان مقيماً بالمَرُّوت من البادية والفرزدق بالعراق وهما يتهاجيان فأرسلت بنو يربوع إلى جرير: إنك مقيم بالمَرُّوت ليس عندك أحد يروي عنك والفرزدق بالعراق قد ملأها عليك منذ سبع حجج، فانحدر إلى العراق وأقام بالبصرة[٥٨] .

وبذلك اتخذ الشاعران من البصرة مسرحاً لنشاطهما وقد بلغ هذا النشاط مدى

---

٥٥ ديوان الفرزدق ١٥٢/٢ - ٣ .

٥٦ انظر مقدمة النقائض لبيفان ص xviii .

٥٧ طبقات فحول الشعراء ٣٢٩ .

٥٨ ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٣٤٩/١ ؛ وانظر الزهيري لتحقيق ذلك .

في ولاية عبد الله بن الحارث القباع (٦٥ - ٦٧ هـ / ٦٧٤ - ٦٨٦ م) اضطر الحاكم معه إلى هدم داريهما ومطاردتهما من البصرة[٥٩]. وكان هذا التصرف المفرط في الشدة من القباع الذي عرف عنه التسامح والتمهل في الأمور[٦٠] دليلاً على أن خطرهما استشرى وأثر على الوضع الداخلي بحيث لم يصبح السكوت عليه ممكناً. وأصبح ذلك يشكل خطراً على الأمن الداخلي خاصة وأن الأمر بدأ يؤثر على بعض المسئولين عنه. فقد ذكروا أن عَبَّاد بن الحُصَيْن الحَبَطي التميمي الذي كان مسئولاً عن شرطة القباع انحاز لجرير على الفرزدق وأعاره فرساً ودرعاً في معركة شعرية مشهورة بين الشاعرين في المربد[٦١]. وقد ذكر ذلك الفرزدق حين قال:

أتحسب قلبي خارجاً من حجابه … إذا دفّ عَبَّاد أَرَنَّت جلاجله
أفي قَمَليّ من كليب هجوته … أبو جَهْضَم تغلي عليّ مراجله
أحارث داري مرتين هَدَمتها … وكنت ابن أخت لا تخاف غوائله[٦٢]

ويرجع ضغن عبَّاد على الفرزدق إلى مرحلة متقدمة حين قال الفرزدق:

بنو دارم اكفاؤهم آل مِسْمَع[٦٣] … وتَنْكَح في أكفائها الحَبَطات[٦٤][٦٥]

وكان يعني بذلك أن الحبطات الذين ينتمي إليهم عَبَّاد أدنى مقاماً من بني دارم بن تميم قوم الفرزدق، والحبطات بالتالي أدنى مقاماً من آل مِسمَع. وقد حقد عبَّاد على الفرزدق وكان يناصر جريراً عليه وإن اضطره الحاكم أخيراً إلى هدم داريهما معاً. وكان جرير جريئاً حين قال للقباع حين هدم داريهما:

---

٥٩ البلاذري: أنساب الأشراف ٢٧٨/٥.

٦٠ النقائض ٦٨٣.

٦١ النقائض ٦٨٤.

٦٢ نفسه ٦٠٦ - ٨؛ ديوان الفرزدق ١٧٢/٢.

٦٣ أهل الرئاسة في بكر بن وائل: المبرد: الكامل ٢١٣/١.

٦٤ فرع من تميم.

٦٥ ديوان الفرزدق ١٠٧/١؛ كامل المبرد ٢١٣/١ - ٤.

أحارث خذ من شئت منـــا ومنهم ودعنا نَقِس مجداً تُعَدّ فواضلـــه
فما في كتاب الله تهـــديم دارنـــا بتهديم ماخور[٦٦] خبيث مداخله[٦٧]

وكثيراً ما أدت هذه المساجلات الشعرية إلى العنف وسفك الدماء. فقد روى أبو عبيدة أنه لما تواقف جرير والفرزدق بالمربد للهجاء اقتتلت بنو يربوع وبنو مجاشع فأمدت بنو العم مجاشعاً وجاءوهم وفي أيديهم الخشب فطردوا بني يربوع فقال جرير من هؤلاء ؟ قالوا بنو العم. فقال جرير يهجوهم :

مـــا للفرزدق مـــن عز يلوذ بـــه إلّا بني العم في أيديهـــم الخشب
سيروا بني العم فالأهواز داركـــم ونهر تيرى ولم تعرفكم العرب[٦٨]

وكانت نهاية المطاف أن الفرزدق هرب ووقع جرير والنوار زوج الفرزدق في أيدي الشرطة فحبسا[٦٩]. وقال الفرزدق وهو يتأمل ماضيه الثائر مخاطباً القباع :

فقبلك ما أعييت كـــاسر عيـــنـــه زياداً فلم تقـــدر عليّ حبـــائلـــه
فأقسمت لا آتيـــه سبعين حجـــة ولو نشرت عين القباع وكاهله[٧٠]

٦٦ يعني منزل الفرزدق .
٦٧ النقائض ٦٨٣ .
٦٨ الأغاني ٣/٧٦ .
٦٩ النقائض ١٦٦ .
٧٠ نفسه ٦٠٧ – ٨ ؛ ديوان الفرزدق ٢/١٧٢ .

الفصل الثاني

عصر جرير والفرزدق

كان الصدام بين جرير والفرزدق قمة تطور ظل يستجمع مع الزمن قواه ويضم في إطاره أعداداً متزايدة من الشعراء. بيد أنهما دون سواهما من مئات الشعراء المعاصرين لهما خرجا من المعمعة عملاقين لا يختلف فيهما مختلف وظلا يسيطران على ميدان الشعر حتى وفاتهما وبعدها بكثير. وقد تجلت في شعرهما كثير من ميول عصرهما واتجاهاته . وقد مَثَّلا فيما بينهما الإطار الواسع للحياة البصرية في معظم صورها وبكل تعقيداتها لمدى أكثر من نصف قرن من الزمان .

ويمكننا اعتبار علاقتهما ببعضهما وبغيرهما من الشعراء والجماعات انعكاساً صادقاً للتيارات والاتجاهات التي كانت تسود مجتمع البصرة في أيامهما. فقد عكسا في المكان الأول التنافس القبلي في كل مظاهره الخاصة منها والعامة. فهما إذ كانا ينتميان إلى عشيرتين مختلفتين من تميم صوَّرا في شعرهما المباريات والمنافسات العنيفة التي كانت تقع كثيراً بين فروع القبائل وبطونها وعشائرها الصغرى. وكانت هذه ترى صلاحها خاصة في أوقات الشدة والأزمات في التآزر والتلاحم تحت راية تجمع قبلي أكبر. ومن ثمَّ نرى الشاعرين – وفي نفس الوقت الذي يتشبثان فيه بعنقي بعضهما انتصاراً للعشيرة التي ينتمي إليها الواحد منهما – مثل ما يفعل العشرات غيرهما من معاصريهما –، يشتركان في الدفاع عن تجمع تميم الأكبر وكلاهما يفخر بأنه لسانه القبلي المعترف به. وحين دعت الضرورات السياسية لتجمع

أكبر انتهى بقيام معسكر خِنْدِف (وأكثره من تميم) في مواجهة معسكر قيس، ثم تجمع كلا المعسكرين تحت اسم مضر في مقابلة ربيعة، ثم تلاحم الثلاثة تحت اسم النزاريين أو العدنانية في مواجهة اليمن أو القحطانية[١]، فإن الشاعرين صوّرا كل مراحل هذه الأحلاف في اضطرابها وتغيرها المطرد. وفوق تصويرهما للجانب الرسمي للنشاط القبلي سواء أكان من ذلك ما يتصل بعلاقة القبائل بعضها ببعض أو بعلاقتها بالحكومة الأموية، فانهما عبرا في قوة وصدق عن العلاقات الإنسانية العادية التي كانت تقوم بين الأفراد العاديين في مجتمعهم[٢].

ولكي نحدد في لمحات سريعة المظاهر الكبرى لهذا الشعر القبلي الذي بلغ قمته في شعر الفحلين التميميين ومعاصريهما فسنعالجه أولاً على اعتبار ما كان يجري داخل القبيلة الواحدة من صراع وتنافس ثم نتطرق ثانياً لما كان يجري بين القبيلة من جانب والقبائل الأخرى والتجمعات القبلية الكبرى من جانب آخر.

الصراع داخل القبيلة:

سبقت الإشارة إلى المصادمات المختلفة التي وقعت بين بعض الشعراء التميميين ورددت بطرق مختلفة صدى الخلافات التي كانت قائمة لسبب أو لآخر بين فروع تميم المتعددة وعشائرها. ولا يخالجنا شكّ في أن معظم القبائل الأخرى كانت في وضع مماثل. بيد أن كثيراً من آثار تميم قد وصل إلينا في انتاج شعرائها وفي غيره من الأعمال الأدبية خاصة «نقائض جرير والفرزدق» التي جمعها أبو عبيدة. فأخبارها من هذه الناحية أوفى وأشمل من أخبار غيرها من القبائل. وعسى أن تكون كثرة شعرائها وجودة شعرهم قد ساعد أكثر من أي اعتبار آخر على تخليد ذكرها في مراجع الأدب.

---

١ انظر الباب الأول الفصل الأول ص ١٨ – ٣٠، ٣٣ – ٣٤.

٢ انظر بلا ١٥٦ – ٨؛ دائرة المعارف الإسلامية مادتي جرير والفرزدق.

وفي قبيلة تميم المثل الحي للمدى الذي قد يبلغه التنافس القبلي. فقد يضيق مدى العصبية بحيث يهيج التنافس بين العشيرة أو المجموعة العائلية الواحدة كما حدث في قصة الأُبَيْرد وابن عمه الأحْوَص اللذين هجوا سُحَيْم بن وَثِيل الذي كان ينتمي مثلهما لبني رِياح من تميم[٣]. ومثل ذلك الصراع الشعري الذي شبّ بين حارثة بن بدر وبني سليط وكلهم من بني يربوع من تميم[٤]. وما حدث بين الفرزدق والبعيث الذي أشرنا إليه سابقاً نموذج حيّ لما نحن بصدده. فكلاهما كان ينتصر لعشيرته المشتركة مجاشع على كُلَيْب ولكن كلاً منهما كان يهاجم في ذات الوقت الأسرة الأخرى من مجاشع التي ينتمي إليها خصمه. فحين استغاث البعيث بالفرزدق على جرير افترع الفرزدق حملته بهجاء الشاعرين معاً في قوله :

لودّ جرير اللؤم لو كان عانياً ... ولم يدن من زأر الأسود الضراغم
وليس ابن حمراء العجان[٥] بمفلتي ... ولم يزدجر طير النحوس الاشائم
وإنكما قد هجتماني عليكما ... فلا تجزعا واستسمعا للمراجم[٦]

وظل البعيث طوال الفترة الأولى من الملاحاة بين جرير والفرزدق ينال حظه من شتم الفرزدق وهجائه مثل جرير .

وفي هذه القضية إشارة إلى الحيرة التي كانت كثيراً ما تعتري بعض الشعراء حين يجدون أنفسهم في موقف دقيق يتحتم عليهم فيه هجاء شاعر أو فرد عادي يمت إليهم بصلة القرابة والدم. فحين انتهى الصدام الذي استعر بين الفرزدق ومسكين الدارمي بسبب مدح مسكين لزياد بن أبيه عدو الفرزدق كان الفرزدق يقول: «نجوت من أن يهجوني مسكين، فإن أجبته ذهبت بشطر فخري وإن

---

٣ المبرد: الكامل (المرصفي) ٣٦/٣ ؛ الأغاني ١٤/١٢ .
٤ الأغاني ٢٢/٢١ .
٥ تشير هذه الصفة إلى أصلها الفارسي أو إلى حقارة مهنتها. ولصق هذا اللقب بالبعيث .
٦ ابن سلام ٣٢٨ ؛ ديوان الفرزدق ٣١٨/٢ .

أمسكت عنه كانت وصمة عليّ مدى الدهر »[7]. ولكي يتفادى الشاعر شمل كل القبيلة بالهجاء فانه يلجأ عادة إلى افراد الشخص المعني عن بقية القوم باتهامه بأنه غريب عنهم لا تربطه بالأصل المشترك رابطة. ويتجلى هذا الاتجاه في أعنف صوره بين شعراء تميم بالذات. فالفرزدق أقام كل دعواه على البعيث على حقارة أصله ولؤم منبته، إذ زعموا أن أم البعيث كانت جارية سجستانية[8]. ولَقَّبه فوق ذلك «ابن حمراء العجان» كما ذكرنا سالفاً، و «ابن الخبيثة»[9]. وذهب إلى ذلك مذهباً بعيداً حين أنكر تميميته جملة في قوله :

وما أنت مِنّـا غير أنـك تـدّعي إلى آل قُرْط[10] بعد ما كنت عانيا[11]

وحين سعى البعيث للردّ على هجمات خصمه أبرز في هجائه لؤم قومه ومخازيهم ووضاعة أصلهم، وأنكر عليهم، كما فعل جرير بعده، صلتهم بتميم واحتجَّ عليهم بأنهم سلالة عبد أو قين يمني كما في قوله :

تناومتم لأعـين[12] إذ دعـاكـم بني القينات للقين الـيماني[13]

وقد تابعه في فكرة «القيون» جرير وأضاف إليها أن جدهم عِلْج (أي أجنبي) كما في قوله :

ولد الفرزدق والصعاصـع كلّهـم علـج كأن وجوههن مقـالي[14]

---

٧ الأغاني ٣٢/١٩ .

٨ ابن سلّام ٣٢٦ .

٩ النقائض ١٢٥ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ؛ ديوان الفرزدق ١٥٢/٢ – ٣ ، ٢٦٨ .

١٠ قُرْط بن سفيان بن مجاشع جدّ البعيث. انظر النقائض ٤٥٣ .

١١ النقائض ٦٢٣ .

١٢ أعْيَن بن ضُبيعة المجاشعي أبو النَّوّار زوج الفرزدق قتل بالبصرة بعد الجمل انظر الطبري ٣٢٠٠ .

١٣ النقائض ١٢٥ .

١٤ نفسه ٣٢٢ .

وقد مرّ بنا من قبل كيف أن جريراً وصف بني العم بأنهم غرباء لا تعرفهم العرب، ونفى علاقة عَرين وهي إحدى العشائر التميمية بأصلها التميمي حين هدَّده أحد أفرادها بالقتل لهجائه سليطاً، فقال لهم :

عَرّين من عُرَيْنَة[١٥] ليس مِنّا   برئت إلى عُرَيْنَة من عَرين
عبيداً مسبعين لعبد قيس   من القن المولد والقطين
عرفنا جعفراً وبني عُبَيْد   وأنكرنا زعانف آخرين[١٦]

وسمّى الفرزدق جريراً وقومه عبيداً حين خاطبه بقوله :

وابن المراغة يدّعي في دارم   والعبد غير أبيه قد يتنحَّل
ليس الكرام بناحليك أباهم   حتى تُردّ إلى عطية تعتل[١٧]

ولكن رغم هذه الحيلة فإن الشعراء كانوا يتحرجون من هجاء عشائرهم كما يستشف من حديث شاعر لم يعرف عنه التورع في الهجاء وهو الفرزدق، وذلك حين قال في أمر بني جارم من ضبة، أخواله :

لولا بنو سعد بن ضبة أصبحت   بنو جارم مني على ظهر أجزل
لقد كنت عن شتم العشيرة محرماً   ولكن متى تستعجل الشّر يعجل[١٨]

ورغم كثرة هذه المشاحنات[١٩] فلم يبلغ أي منها مدى العنف الذي بلغه الصراع بين جرير والفرزدق. وقد ذكرنا من قبل أن تورط هذا الشاعر الأخير في الصراع الذي كان قائماً بين جرير والبعيث قد أضفى على النزاع صبغة مختلفة

---

١٥ قبيلة يمنيه .
١٦ النقائض ٣١ .
١٧ نفسه ٢٠٢ .
١٨ ديوان الفرزدق ١١٤/٢ .
١٩ إلى جانب النزاع بين جرير والفرزدق والشعراء الذين ذكرناهم انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٦٦٧/٢ والنقائض ١٢٤ لما جرى بين الفرزدق ومُرَّة بن مَحْكان .

وأكسبه أبعاداً جديدة. فقد أُضيف إلى الفحش المعهود نغمة متأنية من الفخر بقوم الشاعر ظلت تقوى مع الزمن. وقد بلغ هذا التطور قمته قُبيل اندلاع الخصومات بين قبائل البصرة بعد موت يزيد الأول وبذلك أصبح النزاع بين الشاعرين الكبيرين لا يعبّر عما يجول في دائرة عشيرتيهما الضيقة فحسب بل شمل إلى ذلك قدراً كبيراً من التعبير عن جوانب أخرى كما سيتضح لنا فيما بعد. ولكننا سنقتصر هنا على جانب النزاع المتعلق بعشيرتيهما مجاشع وكليب مرجئين الحديث عن الجوانب الأخرى لمرحلة متأخرة من هذا الفصل.

والذي يتضح لنا – بعد أنْ نضع في الاعتبار كل العوامل الشخصية التي تفسد العلاقات عادة في أي مجتمع بشري – أن الدافع لهذا الصراع ولكل الألوان الأخرى التي شهدتها الفترة كان يكمن في شعور المشتركين فيه بأنهم على موعد مع النجاح وأنهم لا شك مصيبون فائدة ومكسباً من وراء هذا النشاط[٢٠]. والحقيقة الراسخة في الأذهان من أن معظم هذه العشائر والفروع كانت تعمل في ماضيها القريب مستقلة عن بعضها ولا تتورع في بعض الأحيان عن الإغارة على أقرب أقربائها[٢١] لتحقيق مآربها الشخصية – مما يمكن أن يتكرر في الظروف الجديدة لإحراز نفس النتائج – هذه الحقيقة ماثلة في اسراف الشعراء في استرجاع مآثر عشائرهم وتعداد انتصاراتها الحربية على غيرها في الجاهلية والإسلام. وقد مهّد حرصهم الشديد على تسجيل أيام العرب السبيل للمؤرخين وأمدّهم بمادة، وان لم تكن دائماً دقيقة، لدراسة تاريخ العرب قبل الإسلام[٢٢]. بيد أن هذه المادة التي نظرت إليها الأجيال اللاحقة من ناحية قيمتها التاريخية كانت قضايا حية

---

٢٠ انظر ص ٨٠ – ٨١ أعلاه.

٢١ رشت بنو شيبان من بكر بني يربوع فخلّوا بينهم وبين بني عمومتهم بني سعد من تميم. النقائض ١٤٤ – ٥ ، ٣٢٦.

٢٢ ابن رشيق: العمدة ١٩٨/٢ – ٢٢٥ ؛ العقد الفريد ٣/٦ – ١١١.

تعيشها الأطراف المتنازعة وتحس بأثرها المباشر على عقولها وقلوبها. وقد دفع حرص القوم على الظهور بمظهر العظمة والمجد الأثيل وتجنب كل ما يشين هذه الصورة، كما رأينا من قبل، إلى الاختلاق والتزييف وما شاكل ذلك من حيل. وقد دعا ذلك إلى تتبع عيوب الخصوم ومثالبهم وتصويرها في أبشع صورة. ولم يجد أبو عبيدة من الكلمات ما يعبّر به عما كان يقوم به جرير والفرزدق في هذا الشأن غير قوله: «وهما بئس الشيخان ما خلق الله أشأم منهما على قومهما انهما أخرجا مثالب بني تميم وعيوبهم وكانا أعلم الناس بعيوب الناس»[٢٣]. وكان إطار الفحش الذي يغلف قدراً كبيراً من هذا الشعر مما يقرّبه إلى قلوب السامعين[٢٤] إذ أن معظم هذا الشعر كان يقال والسامع في ذهن الشاعر. فكان جرير يحس بنشوة بالغة وهو يكيل السباب لنساء مجاشع[٢٥] ونساء الفرزدق خاصة. ويمكن للناظر في كتاب النقائض أن يتبين مدى استغلاله لقصة جعثن أخت الفرزدق بالقاء نظرة سريعة على الفهرست[٢٦]. وهجا النوار زوج الفرزدق[٢٧] ولم يتورع عن القول بأنها كانت على صلة به حين حبسهما القباع[٢٨]. واتهم جدة الفرزدق ليلى بأن العبد الحداد جبيراً أحبلها[٢٩] ومن ثم تماديه في تسميتهم بالقيون كما مرّ بنا من قبل.

وقد هاجم الفرزدق بالمثل أم غيلان بنت جرير[٣٠]، وأمه التي دعاها بالمراغة

---

٢٣ النقائض ١٠٤٩ .

٢٤ انظر ص ٩٩ أعلاه .

٢٥ النقائض ٨٢ – ٣، ٢٢٦، ٢٣٠ – ١، ٢٧٤، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٤٠ – ١، ٤٣٩ – ٤١، ٨٥٧ – ٨، ٨٦٣ – ٤ الخ .

٢٦ مثلاً ٢٢٢، ٢٥١، ٣٩٨، ٤٤٠، ٤٨٢ – ٣، ٥٩٢ – ٣، ٦٨٢، ٧٠٩، ٧٧٨، ٨٠٠، ٨٤٥، ٨٥٥ – ٦، ٩٧٨ – ٩٨٠، ١٠٠١ .

٢٧ نفسه ٣٤١ .

٢٨ انظر ص ١٣٢ أعلاه .

٢٩ النقائض ٧٨، ٣٨٩، ٦٨٣، ٧٩٩، ٨٠٠، ١٠٠١، ١٠٢٦ .

٣٠ نفسه ٨٤١ – ٣ .

(أي الأتان) وهي صفة ألصقها بها غسان من قبل[٣١]، واتهمها بالزنى[٣٢]. ورمى خصمه بتهمة معاشرة أمه[٣٣]، وجلّل نساء كليب بالشتم والفضائح[٣٤]. وهجا كليباً إلى ذلك بفقرهم الظاهر، وصور نساءهم إماء ورعاة[٣٥]، وهو أمر غاية في المهانة عند العرب، إذ أن رعي الإبل لا يقوم به في العادة غير الرجال[٣٦]. ودلّل على حقارة مكانتهم الاجتماعية حين وصفهم بأنهم أصحاب غنم وحمير[٣٧] يؤدون مهور فتياتهم خرافاً بدل الجمال، ويجرون في السباق على الحمير بدل الخيول[٣٨]. ورماهم فوق ذلك بأنهم يأتون أُتُنَهم ويتخذونها أزواجاً[٣٩]، الأمر الذي أغضب عليه بعض الكلبيين حتى كادوا أن يقسروه حين مرَّ بديارهم ذات مرة على إتيان أتان فلم ينقذه من ذلك إلّا ذكاؤه وسرعة بديهته[٤٠].

ويكفي أن نذكر هنا أن الشاعرين لم يتورعا من استغلال كل الوسائل المتاحة لهما لتحقيق مآربهما. فلم يألوا جهداً في تعداد مفاخر قومهما، وذكر مساوىء خصومهما مستعينين في ذلك بكل ما يستطيعان الاعتماد عليه. فإلى جانب فخرهما بتميم قاطبة مما سنتعرض له فيما بعد، فخر الشاعران باطراد — خاصة بعد فترة حكم بني الزبير — بكل عشائر تميم التي يظنانها موالية لهما في الصراع. فأفاض الفرزدق في ذكر مآثر عشائر دارم المختلفة، رغم أنه كان قد هجا بعضها من

---

٣١ نفسه ١٧ .

٣٥ نفسه ٢٠٥ .

٣٣ نفسه ٢١٠ .

٣٤ نفسه ٢٣٢ – ٣ ، ٢٧٩ ، ٤٧٦ ، ٤٩٢ ، ٥١٣ ، ٧٠٤ – ٥ ، ٧٧٣ ، ٨٧٨ .

٣٥ نفسه ٣٣٢ .

٣٦ نفسه .

٣٧ نفسه ٣٩٣ – ٤ ، ٤٩١ ، ٥٧٢ ، ٦٠٤ ، ٦٢٣ ، ٧٩٢ .

٣٨ نفسه ٢٨٠ .

٣٩ النقائض ٥٧٣ – ٤ ، ٦٢٧ ، ٧٩٣ ، ٨٢٣ .

٤٠ الأغاني ١٩/٤٠ .

قبل. وفي قصيدة من قصائده[٤١] فخر بمجاشع ونهشل وفقيم وبني طُهَيَّة والربائع، وبني العدويَّة والبراجم وحنظلة وضبة في حين فخر جرير[٤٢]، بعد أن ذكر انتصاره على مجاشع، بجبلي تميم عمرو ومالك. وكان هذا الإحساس بالدائرة العريضة التي تشمل في إطارها جميع تميم تحدّ أحياناً من غلواء الشعراء وتدفعهم إلى تضييق دائرة هجائهم. ولعلَّ هذا الخوف من «تصعيد» الصراع هو الذي حدا بجرير لإبطال محاولة البعيث والفرزدق من بعده لتصوير النزاع بينهما وكأنه كان نزاعاً بين بني مالك وبني يربوع الفرعين الكبيرين من تميم اللذين تنتسب إليهما عشيرتاهما. ويظهر ذلك في قوله للبعيث :

أتشتم يربوعاً لأشتم مالكاً   وغيرك مولى مالك وصميمها[٤٣]

ولم يتوان من الفخر بانتسابه هو إلى مالك كما فخر خصمه البعيث بمكانته العالية فيهم[٤٤]، وذلك حين قال :

لي الفضل في أفناء عمرو ومالك   وما زلت مذ جاريت أجري على مهل[٤٥]

ولكي يبطل حجة مخاصميه من بني مجاشع كان يغري بني مالك بمجاشع كما في قوله :

بني مالك لا صدق عند مجاشع   ولكنّ حظاً من فياش على دخل[٤٦]

وقد تجلى في الصراع أثر العصبية القبلية في المدينة عامة من جانب آخر. إذ

---

٤١ النقائض ١٨٢ ؛ انظر الديوان ٢/١٥٥ — ٦١ ؛ ١/٣٩ — ٤٠ ، ٩٩ — ١٠٥ ، ٢٢٢ — ٤ ، ٢٨٢ ، ٤١٨ — ٢١ ، ٤٢٣ — ٤ ؛ ٢/٢٦٩ — ٧٠ ، ٢٧٤ — ٥ ، ٣٠٥ — ٦ ، ٣١٨ — ٢١ ، ٣٢٤ ، ٣٢٩ — ٣٢ ، ٣٥٥ .

٤٢ النقائض ٢٢٤ ؛ ديوان جرير ٣٥٨ .

٤٣ النقائض ١٢٤

٤٤ نفسه ١٤٣ .

٤٥ نفسه ١٦٢ .

٤٦ نفسه ١٦٥ .

يبرز الاتجاه نحو الفخر بمجد العشيرة الحربي وتعداد انتصاراتها لا على العشيرة المنافسة فحسب كما كان الشأن في فترة مبكرة، ولكن على كل المجموعات القبلية الأخرى خاصة بعد موت يزيد. فجرير في هجائه للبعيث لم يكتف بهجاء مجاشع بل أفاض في ذكر انتصارات فرعه بني كليب على قبائل شيبان وبكر وسواها(٤٧). وتعدى البعيث نفسه نطاق القبيلة الضيق وتجاوزه إلى آفاق أرحب حين هجا جريراً وتحدث عن مآثر مجاشع في قوله :

وكل معـــدّ قـــد جزينا قروضهـم　　　فبؤسى ببؤسى أو بنعماء أنعما(٤٨)

وفي هذه الأثناء يدخل عنصر جديد في النزاع مشيراً إلى اطراد قوة قريش التي ينتهي إليها الأمويون. فحين يسعى جرير لاحباط حجج الفرزدق يخاطبه بقوله :

فارجع إلى حَكَمَيْ قريش(٤٩) إنهم　　　أهل النبوة والكتاب المنـزل(٥٠)

جاعلاً بذلك قريشاً الحكم إلى جانب مضر وربيعة(٥١). أما الفرزدق فيعتبر قريشاً القبيلة الوحيدة التي ترقى إلى مستوى قومه فيقول :

فما من معـدي كفاء نعده　　　لنا غير بيتي عبد شمس وهاشم(٥٢)

ولئن كان حظ تميم من هذا الشعر كبيراً، كما ألمعنا إلى ذلك، فإنهم لم يكونوا في معظم الظن متفردين عن القبائل الأخرى الذين - وإن لم يصلنا عنهم شعر كثير - إلّا أنهم كانوا في مثل حال تميم كما يُستدل من قصة العُدَيْل بن الفَرْخ شاعر بكر بن وائل الذي انتهى خصامه مع أبناء عمه حول زواج أختهم إلى معركة سال فيها الدم وطلبت فيها الثارات(٥٣) .

---

٤٧ النقائض ٦٦ - ٧٧ .
٤٨ نفسه .
٤٩ أي عبد شمس (أمية) وهاشم .
٥٠ النقائض ٢٢٤ .
٥١ نفسه ٢٢٥ ؛ انظر أيضاً ٧٦٣ - ٤ .
٥٢ النقائض ٧٤٧ .
٥٣ الأغاني ٢٠/١١ - ١٩ .

القبيلة على القبائل والأحلاف الكبرى :

كان اتجاه العشائر الصغيرة للانضمام إلى فروعها الكبيرة بغرض تكوين وحدات قبلية أكبر مثل تميم وقيس والأزد وبكر وعبد القيس وغيرها مما ارتكزت عليه خطة تقسيم المدينة إلى أخماس[٥٤] يكمن في أعماق تجربة الشعراء. وقد ألهمهم ذلك قدراً كبيراً من شعرهم. ورغم أن كثرة هذا الشعر تتوسع في الحديث عن مزايا العشائر التي ينتمي إليها الشعراء مشيرة بذلك إلى تسلط العشيرة على عقولهم ومشاعرهم إلّا أنها كانت تعبّر بصورة مطردة – تمتزج أحياناً مع مدح العشيرة – عن الفخر بأمجاد الوحدة القبلية الكبيرة .

ومن المهم أن ننبه هنا إلى أنه رغم أن شعور الانتماء إلى مجموعة أكبر كان دائماً حقيقة واقعة في البصرة كما دلّت على ذلك أحداث واقعة الجمل، إلّا أنه نادراً ما يُشار إليه – على الأقل في الشعر – إلّا في أوقات الأزمات أو احتدام العداوة مع المجموعات الكبرى الأخرى خاصة بعد موت يزيد بن معاوية. ولعلّه من الأوفق هنا أن نسبق الحوادث ونذكر أن ضعف الإحساس النسبي بهذا الشعور هو الذي حدا بجرير لأن يكون، تحت ظروف معينة، لسان قيس عيلان الذين كانوا في كثير من المواقف أعداء قبيلته تميم الألداء[٥٥]. وعسى أن تعين دراسة ما وصلنا من هذا الشعر دراسة نراعي فيها التسلسل الزمني، على تبين ارتفاع الخط البياني لهذه الظاهرة. فإننا لو اعتبرنا تميماً نموذجاً لهذا الذي يجري أمكننا ملاحظة ندرة الإشارة لتميم في أشعار الفترة المبكرة خاصة تلك المتعلقة بالنزاع بين العشائر المختلفة. ولكن كلما ازدادت أهمية تميم كقوة على مسرح الحياة السياسية القبلية سرت نغمة موازية لذلك في الشعر وازدادت قوة مع الزمن. ومثل هذا الاتجاه واضح حتى في الشعر الذي يطنب في ذكر مآثر العشيرة الصغيرة. فكثيراً ما فخر الشعراء

---

٥٤ انظر الباب الأول ص ١٨ .

٥٥ انظر ص ١٤٧ و ١٨٦ أدناه .

بتميم واعتزوا بانتمائهم إليها وهم يهجون العشائر المنافسة لهم. فجرير حين يعدد مآثر قومه يقول للبعيث :

ويوم عبيد الله خضنا برايـة وزافرة تَمَّت إلينا تميمها[٥٦]

وذكر البعيث مثل ذلك لجرير في قوله :

وألفيتنا نحمي تميماً وتنتمي إلينا تميم بالفوارس والرجل[٥٧]

وقد تطغى هذه العاطفة أحياناً على موضوع النزاع الأصلي كما يستدل من كلمات جرير عن البعيث والفرزدق في ولاية القُباع :

تمنى رجال من تميم لي الرَّدَى وما ذاد عن أحسابهم ذائد مثلي

كأنهم لا يعلمون مواطني وقد علموا اني أنا السابق المبلي[٥٨]

وقد ضاعف من حدة الشعور بالانتماء للقبيلة الأم ما كان يضطرم داخل المدينة من غليان وصدام بين القبائل. فإحراق ابن الحضرمي عام ٣٨ هـ / ٦٥٩ م[٥٩] الذي قام به جماعة بعينهم من تميم صوّره العَرَنْدَس الأزدي وصمة تعم تميماً جميعها بالعار وأبرز في ذات الوقت إجارة زياد فضيلة لجميع الأزد[٦٠]. والواقع أن الأزمة الداخلية التي استحكمت في أعقاب موت يزيد الأول كانت من أكبر العوامل في شحذ حدة الانقسامات القبلية. وكان دور تميم في توسيع شقة الخلاف القبلي بارزاً كما يستدل من أبيات حارثة بن بدر الغداني[٦١] التي قالها حين اضطلعت تميم بالعبء الأكبر في تولية عبد الله بن الحارث المشهور بِبَبَّة حاكماً على البصرة[٦٢]

---

٥٦ النقائض ١١٢ .

٥٧ نفسه ١٤٣

٥٨ نفسه ١٦١ .

٥٩ انظر الباب الأول ص ٢١

٦٠ انظر الباب الخامس ص ٢٢٧ للشعر .

٦١ انظر الباب الخامس ص ٢٢٩ للشعر .

٦٢ الطبري ٢/٤٤٤ ؛ وانظر الباب الأول ص ٢٤ .

ولعلَّ ذلك كان برغم الأزد وبكر وعبد القيس[٦٣] الذين لم يجدوا مناصاً من ضم صفوفهم لمواجهة تجمعات مضر[٦٤] . وقد صوَّر حارثة بن بدر الصدام الحربي بين الجانبين تصويراً حياً حين قال للأحنف بن قيس :

سيكفيك عبس أخـو كهمس　　مقارعـة الأزد بالمـربد
ويكفيك عمرو وأشياعها　　لكيز بن أفصى ومـا عـددوا
وأكفيك بـكراً إذا أقبـلت　　بطعن يشيب لـه الأمرد[٦٥]

وكانت نتيجة هذه المعركة مقتل مسعود بن عمرو العَتَكي زعيم الأزد. وقد نظر الناس للحادثة في الإطار العام للأحلاف القبلية كما يستشف من أبيات عَرْهَم بن قيس[٦٦] :

ومسعود بـن عمرو إذ أتـانـا　　صبحنا حـدّ مـطرور سنينا
رجا التـأمير مسعود فـأضحى　　صريعاً قـد أذقنـاه المنونـا
سيجمع جمعنـا لبـني أبينا　　كما لـزوا القرينـة والقرينـا
وتغني الزط عبـد القيس عـنـا　　وتكفينـا الأساورة المزونـا[٦٧]

وقد ذكر سوَّار بن حيَّان المِنْقَرِي الرابطة القائمة بين قيس وتميم حين تحالفا كمضر :

ألم تكـن في قتل مسعود عـبر　　جاء يريـد إمرة فـما أمـر
حتى ضربنا رأس مسعود فخر　　ولم يوسد خدّه حيث انعفـر
فأصبح العبـد المزوني عـثر　　حتى رأى الموت قريباً قد حضر

---

٦٣ النقائض ١١٢
٦٤ انظر الباب الأول ص ٢٤
٦٥ الأغاني ٢٩/٢١ ؛ المبرد : الكامل ١٢٦/٢ .
٦٦ النقائض ١١٥ ؛ الطبري ٤٥٦/٢ حيث ذكر الاسم جُرْهُم .
٦٧ نفسه ؛ بلا ٣٢ هامش ٧ للفظة مزون .

يطمهم بحـر تميم إذ زخـر وقيس عيلان ببحر فـانفجر
من حولهم فما دروا أين المفر حتى علا السيل عليهم فغمر[٦٨]

وقد أكدت العوامل السياسية هذه الانقسامات وضاعفت من حدّتها. فكانت المجموعة المضرية خاصة قيس[٦٩] ومعظم تميم[٧٠] زبيرية ومخالفة لبني أمية. وقد دارت معركة الجُفْرة على أساس هذه التجمعات القبلية[٧١]. وحين هزم مصعب بن الزبير ابن أسيد قال أبو نخيلة متحدثاً بلسان قومه تميم :

نحن ضربنا الأزد بالعراق والحيّ من ربيعة المرّاق
وابن أسيد قائد النفاق بلا معونات ولا أرزاق
إلا بقايا كرم الأعراق لشدة الخشية والاشفاق
من المخازي والحديث الباقي[٧٢]

وقد ألقت أحداث خراسان بظلها الكثيف على مسرح الحياة في المصر وترتب عنها انقسام المعسكر المضري[٧٣]. وقد بدأ الصدع عام ٧٤ هـ / ٦٩٣ م حين قتلت تميم عبد الله بن خازم القيسي. وكان نشاط بشر بن مروان الذي كانت أمه من قيس ونشاط الحجاج[٧٤] من بعده عاملاً حاسماً في التمكين لقيس. ويبدو أنهما أغريا جريراً بمدح قيس والتحدث بلسانها وقد قام بذلك في حماس إذ أن أخواله كانوا من قيس[٧٥]. وقد ضمن حكم الحجاج الصارم استقرار الأمن القبلي مدى

---

٦٨ النقائض ١١٧ .
٦٩ البلاذري: أنساب ٣١٤/٥ ، ٣١٩ ؛ ابن سلام ٤٣٧ .
٧٠ انظر الباب الرابع للشعر في ذلك .
٧١ انظر الباب الأول ص ٢٥ .
٧٢ المبرد: الكامل ١٠٢/٢ ؛ ابن المعتز : طبقات ١٨ .
٧٣ انظر الباب الأول .
٧٤ انظر الباب الأول .
٧٥ المبرد: الكامل (المرصفي) ٢١٩/٤ .

عشرين عاماً. وبموته استعرت الخلافات من جديد ووصل الانقسام بين قيس وتميم غايته حين قتلت تميم حاكم خراسان القيسي قتيبة بن مسلم[٧٦] ومنذ هذه اللحظة ترتبط العلاقات القبلية ارتباطاً لا ينفصم بالسياسة الأموية ويتولى الشعراء – كما سيتضح في الباب التالي – وصف أشكال الأحلاف القبلية المتغيرة أبداً داخل الإطار العام للسياسة الأموية .

٧٦ انظر الباب الأول .

البَابُ الرابع
الشِعْرُ وَالدَّوْلَــة

الفصل الأول

الشعراء والخلافة

لعلّ خير تعبير عن اتجاه البصرة العام في السياسة ما قالته أُم كعب بن سور الأزدي في مرحلة متقدمة من تاريخ المدينة. وكان كعب من قضاة المدينة المشهورين[1] ثم قتل هو وإخوته الثلاثة أو الأربعة في واقعة الجمل وحول عنقه مصحف[2] فوقفت أمهم الثكلى تنظر إلى أجسادهم المسجاة في ألم وحسرة وتقول من خلال عبراتها :

يا عين جودي بدمع سرب   على فتية من خيار العرب
وما لهم غير حين النفو   س أيُّ أميري قريش غلب[3]

بيد أنه رغم شعور عدم المبالاة هذا الذي يرجع في عمومه إلى انشغال أهل البصرة بانقساماتهم القبلية الحادة وما ينجم عنها من صراع كثيراً ما فصلهم عن تيار السياسة الأموية العام[4] ، فإن الصورة العامة التي يمدّنا بها الشعر البصري صورة يتمثل فيها الاعتراف بأساس الخلافة الديني وقبول حق قريش فيها. بيد أن ما

١ انظر ابن سعد ٢/٧ ص ٦٥ – ٦ لاعتزاله الفتنة أولاً .
٢ المبرد: الكامل (المرصفي) ١٥٢/٨ .
٣ نفسه ١٥٣ .
٤ انظر الباب الأول .

وصلنا عن هذه الأيام الأولى مبتسر. فالخلاف بين معاوية وعليّ الذي انتهى بانتصار الأمويين لم يترك إلّا أضعف الأثر[٥] فيما وصلنا من شعر. وعسى أن يكون مردّه قلة الشعر في هذا المجال إلى ضعف حماسة السواد الأعظم من أهل البصرة الذي وضح في تمنعهم الشديد في الانحياز كلية لهذا الجانب أو ذاك[٦]. وحين أصبح ذلك الانحياز ضرورة اختلفت الصورة. ومن ثمَّ كانت النتائج المترتبة على انحياز العنصر المضري وعلى رأسه تميم للزبيريين على المروانيين بعد موت يزيد عام ٦٤ هـ / ٦٨٣ م عظيمة الوقع في مجال السياسة والشعر. وأصابت الدعوة الأموية من جراء ذلك نكسة كبيرة، إذ كان أغلبية الشعراء معارضين لهم وقد عرف الأمويون عنهم ذلك حتى ان عبد الملك بن مروان حرم كل شعراء مضر من المثول بين يديه لميولهم الزبيرية[٧]. وقد عبّر الفرزدق عن عاطفة تميم الطاغية في هذه الفترة وذلك حين خاطب بعض التميميين الذين وقفوا مع المروانيين في واقعة الجُفْرة[٨] :

عجبت لأقوام تميمٌ أبوهم ... وهم في بني سعد عراض المَبارِك
وكانوا سراة الناس قبل مسيرهم ... إلى الأزد مصفّراً لحاها ومالك
ونحن نفينا مالكاً عن بلادنا ... ونحن فقأنا عينه بالنيازك
فما ظنكم بابن الحواريّ مصعب ... إذا افترّ عن أنيابه غير ضاحك[٩]

ولكن البكريين الذين كان مالك المذكور زعيمهم لم يكونوا كلهم معارضين لآل الزبير. فقد نصح أحد زعمائهم سُوَيْد بن منجوف السَّدُوسي[١٠] مصعباً وحذّره خيانة من يحيطون به :

---

٥ انظر ديوان أبي الأسود الدؤلي الذي كان شيعياً ص ١٧٤ - ٩

٦ انظر ص ٢١ أعلاه.

٧ ابن سلام ٣٥٧.

٨ انظر الباب الأول ص ٢٥ ؛ الطبري ٢/٧٩٩ - ٨٠٠ ؛ النقائض ٧٥٠ - ٢.

٩ ديوان الفرزدق ٢/٥٧ ؛ الطبري ٢/٨٠٠ - ١ ؛ النقائض ٧٥٢.

١٠ ابن سلام ٤٠١ ، ٤٠٢ ؛ البلاذري: أنساب ٥/١٧١.

أَلَا ابلغ مصعبا عــني رسولا ولن تلقى النصيح بكــل واد
تعلم ان أكــثر مــن تنــاجى وإن أدنيتهم فهم الأعادي[١١]

ومما يلفت النظر في هذه الفترة المضطربة أن بعض الشعراء الذين أحسوا بالوهن الذي أصاب قريشاً من جرّاء هذا الانقسام في صفوفها وجدوا الشجاعة للتصدي لقريش بالنقد جهرة. فحين شتم عبد الله بن الزبير الفرزدق وقال له «ما أنت وقومك إلّا جالية العرب»[١٢]، أجابه الشاعر بقوله :

فإن تغضب قريش أو تغضَّب فإنّ الأرض توعبهــا تمــيم
هم عــدد النجوم وكــل حيّ سواهم لا تعــدّ له نجــوم
ولولا بيت مكــة مــا ثويــتم بها صح المنــابت والأروم
بها كثر العديــد وطاب منكم وغيركم أخيــذ الجيش هيم
فمهلاً عــن تعلل مــن غدرتم بخونتــه وعذّبه الحميم
أعبــد الله مهــلاً عــن أذاتي فإني لا الضعيف ولا السؤوم[١٣]

ولم يكن مثل هذا النقد العلني يذهب في الناس دائماً دون أن يتصدى له بعض البصريين الآخرين بالرد. فحين أنشد أبو حُزَابة التميمي قصيدة في المربد ضمنها ذماً لعبد الله بن علي والي سجستان وكان قرشياً شحيحاً وقال فيها :

فارفض قــريشاً كــلهــا من أجل ذي الداء العُضال[١٤]

قال له عون بن عبد الرحمن التميمي: ما قلت ؟ اتشاهر الناس بشتم قريش ؟ فقال له أبو حُزَابة: إني لم أعمّ إنّما سميت رجلاً واحداً، فأغلظ له عون حتى

---

١١ البلاذري: أنساب ٣٤٣/٥ .
١٢ الأغاني ١٠/١٩ .
١٣ نفسه ١٠ – ١١ .
١٤ نفسه ١٥٥ .

انصرف عن ذلك الموضع. ثم أمر عون ابن أخ له فسقا أبا حُزَابة في شرابه شبرماً فسلح أمام بابه ومرض أشهراً وأتى بعد ذلك المربد فهجا عون بن عبد الرحمن هجاء مرًّا صاح به الناس[١٥] .

وأياً ما كان الحال فإن الزبيريين لم ينالوا حظاً وافراً من الذكر في الشعر. وباستثناء قلة من المقطوعات المبعثرة[١٦] في المصادر فليس من شعر بصري كثير يتصدى للدفاع عنهم أو لشرح دعوتهم وتزيين سياستهم. واحتمال أن يكون الشعر الذي قيل فيهم قد اسقطه الشعراء من شعرهم خوفاً من بني أمية أو أسقطه الأمويون أو أسقطه الاثنان معاً افتراض ليس بالبعيد. إذ أن الدائرة قد دارت على آل الزبير بانتصار المروانيين وتوليهم أمر الخلافة. ومن ثم توجَّه الشعر خاصة شعر الفحول باطراد للتحدث عن أعمال الخلفاء وولاتهم مشيداً بأفضالهم ومزاياهم. ولم يستغرق التحول زمناً طويلاً فبمجرد قتل مصعب بن الزبير (٧٢ هـ / ٦٩١ م) فتح البَعِيث اليشكري الباب للشعراء من بعده حين قال :

ولما رأينا الأمر نَكْساً صــدوره　　　وهمّ الهوادي أن يكن تواليـا
صبرنا لأمـــر الله حتى يقيمــه　　　ولم نرض إلّا من أميــة واليـا
ونحن قتلنا مصعباً وابن مصعب　　　أخا أسد والنخعي اليمانيا[١٧]

أما الأمويون وقد كسبوا الجولة في ميدان القتال فلم يتوانوا في السعي لكسب قلوب الناس وعقولهم. وتوجهت جهودهم للتأثير عليهم مستغلين في ذلك سلاح الدين. فأطنبوا في الحديث عن الخلافة وما يتصل بها من المراسم الدينية واستخدموا كل ذلك في تصوير الأمويين الذين تولوا أمرها حماة للإسلام ورمي خصومهم بمعاداة الدين والكيد للإسلام. ومطابقة محتوى الشعر البصري الذي يصوّر هذا

---

١٥ نفسه ١٥٣ .

١٦ انظر الأغاني ٦٥/١٧ حيث يمدح ابن مفرّغ ابن الزبير ؛ ديوان العجاج ٣ حيث يمدح مصعباً .

١٧ الطبري ٨١٠/٢ .

الجانب من الحياة السياسية لدعاوى الأمويين السياسية أمر ملفت للنظر حقاً. فمن اليسير علينا أن نرى في العنصر الديني الذي يطغى على كثير من هذا الشعر أهم معالم سياستهم خاصة تلك التي كان ينادي بها الحجاج (٧٥ – ٩٥ هـ / ٦٩٥ – ٧١٤ م) وعبد الملك .

فالحجاج كان يزعم أن طاعة الخليفة فرض واجب على الناس في كل ما يرونه ويجادل على ذلك[١٨] . وقد روى أبان بن عثمان كلماته في هذا الشأن. قال قال الحجاج « والله لطاعتي أوجب من طاعة الله لأن الله تعالى يقول: « فاتقوا الله ما استطعتم »[١٩] ، فجعلها مثنوية. وقال: « واسمعوا وأطيعوا »[٢٠] ولم يجعل فيها مثنوية. ولو قلت لرجل: ادخل من هذا الباب، فلم يدخل لحلّ لي دمه »[٢١] . وعن ابن عباس قال: كنا عند عبد الملك إذ أتاه كتاب الحجاج يعظم فيه أمر الخلافة ويزعم أن ما قامت السموات والأرض إلّا بها، وأن الخليفة عند الله أفضل من الملائكة والمقربين والأنبياء والمرسلين، وذلك أن الله خلق آدم بيده وأسجد له الملائكة وأسكنه جنته ثم أهبطه إلى الأرض وجعله خليفته[٢٢] وجعل الملائكة رسلاً له. فاعجب عبد الملك بذلك وقال لوددت ان عندي بعض الخوارج فأخاصمه بهذا الكتاب[٢٣] . وخرج الحجاج من كل ذلك بأن خليفة الله في أرضه أكرم عليه من رسوله إليهم[٢٤] وكان يدعم حجته بسؤال من حوله: ويحكم أخليفة أحدكم في أهله أكرم عليه أم رسوله إليهم ؟[٢٥] . وبمقتضى هذه الأفكار تتبع الحجاج كل

---

١٨ ابن حجر: تهذيب التهذيب ٢١٠/٢ – ١١ .

١٩ سورة التغابن آية ١٦ .

٢٠ نفسه .

٢١ الجاحظ: الحيوان ٥/٣ .

٢٢ سورة البقرة آية ٣٠ – ٣٥ .

٢٣ العقد الفريد ٣٣٢/٥ .

٢٤ نفسه ٣٣٤ .

٢٥ نفسه ٣٣٣ .

من انضم إلى ثورة ابن الأشعث الفاشلة[٢٦] فعرضهم على السيف، فمن أقرّ له أنه كفر بخروجه عليه أطلقه ومن امتنع قتله صبراً[٢٧]. وقد ذكر ذلك الفرزدق بعد موت الحجاج (٩٥ هـ / ٧١٤ م) وتولى سليمان الخلافة (٩٦ هـ / ٧١٥ م) في قوله:

وإذ أنتم من لم يقل أنا كافر تردّى نهاراً عثرة لا يقالها
وفارق أم الرأس منه بضربة سريع لبين المنكبين زيالها
وإن كان قد صلّى ثمانين حجة وصام وأهدى البدن بيضاً خلالها[٢٨]

وقد لخّص جرير مذهب الحجاج حين قال في مدحه:

ترى نصر الامام عليك حقاً إذا لبسوا بدينهم ارتيابا[٢٩]

وهكذا تجرَّدت كل القضايا السياسية واستحالت تبعاً لذلك قضايا دينية. فمعارضة أهل العراق لحكم بني أمية تظهر في شعر جرير معارضة للعقيدة كما في قوله للحجاج:

قدمت على أهل العراق ومنهم مخالف دين المسلمين وخاذل
فكنت لمن لا يبرىء الدِّين قلبه شِفاء وخفّ المدهن المتثاقل[٣٠]

وبرز بنو مروان حصناً للإسلام ودرعاً له في كثير من الشعر فالفرزدق يقول لسليمان:

وجدنا بني مروان أوتاد ديننا كما الأرض أوتاد عليها جبالها
وأنتم لهذا الدين كالقبلة التي بها إن يضلّ الناس يهدي ضلالها[٣١]

---

٢٦ انظر الباب الأول.

٢٧ ابن حجر: تهذيب ٢/٢١١.

٢٨ ديوان الفرزدق ٢/٧٥.

٢٩ ديوان جرير ٢١.

٣٠ ديوان جرير ٣٥٥؛ انظر ابن قتيبة: الشعر والشعراء ١/٣٧٦، وبيان الجاحظ ١/٣٠٠ لأبيات مماثلة قالها العُذَيل بن الفرخ.

٣١ ديوان الفرزدق ٢/٧٦؛ وانظر ١/٨٩ وديوان جرير ٢٧٨.

ولتوضيح تفانيهم في حماية الدين والذود عنه يقول الفرزدق في مدح عبد الملك :

إذا لاقى بنو مــروان سلّــوا لدين الله أسيافــاً غضــابــا
صوارم تمنع الإسلام[٣٢] منهـم يوكل وقعهــن بمــن أرابــا[٣٣]

وبوحي من نفس هذا الدافع أطنب الشعراء خاصة جرير والفرزدق في استخدام بعض الألفاظ ذات المدلولات الدينية يصمون بها خصوم الأمويين السياسيين فدمغوا أتباع ابن الزبير بالإلحاد[٣٤] كما جاء في بيتي الفرزدق في مدح بني أمية :

بهن لقــوا بمكــة ملحديهــا ومسكن يحسنون بها الضرابــا
فلم يتركــن مــن أحد يصلّي وراء مكــذب إلّا أنــابــا[٣٥]

وحين مدح جرير عبد الملك خاطب ابن الزبير بقوله :

دعوت الملحدين أبا خبيب جماحاً هل شفيت من الجماح؟[٣٦]

وفي مقام آخر يتطرق فيه الفرزدق إلى ابن الزبير يطلق عليه صفة مسيلمة كذاب اليمامة وذلك حين قال :

بعد الفساد الذي قــد كان قام به كذّاب مكــة من مكر وتخريب[٣٧]

وهناك إلى جانب ذلك ألفاظ أُخرى من ألفاظ الذم أطلقوها على خصوم بني

---

٣٢ انظر الباب الخامس حيث فسرنا هذا المصطلح حين يرد في مثل هذا الموضع بالدولة لا العقيدة .

٣٣ ديوان الفرزدق ٢٢/١ ؛ انظر ديوان رؤبة ١٤٤ ، ١٤٦ في مسلمة بن عبد الملك .

٣٤ عن هذا المصطلح انظر .

L. Massignon, La Passion d'al-Hajjaj, 1921, P. 188; B. Lewis, "Some observations on the significance of heresy in the history of Islam", Studia Islamica, i, 56.

٣٥ ديوان الفرزدق ٢٢/١ ؛ انظر ١٥/٢ .

٣٦ ديوان جرير ٧٨ .

٣٧ ديوان الفرزدق ٢٤/١ .

أمية بغرض تشويه سمعتهم وفضحهم في نظر الجماهير المؤمنة. فتواترت صفات بعينها في معرض الحديث عن كل مجموعة مميزة من مجموعات المعارضة. وقد استخدم الشعراء هذه الصفات بطريقة منظمة توحي بما وراءها من خطة هدفها دمغ الجماعة المعنية باتهام أو شبهة يروّج لها الشعراء في قصائدهم ويضمنون لها الذيوع والانتشار كما حدث في وصف اتباع ابن الزبير بالملحدين. وأطلقوا على معارضي الحجاج في العراق لقب «المنافقين» كما في بيت الفرزدق :

إذا حارب الحجـاج أي منافـق ... علاه بسيف كلّما هزّ يقطع[٣٨]

ويطنب جرير الذي كان على صلة وثيقة بالحجاج في الضرب على هذا الوتر. قال مرة يخاطب الحجاج :

وإذا رأيت منـافقين تخيروا ... سبل الضجاج أقمت كل ضجاج

داويتهم وشفيتهم من فتنـة ... غبراء ذات دواخن وأجـاج[٣٩]

ولا يكتفي جرير بذكر الصفة مجردة بل يقرنها بنقيضها في مثل قوله للحجاج :

بسرّ لـك البغضاء كـل منافـق ... كما كل ذي دين عليك شفيق[٤٠]

وصوروا الثائرين على الحجاج فوق ذلك «عفاريت» و «شياطين» كما في بيت جرير الذي يوجهه للحجاج :

عفاريت العـراق شفيـت منهـم ... فأمسوا خاضعين لك الرقابـا[٤١]

وفي تصوير الشدة والحزم الذي سعى به الحجاج لإسكات معارضيه يقول الفرزدق :

لقد ضرب الحجاج ضربة حـازم ... كبا جند إبليس لهـا وتضعضعوا

---

٣٨ نفسه ٤١٧/١ .

٣٩ ديوان جرير ٧٤ ؛ انظر أيضاً ٧٤ ، ٩٦ ، ٣١٦ ؛ ديوان الفرزدق ٢٨٣ .

٤٠ ديوان جرير ٣١٦ .

٤١ نفسه ٢١ .

وخرّت شياطين البلاد كأنها   مخافة أخرى في الأزمة خضع[٤٢]

أما الثائرون في المراحل المتأخرة فقد أطلقوا عليهم صفات لا مواربة فيها ولا تردد. فاتباع قتيبة بن مسلم الذين ثاروا على عبد الملك بن مروان عام ٩٦ هـ / ٧١٥ م ليسوا غير مشركين في نظر الفرزدق الذي يقول :

ولما رأينا المشركين يقودهم   قتيبة زحفاً في جموح الزمازم
ضربنا بسيف في يمينك لم تدع   به دون باب الصين عيناً لظالم[٤٣]

ونال الثوار اليمنيون بقيادة آل المهلب كل الصفات المقصورة على غير المسلمين في العرف العام. فيسميهم جرير في مدحه ليزيد الثاني « كفاراً » :

لقد تركت فلا نعدمك إذ كفروا[٤٤]   لابن المهلب عظماً غير مجبور[٤٥]

أما الحجاج الذي كثرت في عهده الثورات والفتن فقد أضفوا عليه كثيراً من الصفات التي تناسب هذا الفهم الديني في تصوير أمور السياسة. ففي مدح عبد الملك يقول الفرزدق عن الحجاج :

أرض رميت إليها وهي فاسدة   بصارم من سيوف الله مشبوب
لا يغمد السيف إلّا ما يجرده   على قفا محرم بالسوق مصلوب
مجاهد لعداة الله محتسب   جهادهم بضراب غير تذبيب[٤٦]

ويغمره نفس الشاعر بصفات التقوى والصلاح في قوله :

ولم أر كالحجاج عوناً على التقى   ولا طالباً يوماً طريدة تابل[٤٧]

---

٤٢ ديوان الفرزدق ١/٤٠٦ .
٤٣ ديوان الفرزدق ٢/٣١٢ .
٤٤ انظر ديوان جرير ١٦٧ ؛ ديوان الفرزدق ١/٣٤٣ ، ٢/٣٥٣ .
٤٥ ديوان جرير ١٩٥ .
٤٦ ديوان الفرزدق ١/٢٤ .
٤٧ نفسه ٢/١٣٧ .

وزادوا على ذلك أن أمدّوه بالعون الإلهي كما في قول الفرزدق :

تهون عليك نفسك وهو أدنى   لنفسك عند خالقها ثوابا
فمن يمنن عليك النصر يكذب   سوى الله الذي رفع السحابا
تفرّد بالبلاء عليك رب   إذا ناداه مختشع أجابا(٤٨)

ولا يفتأ جرير يجري المقارنة بين واقعة بدر حيث نزلت الملائكة عوناً للمسلمين وبين وقائع الحجاج بأعدائه كما في قوله :

ولو لم يرض ربك لم ينزّل   مع النصر الملائكة الغضابا(٤٩)

ويضعه جرير في مصاف الأنبياء في مثل قوله :

دعا الحجاج مثل دعاء نوح   فأسمع ذا المعارج فاستجابا(٥٠)

وما دام الحكام قد صُوِّروا حكاماً تحيط بهم مثل هذه الهالة من القداسة فلم يصبح لرعاياهم من خيار غير الخضوع لهم والانصياع لحكمهم وإلّا واجهوا مغبة عصيانهم حسرة في الدنيا والآخرة. وبيَّن جرير الدرس الذي لا بد أن يعيه الناس من ذلك في قوله :

لقد جهد الحجاج في الدين واجتبى   جبـاً لم تغُلْه في الحياض الغوائل
أطيعوا فلا الحجاج مبق عليكم   ولا جبرائيل ذو الجناحين غافل(٥١)

ولم يكن الشعراء في كل حين مرددين لأصداء السياسة فحسب بل كثيراً ما تدخلوا فعلياً مقترحين ومطالبين بإنزال العقاب بالعصاة والمتمردين، كما وردَ في شعر الفرزدق مخاطباً الحجاج :

فدى لك أمي اجعل عليهم علامة   وحرّم عليهم صالحات الحلائل

---

٤٨ نفسه ١/٨١ ، ٢/١٣٨ .

٤٩ ديوان جرير ٢١ .

٥٠ نفسه ٢١ ؛ انظر ٩٥ حيث يشبهه بهود .

٥١ نفسه ٣٥٦ .

تزيّل بين المؤمنين وبينهم إذا دخلوا الأسواق بين المحافل
فلا قوم شرّ منهم غير أنهم تظنهم أمثال ترك وكابل[٥٢]

ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن المعارضين والثائرين من كل صنف ولون، وقد واجهتهم هذه الحملة المغرضة من حملات التشهير والقذف، ردّوا عليها باشهار نفس السلاح في وجوه خصومهم. ولم يكن الخوارج الذين أقاموا حجتهم في هذا المجال على أساس ديني مجرد، الثوار الوحيدين الذين اعتبروا أنفسهم المؤمنين الحقيقيين دون كل خصومهم الآخرين[٥٣]. بل إن ثائرين آخرين لا يدعون كل دعاوي الخوارج استغلوا نفس السلاح. فطُفَيْل بن عامر بن واثلة البصري وأحد أتباع الثائر ابن الأشعث يقول :

ألَا أبلغ الحجاج أن قد أظله عذاب بأيدي المؤمنين مصيب
متى تهبط المصرين يضرب محمد وليس بمنجي ابن اللعين هروب[٥٤]

وفي مدح الشعراء للخلفاء عناية كبيرة بمركز الخليفة وأهميته القصوى لسلامة المجتمع إذ عليه يرتكز ميزان العدالة والأمان. ويفيض جانب كبير من هذا الشعر في تأكيد سلطات الخليفة وفي استنباط الحجج والدعاوي التي يستند عليها حقه في ولاية الخلافة. ولا يملك القارىء لكثير من هذا الشعر إلّا التعجب من جهود هؤلاء الشعراء في هذا السبيل: أموجهة هي لإقناع الممدوح أم لإقناع رعاياه ؟ والواقع أن الشعراء كانوا على وعي تام بالدعوة السياسية التي كان عليهم نشرها، واستناداً إلى انتاجهم الوفير في هذا السبيل، فإنهم فيما يبدو لم يكونوا يفرطون في أي فرصة تسنح لهم لحمل الرسالة إلى الآخرين. ومن ثمَّ تحوّر فن المدح التقليدي الذي

---

٥٢ ديوان الفرزدق ٢/١٣٧ - ٩ ؛ وانظر البلاذري: أنساب الاشراف ٤ب/١٦٣ لاجراءآت مماثلة وقعها مصعب على خصومه .

٥٣ العقد الفريد ١/٨٤ .

٥٤ الطبري ٢/١٠٦٦ .

كان يبرز فضائل الفرد وخصاله الشخصية ليصبح شعراً سياسياً يمتزج فيه عنصر الدعاية بالمدح الشخصي. فإذا أغفلنا خصوصية التعبير الشعري المرتبطة بأشخاص الشعراء تبيَّنَّا نسقاً منظماً من الأفكار والمفاهيم تعكس في وضوح إطار السياسة الأموية العام كما ألمعنا إلى ذلك من قبل. فتبرز أهمية الخليفة وضرورته لسلامة المجتمع من الناحيتين الروحية والمادية كفكرة أساسية في كثير من هذا الشعر. ويصوّر ذلك جرير في إحدى قصايده في عبد الملك حين يقول :

لولا الخليفة والقرآن يـقـــرأه ما قام للناس أحكام ولا جمع[٥٥]

والخليفة لم ينل الولاية إلّا بقضاء من الله لا يبدل كما ذكر نفس الشاعر :

الله طوّقـــك الخلافة والهـدى والله ليس لما قضى تبديل[٥٦]

والاستشهاد بالقرآن[٥٧] واضح في قول الفرزدق في عبد الملك :

فالأرض لله ولّاها خليفتـــه وصاحب الأمر فيها غير مغلوب[٥٨]

ومن هنا جاءت تسمية الخليفة بخليفة الله[٥٩]. وأطلقوا عليه ألقاباً أخرى مثل أمين الله[٦٠] وراعي الله[٦١] وخلافها .

بيد أنه ما دامت الخلافة في كثير من الأحوال موضوع نزاع، وما أسهل على المتنازعين عليها إبطال حجة خصومهم القائمة على الحق الإلهي، فلم يكن من بد

---

٥٥ ديوان جرير ٢٧٨ .

٥٦ ديوان جرير ٣٨٠ .

٥٧ سورة البقرة آيات ٣٠ – ٣٥ .

٥٨ ديوان الفرزدق ٢٤/١ ؛ انظر ٢٥/١، ٢١٤؛ ١٧/٢، ٨٩، ١٠٠، ١٤٧، ٢١٠ ؛ ديوان جرير ٢١١ ، ٣٠٧ ، ٣٣١ ، ٣٩٦ .

٥٩ ديوان جرير ١٩٥ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٣٠٣ .

٦٠ نفسه ٢٧٨ ؛ انظر ديوان الفرزدق ٢٨٦/١ ؛ ٩/٢ ، ٣٠١ .

٦١ انظر ديوان الفرزدق ٢٥٠/١ .

من الاستناد على حجج لا يسهل دفعها. ومن هنا جاء الحديث عن استحقاق الأمويين لشرف الخلافة بعملهم الدائب لها .كما في قول جرير :

إن الخلافــة بالـذي أبليــتم فيكم فليس لملكها تحويل[٦٢]

وفكرة المُلك الذي يورث تمثل اتجاهاً واقعياً في النظر إلى الأمور. فما دامت الخلافة قد أصبحت ملكاً دنيوياً فلا بد لها من أصل ترجع إليه. ومن ثمَّ بدأ الشعراء منذ خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦ – ٩٦ هـ / ٧٠٥ – ٧١٥ م) يطنبون في الحديث عن إرث عثمان. إذ جعلوا حق المروانيين في الخلافة يستند على خلافة عثمان. وقد وضّح ذلك الفرزدق حين قال :

تراث عـثمان كانــوا الأوليــاء له سربال ملك عليهم غير مسلوب[٦٣]

وأكّد الفرزدق حقّ الوراثة في الخلافة في قوله :

توارثهــا بنو مــروان عنـــــه وعن عثمان بعد ثأى كبير[٦٤]

وفي حالات قليلة جداً ذكروا الخلافة بحسبانها إرث محمد[٦٥]. وما أكثر ما ذهبوا إلى أن حقّ الأمويين في الخلافة يرجع إلى أسلافهم القدماء كما أورد ذلك الفرزدق مخاطباً سليمان بن عبد الملك :

ورثتم قناة الملك غير كَلاَلـة عن ابنى منافٍ عبد شمس وهاشم[٦٦]

---

٦٢ ديوان جرير ٣٨٠ .

٦٣ ديوان الفرزدق ١/٢٥ .

٦٤ نفسه ١/٢٨٥ ؛ وانظر ١/٦٢، ٧٩، ٨١، ٢٤٩، ٣٣٦؛ ٢/٨٩، ٩٢ – ٣ ، ٢١٠، ٢١٤ .

٦٥ انظر نفسه ٢/٢٨٣ – ٤ .

٦٦ نفسه ٢/٣٠٩ ؛ وانظر ٢/٢١٠، ٢١٥ ؛ وانظر ١/٥١، ٨٠، ٢١٥، ٢٦٥، ٢٦٧ ؛ ٢/١٥٠، ٢٠٩، ٢١١، ٢١٥، ٢٣١، ٢٨٢، ٣٥٣ ؛ ديوان جرير ١٠٧، ١٠٨، ١١٤، ٢١١، ٣٠٤، ٣٠٧، ٣٤٧، ٣٩٦، ٣٩٧، ٤١٠، ٤١١، ٤١٢، ٤١٤ .

وأصبح حق الخلفاء في توريث الخلافة أبناءهم حقاً معترفاً به. فالفرزدق يصف يزيد الثاني بأنه :

ربيب ملوك في مواريث لم يـــزل　　　بها ملك إن مات أورث منبرا(٦٧)

وقال نفس الشاعر لسليمان :

وأصبح غير مغتصب بظلم　　　تراث أبيك حين إليك آلا (٦٨)

ولئن اطنبوا في الحديث عن هذا الحق الذي لا يتحول عن بني أمية يتوارثه الأبناء منهم عن الآباء(٦٩) فهم يذكرون أحياناً إلى جانبه طرقاً دستورية أخرى. فالفرزدق يصف خلافة الوليد الأول بأنها :

خلافة لم تكن غصباً مشورتها　　　أرسى قواعدها الرحمن ذو النعم(٧٠)

لكن هذه المشورة لا تنطبق فيما نعلم على خلافة الوليد هذا فقد عينه أبوه عبد الملك ولي عهد له. ولعلَّ الشاعر لم يكن يشير بحال لأي مشورة اهتدى بها بنو أمية بل كان يشير إلى المشورة المشهورة التي أقام لها عمر بن الخطاب مجلساً من أربعة أشخاص انتهى أمره بتولية عثمان الخلافة، ومما يقوي هذا الافتراض عبارة أخرى لنفس الشاعر في هشام :

رأيت بـني مـروان ثبت ملكهـم　　　مشورة حقٍّ كان منها قريبها(٧١)

وورد ذكر البيعة المشروطة مرة في شعر جرير وهو يخاطب سليمان بقوله :

صفت لـك بيعة بثبـات عهـد　　　فوزن العدل أصبح لا يميـل(٧٢)

---

٦٧ ديوان الفرزدق ٣٤٨/١ .

٦٨ نفسه ٩٩/٢ ؛ وانظر ١٤٣/١ ، ٢٤٨ – ٢٥١ ؛ ١٤٣/٢ ، ١٤٥ ، ١٤٩ ، ٢١٠ ، ٣٠٢ .

٦٩ نفسه ٢٥/١ ، ٢١٣ ؛ ٢١٠/٢ ؛ ديوان جرير ٣٨٠ .

٧٠ ديوان الفرزدق ٢١٠/٢ .

٧١ نفسه ٦٢/١ .

٧٢ ديوان جرير ٣٤٧ .

ولئن تدخل بعض الشعراء خاصة جرير[٧٣] تدخلاً شخصياً في قضايا تولي الخلافة، فإن الاتجاه العام كان التأييد المطلق لمن ينجح في الاستيلاء على السلطة. وبمرور الزمن أصبحت الحاجة ملحة لإعلاء شأن الخلفاء ورفع ذكرهم في الناس ومن ثمَّ توجهت جهود الشعراء للتركيز على هذا الجانب. فنلحظ في كثير من الشعر الموجه للمتأخرين من خلفاء بني أمية إفراطاً كبيراً في التمجيد ومبالغة في إضفاء الصفات والألقاب. فالفرزدق حين يخاطب الوليد الأول يقول له :

إلى خير مــن تحت السماء أمــانــةً وأولاه بالحق الذي لا يكذب

حلفت بأيــدي البدن ....

لأم أتتنــا بالوليــد خليفـــة من الشمس لو كان ابنها البدر، أنجب

وبتولي سليمان الخلافة تدخل فكرة المهدي في الشعر كعنصر لا يتجزأ من المدح خاصة في شعر الفرزدق. ولم تكن هذه الصفة مجرد لقب فارغ من ألقاب المدح يطلقه الشاعر على الممدوح في عفوية وعدم تعمل، بل يبدو أنها كانت صدى لعقيدة شعبية كانت قد انتشرت في هذه الفترة بالذات. وقد عبّر الفرزدق عن ذلك في قوله لسليمان :

أنت الذي بعث الكتاب لنــا في ناطق التوراة والــزبــر
كم كان مــن قس يخبرنـــا بخلافــة المهدي أو حبر[٧٥]

وكان الزمان زمان عسرة ومشقة في أعقاب حكم الحجاج العنيف. وكان الناس قبل تولي سليمان الخلافة يتوقعون منه إصلاح ما أفسده سابقوه ويبدو أنه وعد الناس بذلك كما يستشف من قول الفرزدق :

---

٧٣ انظر ديوان جرير ١٣ – ١٤ ، ٣٣ – ٣٦ ؛ وانظر ديوان الفرزدق ١/٢٤٤ – ٧ ؛ ٢/٩٩ – ١٠١ ، ٢٤٤ – ٧ .

٧٤ ديوان الفرزدق ١/٨٠ .

٧٥ ديوان الفرزدق ١/٢٦٤ ؛ انظر ١/١٢ ، ٢٦٢ ؛ ٢/١٧ ، ٧٣ ، ٩٠ ، ٩٩ ، ٣١١ ؛ ديوان جرير ٣٤ ، ١١٦ ، ٢١١ ، ٣٤٦ ، ٤١٠ .

فأجاب دعوتنا وأنقذنا بخلافة المهدي من ضرّ
أنت ابتليت بما زعمت لنا إن أنت كنت لنا على أمر[٧٦]

وبمجيء يزيد الثاني (١٠١ - ١٠٥ هـ / ٧٢٠ - ٧٢٤ م) تبلغ موجة التمجيد غايتها. فأمه تُشبَّه بالسيدة مريم أم المسيح كما في قول الفرزدق :

فلا أم إلّا أم عيسى علمتها كأمك خيراً أمهات وأمجدا[٧٧]

ويعترف الأنبياء بسلطانه في قول نفس الشاعر :

ولو صاحبته الأنبياء ذوو النهى رأوه مع الملك العظيم المسوّدا[٧٨]

ولا يكتفي الفرزدق بجعله خير الأحياء والأموات بعد رسول الله في قوله :

يا خير حيّ وقت نعل له قدما وميت بعد رسل الله مقبور[٧٩]

بل يضفي عليه صفات الأنبياء في قوله :

ولو كان بعد المصطفى من عباده نبي لهم منهم لأمر العزائم
لكنت الذي يختاره الله بعده لحمل الأمانات الثقال العظائم[٨٠]

وكان يمكن للخليفة أن يكون النبي لولا أن عيسى بشَّر بمحمد. فالفرزدق يقول :

لو لم يبشر به عيسى وبينه كنت النبي الذي يدعو إلى النور
فأنت ان لم تكن إياه، صاحبه مع الشهيدين والصديق في السور
في غرف الجنة العليا التي جعلت لهم هناك بسعي كان مشكور[٨١]

---

٧٦ ديوان الفرزدق ١/٢٦٢ .
٧٧ نفسه ١/١٤٤ .
٧٨ نفسه .
٧٩ نفسه ١/٢١٣ ؛ انظر ١/٣٤٦ .
٨٠ نفسه ٢/٢٨٢ .
٨١ نفسه ١/٢١٤ .

وعسى أن يكون هذا التمجيد والتعظيم صدى لما كان يبثه الأمويون وولاتهم من دعاية وأفكار. ولعلَّ ما يؤيد هذا الزعم ما رووه من أن خالداً القسري والي العراق (١٠٦ – ١٢٠ هـ/ ٧٢٤ – ٧٣٨ م) كان يجادل على قداسة الخليفة وحرمته كما كان يفعل الحجاج قبله وذكروا أنه كان يرى أن هشاماً أفضل من النبي[٨٢] .

وفي هذه الفترة يتضح جلياً أن أنظار الناس أصبحت تتجه في قوة إلى الماضي تتملاه وتستعيد صوره المشرقة. فيتذكر الشعراء أمجاده في مدحهم لهؤلاء الأمويين المتأخرين ويصورونهم مترسمين خطى أبطال الإسلام الأول ومصلحيه. فينتظرون من سليمان أن يعيد سنن الخلفاء الراشدين والأمويين الأوائل الذين اتبعوا سنة الرسول[٨٣] ويصفونه بأنه اتبع سنة عمر بن الخطاب وعثمان[٨٤] . ويوصف هشام بأنه أعاد سنة العمرين وملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً[٨٥] . ولا يقف فضل هذا الخليفة عند استعادة السنة الشريفة بل زاد فضله بحيازته لآثار الرسول: المنبر والعصا والخاتم[٨٦] . وفي كل ذلك ما فيه من تعويض عن سوء الحال الذي يراه الناس في ضعف الخلفاء وفي اضطراب أمور دنياهم. فهذه المبالغة في تمجيد الخلفاء، وفي إضفاء كل هذه الهالة من القداسة عليهم تشفّ عما تحتها من شعور بهوان هؤلاء الخلفاء وضعفهم، وهي فوق ذلك محاولة لستر ما تحتها من مهانة وتفكك في هيكل الخلافة والدولة بغرض إقناع الجماهير بتماسك قوة السلطة وهيبتها. وهذه النظرة إلى الوراء، والتطلع إلى ماضي الإسلام الذهبي هروب واضح من الحاضر

---

٨٢ الأغاني ١٩/٦٠ .
٨٣ انظر ديوان الفرزدق ١/٢٦٥ – ٦ .
٨٤ نفسه ٢/١٠١ .
٨٥ نفسه ٢/٢٩٤ .
٨٦ نفسه ١/٥٩ ؛ ٢/٣٠٢ .

المؤلم، ورغبة ملحة في إصلاح الحال. ولكنها رغبة محفوفة باليأس، ومن هنا تنبعث أهمية هذا الشعر ودلالته الكبرى على ما كان يجيش في قلوب الناس وعقولهم في أواخر العصر الأموي من تطلع واستشراف كان يخلق الجو المناسب للانقلاب العباسي .

وعلى الرغم من أن الشعراء لم يقتصروا على أسلوب معيّن في الاحتجاج أو على مجموعة من الحجج مطردة، إلّا أن الأمر الواضح أنهم كانوا يعكسون في معظم الأحوال مبادىء وأفكاراً يبثها أنصار الأسرة الأموية ويشيعونها بين الناس(٨٧) .

---

٨٧ انظر الحوفي: أدب السياسة في العصر الأموي ١١٨ وما بعدها .

الفصل الثاني

الشعراء والولاة

في المقالة المنسوبة إلى عثمان من أن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن تصوير حيّ لواقع بعض شعراء هذه الفترة الذين تعاظم نشاطهم فتمادوا في تحدي سلطة الدولة بإعلان حقهم في اتخاذ ما يروق لهم من سلوك وإن تعارض ذلك مع العرف الرسمي. بيد أن مثل هذا السلوك من جانب هؤلاء الشعراء حين ينظر إليه من زاوية التطور الاجتماعي للمصر عامة لا يمثل تصرفاً فردياً تمليه الدوافع الشخصية فحسب بقدر ما يمثل اتجاهاً اجتماعياً عاماً. ونلاحظ في مثل هذا المجال أنماطاً من السلوك متباينة تتطابق ومراحل التطور المتتابعة التي مرت على حياة المصر. فالميل إلى التمرد والثورة يتجلى بوجه عام في البادية أكثر منه في المدينة. أما في فترات الاضطراب السياسي حين تضعف سلطة الدولة، فإن المدينة نفسها تصبح مباءة لكثير من صنوف الفوضى واضطراب النظام، ويجد كل ذلك طريقه إلى شعر الشعراء المعاصرين .

ولو نظرنا إلى هذه الفترة ككلّ واضعين في حسابنا التفاوت في اطراد مسيرة التطور الحضري مما قد ينجم عنه مجاورة المراحل المختلفة بعضها لبعض في ذات الوقت، فإن الصورة العامة التي نخرج بها صورة تطور وارتقاء تتحول فيها شراسة

البدو وجموحهم الواضح في المراحل الأولى – باطراد وتدرج – إلى ضرب من التسليم والخضوع لمواضعات الجماعة والانصياع لأوامرها .

ولعلَّ خير شاهد على نفور هؤلاء الأعراب من السلطة قصة ضابيء بن الحارث البرجمي[١] ، وكان صياداً ببادية البصرة على أيام عثمان. فاستعار كلباً من بني عبدالله ابن هوذة بن نهشل بن دارم فكان يصيد به الظباء والبقر والضباع، فلما سمعوا به حسدوه وطلبوا كلبهم فأخذوه منه، فغضب منهم وهجاهم بقوله :

فأمكم لا تسلموهـا لكلبكـم   فإن عقوق الوالدات كبـير
وإنك كلب قد ضريت بما ترى   سميع بما فوق الفراش بصـير
إذا عثنت من آخر الليل دُخْنة   يبيت له فوق الفراش هرير[١]

فاستعدوا عليه عثمان بن عفان فأرسل إليه فأقدمه وأنشده الشعر الذي قال في أمهم. وحين سمعه الخليفة قال: «ما أعلم في العرب رجلاً أفحش ولا ألأم منك وإني لأظن رسول الله لو كان حيًّا لنزل فيك قرآن». فقضى عثمان لبني هوذة عليه بجزّ شعره وخمس إبله وانحدروا من المدينة إلى ديارهم فحبسوه عند أمهم فقال ضابيء :

من مبلغ الفتيان عـني رسالـة   بأني أسير ربتي أم غـالب

فقالت أمهم: «والذي أنا أمة له ليطلقن». فأطلق. وأخذ ضابيء بعد ذلك ثمامة بن عبد الله بن هوذة فضربه وشجّه فاستعدوا عليه عثمان فأرسل عثمان إليه فشخص به إلى المدينة وسألهم البينة فلم تكن لهم بيّنة فحبس عثمان ضابئاً في السجن، وعرض عثمان ذات يوم أهل السجن، فخرج ضابيء وقد شدّ سكيناً على ساقه يريد أن يفتك بعثمان، ففطن له، وأُخِّر فضرب بالسياط فحُبس. فقال ضابيء في حبسه وفيما همّ به من قتل عثمان :

---

١ النقائض ٢١٩ – ٢٢٢ ؛ الجاحظ : الحيوان ١/١٨١ – ٢ .

مـن قـافـل أدّى الإلـه ركـابـه　　　يبلِّغ عني الشعر إذ مات قـائلـه
فلا يقبلن بعدي امرؤ ضيم خطـة　　　حذار لقاء الموت فالموت نـائلـه
ولا تتبعـني إن هلـكت مـلامـة　　　فليس بعـار قتل مـن لا اقاتله
هممت ولم أفعل وكـدت وليتـني　　　تركت عـلى عثمان تبكي حلائله
وقائلة إن مات في السجن ضـابي　　　لنعم الفتى نخلـو بـه ونداخلـه

... ...

وبئس ابن عم المرء يـوم دعوتـه　　　فِراس تنوس عَفْلُـه وبآدلـه

فلم يزل محبوساً حتى أصابته الدُّبيلة فأنتن ومات في سجن عثمان[٢]. وتكشف هذه النغمة الشخصية التي تسري في ثنايا هذه الأبيات وفي بقية القصيدة – إلى جانب تصوير شعوره العميق بالخيبة لتخاذل أقربائه عن نصرته – عن تصوره للمسألة جميعها بحسبانها مشادة شخصية بينه وبين عثمان الرجل كفرد لا كرمز للدولة[٣]. ومما دعَّم مثل هذا التصوّر في أذهان الناس اتجاه بعض الخلفاء الأول خاصة معاوية الذي كان يتحلى بالحلم في معاملاته مع الأعراب، ويتصرف في كثير من الأحيان كما يتصرف شيخ القبيلة لا كما يتصرف الملك. وقد روى القُلَاخ العنبري الشاعر البصري المخضرم عن واقعة له مع معاوية. قال :

يسائلني معاويـة بـن هنـد:　　　لقيت أبـا سلالة عبد شمس ؟
فقلت له رأيت أبـاك شيخـاً　　　كبيراً ليس مضروباً بطمس
يقود به أُفيحـج عبـد سـوء　　　فقال: بل ابنه ليزيل لبسي[٤]

ومن الجليّ أن هذا الفهم لطبيعة العلاقة بين الحاكم والشاعر كان فهماً مبنياً على أساس لم يعد له وجود في الحياة، وأصبح بذلك لا يستقيم والتطورات الأخيرة

---

٢ النقائض ٢٢١ – ٢ .
٣ انظر ذيل الأمالي ١٣٧ لقصة مماثلة بطلها مالك بن الرَّيب .
٤ المرزباني: معجم الشعراء ٢٢٦ .

التي حدثت في حياة العرب. إذ أنه رغم بقاء الهيكل القبلي الذي تتسق معه هذه النظرة، فإن بروز الدولة وعلى رأسها الخليفة وولاته الذين يضبطون إدارة الامبراطورية تطلّب - وسرعان ما أملى - تغيُّراً مماثلاً في وجهات النظر. فاقتضت دواعي الحكم الرشيد استخدام العنف لاستئصال شأفة التمرد والتطرف. وكان الشعراء الذين كثيراً ما يتعارض نشاطهم ومثل هذه المتطلبات أكثر الناس عرضة للتدابير التأديبية. وأصبحت حريتهم في الخوض فيما كان رصفاؤهم الجاهليون يخوضون فيه دون رادع، تتقلص باطراد بازدياد قوة الدولة وهيمنتها التدريجية على كل عناصر المعارضة والخلاف[٥]. وكان أهم تطور في هذا المجال تخلي القبائل عن حقوقها في إجارة أفرادها حين يقترفون جرماً أو يسفكون دماً. إذ تولت الدولة عنهم هذه الوظيفة ولم يعد للناس من خيار غير اللجوء إليها لطلب العدالة وتوقيع العقوبة على المعتدين. وكان هذا مما أضعف من موقف الشعراء في مواجهتهم للدولة غاية الإضعاف. وعسى أن يكون نعي ضابيء المرير على ابن عمه فراس تخاذله عن نصرته دلالة على جهله الكبير بالتغيير الذي طرأ على الحياة من حوله. بيد أن إحساس الشعراء الآخرين بهذا التطور لم يلبث أن تجلى في شتى الصور والأشكال. فقد اكتشف الشاعر والزعيم التميمي حارثة بن بدر الغداني ذلك حين سعى في الأرض فساداً، فأهدر علي بن أبي طالب دمه، فهرب فاستجار بأشراف الناس فلم يجره أحد، فقيل له: عليك بسعيد بن قيس الهمداني فلعله يجيرك، فطلب سعيداً فلم يجده فجلس في طلبه حتى جاء، فأخذ بلجامه فقال: أجرني أجارك الله. قال: ويحك مالك؟ قال: أهدر أمير المؤمنين دمي، قال: وفيم؟ قال: سعيت في الأرض فساداً. قال: ومن أنت؟ قال: حارثة بن بدر الغداني. قال: أقِم. وانصرف إلى علي فوجده قائماً على المنبر يخطب. فقال: يا أمير المؤمنين ما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً؟ قال: أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم

---

٥ انظر الباب الثاني ص ٨٤ — ٨٥

من خلاف أو ينفوا من الأرض. قال: يا أمير المؤمنين إلّا مَنْ؟ قال: إلّا من تاب. قال: فهذا حارثة بن بدر قد جاء تائباً وقد أجرته. قال: أنت رجل من المسلمين وقد أجرنا من أجرت. ثم قال علي: إني كنت قد نذرت دم حارثة بن بدر فمن لقيه فلا يعرض له. فانصرف إليه سعيد بن قيس فأعلمه وحمله وكساه وأجازه فقال فيه حارثة:

الله يجزي سعيد الخير نافلة ... أعني سعيد بن قيس قَرْم همدان
أنقذني من شفا غبراء مظلمة ... لولا شفاعته ألبست أكفاني
قالت تميم بن مُرّ لا نخاطبه ... وقد أبت ذلكم قيس بن عيلان[٦]

وكانت فترات الاضطراب والفوضى ظروفاً مواتية للحكام لتشديد قبضتهم. فالفتنة التي أعقبت مقتل عثمان أملت تدابير زياد (٤٥ – ٥٣ هـ / ٦٦٥ – ٦٧٢ م) الذي كان يعلم جيداً تأثير الكلمات والأفكار على السلطة[٧]. وفي أيامه أصبح الخوف من السلطان عنصراً واضحاً في شعر الشعراء. ويبرز ذلك بجلاء في شعر الفرزدق حين اضطره زياد إلى الفرار والالتجاء إلى المدينة. وكان خوفه حقيقياً وعميقاً كما يستدل من قوله:

أتاني وعيد من زياد فلم أنم ... وسيل اللّوى دوني وهضب التهايم
فبتّ كأني مشعر خيبرية ... سرت في عظامي أو دماء الأراقم
زياد بن حرب لو أظنك تاركي ... وذا الضغن قد حشمته غير ظالم
لقد كافحت مني العراق قصيدة ... رجوم مع الماضي رؤوس المخارم
رأيتك من تغضب عليه من امرىء ... ولو كان ذا رهط يبت غير نائم[٨]

---

٦ الأغاني ٢١/٣٥ – ٣٦.

٧ مما يدل على فرط حساسيته لكل كلام يُشتَمُّ منه روح الثورة أو التمرد ما روي عنه حين سمع رجلاً يسبّ الدهر، إذ قال: لو كان يعلم ما الدهر لقطعت رأسه. إن الدهر هو السلطان. كامل المبرد (المرصفي) ٣/١١٦.

٨ ديوان الفرزدق ٢/٢١٥ – ٦.

وكانت مجرد الذكرى كفيلة بإثارة مخاوفه :

إذا ذكرت نفسي زيـــاداً تكمشت   من الخوف أحشائي وشابت مفارقي[٩]

ويبالغ في تصوير شدة زياد الذي لا يخيف البشر وحدهم بل تخشاه الأسود :

فراراً مــن شتيم الـوجـه وردٍ   يُفز الأُسد خوفاً بالوعيد[١٠]

وحين لاقى الشاعر أسداً وهو يقطع الصحراء فراراً من زياد – خاطبه بقوله :

ولأنت أهـــون مـــن زيـاد جانبـاً   فاذهب إليك مخـرَّم السَّفّـار[١١]

وكانت إجراءآت عبيد الله بن زياد التأديبية ضد ابن مفرِّغ[١٢] ، وإجراءآت القُباع ضد جرير والفرزدق[١٣] ومُرَّة بن مَحْكَان[١٤] ، وإجراءآت مصعب بن الزبير ضد مُرَّة هذا[١٥] ، وما فعله خالد بن أسيد بالفرزدق[١٦] ، مما دعَّم من قوة الدولة في ملاحقتها لمتمردي الشعراء. وقد أصبح مثل هذا الصنيع عنصراً جوهرياً من عناصر السياسة العامة أيام الحجاج. فكان هذا الوالي يقصد إلى إخافة الشعراء قصداً وكان يرى من الضروري تأكيد شدته في الضرب على أيدي معارضيه. وقد اضطرت إجراءآته العنيفة في هذا السبيل عدداً من الشعراء والعلماء الذين وقع عليهم سخطه لطلب الحماية خارج سلطانه. فتذكر الروايات أن أبا عمرو بن العلاء الفقيه اللغوي فر إلى اليمن[١٧] ، بينما نُفي يحيى بن يَعْمَر إلى خراسان لأنه فيما تذكر

---

٩ نفسه ٢/٤٠ .

١٠ نفسه ١/١٤٦

١١ نفسه ١/٢٥٧ .

١٢ ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١/٣١٩ – ٣٢٣ ؛ ياقوت : إرشاد الأريب ٧/١٩٢ – ٨ ؛ الأغاني ١٧/٥٢ – ٦٧ : ابن سلام ٥٥٤ – ٦ .

١٣ انظر الباب الثالث .

١٤ المرزباني : معجم الشعراء ٢٩٦ .

١٥ الأغاني ١٩/١٠ .

١٦ البلاذري : أنساب ٤ب/١٦٤ – ٥ ؛ ٥/١٦٨ .

١٧ المرزباني : معجم ٧٢ ؛ ابن الانباري : النزهة ١٦ .

الروايات بيّن للحجاج خطأه اللغوي[١٨]، وإن كانت ميوله الشيعية ونقده العلني لبناء الحجاج مدينته في واسط[١٩]، أقرب لأن تكون السبب الحقيقي لسخط الحجاج عليه. وقد أجلى الحجاج إلى جانب ذلك عدداً كبيراً من القُرّاء بعد ثورة ابن الأشعث[٢٠] بعد أن قتل بعضهم[٢١]، وحبس آخرين[٢٢]. وكان صارماً مع الشعراء خاصة أولئك الذين تحدوا سلطته. فاضطر عدد من الشعراء منهم العُدَيْل بن الفَرْخ ومالك بن الرَّيْب وسوّار بن المُضَرَّب ويزيد بن الحَكَم إلى الفرار من غضبه لسبب أو لآخر. فلجأ بعضهم إلى الصحراء مثل ما حدث لسوّار بن المضرَّب التميمي الذي يبدو أنه كان يعارض تدابير الحجاج لإرغام الناس على الانضمام لجيش المهلب الذي كان يحارب الأزارقة آنذاك. وقد ذكر ذلك في قوله :

أقاتلي الحجاج إن لم أزر له ذراب واترك عند هند فؤاديا
فإن كان لا يرضيك حتى تردّني إلى قطريّ ما إخالك راضيا
إذا جاوزت أرض المجيزين ناقتي فباست أبي الحجاج لمّا ثنانيا
أيرجو بنو مروان سمعي وطاعتي وقومي تميمٌ والفلاة ورائيا[٢٣]

وسلك الصعلوك التميمي مالك بن الريب نفس المسلك، وكان قبلها قد تشكك في عدالة الدولة حين قال :

أحقاً على السلطان أما الذي له فيعطي وأما ما يراد فيهنع
فشأنكم في آل مروان فاطلبوا سقاطي فما فيه لباغيه مطمع
وما أنا كالعير المقيم لأهله على القيد في بحبوحة الضيم يرتع

---

١٨ ياقوت: إرشاد ٢٩٦/٧ .
١٩ السيوطي: البغية ٤١٧ ؛ العقد الفريد ٤٧/٢ .
٢٠ العقد الفريد ٣٦٧/٣ – ٨ ؛ المبرد: الكامل ٩/٥ – ١٠ .
٢١ ابن حجر: تهذيب التهذيب ٢١١/٢ – ١٢ .
٢٢ ابن سعد ١/٧ ص ١٥٧ .
٢٣ المبرد: الكامل (المرصفي) ٢١/٥ – ٢ .

ولولا رسول الله ان كـان منـكم　　تبين من بالنصف يرضى و يقنع[٢٤]

وحين خرج على الحجاج خاطب بني مروان بقوله :

إن تنصفونا يآل مـروان نقـترب　　إليـكم وإلّا فأذنـوا ببـعـاد
فإن لنـا عنكم مزاحـاً ومزحـلاً　　بعيس إلى ريـح الفـلاة صواد
ففي الأرض عن دار المذلة مذهب　　وكـل بـلاد أوطنـت كبـلاد
فلولا بنو مروان كـان ابن يوسـف　　كما كان عبداً من عبيـد إياد
زمـان هو العبـد المـقـرّ بـذلة　　يراوح صبيان القُرى ويغادى[٢٥]

بيد أنه لم يكن من اليسير الفرار من غضب الحجاج وإن حالت بينه وبين الهاربين مجاهل الصحراء. وقصة العديل بن الفرخ خير شاهد على ذلك. فقد فرّ إلى قيصر الروم إما لارتكابه جريمة قتل[٢٦] أو لأنه هجا الحجاج[٢٧] وحرّض عليه أهل العراق[٢٨] وسعى إلى استغلال ما كان بينه وبين يزيد بن المهلب من تنافس حين قال :

لئن ارتـج الحجاج بالبخـل بـابه　　فباب الفتى الأزدي بالعرف يفتح
يداه يـد بالعرف تنهب ما حوت　　وأخرى على الأعداء تسطو وتجرح
هلموا إلى سـيب الأمير وعـرفـه　　فإن عطايـاه على الناس تنفـح
وليس كعلـج مـن ثمـود بكفه　　من الجود والمعروف حزم مطرح[٢٩]

واطمأن بعض الوقت في جوار قيصر وعبّر عن مشاعره في قوله :

---

٢٤ الأغاني ١٦٤/١٩ .
٢٥ المبرد: الكامل ٢٦/٥ – ٢٨ .
٢٦ الأغاني ١٢/٢٠ .
٢٧ نفسه ١٣/٢٠ ؛ ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٣٧٥ .
٢٨ الأغاني ١٨/٢٠ .
٢٩ نفسه ١٣/٢٠ .

ودون يـد الحجاج مــن أن تنالني بِساط لأيدي اليعملات عـريض
مهامـه أشباه كأن سرابها مُلاء بأيدي الغاسلات رحيض[٣٠]

ولكن يد الحجاج وصلته. فقيل انه كتب لقيصر: والله لتبعثن به أو لأغزينك خيلاً يكون أولها عندك وآخرها عندي. فبعث به إليه[٣١]. وأسقط في يد الشاعر وملأ الرعب قلبه فقال:

أُخوَّف بالحجاج حتى كأنما يحرّك عظم في الفـؤاد مهيـض
إذا ذكر الحجاج أضمرت خيفة لها بين أحناء الضلوع نفيض[٣٢]

وكان اليأس قد بلغ منه مبلغاً عظيماً إذ وجد نفسه بين يدي الحجاج فقال:

ها أنا ذا ضاقت بي الأرض كلها إليك وقـد جوّلت كـل مكان
فلو كنت في ثهلان أو شعبتى أجا لخلتك إلّا ان تصدّ تـراني[٣٣]

وقد ذكروا أنه لما لجّ الحجاج في طلبه لفظته الأرض ونبا به كل مكان هرب إليه فأتى قومه بكر بن وائل وهم يومئذ بادون جمع منهم بنو شيبان وبنو عجل وبنو يشكر فشكا إليهم أمره وقال لهم: أنا مقتول افتسلمونني هكذا وأنتم أعز العرب؟ قالوا: لا والله ولكن الحجاج لا يراغم، ونحن نستوهبك منه، فإن أجابنا فقد كفيت وإن حادنا في أمرك منعناك وسألنا أمير المؤمنين أن يهبك لنا. فأقام فيهم واجتمعت وجوه بكر بن وائل إلى الحجاج فقالوا: إنا قد جنينا جميعاً عليك جناية لا يغفر مثلها، وها نحن قد استسلمنا وألقينا بأيدينا إليك فإمّا وهبت فأهل ذلك أنت، وإما عاقبت فكنت المسلط المالك العادل. فتبسم وقال: قد عفوت عن كل جرم إلّا جرم الفاسق العُدَيْل! فقاموا على أرجلهم فقالوا: مثلك أيها الأمير

---

٣٠ الأغاني ١٣/٢٠؛ ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٣٧٥.
٣١ الشعر والشعراء ٣٧٦.
٣٢ الأغاني ١٨/٢٠، ١٣.
٣٣ نفسه ١٨/٢٠.

لا يستثنى على أهل طاعته وأوليائه في شيء، فإن رأيت ألّا تكدّر منّك باستثناء وأن تهب لنا العديل في أول من تهب. قال قد فعلت فهاتوه قبّحه الله. فأتوه به فلما مثل بين يديه أنشأ يقول :

فلو كنت في سلمى أجا وشعابها   لكان لحجاج عليّ دليل
بنى قبة الإسلام حتى كأنما   هدى الناس من بعد الضلال رسول
إذا جار حكم الله ألجأ حكمه   إلى الله قاض بالكتاب عقول
خليل أمير المؤمنين وسيفه   لكل إمام صاحب وخليل

وعفى عنه[٣٤]

وكان فخر الشعراء بقوة قبائلهم - كفخر المسوّر السابق بقومه تميم - فخراً لا غناء فيه في معظم الأحوال حين يقع الشاعر فعلاً في قبضة السلطان. وقد حدث ذلك لمعاوية بن صعصعة خال الأحنف بن قيس زعيم تميم وكان والياً على البحرين، فغضب عليه الحجاج وعزله وأغرمه أربعين ألف درهم ثم حبسه ولم يحرّك أهلوه ساكناً، فقال يعزّي نفسه في مرارة وحسرة :

أما من تميم دافع لعظيمة   ولا صابر عند الحفاظ مواسي
ولو كنت من حيّي ربيعة شرِّفت   دعائم بيتي منهم وأساسي[٣٥]

وقد وجد هذا الخوف الذي أثاره في نفوس الناس إرهاب الحجاج أبلغ تعبير عنه في شعر جرير والفرزدق اللذين أخلدا إلى السكينة في عهده الطويل (٧٥ - ٩٥ هـ / ٦٩٥ - ٧١٤ م) وخضعا خضوعاً غير معهود فيهما. وفي شعرهما إشارات

---

٣٤ نفسه ١٤/٢٠ ؛ وانظر الطبري ١٩٢/٢ فقد ذكر أن ابن مفرّغ استجار بالأحنف بن قيس من عبيد الله ابن زياد فقال له الأحنف: انا لا نجير على ابن سمية. ان شئت كفيتك شعراء بني تميم ... ولما قبل المنذر بن الجارود حمايته، انتزعه منه عبيد الله قسراً ولم يستطع شيئاً فهجاه ابن مفرّغ .

٣٥ المرزباني: معجم الشعراء ٣١٤ .

كثيرة إلى ما كان يقوم به الحجاج وعماله من إرهاب وقسر لإخضاع الشعراء[٣٦]. وقد تحدث الفرزدق في مديحه للخليفة عبدِ الملك عن الحكم بن أيوب خليفة الحجاج في البصرة مصوّراً خوفه منه :

كاد الفؤاد تطير الطائرات بـــه ... من المخافة، إذ قال ابن أيـوب
في الدار : إنك إن تحدث فقد وجبت ... فيك العقوبة من قطع وتعذيب
في محبس يتردى فيــه ذو ريـب ... يخشى عليّ، شديد الهول مرهوب
فقلت: هل ينْفَعَنّي إن حضرتكم ... بطاعــة وفؤاد منــك مرعـوب
ما تنـه عنــه فإني لست قاربـه ... وما نهى من حليم مثـل تجريب
ومــا يفوتك شيء أنـت طـالبـه ... وما منعت فشيء غير مقـروب[٣٧]

وخاطب الحجاج في مناسبة أخرى بقوله :

لقد أصبحتُ منــك عــلى فضل ... كفضل الغيث ينفـع مــن أصابا
ولـو اني بصين اســتان أهـــلي ... وقد أغلقت مــن هجرين بـابـا
عليّ، رأيت، يا ابن أبي عقيـــل ... ورائي منــك أظفــاراً ونــابــا
فعفوك يا ابن يوسف خـير عـفـو ... وأنت أشــد منتــقم عقــابــا
رأيت الناس قــد خافـوك حـتـى ... خشوا بيديك، إذ فرقوا، الحسابا[٣٨]

والواضح أن الرهبة والخوف الذي يثيره الحجاج في قلوب مشاهديه عظيم فيما يصوره نفس الشاعر :

إذا مــا بدا الحجاج للناس أطرقوا ... واسكت منهم كل من كان ينطق
فما هو إلّا بائــل مــن مخافــة ... وآخر منهم ظلَّ بالريـق يشرق

---

٣٦ انظر ذيل الأمالي ٤٣ .
٣٧ ديوان الفرزدق ٢٦/١ .
٣٨ نفسه ٨٣/١ .

وطارت قلوب الناس شرقـاً ومغرباً فما الناس إلّا مُهْجِس أو ملقلق[٣٩]

ويبرز في تصوير الفرزدق لتحذير زوجه له من الحجاج، خوف عامة الناس من هذا الحاكم :

تقول وعيناها تفيضان هـل تـرى مكانك ممـن لا أراك تخاصمه
تنحَّ عـن الحجـاج إن زحـامـه شديد إذا أغضى على من يزاحمه
ومن يأمن الحجـاج والجـن تتقي عقوبته إلّا ضعيف عـزائمـه[٤٠]

وقد بلغ خوف الشاعر منه درجة دفعته للبوح به للخليفة الوليد بن عبد الملك بطريقة تعيد إلى الأذهان اعتراف النابغة للنعمان :

وقد خفت حتى لو أرى الموت مقبلاً ليأخذني والمـوت يُكْـره زائـره
لكان من الحجاج أهـون روعـة إذا هـو أغضى وهو سامٍ نواظره
أدبّ ودوني سـير شـهر كـأنـني أراك وليـلٌ مستحير عساكـره
ذكرت الذي بيـني وبينك بعدما رمى بي من نجـدي تهامـة غائره
فأيقنت اني إن نايتك لم يـرد بي النأى إلّا كلّ شيء أحـاذره
وأن لو ركبت الريـح ثم طلبتـني لكنت كشيء أدركتـه مقـادره
فلم أر شيئاً غير إقبـال نـاقـتي إليك وأمري قد تعايت مصادره
وما خـاف شيء لم يمت من مخافة كما قد أسرّت في فؤادي ضمائره
أخاف مـن الحجاج سورة مخدر ضوارب بالأعناق منه خوادره[٤١]

وحتى جرير الذي توثقت العلاقة بينه وبين الحجاج، وكان كثيراً ما فخر بمركزه القوي في دوائر الحاكمين في مثل قوله :

---

٣٩ نفسه ٥٣/٢ ؛ ١٣٧/٢ .
٤٠ ديوان الفرزدق ٢٠٤/٢ .
٤١ نفسه ٢٥١/١ .

أصبحت عند ولاة الأمـر أثبتهـم　　فلجاً وأبعدهم غلواً إذا نـزعوا(٤٢)

لم يجد مناصاً من تصوير خوفه وخوف غيره من الحجاج. فهو يقول في مدحه للحجاج :

ومن يـأمن الحجاج ؟ أمـا عقابـه　　فمرّ وأمـا عقـده فـوثيـق
وما ذقت طعم النـوم إلّا مـفزعـاً　　وما ساغ لي بين الحيـازم ريـق
وخفتك حتى استنزلتني مخافـتي　　وقد حال دوني مـن عماية نيق(٤٣)

ويخاطبه في مناسبة أخرى بقوله :

وخافوك حتى القوم تنزو قلوبهـم　　نزاء القطا التفت عليه الحبائل(٤٤)

بيد أن هناك من الشواهد ما يشير إلى أن قدراً كبيراً من الشعر الذي قيل في أيام الحجاج في تصوير خوف الناس منه لم يكن استجابة طبيعية لمواقف حقيقية – وإن وُجِدَتْ هذه أحياناً – بقدر ما كان جزءاً من سياسة إرهاب وخوف منظمة وضعها الحجاج وسار بها في حزم ونشاط ليضمن نجاح التدابير المادية التي سعى بها لإخماد صوت المعارضة. ولا ننسى أن معظم هذا الشعر الذي يطنب في تصوير خصائص العنف وصفات الشدة التي يتحلى بها الحجاج كان ينشد في حضرته أو حضرة الخليفة كمدح، وفي ذلك إشارة إلى إعجابه الكبير بهذا الضرب من الشعر. وكانت حساسيته عظيمة لأي شعر – وإن كان في مدحه – يشتم منه روح التحريض أو ممالاة الثائرين. فقد رووا أنه حين سمع قول العُدَيْل بن الفرخ(٤٥) في مدحه :

دعوا الجبن يا أهـل العراق فإنّما　　يهان ويسبى كـل من لا يقاتل

---

٤٢ ديوان جرير ٢٧٧ .
٤٣ نفسه ٦١٥ – ٦ ؛ ذيل الأمالي ٤٣ .
٤٤ ديوان جرير ٣٥٣ .
٤٥ وتنسب أيضاً لجرير انظر ديوانه ٣٥٤ – ٥ .

لقد جرّد الحجاج للحق سيفه ... ألا فاستقيموا لا يميلن مائل
وخافوه حتى القوم بين ضلوعهم ... كنزو القطا ضمت عليه الحبائل
وأصبح كالبازي يقطب طرفه ... على مرقب والطير منه رواحل[٤٦]

قال لأصحابه: ما تقولون ؟ قالوا: نقول إنه مدحك. فقال: كلا ولكنه حرّض عليَّ أهل العراق، وأمر بطلبه فهرب[٤٧]. وحين قال جرير في قصيدة مشهورة في مدحه :

قل للجبان إذا تأخر سرجه ... هل أنت من شرك المنية ناج
فتعلقن ببنات نعش هارباً ... أو بالبحور وشدة الأمواج
من سدّ مطلع النفاق عليهم ... أو من يصول كصولة الحجاج[٤٨]

قال له: جرّأت عليّ الناس يا ابن اللخناء ! قال جرير: والله ما ألقيت لها بالاً أيها الأمير إلّا وقتي هذا[٤٩] .

وبوحيٍ من هذه السياسة المرسومة كان الشعراء يجهدون أنفسهم في تصوير الحجاج في إهاب من المنعة والقوة ويضفون عليه كل الصفات والخصال التي تزرع الرعب في قلوب الناس. فهو في كثير من هذا الشعر سيف الله المصلت على رقاب أعداء النظام القائم. وبمثل هذا يخاطب الفرزدق عبد الملك :

أمير المؤمنين وقد بلونا ... أمورك كلها رشداً صوابا
تعلَّم إنما الحجاج سيف ... تجذّ به الجماجم والرقابا
هو السيف الذي نصر ابن اروى ... به مروانُ عثمانَ المصابا[٥٠]

---

٤٦ الأغاني ٢٠/١٨ .

٤٧ نفسه .

٤٨ ديوان جرير ٧٤ .

٤٩ العقد الفريد ١/٨٤ .

٥٠ ديوان الفرزدق ١/٨٢ ؛ وانظر ١/٢٤ ؛ انظر ص ١٦٠ أعلاه .

ويشبهه في مناسبة أخرى بالشهاب يُرْمَى به الأعداء :

هو الشهاب الذي يرمى العدوّ به   والمشرفيّ الذي تعصى به مضر
أحيا العراق وقد ثلّت دعائمه   عمياء صماء لا تبقي ولا تذر(٥١)

ويصور في حيوية بالغة تدابيره الرامية لإخضاع العصاة بالعراق فيقول :

إذا أوعد الحجاج أو هَمَّ اسقطت   مخافته ما في بطون الحوامل
له صولة من يُوقَها أن تصيبه   يعش وهو منها مستخف الخصائل
ولم أر كالحجاج عوناً على التقى   ولا طالباً يوماً طريدة تابل
وما أصبح الحجاج يتلو رعية   بسيرة مختال، ولا متضائل
وكم من عشى العينين أعمى فؤاده   أقمت وذي رأس عن الحق مائل
بسيف به لله تضرب من عصى   على قَصَر الأعناق فوق الكواهل
شفيت من الداء العراق فلم تدع   به ريبة بعد اصطفاق الزلازل
وكانوا كذي داء أصابت شفاءه   طبيب به، تحت الشراسيف داخل
كوى الداء بالمكواة حتى جَلَا بها   عن القلب عيني كل جنّ وخابل(٥٢)

ويصور جرير بدوره فعالية الحجاج فيقول :

إذا سعر الخليفة نار حربٍ   رأى الحجاجَ أثقبها شهابا
عفاريت العراق شفيت منهم   فأمسوا خاضعين لك الرقابا
وقالوا: لن يجامعنا أمير   أقام الحدّ واتبع الكتابا
إذا غلقت حبالك حبل عاصٍ   رأى العاصي من الأجل اقترابا
بأن السيف ليس له مردّ   إذا أفرى عن الرئة الحجابا(٥٣)

وينصح الناس التزام الطاعة والحذر من العصيان فيقول :

---

٥١ نفسه ٣٤٩/١ .

٥٢ ديوان الفرزدق ١٣٧/٢ .

٥٣ ديوان جرير ٢١ – ٢٢ .

إن ابن يوسف فاعلموا وتيقنوا ماضي البصيرة واضح المنهاج
منع الرشا وأراكم سبل الهدى واللصّ نكله عن الإدلاج
فاستوثقوا وتبينوا سبل الهدى ودعوا النجى فليس حين تناجي
إن العدو إذا رموك رميتهم بذرى عماية أو بهضب سواج
ولقد كسرت سنان كل منافق ولقد منعت حقائب الحُجَّاج[٥٤]

ويصور بطشه بالخارجين عليه في مناسبة أخرى فيقول :

دعا أهل العراق دعاء هود وقد ضلوا ضلالة قوم هود
كأن المرجفين وهم نشاوى نصارى يلعبون غداة عيد
فجاءوا خاطمين ظليم قفر إلى الحجاج في أجم الأسود
أقمت لهم بمسكن سوق موت وأخرى يوم زاوية الجنود
ترى نفس المنافق في حشاه تعارض كل جائفة عنود
تحسهم السيوف كما تسامى حريق النار في أجم الحصيد[٥٥]

وكانت وفاة الحجاج عام ٩٥ هـ / ٧١٤ م وتولي سليمان بن عبد الملك ذي الميول اليمنية الخلافة عام ٩٦ هـ / ٧١٤ م نقطتي تحول في السياسة عامة وفي نظرة الشعراء خاصة. فقد آذنتا أولاً بانتهاء تسلّط قيس على العراق وخراسان، وانتهيا بمقتل حاكمهما قتيبة بن مسلم على أيدي جموع تميم واليمن مشتركة[٥٦]. وكشفت هذه الحادثة عن الصدام العنيف بين مصالح الأطراف المتنازعة الذي نجحت سياسة الحجاج الصارمة في كبته مدى عشرين عاماً. فقد كان الحجاج رغم اعتماده الكبير على قبيلته قيس في أوقات الأزمات[٥٧]، فوق مستوى الحزبيات على وجه

---

٥٤ نفسه ٧٤ .

٥٥ نفسه ٩٥ - ٦ ؛ انظر ٣١٥ - ٦ ، ٣٥٣ - ٦ .

٥٦ انظر الباب الأول ص ٢٨ .

٥٧ نفسه ص ٢٧ .

العموم. وكان يسعى رغم كل شيء ليصبح حاكماً أموياً أكثر منه حاكماً قيسياً. ولعلَّ هذا، إلى جانب صرامته المعهودة، يفسر خفوت صوت الشعر القبلي في أيامه.

ولم يعد ممكناً بعد وفاة الحجاج استمرار ولاء الأطراف الموحد الذي حظي به لبعض الوقت عبد الملك بن مروان وخلفه الوليد الأول. وأصبح صوت الخصومة السياسية يزداد ارتفاعاً بعد وفاته بازدياد سعي الخلفاء المتتابعين للحصول على مساندة هذا الطرف أو ذاك على بقية الأطراف(٥٨). وانتعشت القبلية حين أصبحت أكثر من أي وقت مضى مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بعجلة السياسة العامة للدولة. وانتهى الأمر بالخلفاء والولاة ليصبحوا ممثلين لمصالح قبلية محددة أكثر منهم ممثلين لمصالح المجموعة كلها. ومن ثمَّ سعى الشعراء لابراز هذه الاتجاهات المتناقضة وفقاً لولاءآتهم وانتماءآتهم. وهكذا وجدت سياسة سليمان المعادية لقيس ولذكرى الحجاج خير معبّر عنها في الفرزدق الذي قال عن الحجاج:

لئن نفر الحجاج آل معتِّب — لقوا دولة كان العدوّ يُدالها
لقد أصبح الأحياء منهم أذلة — وفي النار مثواهم كلوحاً سبالها
وكانوا يرون الدائرات بغيرهم — فصار عليهم بالعذاب انفتالها
وكان إذا قيل اتق الله شمرت — به عزة لا يستطاع جدالها
هلم إلى الإسلام والعدل عندنا — فقد مات عن أرض العراق خبالها(٥٩)

والشاعر، إذ وجد موقف قومه المعادي لقيس مطابقاً لموقف الخليفة، لا يتردد في إعلان ولائهم له مشيراً إلى المهانة التي لحقت بهم من قبل في قوله:

إن نحن لم نُمنع بطاعتنا — والحب للمهدي والشكر
فغدت علينا في منازلنا — رسل العذاب برغوة البكر

٥٨ نفسه ص ٢٨.

٥٩ ديوان الفرزدق ٧٥/٢ – ٦؛ انظر أيضاً ١٩/١ – ٢٢، ٢٦٥، ٢٦٨؛ ٧٥/٢، ١٠٠، ٣٠٩ – ١٠.

ولقد عزنا بعد ذلتنا بك بعد ما نأبى عن القُسر[٦٠]

وينتهز فرصة مقتل قتيبة بن مسلم ليهاجم قيساً على عصيانها ويمدح قومه تميماً ويصورهم حماة للخلافة وذلك حين قال مخاطباً جرير :

ندمت على العصيان لما رأيتنا كأنا ذرى الأطواد ذات المخارم
على طاعة لو أن أجبال طيء عمدنَ لها والهضب هضب التهائم
لينقلنها لم يستطعن الذي رسا لها عند عالٍ فوق سبعين دائم
فما بين من لم يعط سمعاً وطاعة وبين تميمٍ غير حزّ الحلاقم[٦١]

وكان موقف جرير في هذه الفترة بالغ الحرج إذ كان المدافع عن قيس وكان وثيق الصلة بالحجاج. ويتجلى هذا الحرج في ديوانه إذ لم يتوجه لسليمان إلّا بقصيدة واحدة[٦٢] ، في حين قال الفرزدق فيه تسعاً. وقد وصف جرير في تلك القصيدة ما لاقته نزار من متاعب مشيراً من طرف خفيّ إلى ظلم الحجاج. وحين رأى لزاماً عليه أن يردّ مزاعم خصمه الفرزدق حيال مقتل قتيبة، سلك مسلكاً وسطاً ساعياً بذلك إلى إرضاء كلٍّ من الخليفة وقيس. وإذ كان وكيع قاتل قتيبة ينتمي إلى عشيرة جرير فإن الشاعر كان أحقّ من الفرزدق بالفخر بما فعله قريبه أمام الخليفة. فقال للفرزدق :

فغيرك أدّى للخليفة عهده وغيرك جلّى عن وجوه الأهاتم
فإن وكيعاً حين خارت مجاشع كفى شعب صدع الفتنة المتفاقم[٦٣]

ولكنه كان في ذات الوقت شديد الحرص على دفع تهمة الخيانة التي رمى الفرزدق قيساً بها. فهو يعبّر عن عظيم حزنه لباهلة قوم قتيبة، وبدل أن يصوّر

---

٦٠ نفسه ٢٦٣/١ - ٤ .

٦١ ديوان الفرزدق ٣١١/٢ - ١٢

٦٢ ديوان جرير ٢٤٦ - ٧ .

٦٣ نفسه ٤٦٠ .

مقتله كفعل قصد منه الدفاع عن الخلافة، يجعله، وتلك هي الحقيقة، عملاً من أعمال الأخذ بالثأر وذلك حين يقول :

أباهلَ: مـا أحببت قتل ابن مسلم ولا أن تروعوا قومكـم بالمظـالم
أباهلَ: قـد أوفيتم مـن دمائكم إذا ما قتلتم رهط قيس بن عاصم(٦٤)

ومما يدل على وضوح العنصر القبلي في العمل السياسي في هذه الفترة ردود الفعل العنيفة التي أثارتها ثورة يزيد بن المهلب (١٠١ - ١٠٢ هـ / ٧١٩ - ٧٢٠ م) الذي تمكن من الهرب من سجن عمر بن عبد العزيز قبيل تولي يزيد الثاني نصير قيس، الخلافة (١٠١ - ١٠٥ هـ / ٧٢٠ - ٧٢٤ م)(٦٥). ولم تكن محاولة ابن المهلب انتزاع الخلافة خطراً على الأمويين وحدهم، بل كانت خطراً على مضر وقيس جميعاً. ومن ثمَّ التقى جرير والفرزدق في الفرحة بهزيمته وفي الثناء على الخليفة يزيد الثاني(٦٦) الذي أوقع به الهزيمة. وأثنيا ثناء عاطراً على القواد الذين هزموه في ميدان المعركة(٦٧) .

وقد وضح الآن، أن ما كان يبدو في مرحلة متقدمة كردّ فعل طبيعي من جانب البدو على مظاهر تسلط الدولة والسلطان عامة على حياتهم مما تجلى أمره في نشاط بعض الشعراء، كما مرّ بنا، قد توطد الآن وتدعم ووجد تبريره الرسمي بعد أن أصبحت الدولة ذاتها طرفاً من أطراف النزاع، واصطبغت بالصبغة الحزبية الضيقة. وانحاز الشعراء إلى مجموعاتهم القبلية المختلفة وصاروا يهاجمون الولاة والحكام كمتحدثين بلسان قومهم. وهكذا دفع تنصيب عمر بن هبيرة الفزاري(٦٨) حاكماً

---

٦٤ ديوان جرير ٤٦١ .

٦٥ انظر الباب الأول ص ٢٨ - ٢٩ ؛ وانظر Wellhauseb, Arab Kingdom, 312-19

٦٦ ديوان الفرزدق ١/١١١ - ٢ ، ٢١٣ - ٦ ، ٣٣٠ ؛ ٢/٣٧ - ٨ ، ٢٥٢ ، ٣٤١ ؛ ديوان جرير ١٦٥ - ٧ ، ١٩٥ ، ٣٠٤ - ٨ .

٦٧ ديوان الفرزدق ١/٢٦٠ ، ٤٠٧ ، ٢/٢١، ٣٦ .

٦٨ انظر الباب الأول ص ٢٩ ؛ وانظر فلهاوزن ٣٢٠ .

على العراق مكان مسلمة بن عبد الملك الفرزدق لينظم أبياتاً يصوّر فيها سخط تميم وغضبها على هذا الشرف الذي حازته غريمتها قيس يقول فيها :

ولّت بمسلمة الركاب مودعاً فارعى فزارة لا هناك المرتع
ولقد علمت إذا فزارة أُمرت أن سوف تطمع في الإمارة أشجع
وأرى الأمور تنكرت أعلامها حتى أمية عن فزارة تنزع
نزع ابن بشر وابن عمرو قبله وأخو هراة[٦٩] لمثلها يتوقع[٧٠]

وتمادى الشاعر في هجاء الحاكم القيسي واشتهر بذلك[٧١] ، ووجّه عدة قصائد بشأنه للخليفة. فقال مرة مخاطباً يزيد الثاني :

أمير المؤمنين وأنت والٍ شفيق لست بالطبع الحريص
أأطعمت العراق ورافديه فزارياً أحذّ يد القميص
ولم يك قبلها راعي مخاض ليأمنه على وركي قلوص
تفيهق بالعراق أبو المثنى وعلّم قومه أكل الخبيص
ستحمله الدنيئة عن قليل على سيساء ذعلبة قموص[٧٢]

ولم تكن مخاوف الفرزدق وقومه في معظم الأحوال ردود فعل عاطفية فحسب. فقد كانت في أفعال الحاكم ما يبررها في بعض الأحيان. ويبدو أنه أخضع الشاعر وقومه لعقوبات محددة. فقد خاطبه الشاعر مرة بقوله :

منعت عطاء من يد لم يكن لها بثدي فزاريّ نصيب تواصله
فأصبحت ممّا قد منعت كقابض على الماء لم تقبض عليه أنامله[٧٣]

---

٦٩ ابن بشر هو عبد الملك بن بشر بن مروان وابن عمرو سعيد والي خراسان وأخو هراة سعيد بن عبد العزيز ابن الحكم .

٧٠ ابن سلام ٢٨٨ - ٩ ؛ الأغاني ١٧/١٩ ؛ كامل المبرد ١٧/٥ ؛ فلهاوزن ٣٢٠ هامش ١ .

٧١ المبرد: الكامل ٢٢٤/٦ .

٧٢ ديوان الفرزدق ٣٨٩/١ ؛ ابن سلام ٢٨٩ - ٩٠ ؛ كامل المبرد ٢٢٤/٦ - ٥ .

٧٣ ديوان الفرزدق ٩٣/٢ .

ويشير إلى ما اتخذه الحاكم ضدهم من تدابير في قوله :

لـو لم تكن غطفان لا ذنوب لهـا ... إليّ لام ذوو أحلامهـم عمرا
مما تشجع مني حـين هجهـج بي ... من بين مغربها والقرن إذ فطـرا
إن تمنع التمر مـن رازان مـاثرنا ... فلست مانع جلّ الحي من هجرا[٧٤]

واضطر الشاعر إلى طلب الحماية لدى الخليفة، فهو يقول :

إليك سبقت ابنى فزارة بعدمـا ... أرادا ثـواي في حِـلاق الأداهم
فقلت: أليس الله قبلكمـا الـذي ... كفاني زياداً ذا العرى والشكائم[٧٥]

وأطنب في وصف سوء حاله في قصيدة طويلة ساقها للخليفة يقول فيها :

فلولا تراخيهـن بي بعـد ما دنت ... بكفيّ أسباب المنـايا الدوالف
لكنت كظـبي أدركتـه حبالـة ... وقد كان يخشى الظبي إحدى الكفائف
ولا جـار بعد الله خير مـن الذي ... وضعت إلى أبوابـه رجل خائف
إلى خير جـار مستجار بحبلـه ... وأوفـاه حبـلاً للطريد المشارف
على هوة الموت التي إن تقاذفـت ... بـه قذفتـه في بعيـد النفانـف
فـلا بأس إني قـد أخذت بعـروة ... هي العروة الوثقى لخير الخلائف
أتـى دون ما أخشى بـكفيّ منهما ... حيا الناس والأقدار ذات المتالف
فطامن نفسي بعدمـا نشزت بـه ... ليخرج تنزاء القلوب الرواجـف
وردّ الذي كـادوا ومـا أزمعوا لـه ... عليّ وما قد نمّقوا في الصحائف[٧٦]

ولكن يبدو أن الفرزدق حُبِس ولم يقبل عمر بن هبيرة أي شفاعة فيه حتى وجَّه إليه الراجز التميمي أبو نخيلة قوله :

أطلقت بالأمس أسير بـكـر ... فهل فـداك نفري ووفـري

---

٧٤ ديوان الفرزدق ١/٢٣٠ .

٧٥ نفسه ٢/٢٨١ .

٧٦ نفسه ٢/١٧ .

من سبب أو حجة أو عــــذر   ينجى التميمي القليل الشكـــر
من حَلَق القيد الثقـــال السمر   ما زال مجنوناً على است الدهر
ذا حسب يعلى وعقـــل يـــزرى   هبه لأخوالك يوم الفطـــر[٧٧]

فأطلقه من السجن .

وكان عهد هشام (١٠٥ - ١٢٥ هـ/ ٧٢٣ - ٧٤٣ م) وواليه على العراق خالد بن عبد الله القسري (١٠٥ - ١٢٠ هـ/ ٧٢٣ - ٧٣٨ م) يمثّل بحقّ قمة الشعور القبلي، ويعيد إلى الأذهان ذكرى أيام زياد والحجاج. فرغم إنجازات خالد الإدارية العظمى في مدى خمسة عشر عاماً[٧٨]، إلّا أن ميوله اليمنية كانت تضطره للتصدي لخصومه السياسيين - وهم عادة يطابقون أعداءه القبليين - في عنف وشدّة الأمر الذي كان يضاعف من حدة التوتر القائم. ويبدو أنه كان يضمر عداء لا حدّ له لمضر ونزار[٧٩]، وهناك من الشواهد ما يثبت أن العلاقات بينه وبين بني تميم قد ساءت قبل فترة طويلة من تنصيبه والياً على العراق. فقد ذكروا[٨٠] أنه كان والياً على المدينة من قبل سليمان (٩٦ - ٩٨ هـ) فجلد شاباً قرشياً جلداً مبرحاً فرفع أبوه أمره للخليفة ورجا الفرزدق الذي كان يزور البلاط آنذاك ليتشفع من أجله. فقال الشاعر :

سلو خـالـداً لا أكـرم الله خـالـداً   متى وُلّيت قسر قريشاً تـدينهـا
أقبل رسول الله أم بعـــد عهـــده   فتلك قريش قـــد أغثّ سمينها
رجونا هــداه لا هـدى الله خـالداً   فـما أمـه بالأم يهدى جنينها[٨١]

---

٧٧ الأغاني ١٨/١٤١ - ٢ .

٧٨ انظر فلها وزن ٣٢٦ حيث يورد سرداً منصفاً لانجازه .

٧٩ الأغاني ١٩/٢٩ ، ٦٠ .

٨٠ نفسه ١٩/٦١ ؛ العقد الفريد ٥/١٩٢ - ٣ ؛ ديوان الفرزدق ١/٣٠١ .

٨١ ديوان الفرزدق ٢/٣٣٤ ؛ الأغاني ١٩/٦١ ؛ العقد الفريد ٥/١٩٣ .

وغضب الخليفة على خالد وأمر بقطع يده ولكن شفاعة يزيد بن المهلب، صَفِيّ الخليفة، حالت دون تنفيذ الحكم الذي عدّل للجلد. وقد صوّر الفرزدق الحادثة في قوله :

لعمري لقد صبت على ظهر خالد   شآبيب ما استهللن من سَبَل القطر
أتضرب في العصيان من كان طائعاً   وتعصي أمير المؤمنين أخا قسر
فلولا يزيد بن المهلّب حلَّقت   بكفك فتخاء إلى الفُتْخ في الوكر
فخذ بيديك الحتف إنك إنَّما   جُزيت قصاصاً بالمحدرجة السمر
أظنك مفجوعاً بربع منافق   تلبَّس أثواب الخيانة والغدر[٨٢]

وكان للمواجهة التي تمت بين خالد وعمر بن يزيد الأُسَيْدي زعيم تميم في حضرة هشام بن عبد الملك آثارها البعيدة على علاقة الطرفين. فقد أطنب عمر الأُسيدي في هجاء اليمن أمام الخليفة وسرد أطرافاً من ماضيهم المليء بالعصيان الذي انتهى بثورة ابن المهلب[٨٣]، فأوغر صدر خالد، وحين وجد هذا الفرصة سانحة ضرب عمر الأُسيدي بالسوط ضرب التلف فقتله وتسبب بذلك في تعميق حدَّة الأزمة التي ظلت تجتاح مسرح الحياة البصرية لفترة طويلة من الزمن. ويمدنا شعر هذه الفترة بصورة قاتمة من صور الإرهاب والخوف والاتهام. وتحول مسلك الشعراء من الانصياع والتردد الذي برز في علاقتهم مع الحجاج إلى النقد الجارح والتحدي السافر. وكان الفرزدق أكثرهم جرأة حين قال مستغلاً ما عرف عن أم خالد من أنها أمة مسيحية من بلاد الروم :

ألا قطع الرحمن ظهر مطيّة   أتتنا تهادي من دمشق بخالد
وكيف يؤم الناس من كانت امه   تدين بأن الله ليس بواحد

---

٨٢ ديوان الفرزدق ٣٠١/١ .

٨٣ ابن سلام ٢٩٨ - ٣٠٢ .

بنى بيعـة فيها النصاري لأمـه　　ويهدم مـن كفر منار المساجد[٨٤]

وسعى لتحريض الخليفة عليه في قوله :

عليك أمير المؤمنين بخالـد　　وأصحـابه لا طهَّر الله خـالـدا
بنى بيعة فيهـا الصليب لأمـه　　ويهدم من بغض الصلاة المساجدا[٨٥]

والنظرة الفاحصة لما يروى في هذا الصدد تبين أن العداء لم يكن دائماً من جانب واحد. فقد روى لبطة ابن الفرزدق قال: «لما ولي خالد العراق فقدمها وكان من أشدّ خلق الله عصبية على نزار، قال فلبس أبي من صالح ثيابه وخرج يريد السلام عليه، فقلت له: يا أبت إن هذا الرجل يماني وفيه من العصبية ما قد علمت، فلو دخلت إليه فأنشدته مدائحك في أهل اليمن لعلَّ الله أن يأتيك منه بخير فإنك قد كبرت عن الرحلة فجعل لا يرد على شيئاً حتى دفعنا إلى البواب فأذن فدخل فاستجلسه ثم قال: إيه يا أبا فراس أنشدنا مما أحدثت، فأنشده :

يختلف النـاس مـا لم نجتمع لهـم　　ولا خلاف إذا ما أجمعت مضر
فينا الكواهـل والأعنـاق تقدمهـا　　فيها الرؤوس وفيها السمع والبصر
ولا يخالـف غير الله مـن أحـد　　إلّا السيوف إذا ما اغرورق النظر
أما العـدو فإنـا لا نلـين لهـم　　حتى يلين لضرس الماضغ الحجر[٨٦]

ثم قام فخرجنا. قلت: أهكذا أوصيتك ؟ قال: اسكت لا أم لك ! فما كنت قط أملأ لقلبه مني الساعة !»[٨٧]. والواقع أن الشاعر كان يعلم علم اليقين أن ما بينه وبين خالد لا يمكن صلاحه. وقد تبين له ذلك في مناسبة أخرى حين

---

٨٤ المبرد: الكامل (المرصفي) ٦/٢٣٠ .

٨٥ ديوان الفرزدق ١/١٦٠ ؛ المبرد: الكامل ٦/٢٣٠ ؛ وكان سبب هدمه منائر المساجد سبباً أخلاقياً إذ شكى بعض الناس ممن يتطلعون منها على بيوتهم، انظر الكامل (المرصفي) ٦/٢٣١ .

٨٦ ديوان الفرزدق ١/٢٠٠ ؛ الأغاني ١٩/٣٠ .

٨٧ الأغاني ١٩/٢٩ – ٣٠ .

أتاه يستحمله في ديات حملها فقال: إيه يا فرزدق كأني بك قد قلت: آتي الحائك بن الحائك فأخدعه عن ماله إن أعطاني أو أذمه إن منعني. فأنا حائك ابن حائك ولست أعطيك شيئاً فاذممني كيف شئت، فهجاه الفرزدق بأشعار كثيرة منها :

ليتني من بجيلة اللؤم[٨٨] حتى ... يعزل العامل الذي بالعراق
فإذا عامل العراقين ولّى ... عدت في أسرة الكرام العتاق[٨٩]

وكان لزاماً على الفرزدق أن يصطدم في البصرة بالقائم على شرطتها مالك بن المنذر بن الجارود الذي ولاه خالد عليها، فقد استقبل الشاعر هذه المناسبة بقوله :

يبغّض فينا شرطة المصر أنني ... رأيت عليها مالكاً عقب الكلب[٩٠]

وقد أثار مقتل عمر بن يزيد الأُسَيْدِي كوامن غضب تميم على خالد ونائبه في البصرة، مالك بن المنذر بن الجارود، الذي نفذ حكم الجلد المبير عليه. وقد دعى ذلك الفرزدق لينظم أبياتاً عنيفة منها :

ألم يك قتل عبد القيس ظلماً ... أبا حفص من الحُرم العظام
قتيل عداوة لم يجن ذنباً ... يقطّع وهو يهتف بالأمام[٩١]

وزعموا[٩٢] أنه قال للخليفة هشام :

فإن نبك لا نبك المصيبات إذ أتى ... بها الدهر، والأيام جمٌّ خصامها
ولكننا نبكي تنهك خالد ... محارم منا لا يحلّ حرامها

---

٨٨ بجيلة قبيلة خالد .

٨٩ الأغاني ١٩/٦٠ – ٦١ .

٩٠ نفسه ١٩/٤١ .

٩١ ديوان الفرزدق ٢/٢٧٦ ؛ ابن سلام ٣٠٠ ؛ كامل المبرد ٢/٧٧ – ٨ ؛ انظر ديوان الفرزدق ١/٣٠٨ .

٩٢ يشك أبو عبيدة في نسبة كل القصيدة للفرزدق. ويرى أنه قد يكون نظم منها بيتين أو ثلاثة ونظم سائرها نصر بن سيار ونحلها إياه . انظر ديوان الفرزدق ٢/٢٣٩ .

فقل لبني مروان: مـا بال ذمـة — وحرمة حلّ ليس يرعى ذمـامها
ألا في سبيل الله سـفك دمـائنـا — بلا جُرمة منـا يبين اجترامهـا
وثـار بقتل ابـن المهلـب خـالد — وفينا بقيات الهـدى وإمـامهـا
أرى مضر المصرين قـد ذلّ نصرها — ولكن قيساً لا يـذل شآمهـا
فمن مبلغ بالشام قيساً وخنـدفـاً — أحاديث ما يشفي ببرء سقامها
دم ابن يزيد كـان حـلاً لخالد — ألهفي لنفس ليس يشفى هيامها
فغيّر أمير المؤمنين فإنهـا — يمانيـة حمقاء أنت هشامهـا
أبا بن يزيد وابن زَحْر[٩٣] تحلّلت — دمـاء تميم واستبيح سوامهـا
أنقتل فيـكم إذ قتلنـا عدوكـم — على دينكم والحرب بادٍ قتامها
غضبنا لكم يا آل مروان فاغضبوا — عسى أن أرواحاً يسوغ طعامها[٩٤]

ولعله من المفيد أن نشير هنا إلى أن جريراً الذي نظم عدداً من القصائد في هشام[٩٥] ينثر فيها المدح على الخليفة نثراً، ويصوّر خضوع الناس له، متجنباً أي إشارة مباشرة لما كان يبهظ قومه، قال في إحدى قصائده مخاطباً الخليفة:

لا تجفون بني تميم إنّهـم — تابوا النصوح وراجعوا حسن الهدى
من كان يمرض قلبـه مـن ريبة — خافوا عقابك وانتهى أهل النهى
واذكـر قرابـة قـوم برّة منكـم — فالرحم طالبة وترضى بالرضا[٩٦]

وقد وجد الفرزدق الفرصة سانحة لهجاء خالد حين حفر النهر الذي سماه المبارك بواسط، ويبدو أن حفره اثار ثائرة الناس كما يستشف من المصادر[٩٧]، فقال

---

٩٣ رجلان يمنيان من الخوارج قتلتهما تميم.
٩٤ ديوان الفرزدق ٢٤٠/٢ – ١ ؛ انظر ٢٣١/٢ – ٢.
٩٥ ديوان جرير ٩ – ١١، ١١٥ – ٨، ٤٠٧ – ١٠، ٤١١ – ١٢.
٩٦ نفسه ١٠.
٩٧ انظر فلهاوزن ٣٤٨ – ٩ ؛ ديوان رؤبة ١٥١ ؛ ديوان الفرزدق ٣٣٩/١ ؛ وانظر ديوان جرير ١١٨.

في ذلك وفي ظلمه لقومه تميم :

اتتك رجال من تميم فشهّدوا　　فضيعت حق الله في ظلم مالك[٩٨]
وأنفقت مال الله في غير حقه　　على نهرك المشئوم غير المبارك[٩٩]

وتذكر الروايات أن هذا الشاعر واجه سخط الخليفة هشام في مناسبة أخرى، فقد حج الشاعر بعدما كبر وكان هشام بن عبد الملك قد حج في ذلك العام فرأى في غمار الناس عليّ بن الحسين في الطواف، فقال: من هذا الشاب الذي تبرق أسرة وجهه كأنه مرآة صينية ؟ فقالوا هذا عليّ بن الحسين بن عليّ، فقال الفرزدق فاضحاً ميوله الشيعية[١٠٠] :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته　　والبيت يعرفه والحل والحرم

فغضب هشام فحبسه بين مكة والمدينة فقال :

أتحبسني بين المدينة والتي　　إليها قلوب الناس يهوى منيبها
يقلّب رأساً لم يكن رأس سيد　　وعيناً له حولاء بادٍ عيوبها[١٠١]

فبلغ هشاماً شعره فوجّه فأطلقه[١٠٢] . ويقولون أن خالداً حين بلغه هجاء الفرزدق للنهر المبارك كتب إلى مالكَ بن المنذر بن الجارود: أن احبس الفرزدق، فإنه هجا نهر أمير المؤمنين[١٠٣] .

وقد بلغت الأمور ذروتها حين حبس خالد القسري نصر بن سيّار الكناني فصاح الفرزدق في تحدّ وضيق :

---

٩٨ ردّ خالد شهادة التميميين الذين شهدوا على مالك بن الجارود أنه قتل عمر الأسيدي .
٩٩ ديوان الفرزدق ٥٩/٢ ؛ انظر ٥٨/٢ ؛ الأغاني ٢٣/١٩ ، ٤٢ ، ٦١ .
١٠٠ ديوان الفرزدق ١٧٨/٢ – ٨١ .
١٠١ الأغاني ٤١/١٩ ؛ انظر النقائض ٩٨٤ ؛ ديوان الفرزدق ٤٧/١ .
١٠٢ الأغاني ٤١/١٩ – ٢ .
١٠٣ ابن سلام ٢٩٤ .

أخالد لـولا الدين لم تعـط طـاعـة ولولا بنو مروان لم توثقوا نصرا
إذاً لوجدتم دون شـدّ وثـاقـــه بني الحرب لا كشف اللقاء ولا ضجرا
ألا يا بني مـروان مثـل بـلائنـا إذا لم يصب من كان ينعمه شكرا
جدير لأن ينسى إذا مـا دعوتـم ويورث في صدر المعيد له غمرا
أفي الحــق انا لا تزال كتيبــة نطاعنها حتى تـدين لـكم قسرا
وإلّا تناهوا تخطر الخيــل بالقنـا وندع تميماً ثم لا نطَّلِب عذرا
إليكم ، وتلقونـا بني كـل حـرة وفت ثم أدّت لا قليلاً ولا وعرا
وإنـا لقتالـوا الملوك إذا اغتـدوا علانية الهيجاء، ولا نحسن العذرا(١٠٤)

وكانت نتيجة كل ذلك أن ألقي القبض على الفرزدق وحبس. وجنّ جنونه فصار يقول القصيدة تلو القصيدة يدافع فيها عن نفسه وينفي التهم الكثيرة الموجهة إليه، ويمدح الخليفة وخالداً ومالكاً ويصف خوفه وجزعه. وكان عجز قومه عن حمايته ونصرته على الدولة واضحاً. وأكدت السلطة مرة أخرى قوتها، وأصبح الشاعر المتمرد في موقف الضعف والمدافعة تحت رحمة من كان يشوي ظهورهم بالهجاء. فأطنب في مدح مالك وقومه(١٠٥) ، وصوّر ما كان يتمتع به رئيس الشرطة من صفات تثير المهابة والخوف في أسلوب يعيد إلى الأذهان ما كان يقوله في زياد والحجاج من قبل، فهو يقول :

إذا مالـك ألقـى العمامــة فاَحذروا بوادر كفيّ مالـك حين يغضب
فإنهمـا ان يظلماك، ففيهمـا نكال لعريان العذاب عصيصب(١٠٦)

ويجسّم خوف الناس منه في كلمات حيّة :

رأيت أبـا غسّان علّــق سيفــه على كاهل شغب على من يشاغبه

---

١٠٤ ديوان الفرزدق ٣٢٣/١ .

١٠٥ انظر ديوان الفرزدق ٢٥٦/١ ؛ ٥٦/٢ ، ١٢١ - ٣ ، ١٣٣ ، ٣١٧ .

١٠٦ ديوان الفرزدق ٣٠/١ .

ترى الناس كالدمعى له وقلوبهم تندّى وما فيهم عريب يخاطبه
أذلّ به الله االذي كان ظالماً وعزّ به المظلوم واشتد جانبه
وقد علم المصر الذي كان ضائعاً أباعده مزؤودة وأقاربه
بأنك سيف الله في الأرض سلّه إذا الموت راقت بالسيوف كتائبه(١٠٧)

وينفي عن نفسه التهمة(١٠٨) ويطنب في تصوير سوء حاله في السجن ليستدر عطف مالك :

حلفت بربّ الجاريات إذا جرت وحيث دنت من مروة البيت زمزم
لما زادني من خشية، إذ حبستني على الخشية الأولى التي كنت تعلم
أعوذ بقبر فيه أكفان منذر وهنّ لأيدي المستجيرين مَحْرَم
فهل يخرجني منذر من مخيِّس وعذر به لي صوته يتكلم
وكيف بمن خمسون قيداً وحلقة عليه مع الليل الذي هو أدهم
أبيت أقاسي الليل والقوم منهم معي ساهر لي لا ينام ونوّم
ولو أنها صمّ الجبال تحملت كما حملت رجلاي كادت تحطّم
أمالك إن أخرج بكفيك صالحاً تكن مثل ذي نُعمى لمن كان ينعم
وعلمني مشي المقيد خالد وما كنت أدنى خطوه أتعلم
أقول لرجليّ اللتين عليهما عرى وحديد يحبس الخطو أبهم
أما في بني الجارود من رائح لنا كما راح دُفَّاع الفرات المثلَّم(١٠٩)

ووجّه بالمثل عدداً من القصائد إلى خالد يمدحه فيها ويبالغ في نفي التهم عن نفسه ويذكر مآثر الأمير خاصة النهر فيقول :

لقد زعموا اني هجوت لخالد له كلّ نهر للمبارك أكدرا

---

١٠٧ نفسه ١/٧٠ – ١ ؛ انظر ٢/٢٤٩ .
١٠٨ انظر نفسه ٢/١٢٢ – ٣ ، ٢٤٨ .
١٠٩ نفسه ٢/٢٤٨ – ٥٠ ؛ انظر ٢/١٢١ – ٢ .

ولن تنكروا شعري إذا خرجت لـه   سوابق لـو يرمى بها لتفقّـرا
سواجٌ ولـو مسَّت حـراء لحركت   له الراسيات الشمّ حتى تكورا
لئن صبرت نفسي لقد أمرت بـه   وخير عباد الله مـن كان أصبرا
وكنت ابن احذار ولو كنت خائفاً   لكنت من العصماء في الطود أخدرا
ولـكن أتـوني آمنـاً لا أخـافهم   نهاراً وكـان الله ما شاء قدّرا(١١٠)

ولا يفتأ يذكر الفوائد التي تعود على الناس من حفر النهر في عدة قصائد يقول في إحداها :

أعطى خليفتنا بقوة خـالد   نهراً يفيض لـه عـلى الأنهار
إن المبارك كاسمه يسقى به   حـرث الطعام ولاحق الجبَّار
لمّا تدارك للمبارك مـدّه   رخص الطعـام لمـايح وتجار(١١١)

وحين يخاطب الخليفة يزعم أنه ما سجن إلّا لحسبه ومنزلة قومه. ويتضرع له ليفكه مذكراً إياه بما كان قدّمه جدّه مروان من حماية للشاعر(١١٢) فيقول له :

فإن أك محبوساً بغـير جـريرة   فقـد أخذوني آمنـاً غير خائف
ومـا سجنوني غير أني ابن غالـب   واني مـن الأثرين غير الزعانف
واني الذي كـانت تعـدّ لثغرها   تميمٌ لأبيـات العـدوّ المقـاذف
واني لأعداء الخنادف مدره   بِذَحْل غنيٍّ بالنوائب كـالـف(١١٣)

وبعد أن يذكر انتصاره على خصومه يتعرض لسوء حالـه مشيراً إلى أعدائه الكثيرين :

---

١١٠ نفسه ٢٩٦/١ ؛ انظر ٢٧٠/١ .
١١١ ديوان الفرزدق ٢٦٩/١ ؛ انظر أيضاً ١٣٢/١ – ٣ .
١١٢ نفسه ٧/٢ – ١٠ ؛ انظر ٦١/١ ، ١٨٨/٢ – ٩ .
١١٣ نفسه ١٠/٢ .

أرى شعراء الناس غيري كأنهم ... بمكة قُطّان الحمام الأوالف
عجبت لقوم إن رأوني تعذروا ... وإن غبت كانوا بين راوٍ وجانف
عليّ، وقد كانوا يخافون صولتي ... ويرقأ بي فيض العيون الذوارف
ولو كنت أخشى خالداً أن يروعني ... لطرت بوافٍ ريشه غير جادف
كما طرت من مصري زيادٍ وانه ... لتصرف لي أنيابه بالمتالف
وما كنت أخشى أن أرى في مخيَّس ... قصير الخطى أمشي كمشي الرواسف
أبيت تطوف الزط حولي بجُلْجُل ... عليّ رقيب منهم كالمخالف[١١٤]

وتكمن أهمية هذه الروايات المختلفة التي توردها المصادر عن حبس الفرزدق وإطلاقه – وبعضها ظاهر الوضع – في دلالتها على توطد سلطة الدولة، وعجز العون القبلي المحلي الواضح عن التصدي لهذه السلطة بتقديم المعاونة والمساعدة لمن يحتاج إليها من الأفراد دون الاستعانة بالتجمعات القبلية الكبرى. وقد تبين للفرزدق أن صلة الدم في مثل هذه الظروف لا غنى فيها ولا جدوى منها، وقد وضّح ذلك في قصيدته التي هجا فيها أيوب بن عيسى الضَّبِّي – وضبة أخوال الشاعر – وكان أيوب على شرطة مالك بن المنذر بن الجارود، فاحتال على الفرزدق حتى أتى به مالكاً، فقال الشاعر يهجوه :

فلو كنت قيسياً إذا ما حبستني ... ولكن زنجياً غليظاً مشافره
متتت له بالرحم بيني وبينه ... فألفيته مني بعيداً أوامره
وقلت امرؤ من آل ضبة فاعتزى ... لغيرهم لون استه ومحاجره
فسوف يرى النوبيّ ما اقترحت له ... يداه إذا ما الشعر غنّت نوافره[١١٥]

وقد جبهه الشاعر سلمة بن عياش بخذلان قبيلته له إذ قال «حبست في

---

١١٤ نفسه ١١/٢ ؛ انظر أيضاً ١٤٠/١ – ١ ؛ ٢٨٤/٢ .
١١٥ الأغاني ١٢٩/٢١ – ١٣٢ .

السجن فإذا فيه الفرزدق – حبسه مالك بن المنذر بن الجارود – فكان يريد أن يقول البيت فيقول صدره فأسبقه إلى القافية، ويجيء بالقافية فأسبقه إلى الصدر. قال لي: مِمَّن ؟ قلت: من قريش. قال: كل أير حمار من قريش ! من أيهم أنت ؟ قلت : من بني عامر. قال: لئام والله أذِلّة، جاورتهم فكانوا شرّ جيران. قلت أفلا أخبرك بأذل منهم وألأم ؟ قال: بلى. قلت: بنو مجاشع. قال: ويلك ولِمَ ؟ قلت: أنت شاعرهم وسيدهم وابن سيدهم، جاء شُرَطيّ مالك حتى أدخلك السجن لم يمنعوك. قال: قاتلك الله ! »[١١٦]. وكانت دلالة يأسه من قومه تميم أنه أرسل إلى الزعيم الكلبي سعيد بن الوليد الأبرش بالشام يستعطفه ويحمله عبء العفو حين قال له :

إلى الأبرش الكلبي أسندت حاجة   تواكلها حيًّا تميم ووائل[١١٧]

وكان ملجأه الأخير للحماية قيس رغم عدائه السابق لهم. فقد روى أنه قال لابنه لبطة وهو محبوس: اشخص إلى هشام ومدحه بقصيدة، وقال لابنه: استعن بالقيسية ولا يمنعك منهم هجائي لهم فإنهم سيغضبون لك[١١٨]. وفي هذه الفترة بالذات التقت قيس ومضر في عدائهما لليمنية، وتستمر الرواية لتذكر أن قيساً قامت في أمره وقالت للخليفة: يا أمير المؤمنين إذا ما كان في مضر ناب أو شاعر أو سيِّد وثب عليه خالد فحبسه[١١٩]. ونجحت شفاعتهم في إطلاقه فمدحهم في عدة قصائد[١٢٠].

وقد تجلت وحدة الهدف هذه في اتجاه منافس الفرزدق وغريمه جرير الذي

---

١١٦ نفسه ١٣١/٢١ ؛ ١٦/١٩ – ١٧ ؛ ابن سلام ٢٨٧ .

١١٧ ابن سلام ٢٩٦ ؛ الأغاني ٢٤/١٩ .

١١٨ ابن سلام ٢٩٥ .

١١٩ نفسه .

١٢٠ ديوان الفرزدق ٢٠٢/٢ ؛ الأغاني ٢٥/١٩ .

استرحم خالداً في قصيدة طويلة[١٢١] ، ورجاه فك إسار الشاعر. قال ابن شبَّة قدم البريد من قِبَل خالد على هشام بحبس الفرزدق، فقال هشام: عليَّ بابن الخطفى. فأقبل جرير يمشي في مقطعات له حتى إذا سلَّم على هشام قال له: يا جرير إن الله قد أخزى الفاسق. قال: أي الفسَّاق يا أمير المؤمنين ؟ قال: الفرزدق. قال جرير: يا أمير المؤمنين إن أردت أن تتخذ يداً عند حاضرة مضر وباديتها فأطلق لهم شاعرهم وسيدهم وابن سيدهم ! فقال هشام: يا جرير أما يسرُّك ان يخزى الفرزدق ؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين إلّا أن يخزى بلساني. قال: فأين ما تقول له ويقول لك ؟ قال: ما أقول ولا يقول إلّا الباطل. فلما انصرف جرير اتبعه هشام بصرة وقال: ويحه أي امرىء هو عند حسبه[١٢٢] .

١٢١ ديوان جرير ١٣٩ – ١٤٠ ؛ النقائض ٩٨٥ وفيها مقطوعات للفرزدق ؛ انظر ديوان الفرزدق ١/ ١٣٢ – ٣ .

١٢٢ النقائض ٩٨٤ – ٥ .

الفصل الثالث

الشعراء ضمير الشعب

للشعراء البصريين دور مشهود في الدفاع عن شرف قومهم والمنافحة عن حقوقهم والتحدث بلسانهم في مختلف المناسبات والقضايا التي تهمهم. وفي أشعارهم ونشاطهم الشاهد على كل ذلك. ولئن كان هذا الدور قد تجاوز في كثير من الحالات أبعاده الحقيقية وضُخِّم لاعتبارات المنافسة والتفاخر، فإن كثيرين من الشعراء عاشوا من أجل الأهداف التي رسموها لأنفسهم، ورسمها لهم ولاؤهم لقومهم فارتبطوا بهؤلاء القوم ارتباطاً حياً في أزمان العسرة والضيق. وهناك قدر كبير من شعر المدح الموجَّه للخلفاء والولاة والأمراء لم تكن الغاية منه مجرد الملق والتحايل لاحراز المكسب المادي – وإن كانت أهمية هذا المكسب المادي لا تغيب عن البال – بل ضمّ إلى جانب ذلك حصيلة متنوعة من الإشارات والنقدات تستهجن الظلم وتدعو إلى وقف الفساد. وتجد صور الفقر المدقع والمشقة التي يتعرض لها الناس في أعقاب مواسم الجدب وغيرها من المآسي مكاناً بارزاً في كثير من قصائد المدح. فجرير يقول للحجاج في نهاية قصيدة يذكر فيها انتصاره على ابن الأشعث :

أَلَا نشكو إليك زمـان محلٍ   وشرب المـاء في زمن الجليد
ومعتبة العيال وهـم سغـاب   على درّ المجالحة الرَّفـود

زمـانـاً يـترك الفتيـات سـودا   وقد كان المحاجر غير سود[1]

ولكنهم لم يتوسعوا في مثل هذه المواضيع إلّا في آخر أيام الحجاج و بعد موته. ففي قصيدة مؤثرة وجهها الفرزدق للوليد بن عبد الملك يطلب في نهايتها حماية الخليفة من الحجاج يتحدث فيها الشاعر عن المآسي التي تتعرض لها قبائل مضر فيقول :

رأوني فنادوني أسوق مطيـتي   بأصوات هُلّاك سغاب حـرائره
فقالـوا أغثنـا إن بلغـت بـدعـوة   لنـا عند خير الناس إنك زائره
فقلت لهم إن يبلـغ الله نـاقـتي   وإياي أنبي بالـذي أنـا خابره
بحيث رأيت الذئب كل عشية   يروح على مهزولـكم ويباكـره
ليجتر منكم إن رأى بـارزاً لـــه   من الجيف اللائي عليكم حظائره[2]
أغث مضراً إن السنين تتـابعـت   عليها بحز يكسر العظم جازره
وكل معد غيرهــم حــول ساعد   من الريف لم تحظر عليهم قناطره
وهم حيث حـلّ الجوع بين تهامة   وخيبر والوادي الذي الجوع حاضره
بوادٍ بـه مـاء الكلاب مـن الـذي   بها أسد إذ أمسك الغيث ماطره
وحلّـت بـدهنـاء تمـيم وألجـأت   إلى ريف بَرْنيٍّ كثير تمـائـره
كأنهـم للمبتغى الزاد عندهــم   بَخَاتِيٍّ جمَّال ضَمُور قيـاسره
ولو لم تـكن عبس تقاتل مسهـا   من الجـوع ضرّ لا يغمِّض ساهره
ولكنهــم يستكرهون عدوّهـم   إذا هزّ خِرصان الرماح مساعره
أغثني بكنهي في نــزار ومُقْبَـلي   فإني كريم المشرقين وشاعـره[3]

---

١ ديوان جرير ٩٦ .

٢ النياق أهلكها الجدب كان يجعلونها حول الحي ليدفعوا الذئاب عن الإبل الحية .

٣ ديوان الفرزدق ٢٤٨/١ – ٢٥٠ ؛ انظر ١٢٦/٢ .

ولا بد أن الأمور قد بلغت حدًّا لا يطاق حين اعتلى سليمان عرش بني أمية (٩٦ هـ / ٧١٥ م). فقد ابتدع الفرزدق في إحدى قصائده في مدح سليمان، ولعلَّها أولاها، طريقة نادرة في قول الشعر، وذلك حين بدأها بتصوير حيّ للحالة المزرية التي كان الناس عليها كما تبدو في أزياء نسائهم وأشخاصهن المتهالكة. وبعد أن ينتهي من حديث عام عن البؤس والفاقة يتحدث على لسان زوجه النوار قائلاً:

ألست ترى من حول بيتك عائذاً ... بقدرك قد أعيا عليها احتيالها
فكيف تريد الخفض بعد الذي ترى ... نساءٌ بنجد عُيَّل ورجالها
وسوداء في أهدام كَلِّين أقبلت ... إلينا بهم تمشي وعَنَّا سؤالها
على عاتقيها اثنان منهم وإنها ... لتُرْعَد قد كادت يُقِصّ هزالها
ومن خلفها ثنتان كلتاهما لها ... تعلّق بالأهدام، والشرّ حالها
وفي حجرها مخزومة من ورائها ... شعيثاء لم يتمم لحول فصالها
فخرّت، وألقتهم إلينا كأنها ... نعامة مَحْلٍ، جانبتها رئالها
إلى حجرة كم من خباء وقبة ... إليها، وهُلّاك كثير عيالها[٤]

وقد تحدَّث جرير في قصيدته الوحيدة التي قالها في سليمان عن حال اليتامى والأرامل:

ألَا هل للخليفة في نزار ... فقد أمسوا وأكثرهم كلول
وتدعوك الأرامل واليتامى ... ومن أمسى وليس به حويل
وتشكو الماشيات إليك جهداً ... ولا صعب لهن ولا ذلول
وأكثر زادهن وهن سُفْع ... حطام الجلد والعصب المليل
ويدعوك المكلّف بعد جهد ... وعانٍ قد أضرَّ به الكبول[٥]

---

٤ نفسه ٢/٧٢ ؛ انظر ١/٢٦٣ ، ٢٦٦ .

٥ ديوان جرير ٣٤٧ .

ويبدو أن هذه الأحوال استمرت حتى زمن عمر بن عبد العزيز كما يستشف من أشعار جرير والفرزدق واسترحاماتهما المتكررة. فجرير يقول :

أأذكر الجهد والبلوى التي نزلت ... أم قد كفاني الذي بلِّغت من خبري
ما زلت بعدك في دار تعرَّقني ... قد عيّ بالحيّ إصعادي ومنحدري
لا ينفع الحاضر المجهود باديه ... ولا يعود لنا بادٍ على حضر
كم بالمواسم من شعثاء أرملة ... ومن يتيم ضعيف الصوت والبصر
يدعوك دعوة ملهوف كأن به ... خبلاً من الجن أو خبلاً من النَّشَر
ممن يعدّك تكفي فقد والده ... كالفرخ في العش لم يدرُج ولم يطر
يرجوك مثل رجاء الغيث تجرهم ... بوركت جابر عظم هيض منكسر
فإن تدعهم فمن يرجون بعدكم ... أو تُنجِ منها فقد انجيت من ضرر(٦)

وقال الفرزدق لعمر :

وساقنا من قَسا يزجي ركائبنا ... إليك منتجع الحاجات والقدر
وجائحات ثلاث ما تركن لنا ... مالاً به بعدهن الغيث ينتظر
ثنتان لم تتركا لحماً وحاطمة ... بالعظم حمراء حتى اجتيحت الغرر
فقلت كيف بأهلي حين عض بهم ... عام له كل مال معنق جزر
عام أتى قبله عامان ما تركا ... مالاً ولا بلَّ عوداً فيهما مطر(٧)

وزيادة على المحن التي تسببها كوارث الطبيعة فإن هناك مصائب الابتزاز الرسمي والارهاب الإداري، مما ضاعف من مشاعر السخط العام وألهب روح التذمر في المصر والبادية، وأمدّ الشعراء بقضايا عادلة يدافعون عنها، ويجيد بعضهم في عرضها عرضاً فنياً مؤثراً. والواضح أن الأحوال - خاصة حالة البدو الذين ظلوا

---

٦ ديوان جرير ٢١٠ - ٢١١ ؛ للخلفاء الآخرين انظر ديوان الفرزدق ٥٩/١ ، ١٤٣ ؛ ١٢٤/٢ - ٥ ، ٢٩٣ .

٧ ديوان الفرزدق ١٨٢/١ - ٣ .

في صحرائهم - قد أصبحت أسوأ مما كانت عليه من قبل. فقد حرَّم الإسلام على هؤلاء الأعراب عاداتهم القديمة في الاغارة والنهب مما كان يضمن لبعض القبائل الفقيرة الرمق ويحفظ عليها الحياة. وزاد على ذلك فرض الصدقات والزكاة، وكان ذلك مصدراً للتذمر كما دلت على ذلك حروب الردّة، وظلَّ بعد ذلك عبئاً مبهظاً كثيراً ما شكا منه الشعراء .

أما عمال الحكومة وخاصة السعاة الذين يجمعون الصدقات والشرطة فقد كانوا هدفاً طبيعياً للهجاء والنقد، ليس من الشعراء وحدهم بل من الأمراء أنفسهم كما يستدل مما قاله زياد حين أخبروه بمن تولى شرطة البصرة. فكان تعليقه عليه :

وساع مع السلطان يسعى عليهم ... ومُحْتَرَس من مثله وهو حارس[٨]

وقد صوّر أبو الأسود الدؤلي[٩] أو أنس بن أبي أُناس[١٠] أسلوب الولاة والحكام في الإثراء عن طريق السرقة وحيازة الأموال العامة، وذلك حين عين زياد أو عبيد الله بن زياد حارثة بن بدر الشاعر التميمي أميراً على سرّق، فقد نصحه الشاعر في سخرية بقوله :

أحار بن بدر قد وليت إمارة ... فكن جرذاً فيها تخون وتسرق
ولا تحقرن يا حار شيئاً تصيبه ... فحظك من ملك العراقين سرّق
فإن جميع الناس إما مكذِّب ... يقول بما يهوى وإمّا مصدِّق
يقولون أقوالاً بظن وشبهة ... فإن قيل هاتوا حققوا لم يحققوا
فلا تعجزن فالعجز أبطأ مركب ... وما كل من يُدْعى إلى الرزق يرزق
وكاثر تميماً بالغنى ان للغنى ... لساناً به يسطو العييّ وينطق[١١]

---

٨ الجاحظ : الحيوان ١٠١/١ .

٩ ديوانه ٢٤٣ ؛ الأغاني ٣٣/٢١ .

١٠ المبرد: الكامل (المرصفي) ١٩١/٣ - ٢ ؛ الحيوان ٣٦/٣ ، ٩٧/٥ - ٨٠ .

١١ ديوان أبي الأسود ٢٤٣ ؛ الأغاني ٣٣/٢١ .

وتقبل حارثة النصح كأنه الأمر المعهود، ويروون أنه قال في ذلك :

جزاك مليك النـاس خـير جـزائه ... فقد قلت معروفاً وأوصيت كافيا
أمرت بحزم لـو أمرت بـغـيره ... لألفيتني فيـه لرأيك عاصيا[١٢]

وقد كتب زياد إلى حارثة بن بدر يحثه على جباية الخراج فكتب إليه علقمة ابن معبد المازني :

ألم تـر أن حارثــة بن بــدر ... يصلّي وهو أكفر من حمار
وإن المـال يعرف مـن حواه ... ويعرف بالـزواني والعـقـار[١٣]

وقد صوّر الراعي ظلم السعاة خير تصوير حين قال لعبد الملك بن مروان :

أخليفــة الرحمن إنا معشر ... حنفاء نسجد بـكرة وأصيـلا
عرب ترى لله في أموالنـا ... حقّ الزكاة منزلاً تنزيلا
إن السعاة عصوك يـوم أمرتهـم ... وأتوا دواهي لـو علمت وغـولا
أخذوا العريف[١٤] فشققوا حيزومه ... بالأصبحية قائمـاً مغلولا
حتى إذا لم يتركوا لعظامه ... لحماً ولا لفؤاده معقولا
جاءوا بصكهم وأحـدب أسأرت ... منه السياط يراعـة إجفيـلا
نسي الأمانـة مـن مخافة لقـح ... شمس تركـن بضيعـه مجزولا
أخذوا حمولتـه وأصبـح قاعداً ... لا يستطيع عـن الديار حويـلا
يدعـو أمير المؤمنين ودونـه ... خرق تجـرّ بـه الرياح ذيـولا
كهداهـد كسر الـرمـاة جناحه ... يدعـو بقارعـة الشُّرَيْف هديـلا
فارفع مظـالم عيّلت أبناءنـا ... عنـا وأنقـذ شلونا المأكـولا

---

١٢ الأغاني ٢١/٣٣ .

١٣ نفسه ٢١/٣٠ .

١٤ انظر الباب الأول ص ٣٦ للعريف .

ولئن بقيت لأدعونّ لِطيَّـــة تدع الفرائض بالشُّرَيف قليلا[١٥]

وقد أفصح البيت الأخير عن يأس الشاعر وبرمه بما يرى ويحس. وقد رأى فيه الخليفة دعوة صارخة إلى التمرد والعصيان، إذ قال له: وأين من الله والسلطان لا أم لك ؟ فاستدرك الشاعر وقال: من عامل إلى عامل ومن مصدق إلى مصدق ! ولكن ذلك لم يذهب ما بنفس الخليفة منه فصرفه خائباً[١٦] . وحين وفد عليه العام القابل خاطبه بقوله :

أما الفقير الذي كانت حلوبتـــه وفق العيال فلم يُتْرَك لـــه سـبد
واختلّ ذو المـــال والمثرون قد بقيت على التلاتل من أموالهـــم عقـد
فإن رفعـت بهـــم رأساً نعشتهـم وان لقوا مثلها في قابل فسدوا[١٧]

فقال له عبد الملك: أنت العام أعقل منك عام أول[١٨] . وقال له: فتريد ماذا ؟ قال: تردّ عليهم صدقاتهم فتنعشهم. فقال الخليفة: هذا كثير. قال: أنت أكثر منه. قال: قد فعلت، فسلني حاجة تخصك. قال: قد قضيت حاجتي. قال: سل حاجتك لنفسك. قال: ما كنت لأُفسد هذه المكرمة[١٩] :

وقد بيَّن الفرزدق مفاسد العمال للوليد بن عبد الملك حين قال له :

رجـاك المشرقان لكـل عـــان وأرملـة وأصحـاب الثغـــور
وكنت جعلت للعمـال عـهداً وفيه العاصمات من الفجـــور
أمير المؤمنين وأنت تشفي بعـدل يديـك أدواء الصدور
فكيـف بعـامل يسعى علينا يكلفنا الدراهـــم في البـــدور

---

١٥ ابن سلام ٤٣٩ – ٤٢ ؛ كامل المبرد ١٠٢/٧ – ٣ ؛ الخزانة ١٢١/٣ ؛ الأغاني ١٧٢/٢٠ .
١٦ ابن سلام ٤٤٢ .
١٧ ابن سلام ٤٤٢ .
١٨ نفسه .
١٩ الأغاني ١٧٢/٢٠

وأنى بالدراهــم وهـي منــا كرافـع راحتيه إلى العبــور
إذا سقنا الفرائض لم يُـردهــا وصدّ عــن الشويهة والبعـير
إذا وضع السياط لنــا نهــاراً أخذنــا بالرِّبــا سَرَق الحرير
فأدخلنــا جهـنم مـا أخذنــا من الإرباء مــن دون الظهور
فلـو سمـع الخليفة صوت داع ينادي الله هـل لي من مجير ؟
وأصوات النساء مقرَّنــات وصبيان لهــن عـلى الحجور
إذاً لأجابهن لسان داعٍ لدين الله مغضاب نصور[٢٠]

وعدّد نفس الشاعر مظالم العمال في مناسبة أخرى في قصيدة وجهها لسليمان ابن عبد الملك قال فيها :

كم فيك إن ملكت يداك لنا يوماً ، نواصينا مــن النــذر
من حــج حافية وصائمة سنتين ، أم افيرخ زعــر
لم يبـق منهم غير ألسنة واعيظم وحواصل حــمــر
ويجمّرون بغـير أعطيــة في البرّ مــن بعثوا وفي البحر
ويكلفون أبــاعراً ذهبت جيفاً بلين ، تقــادُمَ العصر
حتى غبطنــا كــلّ مُحْتَمَل يمشي بأعظمــه إلى القــبر
وتمنت الأحيــاء أنهــم تحت التراب وجيء بالحشر
والراقصات بكــل مبتهل من فجّ كـلّ عمايق غُبْـر
ما قلت إلّا الحــقّ تعـرفــه في القول مرتجلاً وفي الشـعر
ما أصبحت أرض العراق بهـا ورق لمختبط ولا قشر
إن نحن لم نمنــع بطاعتنــا والحبّ للمهدي والشكر

---

٢٠ ديوان الفرزدق ١/٢٨٥ – ٦ ؛ انظر ١/١٩١ للشكوى من الضرائب وقلة المال خاصة في البادية .

فغدت علينا في منازلنا ... رسل العذاب برغوة البكر[21]

وأطنب الشعراء في وصف وسائل التعذيب التي يسلكها عمال الحكومة مع الرعايا، وتحدثوا عن مظاهر الفساد الرسمي في كل جوانب الحياة. فقد أصبح استخدام السوط لإحراز النتائج المطلوبة أمراً عادياً كما يبدو من قول الصَّلَتان العبدي :

أرى أمة شهرت سيفها ... وقد زيد في سوطها الأصبحي[22]

وأشار الفرزدق إلى استغلال الرشوة الذي نجم عنه كثير من الضرر كما يظهر من أبياته التي وجهها للحجاج :

وكنا بأرض يا ابن يوسف لم يكن ... يبالي بها ما يرتشي كلُّ عامل
يرون إذا الخصمان جاءا إليهم ... أحقهما بالحق أهل الجعائل
وما تبتغي الحاجات عندك بالرشى ... ولا تقتضى إلّا بما في الرسائل[23]

ويبدو أن الفساد قد استشرى بحيث كان القائمون على آبار الشرب يفرضون فرضاً على من يقربونها، دون وجه حق، فيما يذكر الفرزدق عن واحد من هؤلاء :

لحا الله ماءً، حنبل قيِّم له ... قفا ضبةٍ تحت الصفاة مكون
إذا ما وردت الماء فادلف لحنبلٍ ... بقعب سويق أو بقعب طحين
أويت لابناء الطريق من امرىء ... شروب الأداوي للركي دفون
ولو علم الحجاج علمك لم تبع ... يمينك ماءً سلماً بثمين
لحاولت جدعاً أو لألفيت مقعدا ... تزحف تمشي مشية ابن وضين[24]

وعبّر العجاج عن مثل ذلك حين قال لسليمان بن عبد الملك :

---

٢١ ديوان الفرزدق ١/٢٦٢ – ٣ .

٢٢ المبرد: الكامل ٢/٢٤٦ .

٢٣ ديوان الفرزدق ٢/١٣٧ ؛ ديوان ذي الرمة ٤٧٣ – ٤ لحالة محددة .

٢٤ ديوان الفرزدق ٢/٣٤٣ .

وعرفـاء للامـام حُمَّـل ... على العمى وعـن هداهم ذُهَّل
لما استطاعوا من خَبال خبَّـل ... وللأمير مُعْنِتين غُلَّـل
من حرمات الله مـا لم يُحلـل ... وإن لقوا ذا ضعفة قالوا اجعل
فان يُوضَّح بالخبيث الأقلـل ... يرضوا وينسوا خفر التَّزَوُّل
وإن يقل لا جُعل عندي يعكل ... منها ثنى عـلى ثنى معقَّل
يقال عمال وشرٌّ عُمَّل ... ولا أحاشي عـن فُـل ولا فل
كلٌّ أصمُّ قلبـه مهمـا يـلى ... مما يعـاف الصالحون يأكـل
وَجْدَ الكليب باللجام الصُّلَّـل ... مستبطناً أمانةً كالمنخـل
فأصبحوا بعد الزمـان الدغفـل ... كالُبرد بعـد الجدَّة المرعبل(٢٥)

وكان سلوك الأمراء واستغلالهم لنفوذهم الرسمي مادة طيبة لنقد الشعراء. فحين حوّل زياد دعوة حارثة بن بدر وديوانه في قريش لمكانه منه قال رجل من بني كليب يهجوه :

شهدت بـأن حـارثة بن بـدر ... غـداني اللهـازم والكلام
سـجاح في كتـاب الله أدنى ... لـه من نوفل وبني هشام(٢٦)

وقد لام العجاج الامراء واتهمهم بهدم النظام الاجتماعي في قوله :

وأمـراء أفسدوا فعـاثـوا ... فهثهثوا فكثر الهثهات(٢٧)

وتعرّض أمراء بعينهم للنقد الشديد. فأفاض ابن مفرّغ(٢٨) في تعديد مساوىء عبيد الله بن زياد ومظالمه، ولكن تحامل هذا الشاعر على ابن زياد وعداءه الشخصي

---

٢٥ ديوان العجاج ٥٣ .
٢٦ الأغاني ٢١/٢٢
٢٧ ديوان العجاج ٧٥ ؛ انظر العقد الفريد ٣٠٥/٧ ؛ كامل المبرد ٤٦/٦ لقضايا أخرى .
٢٨ الأغاني ٦٥/١٧ .

له يضع شهادته موضع الشك. وتعرض الحارث القباع لسهام الشعراء. فقال له مُرَّة بن محكان قبل أن يصدر عليه حكمه :

أحار تثبت في القضاء فإنه ... إذا ما امام جار في الحكم أقصدا
وانك موقوف على الحكم فاحتفظ ... ومهما تصبه اليوم تدرك به غدا
فإني مما أدرك الأمر بالأنى ... وأقطع في رأس الأمير المهندا[٢٩]

ويبدو أن القباع ردّ عليه بجلده جلداً مبرحاً ظلَّ صداه يتردد في شعره[٣٠]. وقد دفع الشاعر حياته ثمناً لتحديه السلطان، فيذكرون أن مصعب بن الزبير حين ولي دعاه فأنشده الأبيات، فقال: أما والله لأقطعن السيف في رأسك قبل أن تقطعه في رأسي، وأمر به فحبس، ثم دسّ إليه من قتله[٣١]. ولعلَّ أشهر أبيات تلخص رأي شاعر معاصر في القباع تلك الأبيات التي أرسلها أبو الأسود الدؤلي إلى عبد الله بن الزبير بشأنه :

أمير المؤمنين جزيت خيراً ... أرحنا من قباع بني المغيرة
بلوناه ولمناه فأعيا ... علينا ما يمرّ لنا مريره
على أن الفتى نكح أكول ... وولاج مذاهبه كثيرة[٣٢]

وتصدى الشعراء لمصعب بن الزبير ينتقدون إسرافه خاصة ما ظهر منه عند زواجه من عائشة بنت طلحة فقد ذكروا أن مهرها بلغ ألف ألف درهم[٣٣]، فقال عنه أنس بن أبي أناس مخاطباً عبد الله بن الزبير :

أبلغ أمير المؤمنين رسالة ... من ناصح ما إن يريد متاعا

---

٢٩ نفسه ١٠/١٩ .

٣٠ المرزباني: معجم الشعراء ٢٩٦

٣١ الأغاني ١٠/١٩ .

٣٢ ديوان أبي الأسود الدؤلي ٢٢٠ – ١ ؛ الجاحظ: البيان والتبيين ١٦٩/١ ؛ انظر ١٢٢ .

٣٣ البلاذري: أنساب الأشراف ٢٨٢/٥ .

بضع الفتاة بألف ألف درهم وتبيت قادات الجيوش جياعا
فلو انني الفاروق أخبر بالذي شاهدته ورأيته لارتاعا[٣٤]

وحين عزل عبد الله بن الزبير أخاه مصعباً لبعض الوقت ووضع محله ابنه حمزة بن عبد الله والياً على البصرة[٣٥] غيّر سياسة عمه مصعب وشدّد على الناس في الأموال حتى ضاقوا به ولم يجد زعماء البصرة مناصاً من التصدي له، فأرغمه مالك بن مسمع البكري على التخلي عن الولاية وعزله. وقد صوّر هذه الحادثة العديل بن الفرخ – وهي حادثة تلقي الضوء على قوة بعض الزعماء القبليين خاصة أمام ضعاف الأمراء. قال العديل :

إذا ما خشينا من أمير ظلامة دعونا أبا غسان يوماً فعسكرا
إذا ما أبو غسان لم يعط سؤله أراد أبو غسان أن يتأمرا[٣٦]

---

٣٤ البلاذري: أنساب الأشراف ٢٨٣/٥ ؛ الأغاني ١٢٢/٣ – ٣ ؛ ابن قتيبة: الشعر ٧١٤/٢ .

٣٥ الأغاني ١٢٣/٣ .

٣٦ البلاذري: أنساب ٢٦٥/٥ ؛ الأغاني ١٧/٢٠ ؛ النقائض ١٠٩٠ : وانظر زكي ٣١١ – ٣٢٠ .

الباب الخامس
الشعر والتحوّل الاجتماعي

الفصل الأول

بين الجاهلية والإسلام

كان لا بد للقوى الاجتماعية المتعددة التي تعاورت على حياة البصرة[1] وأسهمت في تكوين شخصيتها من أن تترك آثارها على إنتاج الشعراء الذين تأثرت حياتهم بها أيضاً في درجات متفاوتة .

ولعل الواجب يقتضينا قبل الخوض في متابعة هذه الآثار أن نلفت النظر هنا إلى خطأ يتجلى في كثير من كتابات المُحْدَثين، وهو خطأ يقع فيه مؤرخ الأدب عادة حين يعالج أمر تأثير التحوّل الاجتماعي على الشعر أو على الأدب عامة . وفحوى ذلك أنه بدل أن ينظر إلى جماع تجربة الشاعر كما تتجلى في شعره كله، معتبراً كل التيارات المختلفة – والمتنافرة في بعض الأحوال – أجزاء لا تتجزأ من شخصيته التي هي نتاج بيئته الاجتماعية، فإنه يميل إلى تغليب جانب بعينه على الجوانب الأخرى. ومعنى ذلك أنه بدل أن ينسب كل الجوانب المختلفة التي تبرز بوضوح في إنتاجه إلى حياة المجتمع الذي عاش فيه، فإنه يتخير بعض الظواهر، التي قد تكون غالبة على انتاجه، ويعتبرها ممثلة لشخصية الشاعر في عمومها. ولا يقف الأمر عند هذا الحدّ. بل ينظر إلى هذه الظواهر الطاغية من زاوية مطابقتها

---

١ انظر الباب الأول الفصل الثاني .

للتطور العام الذي جدّ على مجتمع الشاعر ، فإن لم تستقم معه في زعمه عُدَّ الشاعر غريباً عن مجتمعه منتمياً إلى عصر غير عصره .

وبمثل هذه النظرة نظروا إلى السواد الأعظم من شعراء البصرة واعتبروهم ممثلين للنهج الجاهلي في الحياة ومقلدين للأسلوب الجاهلي في قول الشعر. والواقع أن تصوير هؤلاء الشعراء للمُثُل الجاهلية، مهما بلغ طغيانه على شعرهم، لم يكن إلّا جزءاً من تجربتهم الشعرية، وقد تجلَّى فيها – حتى في تلك الصورة – عنصراً حياً من عناصر المجتمع البصري. ولم يطغ هذا العنصر على شعرهم بدافع من حنين خاص إلى ماض اندثر أو من رغبة غامرة للتعلق بمثل عفى عليها الزمن، ولم يعد لها في حياة الناس مكان وإن أحاطوها بوقار مفتعل وقداسة جوفاء –، بل طغى بدافع من تجربة حية معاشة كانوا يشعرون بها في حياتهم اليومية وينفعلون بما تتركه في قلوبهم وعقولهم من مشاعر وأحاسيس وفصل هذا العنصر، وبالتالي فصل الشعراء الذين يعبّرون عنه، من بوتقة الحياة البصرية، ودمغ كل ذلك بالجاهلي، أو بأنه استمرار للتقليد الجاهلي، مما يعتبر أمراً منفصلاً عن حياة المجتمع، مثل هذا الصنيع لا ينجم عنه إلّا تشويه طبيعة هذا الشعر، وإفساد صورة الحياة التي يسعى إلى نقلها إلينا. ومن الخير أن نبدأ من افتراض أن هؤلاء الشعراء كانوا، حتى حين يرددون صدى المثل الجاهلية في أوضح صورها، لا يرددون صدى مُثُلِ مجتمعٍ انقرض وتلاشى، بل كانوا يرددون في ذلك صدى مجتمعهم هم المعاش .

ومن المهم أيضاً في معالجتنا للمحتوى الاجتماعي لهذا الشعر أن نضع اعتباراً لحقيقة أن الشعراء يتفاوتون في درجة إحساسهم بالقضايا التي تقلق بال مجتمعهم، كما يتفاوت وعيهم بالتيارات الاجتماعية والسياسية الطاغية، وتختلف استجابتهم لها. بيد أنه رغم هذه التقليدية الظاهرة في الموضوع والشكل التي تسم إنتاج معظم الشعراء الذين هم موضع دراستنا هنا، فمن الاجحاف العظيم بالملكة الشعرية أن نصرف كل فكرة أو نظرة يأتي بها هؤلاء الشعراء في مجال الحديث عن وسطهم الاجتماعي،

على أساس أنها لم تكن مقصورة لذاتها أو أنها فرع ثانوي من الغرض الأوليّ سواء أكان ذلك المدح أو الهجاء أو الرثاء أو ما إليه .

وعلينا في نفس الوقت مقاومة الرغبة التي تستبد بنا أحياناً لإضفاء فضائل على هؤلاء الشعراء أو على بعضهم ليست فيهم. إذ أنه من العبث أن نبحث في انتاجهم عن نظرة متكاملة أو مطردة مما يمكن أن يعبر عن فلسفة اجتماعية أو سياسية واضحة المعالم. وكل ما نأمل في العثور عليه لا يعدو أن يكون مجموعة متنوعة من الخطرات والنظرات تعبّر عن استجابات الشعراء وردود فعلهم للقوى المختلفة التي تؤثر على بيئتهم. ولئن لم نستطع تحديد أي نظرة متكاملة لدى أي شاعر بعينه من الشعراء، فاننا رغم ذلك نستطيع رسم صورة متماسكة إلى حدّ ما للوسط الاجتماعي بالنظر إلى ما يقوله الشعراء ككلٍّ في هذا الصدد .

التعادل بين القديم والجديد :

الوضع الذي كان عليه مجتمع البصرة لا يخرج عن الوضع العام المعهود في كل المجتمعات التي تخضع لظروف النمو والتطور السريعين. وهذه الظروف تفرض ميزاناً للتعادل يحكم العلاقة بين القديم والجديد. والدرجة التي يتعايش فيها النظامان في حالة تأرجح شديد الاضطراب، آخذٍ دوماً في الميلان لصالح الجديد، تخضع للقدرة الذاتية الكامنة في كلٍّ من النظامين لمواجهة احتياجات المرحلة الجديدة، وملاءمة ظروف الحياة، التي تبرز إلى الوجود فيها. والأمر المشاهد أن عادات الماضي وتقاليده لا تموت بسرعة، كما وان المُثُل والمواضعات الجديدة تحتاج لفترات طويلة لتتسرب إلى عقل المجتمع الباطن، ولهذا يحتاج ميزان التعادل بين القديم والجديد إلى القوة والضغط لإقامته والمحافظة عليه في أكثر الأحيان، إذ يمثل من هم في السلطة عادة النظام الجديد. ومجتمع البصرة خير مثال على هذه العملية. فرغم قبول هذا المجتمع لمظاهر الإسلام الكبرى الدينية وتمسكه بها في قوة وإيمان، إلّا اننا

نشاهد في كثير من الأحيان أن هذه الواجهة أو الإطار الإسلامي يخفي على المستوى الاجتماعي عواطف ومشاعر جاهلية بعيدة الجذور كثيراً ما تنفجر وتطفو إلى السطح كلما ضعفت سلطة الدولة أو تلاشت .

ولئن كان من الصعوبة بمكان على الباحث أن يحدّد بدقة درجة التلاحم القصوى بين العناصر بحيث تأخذ المظاهر الجاهلية التي كانت طاغية في البداية في التحول تحت تأثير العناصر الإسلامية أو تتلاشى لتحل محلها مظاهر إسلامية، فإنه لا يبعد عن الحق إن افترض ان كل ذلك كان خاضعاً لعملية تطور انتهت في نهاية الفترة التي ندرسها ببلوغ مجتمع البصرة مرحلة التعادل الاجتماعي حيث تحوّل المجتمع العربي إلى ما يمكن أن نسميه بالمجتمع الإسلامي ممهداً السبيل للانفجار العباسي .

المظاهر الجاهلية :

لعلّ أبلغ دليل على قبضة العرف الجاهلي القوية على عقول البصريين وقلوبهم سواء في المدينة أو البادية تلك الحوادث المتكررة التي يتردد صداها في انتاج مختلف الشعراء. وليس غرضنا هنا أن نحصي في شمول ودقة كل ما حدث في هذا المجال بل تكفينا الإشارة إلى الاتجاهات العامة وتحديد المظاهر الكبرى .

وإذا استثنينا الالتزام الظاهري بالشعائر الدينية والتمسك بالفروض فإن الاتجاه العام كان يرمي إلى الوصول إلى صيغة مريحة يتلاءم بمقتضاها النظام الإسلامي المثالي مع نظام الحياة العربية الموروث. ومن ثمّ رأينا الإسلام كنظام سياسي بنظمه المختلفة من نبوة وخلافة وما إليها يستخدم مجرد أداة للفخر القبلي. وهكذا نراهم في تعدادهم لمفاخر القبائل والأفراد في الجاهلية يضيفون إليها الإسلام كمظهر للفخر. وما أكثر المواضع التي فخروا فيها برابطة الدم التي يقوم عليها النظام الجاهلي وسعى الإسلام إلى إحلال رابطة العقيدة محلها. ويبرز الرسول ﷺ في كثير من

ذلك. فجرير إذ يعدّد مفاخر قومه يصور النبي الذي يشترك المسلمون جميعاً في النسبة إليه أو في نسبته إليهم، وكأنه خاصّ بقومه لا غير، وذلك في قوله :

لنـا حوض النـبي وسـاقيـاه ... ومن ورث النبـوة والكتـابـا

ومنا من يجيز حجيـج جمـع ... وإن خاطبت عزّكم خطابا[٢]

بينما يقول الفرزدق في هجائه للمهلب بن أبي صفرة :

ومنـا نبي الله يتـلو كتـابـه ... به دوخت أوثانهـا ويهودهـا

وما بات من قوم يصلون قبلـة ... ولا غيرهم إلّا قريش تقودها[٣]

وبنفس هذه الروح يصور الفرزدق المشاعر الحرام بمكة وكأنها ملك خاص لمجموعته القبليـة دون سائر الناس، فيقول :

لنا مسجدا الله الحرامـان والهدى ... وأصبحت الأسماء منـا كبيرهـا

سوى الله إن الله لا شيء مثلـه ... له الأمم الأولى يقـوم نشورهـا

إمام الهدى كم من أب أو أخ لـه ... وقد كان للأرض العريضة نورها[٤]

وأصبحت قوة الإسلام تفهم وكأنها قوة للصعيد القبلي الحاكم الذي أنجب النبي أولاً ثم الخليفة ثانياً. ففي هجاء الطرّماح الطائي يقول الفرزدق :

فلم يبق إلّا مـن يؤدي زكـاتـه ... إلينا ومعطٍ جزية حين حلّت[٥]

وصار الخليفة – ولقبه الرسمي أمير المؤمنين – أميراً خاصاً بالقبيلة في كثير من هذا الشعر. فقد قال جرير للأخطل وقومه :

هذا ابن عمي في دمشق خليفـة ... لو شئت ساقكم إليّ قطينا[٦]

---

٢ النقائض ٤٥٠ .

٣ ديوان الفرزدق ١٥٩/١ ؛ انظر أيضاً ٢٨٢/١ ، ٢٨٣ ، ٣٢٢ ؛ ٣٨/٢ ؛ النقائض ٩١٢ ، ٩١٣ .

٤ ديوان الفرزدق ٣٦٨/١ ؛ النقائض ٥٢٩ ؛ انظر أيضاً ٥٧١ .

٥ ديوان الفرزدق ١١٥/١ .

٦ ديوان جرير ٤٧٧ .

وكان ردّ الخليفة فيما زعموا قوله «ما زاد على أن جعلني شرطياً، أما أنه لو قال: لو شاء، لسقتهم إليه كما قال»[٧]. والواضح أن هذه العبارة لا تمثل في أغلب الظن أكثر من رأي النقاد المعاصرين في الأسلوب الصحيح لمخاطبة الخليفة. ونسبتها إلى الخليفة هامة من ناحية دلالتها على الجو العام خاصة ما كان سائداً منه في بداية العصر الأموي حين كان للعصبية القبلية، خاصة في البلاط، المكانة العالية. وقد طغى هذا التصور على شعر معظم شعراء المعسكر المضري ودائرة خندف الضيِّقة التي نبعت منها قريش.

وهناك إلى جانب ذلك، كما لاحظنا من قبل[٨]، اتجاه واضح للمطابقة بين «الإسلام» وسلطة الدولة الدنيوية. فيتكرر ورود هذا المصطلح في هذا السياق في معظم الشعر الذي قيل في الفتن والثورات على الحكم الأموي. ففي هزيمة ابن المهلب يقول الفرزدق ليزيد بن عبد الملك (١٠١ – ١٠٥ هـ/ ٧٢٠ – ٧٢٤ م):

ما وجد الإسلام بعد محمد وأصحابه ... للدين مثلك راعيا
أرى الله بالإسلام والنصر جاعلاً ... على كعب من ناواك كعبك عاليا
فما تركت بالمشرعين سيوفكم ... نكوباً عن الإسلام ممن ورائيا[٩]

ويجعل نفس الشاعر قومه «قوام الإسلام» بهذا المعنى فيخاطب الخليفة هشاماً بقوله:

قوام عرى الإسلام والأمر كله ... وهل طاعة إلّا تميم قوامها
ألم يك في الإسلام منا ومنكم ... حواجز أركان عزيز مرامها[١٠]

ويكثر الشاعر من مدح هلال بن أحوز القائد التميمي الذي هزم آل المهلب

---

٧ الأغاني ٦٣/٧.

٨ انظر الباب الرابع ص ١٥٦ وما بعدها.

٩ ديوان الفرزدق ٢٥٢/٢ – ٣.

١٠ نفسه ٢٤٢/٢.

بطريقة تبدو فيها المطابقة بين السلطة الأموية والإسلام واضحة. فهو يقول :

يقيم عصا الإسلام منا ابن أحوز إذا ما عصا الإسلام لانت كعوبها[١١]

وفي مناسبة أخرى يقول عن نفس القائد :

لعمري لقد قاد ابن أحوز قودةً بها ذلّ للإسلام كل طريق[١٢]

وقد رأينا من قبل[١٣] كيف أن هؤلاء الشعراء هاجموا آل المهلب وأحلافهم الذين لم يعرف عنهم أي انحراف ديني ووصموهم بالخروج عن الدين. وأضفى الفرزدق على هلال الذي هزمهم صفات البطولة التي تليق بهذا المعنى حين قال :

يشفي بأرماحه من كل مبتدع ديناً يحيد عن الفرقان والسنن[١٤]

وخاطب الشاعر بني بكر الذي حالفوا آل المهلب متسائلاً :

أتابعة الأوثان بكر بن وائل
وقد أسلمت تسعين عاماً وصلَّت[١٥] ؟

وقد استخدم جرير الدين بمعنى الحكم والسلطان حين قال في مدح المهاجر ابن عبد الله :

ترك العصاة أذلة في دينه والمعتدين وكل لص مارد[١٦]

---

١١ نفسه ١/٥٦ .

١٢ نفسه ٢/٣٦ .

١٣ انظر الباب الرابع ص ١٥٩ .

١٤ ديوان الفرزدق ٢/٣٤٠ ؛ انظر ديوان جرير ١٠٠ .

١٥ ديوان الفرزدق ١/١١٢ .

١٦ ديوان جرير ١٠٠ .

ومثل هذه العبارات وما جرى مجراها[١٧] مما تعاور عليه الشعراء لا يتجاوز في دلالته تأكيد حقيقة الأساس الديني للخلافة. ومن الممكن أن تؤخذ مأخذ الشعارات السياسية المُوَجَّهة للتأثير على الناس بغرض كسبهم للدعوة الأموية. ومن الشطط قبولها بمعناها الحرفي واعتبارها مؤشراً حقيقياً للدرجة التي هيمن بها الإسلام كدين وكنظام اجتماعي على حياة المجموعة. ولكننا بنفس القدر نجافي الواقع إن صرفنا النظر عنها بحسبانها قوالب جوفاء على ذلك الاعتبار وحده، فالشعارات التي لا تضرب على وتر حساس في نفوس الجماهير ولا تثير في قلوبهم عواطف وأحاسيس بعينها لا تعدو أن تكون حيلاً زائفة في لعبة السياسة. إذ الاستعانة بالدين من أنجع الوسائل لتحقيق الطموح السياسي. وكان ذلك السبب الذي دعا كل الأحزاب السياسية، سواء منها الأمويون أو الشيعة أو الخوارج أو ما إليها، لإقامة دعواها على أسس دينية، لأن كل فكرة الدولة والسلطة والجماعة الخاضعة لها نابعة من دين الإسلام وجماعته. وهذا التصور الذي يسوِّي بين العقيدة والخضوع للخليفة ويجعل طاعته واجبة كما مرّ بنا من قبل، وجد معارضة عنيفة من بعض الخوارج كما يستشف من كلمات عبيدة بن هلال حين وازن بين موقف حزبه وموقف معارضيه، وذلك حين قال :

ولسنا نقول الدهر : عصمــة ديننا ... على كلّ حالٍ كان، طاعة مصعب
ولكن تقول : الحكم لله وحـــده ... وبالله نرضى والنبيّ المـقـرب[١٨]

وإذا تجاوزنا موضوع السياسة والسلطة فمن اليسير أن نكتشف عناصر كثيرة غريبة تتعارض مع إطار الإسلام العام. فمآثر الجاهلية وأمجادها كانت دائماً حاضرة في أذهان الشعراء، وكثيراً ما تذكر في نفس السياق مع أمجاد الإسلام. ففي مدح قبيلة عجل بالسماحة والشجاعة في الحرب يقول الفرزدق :

---

١٧ انظر الباب الرابع ص ١٥٤ - ١٦١ .

١٨ شعر الخوارج (تحقيق إحسان عباس) ٥٦ .

همـا من كرام المأثرات اصطفاهمـا
على الناس في إشراك ديـن ومسـلم[١٩]

وحين مدح آل مالك بن المنذر بن الجارود القائم على شرطة خالد القسري بالبصرة قال :

فثنتان مجـد الجاهلية فيهم وهم قبل هذا الناس لله أسلموا[٢٠]

وكانت الإشارات إلى الجاهلية وأعمالها تقال في حرية تامة كما يمثل ذلك قول جرير في هجاء قبيلة تيم، إذ قال :

ومـا أحسن التيميُّ في جـاهليـة منادمة الجبَّـار فوق النمارق[٢١]

وقد خرج الفرزدق عن طوره حين سعى إلى انكار نسبة بني المهلب إلى العرب، فذكر الأصنام وما إليها من شعائر الجاهلية بحسبانها علامة العربي الأصيل، فقـال :

تغمّ أنوفـاً لم تكـن عربيـةً لِحَى نَبَط، أفواهها لم تعرَّب
فكيف ولم يأتوا بمكـة منسكاً ولم يعبدوا الأوثان عند المحصَّب
ولم يدع داع: يا صباحاً فيركبوا إلى الروع إلّا في السفين المضبب
وما وُجعت أزديـة من ختانـةٍ ولا شربت في جلد حوب معلَّب
وما انتابها القُنَّاص بالبيض والجنا ولا أكلت فوز المنيح المعقَّب
ولا سمكت عنها سمـاءً وليـدةٌ مظلةُ أعرابيةٍ فوق أسقب[٢٢]

وخاطبهم في مناسبة أخرى بقوله :

---

١٩ ديوان الفرزدق ٢/٢٢٠
٢٠ ديوان الفرزدق ٢/٢٥٠ .
٢١ ديوان جرير ٣١٧ .
٢٢ ديوان الفرزدق ١/١٦

وكيف ولم يقـــد فرســاً أبوكم ... ولم يحمل بنيــه إلى الـدوار
ولم يعبد يغوث ولم يشاهد ... لحمير مـــا تدين ولا نـــزار
وما لله تسجد أزد بُصرى ... ولكن يسجدون بكـل نار[٢٣]

وكثير من هذه العناصر الجاهلية المتخفية وراء الإطار الإسلامي مردها إلى غلبة الأعراب الذين ينتمون في الأصل إلى الجناح الشرقي من جزيرة العرب وطغيانهم على حياة البصرة. وقد بيَّنا آنفاً[٢٤] أن هؤلاء الأعراب جاؤا معهم بكثير من نظمهم البدوية وسعوا إلى تطويعها لظروف بيئتهم الحضرية. وكان من أهم هذه نظام الإجارة الذي كان من مآثر الجاهلية وسمح به الإسلام لبعض الوقت[٢٥]. ولكنه كان عند التطبيق يتعارض وسلطة الدولة التي تهدف إلى ضمان حقوق الأفراد بصرف النظر عن أصولهم القبلية. وبازدياد قوة الدولة واطراد فعاليتها ازداد تباطؤ القبائل والأفراد وتلكؤهم في الالتزام بإجارة أي فرد من الأمير وإن كان هذا الفرد من أقرب الأقربين كما تبين لكثير من الشعراء بعد أن دفعوا ثمناً غالياً لنزقهم[٢٦] .

بيد ان الفكرة استمرت رغم هذا خاصة في أوقات الأزمات، وظل الشعراء يولونها أهمية كبيرة. ومن هنا جاء إلحاح جرير على خيانة مجاشع آل الفرزدق للزبير ابن العوام حين أجاروه في واقعة الجمل، ولكن أحد الناس تصدى له وقتله في جوارهم[٢٧]. فقال لهم مرة :

يلجـج أصحاب السفين بغـدركم ... وخوصٌ على مَرَّان تجري ضفورها
تراغيـتم يوم الزبير كأنكم ... ضباع أصلَّت في مغار جعورهـا

---

٢٣ نفسه ٢٠٨/١ .
٢٤ انظر الباب الأول الفصل الثاني ٣١ – ٣٢ .
٢٥ انظر سيرة ابن هشام عن الأمة ؛ ودبلوماسية محمد للمؤلف الباب الأول و ص ٤٤ – ٤٦ أعلاه .
٢٦ انظر الباب الرابع الفصل الثاني .
٢٧ النقائض ٨٠ – ٨١ .

ولو كنت منا ما تقسَّم جاركم   سباع وطيرٌ لم تجد من يطيرها[٢٨]

وتبرز الفكرة بوضوح في النقائض بين الشاعرين التميميين[٢٩] . فالفرزدق يقول عن قوم خصمه :

قبح الإلــه بني كليب انهم   لا يغدرون ولا يفون لجار[٣٠]

ولكنه حين يفخر بقومه يقول :

ترى جارنا فينا يجير وان جنى   فلا هو مما يُنْطِف الجار يُنْطَف
ويمنع مولانا وان كان نائياً   بنا جاره مما يخاف ويأنف[٣١]

وحين تضطرب الأمور وتتداعى سلطة الدولة يرجع الناس بالضرورة لعاداتهم القديمة طلباً للحماية والأمن. وقد اضطر الأمراء والولاة أنفسهم إلى الاستعانة بإمكانيات الحماية والجوار التي توفرها القبيلة القوية. فزياد لجأ إلى الأزد بعد موت عليّ وطلب منهم الاجارة[٣٢] ، وقد سلك ابنه عبيد الله نفس المسلك عام ٦٥ هـ / ٦٨٥ م. وقد وازن الشاعر الأزدي العَرَنْدَس العَوْذي بين وفاء الأزد لزياد وتخاذل تميم عن جارهم ابن الحضرمي حين خلوا بينه وبين مطارديه فأحرقوه حيًّا عام ٣٨ هـ / ٦٥٩ م[٣٣] ، وذلك حين قال مفتخراً :

رددنا زياداً إلى داره   وجار تميم دخاناً ذهب
لحى الله قوماً شووا جارهم   ولم يدفعوا عنه حرّ اللهب[٣٤]

بيد أن فعالية الجوار الذي تمنحه القبيلة لم تكن تبلغ غايتها إلّا حين تتدهور

---

٢٨ ديوان جرير ٢٠٧ – ٨ ؛ النقائض ٥٤٤ – ٥ ؛ انظر ديوان جرير ٢١٨ .

٢٩ النقائض ١٢٠ ، ٦٩٩ ، ٧٥٢ ، ٧٦٢ .

٣٠ نفسه ٣٢٩ .

٣١ نفسه ٥٦٢ .

٣٢ الدينوري: الأخبار الطوال ٢٩٠ – ٢

٣٣ انظر الباب الأول الفصل الأول ص ٢١ .

٣٤ المرزباني: معجم الشعراء ١٧٢ .

السلطة المركزية. ولا نعدم الشواهد على حالات متطرفة كثيرة خاصة في البادية، ويكفي هنا الاستشهاد بما فعله هلال بن الأسعر التميمي حين قتل جاراً لبني عمه دون أن يعلم بإجارتهم له، فسعوا في طلبه حتى أسلموه إلى أهل القتيل[٣٥]. ولكن أهمية الإجارة تضاءلت مع الزمن لإن حماية الدولة حلت محلها، وإن ظل نظام متفرع عنها هو نظام الولاء يلعب دوره الاجتماعي الكبير[٣٦].

والدعاوى الكبيرة التي يتبجح بها شعراء القبائل في هذا المجال خاصة ما كان من جرير والفرزدق لا تمثل مفارقة بقدر ما تعبّر عن حنين وتحرّق وتشبث بمثال وقيمة قريبة إلى قلوب العرب ولكنها مهددة بالانسحاق والتلاشي أمام مدّ السلطة المدنية الزاحف. وبدافع من هذه المشاعر القوية تجاوز الفرزدق حدود القول إلى العمل وأعلن قبر أبيه غالب حرماً وملاذاً وآلى على نفسه كما كان يفعل الجاهليون أن يقوم في نصرة كل من استعاذ به[٣٧]. وقد كان ذلك مادة خصبة للشاعر ومصدراً حياً للفخر وقد استغله في منافسته مع جرير. فقال مرة :

إني ضمنت لمن أتـاني ما جنى ... وأبي، وكان وكنت غير غدور
يقري المئين رميم أعظم غالـب ... فيفي بها، ويفكّ كل أسير
والمستجار به، فمـا كحبالـه ... للمستغيث به، حبال مجير[٣٨]

وقد كان لصنيع الفرزدق تأثير قوي على عقول معاصريه حتى رووا أن ثمامة ابن الوليد بن القعقاع بن خليد استجار بقبر هشام بن عبد الملك من يزيد بن هبيرة وهو على قنسرين فبعث إليه يزيد بن هبيرة فضربه حتى مات. وقد أثار ذلك أبا الشَّغْب العبسي فقال في ذلك :

---

٣٥ الأغاني ٢/١٨٤ .
٣٦ انظر الباب الأول ص ٤٤ وما بعدها .
٣٧ انظر النقائض ٣٧٩ – ٣٨١ ؛ ابن سلام ٢٦١ – ٢ ، ٢٦٣ ؛ المبرد: الكامل ٤/٢٤٠ – ٣ .
٣٨ النقائض ٩١٠ .

يا آل مروان ان الغدر مدرككم حتى ينيخكم يوماً بجعجاع
أضحت قبور بني مروان مخروقة لا تستجار ولا يرعى لها الراعي
قبر التميمي خير من قبوركم يسعى بذمته في قومه ساع[٣٩]

ومما يتصل بفكرة الجوار نظام الحلف بين الأفراد والقبائل، وكانت غايته توفير الأمن والحماية خاصة حين تضطرب الأمور وتتأزم. وقد أشرنا آنفاً إلى أن تقسيم البصرة على أساس الانتماءآت القبلية مما عمق من حدة الأزمات، وكان عاملاً مساعداً في التعجيل بانفجار العداوات في مثل هذه الظروف[٤٠] . وقد وضّح الفرزدق العلاقة بين سلطة الدولة وتكوين الأحلاف حين سخر من الحلف الذي كان قائماً بين الأزد وبكر بن وائل في قوله :

لعمرك ما في الأزد بالمُلك قائم ولا عدل ما أضحى من الأمر مايل
ولا ضمَّها السلطان قسراً لدعوة فترضى بهذا الحلف بكر بن وائل[٤١]

ولكنه زوال هذا السلطان بالذات الذي دفع بكراً لطلب الحلف حتى مع الأزد لمواجهة تميم والمعسكر المضري. وقد أبان ذلك حارثة بن بدر الغداني حين قال بُعَيْد موت يزيد بن معاوية :

نزعنا وأمَّرنا وبكر بن وائل تجرّ خصاها تبتغي من تحالف
وما بات بكريّ من الدهر ليلة فيصبح إلّا وهو للذل عارف[٤٢]

وكان الصراع من أجل الخلافة وما لازمه من انفراط عقد الأمن والنظام لم يترك القبائل في شك من أمرها فيما يتعلق بضرورة إعادة كل الأحلاف التي كانت قائمة بينها في الجاهلية مع صبغها بالصبغة الإسلامية، مثلما حدث بشأن الحلف

---

٣٩ نفسه ٣٨٠ .
٤٠ انظر الباب الأول الفصل الأول .
٤١ ديوان الفرزدق ٢/٨٣ .
٤٢ الطبري ٢/٤٤٥ ؛ البلاذري: أنساب ٤ب/١٠٥ ؛ النقائض ٧٢٩ ؛ انظر النقائض ١١٢ – ١١٧ .

الهام بين تميم وقبيلة كلب اليمنية الذي جدّد بعد موت عثمان[٤٣]. ويبدو أن هذا الحلف استمر فترة طويلة إلى ما بعد وفاة الفرزدق عام ١١٠ هـ / ٧٢٨ م[٤٤]، وقد باركه الشاعران التميميان ومدحاه[٤٥]. وأضاف الفرزدق إلى هذا الحلف رابطة الإسلام حين قال :

وانــا وكلباً اخــوة بيننـــا عــرى   من العقد قد شدَّ القُوى من يغيرها
حليفان بالإسلام والحــق تنتهي   إلى ابن سليم بالــوفــاء أمورهــا
نجير عـــلى كلب فيمضي جوارنا   ويعقد مــن كلب علينا مجيرها[٤٦]

وكان دور البادية في هذا المجال بعيد الأثر. فقد ساعدت الحرية النسبية التي كان البدو يتمتعون بها، فيما رأينا آنفاً، على استمرار الحياة التقليدية دون كبير تغيير بفعل الأحداث التي جدَّت بظهور الإسلام. فظلوا يسلكون في كثير من جوانب حياتهم مسالكهم القديمة لا يصدهم عنها مانع رسمي. وما كان من الهيِّن فرض هذا المانع عليهم. وكان انهيار السلطة في المدينة إيذاناً لهم بالتمادي في حياة السلب والنهب والإغارة التي عهدوها من قبل. فكانت الغارات والحروب بسبب المياه والمراعي أمراً عادياً[٤٧]. وفتح جو الاضطراب الباب على مصراعيه للعنف والسلب. وقد مدح القُحَيْف العنبري التميمي قومه على السلب حين قال :

فدى لقـــوم قتلوا مسعودا   واستلبوا يلمعــه الجــديدا
واستلأموا ولبسوا الحديدا[٤٨]

---

٤٣ النقائض ٢٥ .
٤٤ الأغاني ١٩/٤٤ ؛ ديوان الفرزدق ١/١٧ – ١٨ .
٤٥ الأغاني ١٩/٢٤ – ٥ ؛ ديوان الفرزدق ١/٢٥٨ – ٩ ؛ ٢/٢٣٦ – ٨ .
٤٦ ديوان الفرزدق ١/٢٥٨ – ٩ .
٤٧ انظر الباب الثالث ص ١١٨ .
٤٨ المرزباني: معجم الشعراء ٢١٠ .

وتحدَّث وافِد بن خليفة التميمي عن نفس الفكرة حين قال في هرب عبيد الله بن زياد :

يا رُبَّ جبَّار شديـد كَلَبُـه ‏ ‏ ‏ ‏ قد صار فينـا تاجه وسلبه
منهم عبيد الله حـين نسلبـه ‏ ‏ ‏ ‏ جياده وبزّه ونهبه[٤٩]

وكثيراً ما احتاجت الدولة إلى فرض القيود والأوامر التي تتسق وروح الإسلام ولكن الأمور سرعان ما تعود إلى سابق عهدها بزوال السلطة الرسمية المباشرة. وهكذا أعاد غالب أبو الفرزدق إلى العبودية عبده السابق سحيماً الذي أعتقه عثمان بن عفان، مباشرة بعد الثورة عليه[٥٠]. وأهمل الناس قرار علي الذي يمنع استعباد المسلم أثناء ثورة ابن الزبير[٥١]. ولكن الأخذ بالثأر كان أكبر هذه الأخطار على الإطلاق. فقد كان الموتورون يجددون مساعيهم للأخذ بثاراتهم كلما وهنت قوة الدولة أو تلاشت[٥٢] وكانت هذه الهجمات المتكررة تلقي بظلها الكثيف على حياة المصر. وكان بعض الشعراء يثيرون حفائظ الناس بتذكيرهم إيّاهم بالحوادث التي وقعت بينهم في ماضيهم القريب. فالفرزدق يطنب في تمجيد ما قام به ابن القِصاف في الأخذ بثأر أخيه، وذلك حين يقول :

لو كنت مثل أخي القصاف وسيفه ‏ ‏ ‏ ‏ يوم الشباك لكنت غير فرور
ضرب ابن عبلـة ضربـة مذكورة ‏ ‏ ‏ ‏ أبكى بها وشفى غليـل صدور
وبنى بهـا حسباً وراح عشيـة ‏ ‏ ‏ ‏ بثياب لا دنس ولا موتـور[٥٣]

وكان هذا الشاعر يثير حماسة قومه في كثير من المناسبات ليأخذوا بثاراتهم مثلما فعل حين حرضهم على بني أقْصَى الذين قتلوا أحد التميميين :

---

٤٩ الطبري ٢/٤٥٦ .
٥٠ النقائض ٤١٧ .
٥١ نفسه ٧١٧ ؛ وانظر ص ٢٣٨ هامش ٢ أدناه .
٥٢ ابن سلام ٤٩٧ – ٩ ؛ ديوان الفرزدق ١/٢٨٧ – ٢٩١ .
٥٣ النقائض ٩١٨ ؛ انظر أيضاً ١/١٢٢ ، ١٥٢ ؛ ذو الرمة ٢٧٥ ، ٤٩١ .

يا آل تميم ألا لله أمكم! لقد رميتم بإحدى المصمئلات
فاستشعروا بثياب اللؤم واعترفوا إن لم تروعوا بني أفصى بغارات
وتقتلوا بفتى الفتيان قاتله أو تقتلون جميعاً غير أشتات[٥٤]

ولكن العنف لا ينجم عنه غير العنف والقتل لا يؤدي إلّا إلى مزيد من القتل، وقد وضّح ذلك نفس الشاعر حين قال :

إن تقتلوا منا خداشاً فإنها على إرث أضغان لكم وذحول
قتلنا زياداً والفصيل وثابتاً وعبدة عضّ السيف بعد جميل
أولاء ، وأنتم تفخرون بواحد وقد باء منكم خمسة بقتيل[٥٥]

وقد تتعقد الأمور بحيث تجرف حتى من يخدمون الدولة مثل الشرطة الذين تقع عليهم مسئولية الحفاظ على الأمن والتصدي للعصاة وقتل الخارجين على الدولة. فكثيراً ما وقع هؤلاء في شباك الثأر المنصوبة. وقد عبّر عن هذا الوضع الشاعر التميمي مُرَّة بن مَحْكَان وهو على شفا الموت على يد مصعب بن خِداش الأسدي الشرطي بأمرٍ من مصعب بن الزبير حاكم العراق إذ قال للأسدي :

بني أسد إن تقتلوني تحاربوا تميماً إذا الحرب العوان اشمعلّت[٥٦]

ونذكر في هذا المجال حادثة أخرى كان لها وقع كبير في فترة متقدمة عن هذه وتردد صداها في كثير من الشعر وكان بطلها هبيرة بن ضَمْضَم المجاشعي وكان شرطياً في خدمة زياد[٥٧] أو ابنه عبيد الله[٥٨] . وفحوى القضية أن بني القَعْقَاع من تميم قتلوا أحد بني طُهَيَّة في ثأر لهم ووجه الوالي هبيرة هذا في طلب القعقاعيين

---

٥٤ ديوان الفرزدق ١/١٠٧ - ٨ .

٥٥ نفسه ٢/٩٧ .

٥٦ الطبري ٢/٨٠٣ ؛ البلاذري: أنساب ٤ب١٦٣ ؛ كامل المبرد ٢/٢٤٧ .

٥٧ النقائض ٧٨ .

٥٨ ديوان الفرزدق ٢/١٨٧ .

الذين ولوا الفرار. وانتهت المطاردة بأن قتل هبيرة أحدهم ويدعى عمراً، وقد عبّر عمرو هذا عن استهجانه لعمل الشرطي في رجز قاله وهو يجود بأنفاسه :

إن كنت لا تـدري فـإني أدري   أنا القبـاع وابـن أم الغَـمْـر
هل أُقْتَلَنَّ إن قتلت ثـأري ؟ [٥٩]

وقد استهجن الفرزدق صنيع هبيرة ودعا أهل المقتول للأخذ بثأرهم منه[٦٠]. ولكن هؤلاء تريثوا حتى اضطربت الأمور بعد هروب ابن زياد من البصرة وأخذوا بثأرهم من أحد أقرباء هبيرة يدعى مزاد بن الأَقْعَص[٦١]. وقد تردد قتل مزاد هذا في كثير من شعر جرير وقد رأى فيه علامة واضحة لضعف مجاشع وهوانها إذ لم يأخذوا بثأره، فقال :

ألم تر عوفاً لا تزال كلابه   تجرّ بأكماع السباقين ألحما
فأبتم خزايـا والخزير قراكـم   وبات الصَّدَى يدعو عقالاً وضمضما[٦٢]

وفي بعض الأحيان، وسلطة الدولة قائمة، قد ترفض الأسرة المنكوبة عون الحكومة وتسعى إلى أخذ ثأرها بيديها كما فعل آل عَبَّاد بن أخضر الذي قتلته الخوارج، لأنه قتل أبا بلال مرداس، فغدروه فصاح ببني كليب فلم يأته أحد، وبلغ الخبر بني مازن فأقبل أخوه معبد بن علقمة وقال للشرطة: خَلُّوا عنا وثأرنا، وأنزل إليهم معبد رجالاً بعددهم فقتلوا الخوارج، فقال الفرزدق في ذلك :

لقد طلبت بالذحـل غير ذميمـة   إذا ذمّ طلاب الذحول الأخاضر
هم جرّدوا الأسياف يـوم ابن أخضر   فنالـوا التي لا فوقها نـال ثـائـر

---

٥٩ النقائض ٧٩ .
٦٠ ديوان الفرزدق ١٨٧/٢ – ٨ .
٦١ النقائض ٧٩ .
٦٢ نفسه ٧٨ – ٨٢ .

أقادوا به أُسداً لهـا في اقتحامهـا على الغمرات في الحروب بصائر[٦٣]

وقد أشاد الفرزدق بعدم الاستعانة بالسلطان في هذا الأمر وذلك في قوله :

إذا كنت في دار تخاف بها الردى فصمِّم كتصميم الغداني سالم
سخا طلباً للوتر نفساً بموته فمات كريماً عائفاً للملائم
ولمّا رأى السلطان لا ينصفونه قضى بين أيديهم بأبيض صارم
ولم يتأرَّ العاقبات ولم يَنَم وليس أخو الوتر الغشوم بنائم[٦٤]

وقد تساءل ذو الرمة ساخراً من خصومه حين خاطبهم بقوله :

فهلّا قتلتم ثأركم مثل قتلنا أخاكم رضخنا رأسه بالجنادل[٦٥]

وحين لجأ هؤلاء الخصوم لِلأمير قال لهم في زهو وفخر :

فإن تقتلوني بالأمير فإنني قتلتكم غصباً بغير أمير[٦٦]

وكثيراً ما كانت الطقوس الجاهلية المتعلقة بالثأر تحتذى وتقام، وخير شاهد عليها مسلك ابنة مسعود العَتَكي زعيم الأزد الذي قتلته تميم وفتح مقتله الباب لفتنة عمياء اجتاحت البصرةِ بعد موت يزيد الأول. فحين بلغ الفتاة مقتل أبيها ركبت دابة موكّفة وولت وجهها نحو ذنبها ونشرت شعرها وتجلببت مِسْحاً، وكانت تنادي قائلة :

مسعود من نقتل بك أحنفُ لا نُعْطَى بك
قَفِيز[٦٧] لا نرضى بك[٦٨]

---

٦٣ ديوان الفرزدق ٣١٥/١ ؛ كامل المبرد ١٩٦/٧ – ٨ .

٦٤ ديوان الفرزدق ٢٢٢/٢ .

٦٥ ديوان ذي الرمة ٤٩١ .

٦٦ نفسه ٢٧٥ .

٦٧ هو عبد الله بن عامر بن كريز الذي توسط بينهم .

٦٨ النقائض ١١٥ .

ورغم أن أهله قبلوا فيه الدية إلّا أنهم فرضوا على قاتليه دية الملوك كما يقضي بها العرف الجاهلي وهي عشرة أضعاف ما فرضه الإسلام[٦٩]. والذي كان يحدث كثيراً في مثل هذه الأحوال عزوفهم عن قبول الدية كما كان يفعل أهل الجاهلية، إذ أن قبولها دلالة الضعف والهوان. وقد تحدّث الفرزدق عن تمنع أحد معاصريه عن قبولها وسعيه لأخذ القصاص من قاتل أخيه :

ألم تـر أنـا وجدنـا الضبيـح بثأر أخيه علينا بخيلا
كأنـا نباري بـه حيـة على جبـل مـا يريد النزولا
أصمَّ، أبى ما يجيب الرُّقى ولم تـره الشمس إلّا قليـلا
أبيٌّ المقادة صعب النجيّ إذا نحن قلنا أبى أن يقولا
سوى أنه قال : إن القـلاص قلاص المعاقل ترضي الذليـلا
ولـو قبلوا العقـل مـن ثأرهم أنخنـا لهم شَدْقَمِياً ذلولا[٧٠]

وكان الشاعر أبين حجة عن استهجانه قبول الدية حين قال لبني نمير الذين قُتِل أحدهم يدعى جَلْداً :

أجيبوا صدى جَلْـد إذا ما دعاكم بِجُرد تسامى الملجمين فحولها
اتقتلـكم في غـير جُـرْم عبيدكم وفيكم روابي عـامرٍ وفضولهـا
فإن التي يـأبى الأسـير عليكـم لقاصدة للحـقّ ضاح سبيلهـا
فـلا تقبلوا منـه أباعـر تشـترى بِوَكْسٍ ولا سُوداً تَصِحُّ فسولهـا
وإن تقتلوا بالفأس يحى قتيلكـم وإلّا فإن الفاس عارٌ قتيلهـا[٧١]

وفي بعض الحالات النادرة كان للشعر الفضل في تخفيف حدة هذه الحلقة

---

٦٩ نفسه ١١٧ ؛ الدينوري: الأخبار الطوال ٢٩٥ .

٧٠ ديوان الفرزدق ١٠٢/٢ .

٧١ نفسه ١٢٠/٢ .

المفرغة من جرائم القتل، كما حدث في قضية بني القصاف التميميين التي مرّ ذكرها. فقد قتل أحد بني تيم الله أخاهم مسعوداً بعد مقتل عثمان. وبعد فترة من الزمن استدرج بعضهم قاتل أخيهم فقتلوه وكان في جوار بني حارثة. وثار هؤلاء لانتهاك حرمة جوارهم وكان يمكن لسلسلة القتل المتتابع أن تدور دون توقف لولا تدخل الأسلع بن القصاف الذي سارع بنظم قصيدة طويلة عرض فيها وجهة نظر قومه ورجا الجانبين الاحتكام إلى العرف العربي الذي يقضي بأن النفس بالنفس. وكانت القصيدة من الإقناع بحيث ارتاح لها بنو حارثة وما كان منهم إلّا أن قالوا «ما لنا على ركابكم من سبيل قوم أدركوا بثأرهم ولهم جوار والذي بيننا وبينهم حسن»[٧٢] .

ويتجلى في هذا الشعر إلى جانب ما ذكرنا كثير من العادات والأفكار الجاهلية المتعلقة بالموت والحرب. فعادة عقر الفرس أو الناقة على قبر الرجل العظيم كانت سائدة كما أوضح سلوك الفرزدق في أكثر من مناسبة. فقد ذكروا أنه عقر فرسه على قبر بشر بن مروان والي العراق (٧٤ هـ / ٦٩٤ م) وقال مخاطباً الميت :

أقول لمحبوك السراة معاود ... سباق الجياد قد أمرّ على شزر
ألست شحيحاً ان ركبتك بعده ... ليوم رهانٍ أو غدوت معي تجري
حلفت له لا أركب الدهر بعده ... صحيح النسا حتى يكوس على القبر[٧٣]

وفعل مثل ذلك على قبر الهذيل قائلاً لأهل هذا الميت :

فمن مبلغ فتيان تغلب أنني ... عقرت على قبر الهذيل ليذكرا[٧٤]

وقد عبّر جرير بالقول عن هذا العرف حين قال في رثاء قيس بن ضِرار :

---

٧٢ النقائض ٩٢١ .

٧٣ البلاذري: أنساب ١٧٩/٥ .

٧٤ ديوان الفرزدق ٢٨٩/١ .

لَحُقَّ لقيس أن يبـاح لـه الحمى وأن تعقر الوجناء إن خفّ زادها[٧٥]

وفي أثناء ظروف الفوضى والحرب تبرز حمية الجاهلية في أعنف صورها وتتجلى كثير من صورها المتطرفة. إذ درجوا في هذه الأحوال على التمثيل بأجساد من قتلوا من أعدائهم وهو أمر حرّمه الإسلام. وقد صوّر الفرزدق منظر عمير بن الحباب وحلفاءه وقد مثلوا بهم :

سيخبر خُصْيا ابـن الحباب ورأسه عمير على مـا كان يوم الأراقم
عشية ألقـوا في الخريطـة رأسـه وخصييه مشدوخاً سليب القوائم
تركنا أيـور الباهليـين بينهـم معلقة تحت اللحى كالتمائـم[٧٦]

وكان صلب الموتى أمراً عادياً. وكان أول مصلوب في الإسلام حُبَيْش قائد عبد الملك الذي قتله البصريون بالرَّبَذَة[٧٧]. وقال عمرو بن حنظلة عنه :

فدى لامرىءسوّى حبيشاً على العصا قدامة قبل الناس من آل أجدرا
أناخ لـه شرّ المطايا مطية وكان حبيش قـد طغى وتجـبرا
وقال حبيش للجنود تقدموا وظن قتال القـوم قنـداً وسـكرا
ولمّـا التقوا ولّى الشآمـون هـربـاً عِزِين وأجلوا عن حبيش مقطرا[٧٨]

وسبي المسلم أو استعباده محظور بأمر الدين[٧٩]. ولكن الفرزدق كان يعبّر

---

٧٥ ديوان جرير ٩١ .

٧٦ النقائض ٣٩٤ ؛ انظر ديوان الفرزدق ٢/٣٧ .

٧٧ المرزباني: معجم الشعراء ٤٧ ؛ وانظر البلاذري: أنساب ٥/٣٦٩ – ٣٧٠ حيث صلب الحجاج ابن الزبير بعد قتله وربطه إلى كلب مما أثار عليه حفيظة عبد الملك ؛ وانظر أنساب الأشراف ٤ب/٨٢ لصلب ابن المهلب ؛ انظر أيضاً ديوان الفرزدق ١/٢١٥ .

٧٨ المرزباني: معجم الشعراء ٤٧ .

٧٩ انظر النقائض ٣٠٨ : أسر طيلسةُ بن زياد أحد بني ربيعة بن عجل حنظلةَ بن المأموم فاشتراه المُوزار بن الوُزار بمائة بعير ثم حبسه معه فلم يوَفِّه فقدم الكوفة ليفاديه وبها عليّ بن أبي طالب فأتاه نفر من بني حنظلة الذين بالكوفة فقالوا: أإسار في الإسلام ؟ فقال لا وبعث فانتزعه من الوُزار قال ولم يكن الوُزار =

عن فكرة حية حين افتخر بأمجاد قومه في الجاهلية في قوله :

إلى كلّ حي قد خطبنا بناتهم بأرعن مثل الطود جمّ صواهله
إذا ما التقينا أنكحتنا رماحنا من الحيّ أبكاراً كراماً عقائله
وبنت كريم قد نكحنا ولم يكن لها خاطب إلّا السنان وعامله[٨٠]

وقد سبى العباس بن الوليد ابنة قطريّ بن الفجاءة قائد الخوارج وتزوجها بمقتضى العرف الجاهلي[٨١] . وكان الجَحَّاف بن حُكَيْم السُّلَمي يصدر عن نفس العاطفة حين قال بعد هزيمة بني تغلب في واقعة البِشْر :

نكحت بسيفي من زهير ومالك نكاح اغتصاب لا نكاح الدراهم[٨٢]

وعبّر عن ذلك ذو الرمة في قوله :

وقوم كرام أنكحتنا بناتهم ظبات السيوف والرماح المداعس[٨٣]

وقد أكّد الفرزدق أهمية الدولة والدين في ردع مثل هذه الأعمال وذلك حين قال لجندل ابن الشاعر الراعي :

فلولا بنو مروان والدين أنهم بنو أمّنا كفُّوا الشديد عن الضَّهْد
لقد أنكحت عرساك راعي مخاضنا وبعناك في نجران بالجَذَف القَهْد[٨٤]

ولكنه احتج في مناسبة أخرى بهذه الأعمال ورأى فيها السلوك الأمثل حتى

= وفّى بني عجل فداء حنظلة فلما كانت فتنة ابن الزبير وثب بنو عجل فأخذوا من الوُزار مائة بعير وقيل صالحهم على ٥٠ وتركوا له ٥٠ انظر النقائض ٧١٧ لأول نساء مسلمات يأسرهن في الحرب بُسر بن أرطاة عام ٤٠ هـ/٦٦٠ م .

٨٠ النقائض ٦٠٥ .

٨١ العقد الفريد ٥/١٨٦ .

٨٢ البلاذري : أنساب ٥/٣٣٠ .

٨٣ ديوان ذي الرمة ٣٢٣ .

٨٤ ديوان الفرزدق ١/١٧٨ .

في الإسلام. فقد رووا أنه كان عند الحسن البصري فلم يلبث أن جاء رجل فقال: يا أبا سعيد نكون في هذه المغازي فنصيب المرأة لها زوج، أفيحلّ غشيانها ولم يطلّقها زوجها ؟ فقال الفرزدق: أو ما سمعت ما قلت في ذلك ؟ قال الحسن: ما كلّ ما قلتَ سمعوا فما قلت ؟ قال قلت:

وذات حليلٍ أنكحتنا رماحنا حلال لمن يبني بها لم تطلَّق[٨٥]

ويقال إن الحسن وافقه على ذلك[٨٦].

واستمر إلى جانب ذلك كثير من مظاهر الحياة الجاهلية ومثلها في مجتمع البصرة. فكثيراً ما كانت البادية بالذات مسرحاً لمظاهر المغالاة في الكرم والمزايدة فيه بغرض الفخر والمباهاة. وقصة معاقرة غالب الشهيرة خير شاهد على ذلك. فقد عقر غالب بن صعصعة والد الفرزدق أربعمائة بعير، فطلبه عثمان ليعاقبه ففرّ. فلحق بالبصرة فأتى منزل الحُتات بن يزيد فالتزمه وقبَّله وقال أقم حتى تخرج أعطية الحيّ وفيهم ثمانون على ألفين فنقاسمك من أعطياتهم ففعل فأخذ ٤٠ ألفاً فارتحل بحمل وَرِق فأتى الموسم براحلة دراهم فلما قضى نسكه زار البيت في أول الناس ثم ركب بين خرجيه بعيراً نجيباً لا يجارى ثم نادى بالبطحاء يا أيها الناس أنا غالب ابن صعصعة من أخذ شيئاً فهو له ثم فتح الخرجين ثم حثا أمامه وعن يمينه وعن شماله ووراءه حتى إذا أفرغ الخرجين من الورق أجال السوط في بطن البعير فنجا. فقيل لعثمان: عتبت على غالب في العقر وأخفته وطلبته لتعاقبه فها هو ذاك أنهب ماله، فبعث في طلبه فهرب فأعجزهم[٨٧]. وأطنب الفرزدق في الفخر بذلك في شعره[٨٨]. ويبدو أن المعاقرة هذه استمرت كنظام لفترة متأخرة كما يستشف من

---

٨٥ نفسه ٣٨/٢ ؛ ابن سلام ٢٨٤ ؛ العقد الفريد ٢٢٣/٦ ؛ الأغاني ١٤/١٩ ، ٣٣ .

٨٦ ابن رشيق: العمدة ٥٥/١ انظر تعليق ابن رشيق على ذلك .

٨٧ النقائض ٤١٧ .

٨٨ ديوان الفرزدق ٢٧/١، ٢٩، ٣٨، ١٠٩، ١٧٣، ٣٨١، ٣٨٧، ٤١٨ ؛ ٥٠/٢، ٦٥، ١١٥، ١١٨، ١٧٣، ١٩٩ .

المباراة في ذلك بين جَنَاب بن شَرِيك وبني نهشل، وقد عقر جَنَاب فيها ثمانين بعيراً وقد سجّل ذلك الفرزدق في قصيدة مشهورة[٨٩]. وقد مرّ بنا من قبل غضب زياد على الفرزدق الذي احتذى مسلك والده حين أنهب الناس ماله وثيابه في المربد[٩٠]. ولم يكن التدخل الرسمي دائماً العامل الحاسم في مثل هذه الأمور كما يستدل من قصة مُرَّة بن مَحْكان الشاعر التميمي. قال المدائني: كان مرة سخياً وكان أبو البكراء يوائمه في الشرف وهما جميعاً من بني الربيع. فأنهب مُرَّة بن مَحْكان ماله الناس فحبسه زياد فقال في ذلك الأبيرد الرياحي:

حبست كريماً أن يجود بماله ستعرف ما في قومه من مفاقم
كأن دماء القوم إذ علقوا به على مكفهر من ثنايا المخارم
فإن أنت عاقبت ابن محكان في الندى فعاقب هداك الله أعظم حاتم

قال فأطلقه زياد. فذبح أبو البكراء مائة شاة فنحر مُرَّة مائة بعير فقال بعض شعراء تميم يمدح مُرَّة:

شرى مائة فأنهبها جواد وأنت تناهب الحذف القهادا[٩١]

وقد عبّر مقاتل بن مِسْمَع عن هذه الروح الجاهلية التي كانت تحكم كل هذه التصرفات. فقد كان يمطر الناس بأفضاله حين كان والياً على سجستان وعندما أتى إلى البصرة بسط الناس له أرديتهم فمشى عليها فملأه الزهو فقال «لمثل هذا فليعمل العاملون»[٩٢].

وكان بذل المال في الخمر علامة من علامات الكرم في الجاهلية. وقد نجح تحريم الخمر في الإسلام نجاحاً جزئياً – خاصة في البداية – في حمل معاقريها

---

٨٩ النقائض ٩٤١ ؛ ديوان الفرزدق ٣٧٧/١ – ٨ .

٩٠ انظر الباب الثالث ص ١٢٣ .

٩١ الأغاني ٩/١٩ ؛ وانظر ١٨/٢٠ – ١٩ لمباراة أخرى .

٩٢ العقد الفريد ٣٣٣/٥ .

على السرية في ممارستها. وظل بعض الناس ومنهم بعض الحاكمين يتعاطونها خفية. أما أغلبية الشعراء فقد كانوا حذرين في تغنيهم بها. وقد أبرز أبو حزابة التميميّ النفاق الواضح في هذا المسلك حين هجا يزيد الأول بقوله :

أيشربها صرفاً إذا الليـــل جنّــه معتقة كالمسك تختال في القلب
ويلحى عليهـــا شاربيهـــا وقلبه يهيم بها إن غاب يوماً عن الشرب[٩٣]

والواضح أن أبا حزابة في هجائه ليزيد كان معنياً بكشف حقيقة حاكم فاسد أكثر من عنايته باستهجان موضوع شرب الخمر في ذاته الذي كان واسع الانتشار في مجتمعه البصريّ. وقد حظي بعناية الشعراء كالفرزدق وحارثة بن بدر، وأبي الهندي في فترة متأخرة. وكان الطابع الذي يغلب على مسلك الحكام حيال شربها التسامح[٩٤]. إذ ظل حاكم حازم كزياد على صلة وثيقة بحارثة بن بدر الذي كان لا يخفى إعجابه بشربها ويطنب في مدحها في شعره. وحين عوتب على ذلك قال : أو تلومونني على حارثة فوالله ما تفل في مجلسي قط ولا حكّ ركابه ركابي ولا سار معي في علاوة الريح فغبّر علي ولا دعوته قط فاحتجت إلى تجشم الالتفات إليه حتى يوازيني ولا شاورته في شيء إلّا نصحني ولا سألته عن شيء من أمر العرب وأخبارها إلّا وجدته به بصيراً[٩٥]. وقد أتاح هذا التسامح الرسمي لهذا الشاعر حرية كبيرة للإغراق في شرب الخمر وللاطناب في مدحها وهجاء كل من ألحَّ عليه في تركها أو أنَّبه عليها. فهو يصف أثرها في حيوية ويعلن إصراره عليها في قوله :

أذهب عني الغمّ والهمّ والذي به تطرق الأحداث شرب المروّق

---

٩٣ الأغاني ١٩/١٥٤ .

٩٤ انظر النقائض ٣٥٩ لقصة وكيع بن أبي سود الذي سعى إلى خداع قتيبة بن مسلم بالإغراق في الشرب قبل الثورة عليه .

٩٥ الأغاني ٢١/٣٩ – ٤٠ ؛ كامل المبرد ٣/١٩٠ – ١ ؛ انظر بلا ١٥٤ – ٦ ؛ دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الثانية مادة حارثة بن بدر .

فوالله ما أنفك بالراح مهترا ولو لام فيها كلّ حرّ موفق
سأشربها صرفاً وأسقي صحابتي وأطلب غَرَّات الغزال المنطق[٩٦]

وكان مولعاً بلوم عذاله عليها وهجائهم. فيقول :

وكم لائم لي في الشراب زجرته فقلت له دعني وما أنا شارب
فلست عن الصهباء ما عشت مقصراً وإن لامني فيها اللئام الأشائب
أأترك لذاتي وآتي هواكم ألا ليس مثلي يا ابن قيس يخالب[٩٧]

وحين نصحه قريبه الأحنف بن قيس بتركها قال له :

يذم أبو بحر أموراً أريدها ويكرهها للأريحي المسوّد
فإن كنت عياباً فقل ما تريده ودع عنك شربي لست فيه بأوحد
سأشربها صهباء كالمسك ريحها وأشربها في كل نادٍ ومشهد
فنفسك فانصح يا ابن قيس وخلني ورايي فما رأيي برأي مفند[٩٨]

ومن الواضح أنه لم يكن الوحيد الذي يشربها علناً فقد قال هو عن ذلك :

سأشربها ما حج لله راكب مجاهرة وحدي ومع كل مسعد
وأسعد ندماني واتبع شهوتي وأبذل عفواً كل ما ملكت يدي
كذا العيش لا عيش ابن قيس وصحبه
من الشرب للماء القراح المصرّد[٩٩]

وقد دفعه كثرة العذل واللوم إلى استخدام أسلوب جدلي يطغى على كثير من شعره الخمري. وقد سجل لنا هذا الجدل مع أحد هؤلاء العذال ويدعى مخارقاً :

---

٩٦ الأغاني ٤١/٢١ .
٩٧ نفسه ٢١/٢١ .
٩٨ الأغاني ٢٦/٢١ .
٩٩ نفسه .

غدا ناصحاً لم يـأل جهـداً مخارق يلوم على شرب السلاف المعتـق
فقلت أبا صخر دع الناس يجهلوا ودونكها صهباء ذات تألق
تراها إذا مـا المـاء خـالط جسمها تخايل في كف الوصيف المنطـق
لهـا أرج كالمسك يذهب ريحهـا عماية حاسيها بحسن تـرفـق[١٠٠]

وقال لصديقه أنس بن زُنَيْم ان جهله بمزاياها هو الذي حدا به للوم الشاعر ودعاه ليختبر لذتها بنفسه قائلاً :

يعيب علـيّ الراح مـن لـو يذوقها لجـنّ بهـا حتى يغيب في القبر
فدعهـا أو امدحها فـإنـا نحبهـا صُراحاً كما أغـراك ربك بالهجر
علام تـذم الراح والـراح كاسمها تريح الفتى من همه آخر الدهر
فلمني فـإن اللوم فيهـا يزيـدني غراماً بها ان الملامة قـد تغرى
وبالله أولى صادقاً لـو شربتهـا لأقصرت عن عذلي وملت إلى عذرى
وان شئت جربهـا وذقهـا عتيقة لهـا أرج كالمسك محمودة الخبر
فإن أنت لم تخلع عذارك فالحـني وقل لي لحاك الله من عاجز غمر[١٠١]

واستخدم هذا الأسلوب الجدلي لائمه الملحاح أنس السابق الذكر فقال له مرة :

فحتى متى أنت ابـن بـدر مخيّم وصحبك يَحسُون الحليب من الكرم
فإن كان شرًّا فالـه عنـه وخلّـه لغيرك من أهـل التخبط والظلم
وان كان غنماً يا ابن بدر فقد أرى سئمت من الإكثار من ذلك الغنم
وان كنت ذا علمٍ بهـا واحتسائها فما لك تـأتي ما يشينك عن علم[١٠٢]

ويلجأ حارثة إلى نفس المنطق الجاهلي في تبريره بذل المال في شرب الخمر

١٠٠ نفسه ٤٢ .
١٠١ نفسه ٣٨ – ٩ .
١٠٢ نفسه ٣٨ ؛ انظر ٣٣ ، ٣٤ .

معيداً إلى الاذهان كلمات مماثلة لطرفة بن العبد[١٠٣] فيقول حارثة :

وقائلة يا حار هل أنت ممسك ... عليك من التبذير قلت لها اقصدي
ولا تأمريني بالسداد فأنني ... رأيت الكثير المال غير مخلد
ولا عيب لي إلّا اصطباحي قهوة ... متى يمتزجها الماء في الكأس تزبد[١٠٤]

وهو يرى في مسلكه هذا عين الصواب ولذلك يخاطب الأحنف بن قيس بقوله :

فاني امرؤ عوّدت نفسي عادةً ... وكل امرىء لا شك ما اعتاد طالب
أجود بمالي ما حييت سماحة ... وأنت بخيل يجتويك المصاحب
فما أنت أو ما غيّ من كان غاوياً ... إذا أنت لم تُسْدَدعليك المذاهب[١٠٥]

وكان تقديم الخمور للضيوف سمة للكرم في الجاهلية وقد ظلّ كذلك في مجتمع البصرة[١٠٦] . فقد مدح سليمان بن عمرو البكري حارثة بن بدر بقوله :

قريت فأحسنت القرى وسقيتنا ... معتقة صهباء كالعنبر الرطب
وواسيتنا فيما ملكت تبرعا ... وكنت ابن بدر نعم ذو منزل الركب[١٠٧]

ومدح الفرزدق تميمياً شريفاً بقوله :

جمع الشواء مع القديد لضيفه ... كرماً ويثني بالسلاف القرقف
من عاقر كرم الرعاف مدامة ... صهباء أشبهها دماء الرُّعّف[١٠٨]

وفي ثنائه على آخر يدعى دَيْكَل يقول نفس الشاعر :

---

١٠٣ انظر معلقته (شرح التبريزي) ٩١ .
١٠٤ الأغاني ٢١/٢٦ .
١٠٥ نفسه ٢٧ .
١٠٦ العقد الفريد ٨/٨ لحالة محددة .
١٠٧ الأغاني ٢١/٢١ ؛ انظر رد حارثة عليها .
١٠٨ ديوان الفرزدق ١٨/٢ .

شربت ونادمت الملوك فلم أجد   على الكأس ندماناً لها مثل ديكل[١٠٩]

بيد أن الفرزدق لم يكن داعية للخمر مثلما كان حارثة بن بدر[١١٠] . والواضح أنه كان يلتذ لشربها ويتحاشى الردّ على اتهامات جرير المتكررة عن سلوكه في هذا المجال. ويبدو أنه كان في هذا المسلك يعبر عن مسلك الكثيرين من معاصريه وقد وضح ذلك أبو الهندي أشهر شعراء الخمرة الأوائل في الإسلام[١١١] حين قال في أواخر عهد بني أمية :

إذا صليت خمساً كل يوم   فإن الله يغفر لي فُسوقي
ولم أشرك بربّ الناس شيئاً   فقد أمسكت بالدين الوثيق
وجاهدت العدو ونلت مالاً   يبلغني إلى البيت العتيق
فهذا الدين ليس به خفاء   دعوني من بنيات الطريق[١١٢]

أمّا عدم اهتمام كثير من الأعراب بمتطلبات الشرع في تطبيق كثير من المسائل فالشواهد عليه قائمة في أفعالهم وأقوالهم. وقد مرّ بنا من قبل مسلك وكيع بن أبي سود في تمسكه بالعرف الجاهلي في العقاب بالسيف دون السوط[١١٣] . ويروون أن وكيعاً هذا حين علم أن قتيبة بن مسلم قتل عدداً من بني الأهتم بخراسان لم يصلّ يومئذ الظهر ولا العصر ولا المغرب فقيل له: ألَا تصلّي يا أبا المطرّف ؟ فقال: ما أصنع بالصلاة وقد قُتِل من بني الأهتم من قُتِل لا يغضب لهم أحد لا مَنْ في الأرض ولا مَن في السماء ؟ [١١٤] . وحين قتلوا قتيبة صعد وكيع المنبر فلم يحمد الله ولم يصلّ على النبي، بل قال :

---

١٠٩ نفسه ١٥١/٢ .

١١٠ دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الثانية مادة الفرزدق .

١١١ الأغاني ٢٧٧/٢١ .

١١٢ نفسه ٢٨٠ ؛ انظر ديوان أبي الأسود ١٨٩ حيث يمدح النبيذ باعتباره بديلاً عن الخمر

١١٣ انظر الباب الأول ص ٤٠ هامش ٢٧ .

١١٤ النقائض ٣٥١ .

من ينك العَيْر ينك نياكاً

واستمر يقول :

أنا ابن خندف تنميـــني قبـائلهـــا للصالحات وعميّ قيس عيلانا[١١٥]

وهكذا كان من نتائج استعار العصبية القبلية في البصرة استمرار كثير من المظاهر الجاهلية وبقاء ذكرى كثير غيرها مما لم يعد له مكان في حياة العرب بعد الإسلام. فاستمر الشعراء كما رأينا من قبل يتذكرون الأوثان والأصنام، وكان للمقامرة على الأسلوب الجاهلي مكانة عالية في الشعر القبلي. فغسّان بن ذهيل هجا قوم جرير بقوله :

ومـا يذبحون الشاة إلّا بميسر طويلاً تناجيها صغاراً قدورها[١١٦]

أما جرير فقد قال في معرض الفخر بقومه :

وجامعــة لا يجعـل الستر دونهــا لأضيافنا والفائز المُتَمَنَّح[١١٧]

وظل للكهانة والعرافة وزجر الطير والحيوان للفأل مكانها البارز في شعرهم. واستمرت كثير من خرافات العرب وأساطيرهم. وكثيراً ما ردّد الشعراء الخرافة الجاهلية التي تذهب إلى أن في دماء الأشراف والملوك الشفاء الناجز من الجنون والكَلَب[١١٨]. ففي الفخر بقومه يقول الفرزدق :

فما وجد الشافون مثـل دمـائنـــا شفاء ولا الساقون من عسل النحل[١١٩]

وقال البعيث وهو يفخر بنفسه وبقومه :

---

١١٥ نفسه ٣٦٣ .

١١٦ نفسه ٦ .

١١٧ نفسه ٥٠٤ – ٥ .

١١٨ انظر الحيوان ٢/٣ .

١١٩ ديوان الفرزدق ٢/١٥٤ ؛ النقائض ١٣٢ .

مــن الـدارميين الـذين دماؤهـم   شفاء من الداء المجنَّة والخَبْل[١٢٠]

وكانت المباريات الغريبة تجري بينهم كما كانت تجري في جاهليتهم. وبعضها يجري في حضرة الأمراء كما حدث بين أعرابيين أحدهما من تميم والآخر من الأزد تضارطا عند خالد بن عبد الله فضرط الأزدي ضرطة ضئيلة، فقال التميميّ :

حبقت عجيفاً مجتلا ولــو انــني   حبقت لأسمعت النعــام المشردا
فمرّ كمرّ المنجنيق وصوتــه   يبذّ هزيم الرعد بدءاً عمردا[١٢١]

وضمنت احتياجات الحياة العربية بقاء بعض المعاملات التي حاول الإسلام في بداية أمره الغض من شأنها. ومن أهم ذلك ارتفاع شأن الشعراء الذين يولون المدح والهجاء عنايتهم. وقد وضح لنا فيما سبق[١٢٢] أنه كان هناك ضرب من الإباء – يتخذ أحياناً شكل المقاومة – لقبول مزاعم الشعراء التقليدية حول مكانتهم في المجتمع وأثرهم على أفراده، ولجوؤهم إلى أساليب التهديد والترهيب لإخافة ذوي الجاه والمال فيبذلون لهم العطاء. وقد بيَّن هذا المسلك ابن فسوة الشاعر البصري المخضرم الذي عرف بإخافة أشراف العراق ودفعهم للبذل خوفاً من معرّة لسانه[١٢٣]. فقد قال لابن عباس، وكان حينذاك أميراً على البصرة من قِبَل عليّ، وكان ابن عباس أغلظ عليه وردّه :

أتيت ابن عباس أرجّي نواله   فلم يرج معروفي ولم يخش منــكري
وقال لبوابيــه لا تــدخلنــه   وَسدّ خصاص الباب في كل منظر[١٢٤]

---

١٢٠ النقائض ١٣٨ .

١٢١ الجاحظ : الحيوان ١٣٢/٤ ؛ انظر النقائض ١١ إلى مباراة في المجاعرة وهي إفراغ ما في البطن من غائط، ذكرها جرير في شعره ؛ وانظر في تفصيل كل ذلك الزهيري ٢٣٨ – ٢٩٠ .

١٢٢ انظر الباب الثاني ص ٧٩ .

١٢٣ الأغاني ١٤٤/١٩ : الباب الثاني ص ٧٩ .

١٢٤ ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٣٣٠/١ .

وكان دخل على ابن عباس فقال له: ما جاء بك يا ابن فسوة ؟ فقال له: وهل عنك مقصر أو وراءك معدى ؟ جئتك لتعينني على مروءتي وتصل قرابتي. فقال له ابن عباس: وما مروءة من يعصي الرحمن ويقول البهتان ويقطع ما أمر الله به أن يوصل. والله لئن أعطيتك لأعيننك على الكفر والعصيان. انطلق فأنا أقسم بالله لئن بلغني انك هجوت أحداً من العرب لأقطعن لسانك. فاراد الكلام فمنعه من حضر، وحبسه يومه ذلك ثم أخرجه عن البصرة[١٢٥]. وقدم بعد ذلك على عبد الله ابن عامر بن كريز والي البصرة (٢٩ – ٣٥ هـ / ٦٥٠ – ٦٥٦ م) وكان جواداً فلما استؤذن له عليه أرسل إليه: إنك والله ما تسأل بحسب ولا دين ولا منزلة وما أرى لرجل من قريش أن يعطيك شيئاً وأمر به فلكز وأُهين. فقال:

وكائن تخطت نـاقـتي وزميلها　　إلى ابن كريز من نحوس وأسعد
وأغبر مسحول التراب ترى لـه　　خبا طردته الريح من كل مطرد
لعمرك اني عند باب ابن عـامر　　لكالظبي بعد الرميـة المـتردد
فلم أر يوماً مثله ان تكشفـت　　ضبابته عني ولمـا أقيـد[١٢٦]

فبلغ قوله ابن عامر فخاف لسانه وما يأتي به بعد هذا فرجع له وأحسن القوم رفده وقالوا هذا شاعر فارس وشيخ من شيوخ قومه واليسير يرضيه فقال ردوه وأعطاه حتى رضي وانصرف[١٢٧]. ولسنا في حاجة لنكرر ما ذهبنا إليه من قبل من أن التطور في الظروف السياسية والاجتماعية قد أسهم إسهاماً كبيراً في ازدهار مثل هذا الشعر وتطويره[١٢٨].

---

١٢٥ الأغاني ١٩/١٤٤ .
١٢٦ نفسه ١٤٥ .
١٢٧ الأغاني ١٩/١٤٥ .
١٢٨ انظر الباب الثاني .

الفصل الثاني

تأثير الإسلام

ظلّت الخلفية الجاهلية التي ترتكز عليها الحياة العربية في تغيُّر وتشكُّل مطردين تحت تأثير الإسلام والتحضر رغم انتعاش القبلية التي كانت تخضع بدورها لتحوُّل هام لتلائم الظروف الجديدة[1]. وقد تتعثر هذه العملية أو تتوقف حين تضطرب الأمور في المصر، بيد أن ما يجب التنبه إليه أن ما يتأكد من مظاهر الحياة الجاهلية في مثل هذه الأحوال – وان كان مخالفاً لروح الإسلام – لم يكن موجهاً لمعارضة الإسلام بقدر ما كان موجهاً لمعارضة السلطة التي كان الأعراب يرون فيها بالطبيعة انتقاصاً من حرياتهم وقيداً على حركتهم. فقد تقبل العرب الإطار الإسلامي العام قاعدة يقوم عليها كيان المجتمع، ولكن تمثل قيمه وأهدافه وترسبها في العقول والأرواح أمر بطيء يحتاج للزمن الطويل لإنجازه، ومن ثَمَّ كان طبيعياً أن يسير الأعراب سيرتهم الأولى كما رأينا، ويمارسوا كثيراً من أوجه نشاطهم القديمة داخل إسلامهم الشكلي.

---

١ انظر الباب الأول.

وهذه الازدواجية في شخصية المجتمع يسهل ملاحظتها في سلوك الشعراء وفي إنتاجهم. فصورة النزغ والجموح في شخصية شاعر كالفرزدق كما تجلت لنا حتى الآن من خلال كلماته وأفعاله التي سجلناها آنفاً، وكما تظهر في نقدات جرير وهجائه له، ولم يكن كل ذلك دائماً على غير أساس، يقابلها ويخفف منها جانب آخر من نفس الشخصية تحفّ به مظاهر التقوى وتغلّفه المشاعر الدينية. وقد بلغ هذا الجانب في لحظة حاسمة من لحظات حياته مبلغ الأزمة الروحية مما دفع بالشاعر إلى السعي للانفلات من ماضيه وتوجيه كل طاقاته لحياة جديدة مليئة بالتقوى والصلاح[٢]. وفشله في متابعة هذا السعي يعكس التأرجح بين حَدَّي الاستقرار والفوضى الذي كان يحكم حياة البصرة في معظم الأحوال. وكان الشاعر مقياساً لزمانه ومجتمعه بلغ من الحساسية حداً لا يمكنه معه الاستجابة للدوافع المختلفة بطريقة تخالف اتجاهات العصر والمجتمع. فهو مثل مجتمعه، الذي كان ينفجر بين آونة وأخرى في محاولات يائسة ليزيح عن كاهله مظاهر التسلط وليستعيد أطرافاً من حريته المفقودة، تتجلى في شخصيته ضغوط التحول الاجتماعي وأزماته بطريقة تجعل منه نموذجاً مصغراً لمجتمعه. قال السيد المرتضى عنه: «نزع في آخر عمره عما كان عليه من القذف والفسق وراجع طريقة الدين. على أنه لم يكن في خلال فسقه منسلخاً عن الدين جملة ولا مهملاً لأمره أصلاً»[٣]. وروى عنه أنه كان يخرج من منزله فيرى بني تميم والمصاحف في حجورهم فيسر بذلك ويجذل به ويقول: إيه فدى لكم أبي وأمي كذا والله كان آباؤكم»[٤]، وذكر الرقاشي أنه خرج في ليلة باردة قال: فدخلت المسجد فسمعت نشيجاً وبكاء كثيراً فلم أعلم من صاحب ذلك إلى أن أسفر الصبح فإذا الفرزدق. فقلت: يا أبا فراس تركت النوار ليّنة الدثار دفئة الشعار. قال: إني والله ذكرت ذنوبي فأقلقتني ففزعت إلى

---

٢ انظر الباب الثاني.

٣ خزانة الأدب ٢٠٧/١.

٤ المبرد: الكامل ٧٩/٢.

الله »[٥]. ولقاءآته المتكررة مع الحسن البصري – وقد كثرت في آخر حياته – تشير كلها إلى هذا الاتجاه. فقد قيل إن الحسن البصري كان مع محبوس له في سجن خالد القسري والفرزدق محبوس وذكر الموت، فقال الحسن: ما عندك يا أبا فراس إن كان ذلك ؟ فقال: والله يا أبا سعيد لله أحب إليّ من سمعي وبصري ومن مالي وولدي ومن أهلي وعشيرتي أفتراه يخذلني ؟ فقال الحسن لا[٦]. ورووا قصة لقاء آخر له معه في جنازة النوار، وسبقهما الناس وانتظروهما فأقبلا وأقبل الناس ينظرون فقال الحسن: ما للناس ؟ فقال: ينظرون خير الناس وشر الناس. فقال: إني لست بخيرهم وأنت لست بشرهم. وقال له الحسن على قبرها: ما أعددت لهذا المضجع ؟ فقال: شهادة ان لا إله إلّا الله منذ سبعين سنة[٧] – وفي رواية أخرى منذ ستين عاماً وخمس نجائب لا يدركن يعني الصلوات الخمس[٨] – فيزعم بعض التميمية أنه رئى في المنام فقال: غفر لي بالكلمة التي نازعني فيها الحسن[٩]. وقد يكون بعض هذه الحكايات مختلقاً ولكنها بالغة الأهمية لدلالتها على روح المجتمع ومزاجه في أواخر العصر الأموي.

وفي هذه المرحلة المتأخرة فقدت كثير من القضايا الملتهبة خاصة تلك المتعلقة بالتنافس القبلي حرارتها وحِدَّتها إن لم نقل جاذبيتها. إذ كانت العلاقات الجديدة التي انتظمت كيان المجتمع تعمق الحساسية وتغذيها على نحو يساعد على تهذيب المشاعر وتشذيبها ومن ثم تعمَّقت العواطف الاجتماعية والدينية. وأصبح الناس ينظرون إلى نشاط أيامهم السابقة العنيف الذي كان يطغى عليه النزغ والجموح في ضوء جديد من خلال منظور قرن كامل من التطور الاجتماعي. وصارت مزاحمات

---

٥ الأغاني ١٩/٤٧ .

٦ الكامل ٢/٧٧ .

٧ الأغاني ١٩/٤٧ .

٨ الكامل ٢/٧٨ – ٧٩ .

٩ نفسه .

تلك الأيام ومنافساتها ضرباً من العبث والآثام في عيون الناس يسعون للتطهر من ذنوبها ويطلبون من الله غفرانها كما يستدل من الروايات الأسطورية عن آخر أيام الفرزدق .

ويستطيع الباحث أن يتبين مظاهر مماثلة في شخصية جرير الذي كان يقوم مقام النقيض من الفرزدق فيما يتعلق بالسلوك الشخصي، وهي حقيقة اعترف بها الفرزدق ذاته[١٠] . وكان إيمان جرير وتقواه حقيقة نوّه بها النقاد وأثنوا عليها[١١] . وكان أقل طواعية من خصمه في الاستجابة للعاطفة الطاغية كما يستشف من نادرة تبرز هذا الفرق بينهما في وضوح وقوة. فقد روى أبو عبيدة أنهما حجا ذات عام فلما التقيا في منى بادر الفرزدق جريراً بقوله :

فإنك لاقٍ بالمنازل من منى فخاراً فخبرني بما أنت فاخر

فكان جواب جرير عليه «لبيك ! اللهم لبيك»[١٢] . بيد أن النقاد كانوا يعتبرونه من أشدّ الناس هجاء[١٣] ، ويبدو أن معاصريه كانوا يرون فيه نفس الرأي. وذكروا أنه كان يختم مجلسه بالتسبيح فيطيل، فقال له رجل: ما يغني عنك هذا التسبيح مع قذفك المحصنات ؟. فتبسم وقال: يا ابن أخي «خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم»[١٤] إنهم يا ابن أخي يبدؤوني ثم لا أحلم[١٥] . وكان هذا شبيهاً بصنيع ذي الرمة الذي كان ينشد الشعر فإذا فرغ منه قال: والله لأكسعنك بشيء ليس في حسبانك: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله

---

١٠ ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٤٣٧/١ .

١١ انظر النقائض ٣٢ ؛ الأغاني ٣٨/٧ .

١٢ الأغاني ٥١/٧ .

١٣ ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٤٣٧/١ .

١٤ سورة التوبة ١٠٢ .

١٥ الأغاني ٥٦/٧ .

أكبر. وكان حسن الصلاة وكان يقول: إنّ العبد إذا قام بين يدي الله لحقيق أن يخشع[١٦].

ومن الواضح أن هذه العبارات التي تشير إلى الثنائية في شخصية هؤلاء الشعراء وكثير غيرهم من معاصريهم لا تقف في مدلولها عند هذا العرض العابر لوجهات نظرهم أو لسلوكهم الشخصي، بل تتجاوز كل ذلك لتعبر عن ظواهر في العصر أعمّ وأشمل. فانجراف جرير الشاعر «الخيِّر» مع الفرزدق «شرير» المجتمع البصري في نشاط لا يبقى فيه أحدهما من سلاح إلّا ألقى به في الميدان لما يقرب من أربعين عاماً، ثم ندمهما عليه في نهاية حياتهما، كل ذلك يشير إلى قوة العوامل الاجتماعية التي حدّدت لهما خط سيرهما. فتقوى جرير وتقوى مجتمعه لم تستطع مقاومة انطلاق العصبية القبلية من عقالها. بيد أنه بنفس القدر وبمجرد هدوء الأحوال وانتظام حياة الاستقرار وتوفر الجوّ الصالح لتفتح العواطف الدينية والحضرية فإنه حتى الشخصية النزغة كشخصية الفرزدق تحس بتغير الأحوال وتسعى لتغيير خط سيرها القديم. ولم يبلغ المجتمع درجة التعادل الأخيرة التي طغى فيها العنصر الإسلامي على العنصر الجاهلي إلّا بعملية شاقة ومؤلمة من عمليات التكيف والتلاؤم جهد العرب فيها أنفسهم للتلاؤم مع ظروف حياتهم الجديدة. ومن اليسير علينا أن نتبيَّن معالم هذا التطور كما تتجلى في الانتاج الشعري. فنلمح تأثير الإسلام في ثلاثة مجالات هامة. فوجود الإسلام المادي كجزء لا يتجزأ من البيئة الحسية أمدّ الشعراء بمادة غزيرة استفادوا منها في الوصف وإثراء الصور الشعرية[١٧]. واستخدمت الأفكار الإسلامية، في المجال الثاني، لتعبر عن شؤون المجتمع وعلاقاته المعقدة. فأصبحت العلاقات الإنسانية، كما يشهد بذلك النسيب والغزل، تبرز في ضوء جديد. فالمسلم الذي يشغل ذهنه فكرة الإثم والذنب هو

١٦ نفسه ١٢٨/١٦

١٧ سنفصل القول عن هذه الفكرة في الباب السادس الفصل الثاني..

الذي يتحدث في بيتي جرير :

فإن التي يـوم الحمامة قـد صبا　　لهـا قلب توّاب إلى الله ساجد
فـلا تجمعي ذكـر الذنـوب لتبخلي　　علينا وهجران المـدلّ المباعـد[١٨]

وهو يحتكم إلى مشاعر محبوبته الدينية حين يقول لها في مناسبة أخرى :

فهلّا اتقيت الله إذ رعـت محرمـاً　　سرى ثم ألقى رحله فهو هاجع[١٩]

وذو الرمة الذي يصف محبوبته وصفاً جاهلياً مغرقاً في حسيته ويعريها من ملابسها ليبرز مفاتن جسدها ويجعل المحب الذي وصفه بالتهالك على اللذة الحسية ينام معها في الظلام، ينهي هذا الوصف المثير بقوله :

تلك الفتـاة التي علقتها عـرضـاً　　إن الكريم وذا الإسلام يختلب[٢٠]

وفي تأمله في الحب يصدر هذا الشاعر حكمه :

ألا لا أرى مثـل الهـوى داء مسـلم　　كريم ولا مثل الهوى ليم صاحبه[٢١]

ولا يفتأ هذا الشاعر يصف طغيان عاطفة الحب بوحي من تجربته الدينية كما يتجلى ذلك في بيتيه :

وأنصب وجهي نحو مكة بالضحى　　إذا كان من فرط الليالي بـدا ليا
أصلّي فمـا أدري إذا ما ذكرتهـا　　أثنتين صليت الضحى أم ثمانيا[٢٢]

والشكوى إلى الله من ألم الحب تتكرر في شعر جرير. فهو يدعو الله قائلاً :

رغبت إلى ذي العـرش رب محمـد　　ليجمع شعباً أو يقـرّب نـائيـاً

---

١٨ النقائض ٩٨٦ .
١٩ نفسه ٦٨٦ .
٢٠ ديوان ذي الرمة ٦ .
٢١ نفسه ٤٣ .
٢٢ نفسه ٦٥٢ .

أذا العرش اني لست مـا عشت تاركاً طلاب سليمى فاقض ما كنت قاضيا[٢٣]

ويصف الفرزدق ذكرى حبيبته بأنها غرور يصرفه عن صلاته. فبعد وصف طيف محبوبته سلمى يقول :

فلمـا للصلاة دعـا المنادي نهضت وكنت منها في غرور[٢٤]

واستخدموا الإسلام وفضائله بتوسع في المدح والهجاء. فبالإضافة إلى ما ذكرناه آنفاً في معرض الحديث عن خلفاء بني أمية وولاتهم، استخدموا الإسلام في حرية وتوسع حتى في النقائض التي كان منبعها الأصيل التراث الجاهلي. فالفرزدق الذي اتهم بلحارث بن كعب باتباع اليهودية يفخر بقوله :

لا والذي هـو بالإسلام أكرمنـا وجاعل الميت بعد الموت في الجَنَن

ما كان يبني بـنى الديّـان مكرمة ولم تكن لبني الديان من حسن[٢٥]

وقال عمر بن لجأ لجرير :

ما استُرْدفت يوم الهذيل نساؤنـا ولا قُمن في صفٍّ لِسَجَّة سجدا

ولكن منعناهـن في الشرك بالقنـا وفي السّلم صدقنا النبي محمدا[٢٦]

وفي مدح الحجاج يقوم العجاج :

فـا قضى أمـراً ولا أحـارا في الحرب إلّا ربّه استخارا[٢٧]

ويظهر الإسلام في الهجاء أيضاً بطرق مختلفة. فالفرزدق يهجو طيئاً بقوله :

وما برئت طائية من ختانهـا ولا وجدت في مسجد الدين صلّت[٢٨]

---

٢٣ ديوان جرير ١٧٤ ؛ وانظر ١٧٣ .

٢٤ ديوان الفرزدق ١/٢٨٣ .

٢٥ ديوان الفرزدق ٢/٣٤٧ .

٢٦ ابن سلام ٣٦٦ .

٢٧ ديوان العجاج ٢٣ .

٢٨ ديوان الفرزدق ١/١١٥ .

ويهجو رؤبة خصوم قبيلته تميم بقوله :

إن تميماً تبتلى بأقــوام

ليسوا بأخوال ولا بأعمام ... لنا إن اهتز الشبا في الأشطام

لا يتوقون حدود الإسلام ... من رقــة الدين وبُعد الأرحام

أخبث أحزاب وشرّ أحــزام ... ناصرهم من فاسق وخَدّام[٢٩]

وفي هجاء البعيث يقول جرير :

وإذا انتحيتكم جميعــاً كنــتم ... لا مسلمين ولا عــليّ كراما[٣٠]

وكثيراً ما يشير جرير إلى القرآن ويفضح عجز من يهجوهم عن حفظه وتلاوته. ويتحدث عن سُكَيْنة عمة الفرزدق في سخرية قاسية قائلاً :

قامت سكينة للفحول ولــم تقــم ... بنت الحتات لسورة الأنفــال[٣١]

ويقول عن الفرزدق والبعيث :

إنَّ البعيث وعبــد آل مقاعس ... لا يقرآن بسورة الأحبـار[٣٢]

ويهجو الفرزدق بقوله :

لحى الله الفرزدق حين يمســي ... مضيعاً للمفصل والمثــاني[٣٣]

ولا يفتأ يتناول فسقه وتهتكه بالتقريع والفضح فيقول :

وما كـان جـار للفرزدق مسـلم ... ليأمن قرداً ليله غـير نـائـم

أتيت حـدود الله مـذ أنت يافـع ... وشبت فما ينهاك شيب اللهـازم

---

٢٩ ديوان رؤبة ١٣٧

٣٠ النقائض ٤٠ .

٣١ النقائض ٣٢٢ .

٣٢ نفسه ٣٤٠ . وسورة الأحبار سورة براءة والإشارة إلى الوفاء بالعهد فيها .

٣٣ ديوان جرير ٤٥٩ .

تتبع في المـاخور كـل مريبـة ‏ ‏ ولست بأهل المحصنات الكرائم[٣٤]

أما المجال الثالث الذي وضح فيه تأثير الإسلام فيشمل النماذج العديدة في انتاج الشعراء التي يبرز فيها العنصر الديني كتجربة مباشرة أو كعامل خلف مظاهر السلوك الشخصي. وتتجلى التجربة الدينية في قوة ووضوح في شعر العجاج الذي يقتصر اهتمامه فيما عدا ذلك على المواضيع البدوية. فهو يفرد قصيدة رجزية كاملة من واحد وسبعين شطرة[٣٥] لوصف لحظة حاسمة في حياته غلب عليه فيها المرض ويئس أهله من شفائه ولكن رحمة الله تداركته في النهاية ونجا من الموت. وهو بالإضافة إلى تخلصه من المقدمة الطللية التقليدية وابدالها بمقدمات دينية في كثير من مطالعه[٣٦] ، شديد الإحساس بعقيدته حتى حين يعالج المواضيع التقليدية من فخر قبلي وخلافه. فقد بدأ إحدى مقطوعاته التي يفخر فيها بقومه تميم بقوله :

تا الله لولا أن تحش الطبَّخ ‏ ‏ بي الجحيم حـين لا مستصرخ
في دخَّـل النـار وقـد تسلخـوا ‏ ‏ لعـلم الجهال اني مِفْنَخ
لهـا مهـم أرضّـه وأنقخ ‏ ‏ أمَّ الصدى عن الصدى وأصمخ[٣٧]

وفي مقطوعة أخرى يدعو الله أن يغفر له ذنوبه قبل الشروع في الفخر :

يا ربّ رب البيت والمشرَّق ‏ ‏ والمرقـلات كـل سهب سَمْلَق
إيـاك أدعو فتقبل ملقي ‏ ‏ فاغفر خطايـاي وثمّر ورقي
إنـا إذا حرب غـدت لانتقي ‏ ‏ ديناً ولا مستأخراً لم يلحـق[٣٨]

---

٣٤ النقائض ٣٩٦ .
٣٥ ديوان العجاج ٥ – ٧ .
٣٦ انظر الباب السادس الفصل الثاني .
٣٧ ديوان العجاج ١٤ .
٣٨ نفسه ٤٠ .

واستخدم ابنه رؤبة نفس الأسلوب. فقبل أن يمدح مسلمة بن عبد الملك (ت ١٢٠ هـ / ٧٣٨ م) يعترف بأخطائه ويسأل الله المغفرة فيقول :

يا رب إن أخطـأت أو نسيت   فأنت لا تنسى ولا تمــوت
إن الموقى مثـــل مـــا وقيـــتُ   أنقذني مــن خوف ما خشيت
ربي وإلّا دفعــه ثويت   فالجدّ أغشاني الذي غشيت[٣٩]

وبروح إسلامية صادقة يقول رؤبة لعاذله قبل الفخر بقومه تميم :

فأيها الغاشي القِذاف الأتبعا

إن كنت لله التقــى الأطوعــا   فليس وجــه الحق أن تبدَّعــا
وقد أراك الله حقــاً مَقْنَعـــاً   ما كالتقى زاد لمــن تمتعــا
وخير مـــا ورّع حــلم ورعـــا   ذا الحلم أن يأثم أو أن يطبعا
وإن مُسيءٌ بالخنـــا تـربعـــا   فالترك يكفيك اللئام اللكعا[٤٠]

ويلجأ العجاج لهذه الأفكار حتى في تصويره لحيوان الصحراء. ففي إحدى قصائده يختم وصفه بقوله :

يا رب لا أدري وأنــت الـــداري   كل امرىء منك على مقــدار
أعـابــران نحن في العُبّار   أم غابران نحن في الغُبـار[٤١]

وفي قصيدة أخرى يبدأ وصفه للإبل بقوله :

يا رب أنــت تجــير الكســيرا   وتـرزق المسترزق الفقيرا
أنت وهبـت هجمـــة جـرجورا   أدماً وعيساً مَعَطاً خُبُـــورا
لم تعــط في عطائها تكـديرا   خـزايــة ولم يكن مبهورا

---

٣٩ ديوان رؤبة ٢٥ .

٤٠ ديوان رؤبة ٨٧ — ٨ .

٤١ ديوان العجاج ٢٦ .

ولا كراء يقطع الظهورا ظلَّت تُصادي يومها الحَرورا[٤٢]

وكان رؤبة حريصاً حتى في تصوير طيش الشباب ألّا يتعدى الحدود المشروعة :

رابك والشيب قناع المقت نحول جُسْماني كما نَحَلْتِ
وخُشنتي بعد الشباب الصلت أزمان لا أدري وان سألت
ما نُسك يوم جمعة من سبت أغْيَدُ لا أحفل يوم الوقت
كحية الماء جرى في القلت إنْساً وجنياً كما وصفت
أركب ما دون الفجور البَحْت فآل أَوْلي واستقام سمتي[٤٣]

وكان واضحاً في حديثه عن العفة في خطابه لإمرأة :

وإن تخالجنا العيون الطُّلَّعا أتيت من ذاك العِفاف الأورعا
كما أتقى محرم حج أَيْدعا إذا امرؤ ذو سوءة تهقعا
أو قال أقوالاً تقود الخُنَّعا من خالبات يختلين الخُضَّعا
فقد أرى لي من حلالٍ مَشْرعا كمُسْتَهِل الثلج عذباً منقعا[٤٤]

فهذه اللمحات، وإن كانت مبتسرة، تشير إلى السمة الإسلامية الغالبة على وعي المجتمع البدوي في البصرة. ولئن كان من الصعوبة بمكان تحديد عمق المشاعر التي تسري في ثنايا هذه التجارب الدينية الشعرية، خاصة في إنتاج أولئك الشعراء الذين يوجهون كل إبداعهم لتصوير الحياة العربية التقليدية في جوانبها المختلفة، إلّا أننا – وان خالجنا الشك في صدق بعض ناظميها – نقبلها على أقل تقدير كانعكاس صحيح للمجتمع أو لذلك الجزء من المجتمع الذي يمثله هؤلاء الشعراء – العنصر البدوي في مجتمع البصرة. ولئن كانت نسبة العناصر الإسلامية القليلة – من الناحية العددية – في شعرهم من جانب، وغلبة المواضيع التقليدية كالهجاء

---

٤٢ نفسه ٢٤ .

٤٣ ديوان رؤبة ٢٣ – ٢٤ .

٤٤ نفسه ٨٨ .

والمدح ووصف الحيوان والصحراء وما إليها على هذا الشعر من جانب آخر لا يبرران إصدار أي أحكام عامة عن غلبة الحياة الجاهلية على التكوين الإسلامي للمجتمع، فليس من الشطط أن نذهب إلى أن هذا الضرب من الشعر بعنصريه يمثل حدًّا أقصى من طرفي الميزان الاجتماعي حيث تغلب العناصر التقليدية خاصة في أوقات الاضطراب والثورة. ولن يتسنى لنا الوقوف على صورة أقرب للواقع لحياة البصرة العاصفة دون وضع ما كان يحدث في الطرف الآخر من نفس الميزان الاجتماعي في الاعتبار. وأعظم المعبرين إبانة عن التحول الاجتماعي هنا هم شعراء الخوارج. فرغم ثورتهم على الجماعة الإسلامية فإن شعرهم يبرز روح التطهر والنقاء الديني في أسمى صورها. وكانت ثورتهم على الجماعة السياسية نابعة مما ظنوه فشل هذه الجماعة في الارتفاع إلى مستوى المثل الإسلامية وما تتطلبه من مجاهدة في عرفهم. ومن هنا نلاحظ أن العنصر الإسلامي في بعضهم بدل أن يزاوج العنصر التقليدي في الشخصية الواحدة، ويعيش معه جنباً إلى جنب، يثور عليه ويصارعه. فالقبلية التي هي أساس النظام الاجتماعي لا تجد من بعض شعرائهم سوى الهجوم والتقريع. وذهب عيسى بن عاتك الخَطِّي إلى أن أحل الإسلام محلها في الفخر حين قال :

أبي الإسلام لا أب لي سواه ... إذا فخروا ببكر أو تميم
كلا الحيين ينصر مدّعيه ... ليلحقه بذي الحسب الصميم
وما حسب ولو كرمت عروق ... ولكن التقيّ هو الكريم[٤٥] [٤٦]

وهذا البيت الأخير يمثل مفارقة واضحة حين نقارنه بقول أبي الأسود الدؤلي :

وخير خبيء في امرىء عند موطن ... إذا جامع الإسلام – مجد عروق[٤٧]

---

٤٥ انظر سورة الحجرات الآية ١٣ .

٤٦ شعر الخوارج ١٣ ؛ انظر Watt, Integration, 100.

٤٧ ديوان أبي الأسود ١٦٥

ولئن استغل عمران بن حطان النظام القبلي خير استغلال واستعان به في هروبه من الحجاج وقال في ذلك :

يوماً يمان إذا لاقيت ذا يمن　　　وإن لقيت معدياً فعدناني[٤٨]

فقد عبّر في كثير من شعره عن تقززه من العصبية القبلية التي تضعها كثير من القبائل فوق كل قيمة. وقال في قصيدة مدح فيها جماعة أزدية أكرمته :

وأصبحت فيهم آمناً لا كمعشر　　　بدوني فقالوا من ربيعة أو مضر
أو الحيّ قحطان وتلك سفاهة　　　كما قال لي روح وصاحبه زفر[٤٩]
وما منهم إلّا يسرّ بنسبة　　　تصيرني منهم وإن كان ذا نفر
فنحن بنو الإسلام والله واحد　　　وأولى عباد الله بالله من شكر[٥٠]

وكانت ثورتهم على الأوضاع السائدة في مجتمعهم قد شحذت حاستهم النقدية فنفذت بصيرتهم إلى أدواء مجتمعهم، وكثيراً ما قارنوا بين واقع الحال البائس وتطلعاتهم المثالية. وإلى جانب نقدهم العنيف للإدارة الأموية تناولوا كثيراً من المظاهر الاجتماعية التي يحرص عليها معاصروهم بالفضح والهجوم. ولا يفوتنا أن نلاحظ في هذا الشعر المثالي مسحة الزهد الواضحة خاصة في شعر عِمْران بن حطان الذي وصفه الآمدي بأنه أشعر الناس في الزهد[٥١]. وكان أبغض الأمور إليه شَرَه من حوله من الناس وتكالبهم على باطل الحياة، ولا يفتأ يذكرهم ببطلان مسعاهم، لأن الموت غاية كل هذا الجهد الضائع :

---

٤٨ شعر الخوارج ٢٣ ؛ الأغاني ١٥٣/١٦ ؛ كامل المبرد ٨٥/٧ .

٤٩ رَوْح بن زنباع الجذامي وزُفَر بن الحارث الكلابي شيخان لجأ إليهما الشاعر في هربه من الحجاج فأكرما وفادته وكان متنكراً متخفياً لا يعرفانه .

٥٠ الأغاني ١٥٤/١٦ ؛ وانظر شعر الخوارج (تحقيق إحسان عباس) ٦٤ ، ٧٤ لمقطوعات أخرى لشعراء خوارج يمدحون العصبية القبلية .

٥١ المؤتلف والمختلف ٩١ رقم ٢٤٥ (وتحقيق فرّاج ص ١٢٦) .

وليس لعيشنا هـذا مهاه وليست دارنا هاتـا بـدار
أرانــا لا نمــلّ العيش فيهــا وأولعنــا بحرص وانتظـار
ولا تبقى ولا نبقى عليها ولا في الأمـر نأخذ بالخيـار
ومــا أموالنـا إلّا عـوارٍ سيأخذها المعير مـن المعار(٥٢)

ومثل هذا المسعى الباطل لا يخدع الأريب الذي يطرد الأوهام ولا يستكين للأحلام، وعمران حريص على طرد الأوهام فهو ينصح ويحذر حين يقول :

حتى متى تسقى النفوس بكأسهـا ريب المنـون وأنت لاه ترتـع
أفقـد رضيت بـأن تعلّـل بالمنـى وإلى المنية كـل يـوم تـدفـع
أحـلام نـوم أو كظـلّ زائـل إنّ اللبيب بمثلهـا لا يخـدع
فتزودنّ ليوم فقرك دائبـاً واجمع لنفسك لا لغيرك تجمع(٥٣)

ولكن أغلبية البشرية الذين يصفهم بالأشقياء لا يملّون ملذات الحياة مهما بلغت من الخواء والقصر، وهو يعلم ذلك :

أرى أشقياء الناس لا يسأمونهـا على أنهـم فيهـا عـراة وجـوّع
أراهـا وان كـانت تحـبّ فانها سحابة صيف عن قريب تقشع
كركب قضوا حـاجـاتهم وترحلوا طريقهم بادي العلامة مهيع(٥٤)

ولهذا فقد كان للموت مكان بارز في شعره. فقد قال مرة لزوجته :

إن كنت كارهة للموت فارتحـلي ثم اطلبي أهل أرض لا يموتونا
فلست واجـدة أرضاً بهـا بشـر إلّا يروحـون أفـواجاً ويغدونا(٥٥)

---

٥٢ شعر الخوارج ١٨ رقم ٣١ .
٥٣ نفسه ١٧ رقم ٢٩ ؛ انظر الذهبي: تاريخ الإسلام ٣/٢٨٤ .
٥٤ الذهبي ٣/٢٨٤ ، شعر الخوارج ١٧ - ١٨ رقم ٣٠ ؛ وانظر أيضاً ص ١٩ رقم ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ .
٥٥ شعر الخوارج ١٦ رقم ٢٧ .

ولئن كان موت صديقه وزعيمه أبي بلال مِرْداس بن أدية من أعنف الصدمات التي منيت بها حياته العاطفية، كما منيت بها حياة كثيرين من أصحابه، ولا بد أن يكون ذلك قد ترك آثاره العميقة في وجدانه وعمّق من إحساسه بحقيقة الموت ودفعه إلى الإغراق في التحدث عنه في عاطفة قوية وإحساس يقظ[٥٦]، إلّا أن الموت كموضوع حبيب إلى نفسه كان يفيض طبيعياً من نظرته للعالم كوجود مرحلي زائل خاو لا يبقى فيه شيء حتى الموت. إذ الموت الذي ينهي كل شيء ينتهي إلى لا شيء. فهو يقول :

لا يعجز الموت شيء دون خالقه ... والموت فانٍ إذا ما ناله الأجل
وكلّ كرب أمام الموت متضع ... للموت، والموت فيما بعده جلل[٥٧]

والركون إلى مثل هذه الحياة الخاوية الفارغة اعتراف بفقدان الثقة بالله الذي لا حدود لفضله ولا قيود[٥٨]. وهو ضعف يفسح المجال لكثير من العلل الاجتماعية. والواضح أن عمق مشاعر هذا الشاعر ردّ فعل طبيعي لانغماس مجتمعه البصري في لذات الحياة الدنيا واغراقهم في الاستمتاع بها. فحين مرّ الشاعر بالفرزدق وسمعه ينشد قصيدة في المدح قال له :

أيها المادح العباد ليعطي ... أن لله ما بأيدي العباد
فاسأل الله ما طلبت إليهم ... وارج فضل المقسم العواد
لا تقل للجواد ما ليس فيه ... وتسمّي البخيل باسم الجواد[٥٩]

ولكن الفرزدق لم يكن وحده الذي يطلب ما بأيدي العباد ويسعى للحصول على قدر من ثراء الناس. فذلك كان شأن الجند الذين يكسبون عيشهم من الدولة

---

٥٦ نفسه ١٦ – ١٧ ؛ كامل المبرد ٨٢/٧ – ٨٣ .
٥٧ الأغاني ١٥١/١٦ ؛ شعر الخوارج ٢٨ رقم ٥١ ؛ انظر ٢٨ رقم ٥٢ ؛ ٣٠ – ٣١ رقم ٥٧ .
٥٨ انظر أبيات عروة بن أذينة ص ٢٧٤ أدناه .
٥٩ الأغاني ١٥٦/١٦ – ٧ ؛ كامل المبرد ١٨٥/٥ .

مقابل قتلهم الآخرين. فقد سمع عمران بعض الجند يقولون: ولم لا نقاتل الخوارج ؟ ألسنا ننال أعطياتنا في حينها ؟. فقال في سخرية :

فلو بُعِثت بعض اليهود عليهم ... يؤمهم أو بعض من قد تنصرا
لقالوا رضينا إن أقمت عطاءنا ... وأجريت ذلك الفرض من بُرّ كسكرا[٦٠]

وكان يشارك الخوارج تقواهم وإيمانهم عدد من القرّاء والقُصّاص الذين كان لنشاطهم فضل كبير في تخفيف حدة جموح العناصر البدوية في المجتمع ونقض آثارها المدمرة. ولئن لم يسجل لنا الشعر كثيراً من مواقفهم وأوجه نشاطهم فإن تأثيرهم على بعض الشعراء واضح[٦١]. فتأثير الحسن البصري على الفرزدق يشهد له ما رواه ابن سلام من أن الشاعر أتى الحسن فقال إني قد هجوت إبليس فاسمع. قال: لا حاجة لنا فيما تقول. قال: لتسمعن أو لأخرجن فأقول للناس: الحسن ينهى عن هجاء إبليس. فقال الحسن: اسكت فإنك عن لسانه تتكلم[٦٢]. ولكن الحسن اضطر إلى سماع الهجاء الذي يقول فيه :

أطعتك يا إبليس سبعين حجة ... فلما انتهى شيبي وتمّ تمامي
فررت إلى ربي وأيقنت أنني ... ملاقٍ لأيام المنون حِمامي
ولما دنا رأس التي كنت خائفاً ... وكنت أرى فيها لِقاء لِزام
حلفت على نفسي لأجتهدنَّها ... على حالها من صحة وسَقَام
ألَا طال ما قد بتّ يوضع ناقتي ... أبو الجن إبليس بغير خطام
يظل يمنيني على الرّحل واركاً ... يكون ورائي مرة وأمامي
يبشرني أن لن أموت وأنّه ... سيخلدني في جنّة وسلام

---

٦٠ شعر الخوارج ٢٠ رقم ٣٥ ؛ انظر ياقوت: معجم البلدان مادة كسكر .
٦١ سنفصل الكلام عن ذلك في الباب السادس الفصل الأول .
٦٢ طبقات فحول الشعراء ٢٨٤ ؛ الأغاني ١٩/١٤ ، ٣٣ .

فقلت لـــه هلّا أُخيَّـك أخرجت يمينك من خُضر البحور طوام[٦٣]

ثم يشرع في تصوير خداع إبليس لأُخَيِّه فرعون وكيف خذله وتخلى عنه بعد أن أغرقه في اليَمّ؛ ويتحدث عن إغرائه قوم ثمود على عقر الناقة، وعن خديعته لآدم وحواء حتى طردهما من الجنة، ويختم ذلك بقوله :

فكم من قرون قد أطاعوك أصبحوا أحاديث كانوا في ظلال غمام
وما أنت يا إبليس بالمــرء أبتـغي رضاه ، ولا يقتادني بزمام
سأجزيك من سوءات ما كنت سُقْتني إليه جروحاً فيك ذات كلام[٦٤]

والتأثير الكبير الذي كان للحسن وللوعاظ عامة على الفرزدق له شاهد آخر في ذلك اللقاء الذي زعموا أنه تم بين الحسن والفرزدق في جنازة النَّوار أو جنازة العطاردي في رواية أخرى. فبعد أن انتهت مراسم الدفن وعظ الحسن الناس وأنذرهم ولما فرغ وقف الفرزدق على حلقة الناس وقال :

لقد خـاب من أولاد آدم مــن مشى إلى النـار مغلول القــلادة أزرقـا
أخاف وراء القبر إن لم يعـافــني أشدّ من القبر التهابـاً وأضيقا
إذا جـاءني يــوم القيامـة قـائـد عنيف وسوّاق يقود الفرزدقا[٦٥]

وتأثير القصاص واضح أيضاً على الشعراء الرجاز وسنفصل القول في ذلك في الباب التالي، ويكفي أن نشير هنا إلى أننا نلحظ فضلاً عن الموضوعات الدينية المختلفة التي يفيض بها شعرهم، ارهاصات لفن الشعر التعليمي في بعض مقطوعاتهم وذلك ناجم بالطبع عن اختلاطهم بالقصاص وتأثرهم بهم. وأظهر ما يكون ذلك في شعر العجّاج خاصة في مقطوعته التي يصو ر فيها تصوّره ليوم الحشر :

---

٦٣ ديوان الفرزدق ٢/٢١٣ .

٦٤ نفسه ٢١٤ .

٦٥ الأغاني ١٩/٤٧ ؛ ديوان الفرزدق ٢/٣٩ .

أليس يوم سمي الخر وجا ... أعظمَ يومٍ رجةً رجوجا
يوم ترى مرضعة خلوجا ... وكل أنثى حملت خدوجا
وكلّ صاح ثملاً مَرُوجا ... ويستخف الحرم المحجوجا
ويهتك السماء والبروجا ... حتى ترى أديمها مضروجا
ويأمر البحار أن تهيجا ... وذاك يوم مُخْرج يأجوجا
ومطلع من ردمها ماجوجا ... وذاك صار أمره شريجا
فداخلون جنة بهيجا ... وشاربون عسلاً مزيجا
بماء مزن بارداً مثلوجا ... وصارخون ضجة ضجوجا
تسمع للنار بهم أجيجا[٦٦]

وقد روى يونس عن رؤبة عن أبيه العجاج قال أنشدت أبا هريرة :

الحمد لله الذي تعلَّت ... بأمره السماء واستقلت
بإذنه الأرض وما تغيَّت ... أرسى عليها بالجبال الثبت
الباعث الناس ليوم الموقت

فقال أبو هريرة: أشهد أنك تؤمن بيوم الحساب[٦٧] .

ولكن تأثير هذه المجموعات الدينية لم يكن دائماً بهذا السمو. فتجربة ذي الرمة مع بعضهم لم تكن فيما يبدو تجربة طيبة الوقع في نفسه إذ قال في هجائهم :

أما النبيذ فلا يذعرك شاربه ... واحفظ ثيابك ممن يشرب الماء
قوم يُوارون عما في صدورهم ... حتى إذا استمكنوا كانوا هم الداء
مشمّرين إلى أنصاف سوقهم ... هم اللصوص وهم يدعون قراء[٦٨]

---

٦٦ ديوان العجاج ١١ رقم ٦ . وقد عالج نفس الموضوع عمران بن حطان الخارجي في قصيدة مؤثرة من ستة عشر بيتاً ؛ انظر شعر الخوارج ٣٠ رقم ٥٧ .

٦٧ الأغاني ٨٥/٢١ .

٦٨ ديوان ذي الرمة ٦٦١ .

الفصل الثالث

المظاهر الحضرية

في حين كان الصراع الطويل يدور في غير تراخ بين اتجاهي الجاهلية والإسلام في صورتيه الثورية والتطورية كانت عجلة الحياة اليومية تدور على نحو يكفل أكبر قدر من الاستقرار الاجتماعي يمكن توفره في مثل ظروف الاضطراب السياسي والاجتماعي التي كانت تسود مجتمع البصرة. وقد ساعد تحضر المصر الحثيث وانسياب فيض الثروات الضخمة من المناطق المفتوحة إليه على إرساء قواعد الحياة المدنية على أساس سليم قوي لم تزحزح منه غارات الخوارج المتصلة ولا حروب القبائل المتكررة[1]. وكان هذا التطور المدني وما لازمه من قضايا خاصة بتوزيع السلطة والثروة يفرض معاييره الخاصة ويملي نماذج معينة من السلوك إن لم تحظ كلها بالتسجيل الوافي في الشعر فقد تجلّت مظاهرها العامة فيه :

وكان أهم عامل منفرد هنا هو تطوّر سلطة الدولة إلى أداة ضخمة معقدة للإلزام والقهر من جانب، وللإثراء والجاه من جانب آخر. وقد أقرّ العرب بأن

---

١ انظر الباب الأول الفصل الثاني .

المجد والسؤدد في الجاهلية كانا في الرئاسة أما في الإسلام فقد صارا في الولاية[٢] . وقد أشار ابن مفرِّغ إلى ما يضيفه المنصب من قوة واحترام على مغموري الرجال وذلك في كلمته التي هجا فيها عبيد الله بن زياد حين قال :

فكّر ففي ذاك إن فكرت معتبر ... هل نلت مكرمة إلّا بتأمير
عاشت سمية ما تدري وقد عمرت ... أنّ ابنها من قريش في الجماهير[٣]

وكان معيار قوة الدولة الخوف الذي يثيره منظر الشرطي في قلوب الناس كما تشهد بذلك قصة الفرزدق إذ كان جالساً بالبصرة أيام زياد في سكة ليس لها منفذ فمرّ به رجلان من قومه كانا في الشرطة وهما راكبان فقال أحدهما لصاحبه هل لك أن أفزعه، وكان جباناً، فحرّكا دابتيهما نحوه فأدبر مولياً فعثر في طرف برده فشقه وانقطع شسع نعله وانصرفا عنه وعرف أنهما هزءا منه فقال :

لقد خار إذ يجري عليّ حماره ... ضرار الخنا والعنبري ابن اخوقا
وما كنت لو خوفتماني كلاكما ... بأميكما عن بانتين لأفرقا
ولكنكما خوفتماني بخادر ... شتيم إذا ما صادف القرن مزقا[٤]

وقد وجد نفسه في موقف مماثل وكان يخشى الشرطة[٥] . وقد أبانت امرأة عادية هي الدهناء زوج العجاج عن حجتها في تذرعها بالصبر مع زوجها الشيخ، فقد كانت خشية الأمير هي التي تردعها عنه :

والله لولا خشية الأمير ... وخشية الشُرْطيّ والأُترور
لجُلْت بالشيخ من البقير ... كجولان صعبة عسير[٦]

---

٢ المبرد: الكامل ٣/٦ .
٣ الأغاني ١٧/٦٧ .
٤ نفسه ١٩/٢٥ .
٥ النقائض ٣٢ .
٦ ديوان العجاج ٧٧ .

وكانت صحبة الأمير سبيلاً إلى كثير من المنافع ومن ثمّ سعى الناس للاتصال به. وأصبح القرب من ذوي السلطة مجالاً واسعاً للفخر. قال جرير :

أصبحت عند ولاة الأمر أثبتهم   فُلجاً وأبعدهم غلواً إذا نزعوا[٧]

وكلما عزّ جانب الأمير وعظم قدره كان ذلك أفضل للشاعر. وقد وضّح ذلك ذو الرمة حين هجا مروان بن أبي حفصة بقوله :

عطايا أمير المؤمنين ولم تكن   مقسمة من هؤلا وأولائكا
وما نلت حتى شبت إلّا عطية   تقوم بها مصرورة في ردائكا[٨]

ومقام الفرد يقاس بمقدار نجاحه في الوصول للأمير كما بيّن ذلك ذو الرمة في قوله :

فربّ أمير يطرق القوم عنده   كما يطرق الخربان من ذي المخالب
تحظّيت باسمي عنده ودسيعتي   مصاريعَ أبوابٍ غلاظ المناكب[٩]

وفي فخره بأبيه العجاج يقول رؤبة :

قد رفع العجاج ذكراً فادعني   باسم إذا الأنساب طالت يكفني
فنعم داعي الوالج المستأذن   أبي إذا استغلق باب الصيدن[١٠]

ولكن السرعة التي كان الخلفاء والأمراء يتتابعون بها كانت تترك آثارها على المنتفعين من ذوي السلطان، إذ سرعان ما تتغير حظوظهم بتغير ذوي نعمتهم. وقد أشار إلى ذلك جرير في كلام وجهه إلى واحد من ذوي الحظوة عند الخليفة طالباً منه التشفع له أمام الخليفة. قال جرير :

---

٧ ديوان جرير ٢٧٧ .
٨ ابن رشيق: العمدة ١/٨٤ – ٥ .
٩ ديوان ذي الرمة ٥٧ .
١٠ ديوان رؤبة ١٦٠ .

يا أيها الرجل المرخي عمامته هذا زمانك، إني قد مضى زمني
أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيه إني لدى الباب كالمصفود في قَرَن[11]

وكانت فوائد الأمير محصورة في معظم الأحوال في أقاربه وحاشيته. وكانت المحاباة شائعة وقد أكثر الشعراء من الحديث عنها. فابن فسوة حين طرده ابن عباس من البصرة لمح إلى علاقة الحاكم بآل زهران الذين تزوج إلى إحدى بناتهم، وقال ساخراً :

فلو كنتُ من زهران قضيت حاجتي ولكنني مولى جميل بن معمر[12]

وقد عبّر الفرزدق عن نفس الفكرة في هجائه لخالد القسري[13] .

بيد أن الأمير الذي بيده تصريف الأموال عامة والعطاء خاصة كان يمكنه الضغط على معارضيه وإلحاق الضرر بخصومه. وقد عاش جرير تجربة هذا الضرر حين قطع عنه أحد العمال ويدعى ابن سعد عطاءه في أيام عمر بن عبد العزيز، فقال في ذلك :

حرمت عيالاً لا فواكه عندهم وعند ابن سعد سكر وزبيب
وقد كان ظني بابن سعد سعادة وما الظن إلّا مخطىء ومصيب
فإن ترجعوا رزقي إليّ فإنه متاع ليالٍ والأداء قريب
تحنى العظام الراجفات من البلى وليس لداء الركبتين طبيب[14]

ولكن الأمراء كانوا يستخدمون العطاء في معظم الأحوال أداة للترغيب. فاستغله زياد لحمل الفرزدق على الرجوع بعد أن فرّ منه. فقام الفرزدق في ذلك :

دعاني زياد للعطاء ولم أكن لأقربه ما ساق ذو حسب وفرا

---

١١ ديوان جرير ٤٨٦ .
١٢ ابن قتيبة: الشعر والشعراء ١/٣٣٠ ؛ انظر ص ٧٩ ، ٢٤٧ أعلاه .
١٣ انظر الباب الرابع ص ١٩٢
١٤ العقد الفريد.٧/٣٠٥ ؛ كامل المبرد ٦/٤٦ .

وعند زيـاد لـو يريـد عطاءهـم رجال كثير قـد يرى بهم فقـرا
قعود لدى الحاجات طلاب حاجة. عوان من الحاجات أو حاجةبكرا(١٥)

واستغله بعض الأمراء بطريقة غير مشروعة لخدمة بعض أصفيائهم(١٦). ولكن ذلك لم يكن ليفوت على الناس كما رأينا حين نقل زياد ديوان صديقه حارثة بن بدر التميمي إلى ديوان قريش فسخر من ذلك شاعر من بني كليب في أبيات سبقت الاشارة إليها(١٧). ولجأ الناس إلى شتى الأساليب والحيل للتأثير على من في السلطة لزيادة أعطياتهم. روى العتبي قال أجرى الوليد بن عبد الملك الخيل وعنده حارثة بن بدر وهو حينئذ في ألف وستمائة درهم من العطاء فسبق الوليد فقال حارثة هذه فرصة فقام فهنأه ودعا له ثم قال :

إلى الألفـين مطّلـع قـريـب زيـادة أربـع لي قد بَقِينـا
فإن أهْلِك فهـنّ لـكـم وإلّا فهـنّ من المتـاع لكـم سنينا

فقال له الوليد فتشاطرني ذلك لك مائتان ولي مائتان فصيَّر عطاءه ألفاً وثمانمائة ثم أجرى الوليد الخيل فسبق أيضاً، فقال حارثة هذه فرصة فقام فهنأه ودعا له ثم قال :

وما احتجب الألفـان إلّا بهيِّـن همـا الآن أدنى منهما قبل ذلكا
فجُد بهما تفديك نفسي فإنـني معلّق آمالي ببعض حِبالكـا

فأمر له الوليد بالمائتين فانصرف وعطاؤه ألفان(١٨).

أما اعتماد عدد كبير من الناس وخاصة من كانوا في الخدمة العسكرية على

---

١٥ ديوان الفرزدق ١٨٧/١ ؛ وانظر ١٩٩/١ لحادثة أخرى مع يزيد بن المهلب : انظر ابن سلام ٢٨٦ .

١٦ استغل معاوية بن سفيان العطاء لرفع رتبة أحد قواده إلى أعلى المناصب ولكن كفاءة هذا القائد كانت تبرر هذا الصنيع . انظر الجاحظ: كتاب التاج ٥٧ .

١٧ انظر ص ٢١٢ من هذا الكتاب .

١٨ الأغاني ٢٧/٢١ .

العطاء فأمر محقق، وقد سخر منه عِمْران بن حطان كما سبقت الاشارة إلى ذلك[١٩]. وكانت زيادة العطاء من الوسائل التي تستخدم لحفز الجند على الاستبسال في القتال. قال الأصمعي لما كان يوم دُولاب (٦٥ هـ / ٦٨٤ م) وأفضت الحرب إلى حارثة بن بدر صاح: من جاءنا من الموالي فله فريضة العرب، ومن جاءنا من الأعراب فله فريضة المهاجر، فلما رأى ما يلقى أصحابه من الأزارقة قال:

أير الحمار فريضة لشبابكم ... والخصيتان فريضة الأعراب

عضّ الموالي جلد أير أبيهم ... إن الموالي معشر الخُيَّاب[٢٠]

ولعلَّ في موقف أبي الأسود الدؤلي من الديوان ما يشير إلى أهمية الدور الذي كان يلعبه هذا النظام في تهيئة سبيل العيش للكثيرين من أهل البصرة. قال المدائني: «كان لأبي الأسود صديق يقال له الحارث بن خُلَيد، وكان في شرف من العطاء. فقال لأبي الأسود: ما يمنعك من طلب الديوان؟ فإن فيه غنى وخيراً. فقال له أبو الأسود: قد أغناني الله عنه بالقناعة والتجمل. فقال: كلا ولكنك تتركه إقامة على محبة ابن أبي طالب، وبغض هؤلاء القوم»[٢١]. وكان ابتعاد أبي الأسود عن الديوان سبباً في فقره المدقع الذي كان يشكو منه طوال حياته كما سنرى فيما يلي.

وقد أسهم الجهاز الإداري ونظام الديوان في إقامة نظام اقتصادي مزدهر يرتكز على التجارة والزراعة. وسرعان ما تجلى ذلك في انشطار المجتمع إلى طبقتي الأغنياء والفقراء. وقد كانت الثروات الهائلة التي تنساب إلى جيوب أثرياء البصرة وخزائنهم تثير أطماع الناس وتشحذ رغبتهم في الوصول إلى الغنى. وكثيراً ما جهد الشعراء أنفسهم وقطعوا المسافات الطويلة جرياً وراء الغنى:

تقول ابنة الغوثي مالك ها هنا ... وأنت تميميّ مع الشرق جانبه

---

١٩ انظر ص ٢٦٤ أعلاه.

٢٠ الأغاني ٢١/٤٠؛ انظر ٦/٣ – ٥.

٢١ نفسه ١١/١١٤؛ ديوان أبي الأسود ١٣٣ – ٤.

فقلت لها الحاجات يطرحن بالفتى وهمٌّ تعنَّاني، مُعنًّى ركائبه[٢٢]

وأصبح التماس الغنى غاية الناس :

إني كتبت إليك ألتمس الغنى بيديك أو بيدي أبيك الهيثم[٢٣]

وقد سخر جرير من الفرزدق لأنه سلك في التماسه الغنى مسلكاً ما كان يجب أن يسلكه لو أنه كان متمسكاً بمبادئه. فقد هجاه حين لجأ إلى المهاجر القيسي – وكان الفرزدق يكثر من هجاء قيس من قبل – فقال :

رأيتك إذ لم يغنك الله بالغنى رجعت إلى قيس وخدّك ضارع[٢٤]

ولكن الغنى سلعة نادرة لا ينجح في تحصيلها إلّا قلة محظوظة. أما الكثرة الغالبة التي تخيب في مسعاها لتحصيل ما تصبو إليه من آمال فإنها تتذرع على وجه العموم بالصبر والقناعة في مواجهة خيبتها بينما توجه قلة منها جهودها لنشاط معارض للمجتمع تحاول به احراز ما أعجزها تحصيله بالطرق السوية المشروعة. وكثيراً ما برز فقر هذه الجماهير وبؤسها في الشعر الذي يوجهه الشعراء للخلفاء والولاة كما ذكرنا في الباب السابق. ولكن هذه المفارقة في الثراء وان كانت تفصل بين الأغنياء والفقراء بهوة بالغة الاتساع، فلم تترك أثراً واضحاً على الشعر. ففي حين أطنب كثير من الشعراء في تصوير فقر الفقراء وآلامهم فإننا قلَّ ان نجد شعراً حتى عند الخوارج يتحدث في توسع عن الأغنياء يفضح عيوبهم ويصور سخط الفقراء عليهم[٢٥]. ويبدو أنه لم يكن لهؤلاء الفقراء ما يحملونه على أغنياء قبائلهم بالذات والحالات الكثيرة التي نرى فيها فرداً كالفرزدق يعتمد على سخاء الاغنياء من أقربائه[٢٦] شاهد قوي على روح التعاون والتكاتف التي كانت تحكم العلاقات

---

٢٢ ديوان الفرزدق ٨٤/١ .

٢٣ نفسه ٢٠١/٢ .

٢٤ النقائض ٦٩١ ؛ ابن سلام ٣٥٥ .

٢٥ انظر الباب الأول الفصل الثاني ص ٥١ .

٢٦ انظر كامل المبرد ٢٤٢/٤ – ٣ ؛ النقائض ٣٨١ ؛ ابن سلام ٢٦٢ – ٣ .

بين الفقراء والأغنياء. وكان الأمر يتعدى أحياناً دائرة الأقرباء، إذ كثيراً ما قدّم بعض الأباعد يد المساعدة في حالة العسرة. قال الأصمعي: مرّ أسماء بن خارجة الفزاري على الفرزدق وهو يهنأ بعيراً له بنفسه، فقال له أسماء: يا فرزدق كسد شعرك واطّرحتك الملوك فصرت إلى مهنة إبلك، فقد أمرت لك بمائة بعير، فلم يملك الشاعر إلّا أن يمدحه بابيات جياد[٢٧]. وشهرة الفرزدق هي التي ضمنت بقاء هذه القصة، ولكن ليس هناك من سبب يدعونا للتشكك في حدوث كثير مثلها لأفراد آخرين لم ترو لنا المصادر أخبارها. فقد كان كرم شخصيات مثل يزيد بن المهلب ومالك بن مِسْمَع وعمر بن عبيد الله بن معمر وبلال بن أبي بردة وكثير غيرهم كرماً يكاد يكون أسطورياً[٢٨].

بيد أن طبيعة مثل هذا المجتمع المنقسم الذي يغري بالمنافسة والمزاحمة كانت بحيث تثير الكثير من المشاعر المختلفة التي تتفاوت في قوتها وضعفها وتتراوح بين السلبية والتفويض المطلق والمرارة وشعور الخيبة والتحسر والحسد. والاتجاه الذي يسعى إلى فلسفة الأمور بالارتكاز على تعاليم الدين بحيث يصبح أقرب إلى التوكل المطلق يمثله عروة بن أُذينة الذي يقول:

لقد علمت وما الإسراف من خلقي ... ان الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى له فيُعَنِّيني تطلبه ... ولو قعدت أتاني لا يُعَنِّيني
كم قد أفدت وكم أتلفت من نشب ... ومن معاريض رزق غير ممنون
فما أشرت على يُسر وما ضرعت ... نفسي لخلة عسر جاء يبلوني
خيمي كريم ونفسي لا تحدثني ... أن الإله بلا رزق يخليني[٢٩]

وكانت الأفكار الجبرية التي تدعو إلى التسليم والاذعان للقضاء والقدر الذي

---

٢٧ الأغاني ١٩/٣٥ .

٢٨ العقد الفريد ١/٢٢٤ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ – ٦ .

٢٩ الأغاني ٢١/١٦٤ ؛ المرتضى: الأمالي ٢/٦٩ .

لا يرد قد أخذت تنتشر وتؤثر على الأفراد إلى درجة بلغت عند بعضهم حدّ التسليم المطلق، كما يستدل من حالة أبي حرب ابن أبي الأسود الدؤلي. قال أبو عبيدة: كان أبو حرب بن أبي الأسود الدؤلي قد لزم منزل أبيه بالبصرة لا ينتجع أرضاً ولا يطلب الرزق في تجارة ولا غيرها، فعاتبه أبوه على ذلك، فقال أبو حرب: إن كان لي رزق فسيأتيني[٣٠]. ولا تدري إن كان هذا التصرف رد فعل مباشر لتعاليم المذاهب الكلامية التي كانت تؤكد خضوع الإنسان لقضاء الله وقدره وانه لا إرادة لإنسان مستقلة عما يريده الله وقد استغل ذلك الأمويون استغلالاً كبيراً لإبطال كل مقاومة لنظامهم. فكان ردّ أبي الأسود عليه:

وما طلب المعيشة بالتمني ... ولكن ألق دلوك في الدلاء
تجئك بملئها يوماً ويوماً ... تجئك بحمأة وقليل ماء[٣١]

ولكن اضطراب الحظوظ وتقلب الأرزاق كان يقلق الناس ويزعجهم. وقد رأى فيه أبو الأسود الدؤلي اصبع القدر حين قال:

وعجبت للدنيا ورغبة أهلها ... والرزق فيما بينهم مقسوم
والأحمق المرزوق أعجب من أرى ... من أهلها والعاقل المحروم
ثم انقضى عجبي لعلمي أنه ... رزق موافٍ وقته معلوم[٣٢]

وكان بعضهم يركن إلى تحقير الغنى خاصة إذا ارتبط باللؤم، كما في قول الفرزدق في المهلب:

لا تحسبن دراهماً جمّعتها ... تمحو مخازيك التي بعمان[٣٣]

وأياً ما كان الحال فللثروة منطقها الخاص وسلوكها الذي تفرضه على صاحبها

---

٣٠ الأغاني ١١٧/١١ ؛ ديوان أبي الأسود ١٨٦ .

٣١ ديوان أبي الأسود ١٨٧ ؛ ياقوت: إرشاد ٢٨١/٤ ؛ الأغاني ١٢٢/١١ .

٣٢ ديوان أبي الأسود ٢٣٦ .

٣٣ الأغاني ٢٨/١٩ .

وقد لا يرضى ذلك كل معارفه. فقد لام صخر بن حبناء أخاه الغنى المغيرة بقوله :

رأيتك لمَّا نلت مــالاً وعضَّنــا زمان نرى في حدّ أنيابــه شغبا
تجنَّى عــليّ الدهــر اني مــذنب فأمسك ولا تجعل غناك لنا ذنبا[٣٤]

وقال أبو الأسود لأحد أصحابه :

أإن نلــت خـيراً سرّني أن تنــالــه تنكرت حتى قلت ذو لبدة وردُ[٣٥]

وعيوب الحياة التجارية لا تحتاج لبيان. إذ ما أكثر ما يلجأ الناس للغش والخديعة لكسب المال. ويروون أن رؤبة سمى ساحة الصيارفة بالبصرة (دار الظالمين) فلصق بها هذا الاسم لزمان طويل[٣٦]. وقد سجل لنا أبو الأسود صوراً حيّة لمسلك التجار في هذا المقام. فكشف عن تحايل تاجر يدعى وِثاق في قوله :

يريـد وثاق ناقـتي ويعيبها يخادعني عنها وِثاق بـن جـابر
فقلت تعـلّم يا وثاق بأنها عليك حمى أخرى الليالي الغوابر[٣٧]

وقال عن تاجر جمال آخر يدعى أوس بن عامر :

أتاني في الطيفــاء أوس بن عامر ليخدعني عنهــا بحـن ضراسها
فسام قليلاً يائسـاً غـير نـاجز وأحضر نفساً واثقـاً بمكاسـها
فأقسمت لو أُعطيت ما سُمت مثله ـ وأنت حريص ـ ماغدوت براسها[٣٨]

وأوضح لنا خيانة خادمه وعميله التجاري نافع في صورة واقعية حين قال :

إذا كنت تبغي للأمـانة حـاملاً فـدع نافعاً وانظر لها مــن يطيقها

---

٣٤ كامل المبرد ١٢/٣ .

٣٥ ديوان أبي الأسود ١٢٥ ؛ وانظر أيضاً ٢٤٨ – ٩ ؛ السيرافي : أخبار النحويين ٩٢ – ٣ ؛ ديوان العجاج ٣٩ – ٤٠ ؛ ديوان رؤبة ٩٩ – ١٠٠

٣٦ الأغاني ٨٩/١٦ .

٣٧ ديوان أبي الأسود ١١١ – ١١٢ ؛ الأغاني ١١٥/١١ .

٣٨ ديوان أبي الأسود ١١٣ ؛ الأغاني ١١٥/١١ ؛ انظر الديوان أيضاً ١٤٦ – ٧ ؛ ١٧٢ – ٣ .

فإن الفتى خِبٌّ كذوب وانه — له نفس سوء يجتويها صديقها
متى يخل يوماً وحده بأمانة — تُغَلُّ جميعاً أو يُغَلّ فريقها
متى لا يصادفها غُدُوًّا فإنه — سيفلس عنها أو ستكسد سوقها
ويهلكها حتى تصير تفاهة — ويلحقها من كل غيٍّ لحوقها
على أنه أبقى الرجال سمانة — كما كل مسمان الكلاب سروقها[٣٩]

ووجود هذا الفقر المريع وسط الثراء والغنى فتح المجال واسعاً للكدية والسؤال كأسلوب لكسب لقمة العيش. ومسلك كبار شعراء البصرة في هذا المقام لا يحتاج إلى مزيد من التفصيل. ومما يشهد لانتشار هذا الأسلوب انخراط شعراء يمثلون مجموعات أخرى فيه. فقد لجأ الشاعر الخارجي عمران بن حطان الذي مرّ بنا بعض شعره في الزهد، إلى أسلوب فريد استعان فيه بالجدل الديني ليحقق سؤله، وذلك حين قال :

وقد عرضت لي حاجة وأظنني — بأني إذا أنزلتها بك مُنْجِح
فإن أكُ في أخذ العطية مربحاً — فإنك في بذل العطية أربح
لأن لك العقبى من الأجر خالصاً — وشكري في الدنيا، فحظك أرجح[٤٠]

وشعر أبي الأسود، رغم نصائحه الكثيرة في ذمّ السؤال[٤١]، يفيض بالطلب والإلحاح في السؤال وذم من لا يلبون حوائجه[٤٢]. ففي إحدى قصائده الطويلة يتوجه بالنصيحة للسائلين شارحاً لهم الأساليب التي عليهم اتباعها في تصديهم للشخصيات المختلفة. فيبدؤها بقوله :

---

٣٩ ديوان أبي الأسود ١٦٦ – ٧ ؛ الأغاني ١٢١/١١ ؛ انظر الديوان أيضاً ٢٢٤ .

٤٠ شعر الخوارج ٢٧ القطعة ٤٩ .

٤١ ديوان أبي الأسود ٢١٢ – ٢١٤ ؛ الأغاني ١٠٧/١١ – ٨ .

٤٢ انظر ديوانه ١٠٩، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٧، ١٣٦، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٩، ١٥٧، ١٦٤، ٥، ١٩٣، ١٩٩ – ٢٠٠ ٢١٤ – ٢١٥، ٢١٩، ٢٤٠، ٢٤٨ – ٩ ، ٢٥٠ .

وإذا طلبت إلى كريـــم حـــاجـة   فلقـــاؤه يكفيك والتسليم[٤٣]

وينصح في حالة هذا الكريم الاقتصاد في الإلحاف وإن تأخر عطاؤه. أما في حالة اللئيم البخيل فإن الأسلوب يجب أن يختلف لاختلاف ما بين الرجلين :

وإذا طلبت إلى لئيم حـــاجـــة   فألحَّ في رفق وأنت مـــديم
واسكن قِبالـــة بيتـــه وفنـــاءه   بأشد ما لزم الغريم غريم[٤٤]

ويمدنا أبو الأسود فوق ذلك بنموذج لظاهرة اجتماعية أخرى مصدرها ضيق الموارد في مجتمع شديد المزاحمة والمنافسة. فقد كان بخيلاً وكان بخله مضرب الأمثال[٤٥]. وقال لمن لامه على ذلك :

يلومونني في البخـــل جهـــلاً وضلةً   ولَلَبخْل خيرٌ من سؤال بخيل[٤٦]

وقد شرح فلسفته المتشددة في المعاملات المالية لصديق أهداه سجاداً فرفض الإهداء وأصر على دفع الثمن، قائلاً :

بعني نسيبُ ولا تثبـــني انـــني   لا استثيب ولا أُثيب الـــواهبـــا
إن العطية خـــير مـــا وجهتهـــا   وحسبتها حمداً وأجراً واجبـــا
ومن العطية مـــا يعود غـــرامـــة   وملامـــة تبقى ومنًّا كـــاذبـــا
وبلوت أخبار الرجـــال وفعلهم   فملئت علمـــاً منهم وتجاربـــا
فإذا وعدت الوعد كنت كغارم   ديناً أقـــرّ به وأحضر كـــاتبـــا
حتى أنفذه عـــلى مـــا قلتـــه   وكفى عليّ بـــه لنفسي طالبا
وإذا فعلت فعلت غير محاسب   وكفى بربك جازياً ومحاسبا
وإذا منعتُ منعت منعـــاً بينـــاً   وأرحت من طول العناء الراغبا

---

٤٣ ديوانه ٢٣٥ ، ومن النقاد من يشك في نسبتها إليه .

٤٤ ديوان أبي الأسود ٢٣٦ .

٤٥ الأغاني ١١/١٠٨ – ٩ ، ١١٤ ، ١١٦ .

٤٦ العقد الفريد ٧/٢٢٠ .

لا أشتري الحمد القليل بقــاؤه يوماً بذم الدهر أجمع واصبا[٤٧]

وقد دفع الفقر جماعات أخرى لتجاوز حدود القانون واتخاذ النهب والسلب وقطع الطريق وسيلة لكسب العيش. وقد ترك لنا أحد هؤلاء اللصوص ويدعى فُرْعان ابن الأعرف من تميم أبياتاً حملها مشاعره وسعى فيها إلى تبرير مسلكه فقال :

يقــول رجــالٌ إن فُرْعــان فـاجـر ولله أعطــاني بَنِيٍّ ومــالِيــا
فأربعةٌ مثــل الصقــور وأربعــاً مراضيع قد وَفَّيْن شُعثاً ثمــانيــا
إذا اصطنعوا لا يَخْبُؤون لغــائـب طعاماً ولا يرعون مــن كان نائيا[٤٨]

وكان نتيجة كل هذه الميول والاتجاهات نموّ علاقات اجتماعية مغايرة للعلاقات القبلية التقليدية من حيث اعتمادها على الأساس الفردي لا الجماعي. إذ أسهم اتجاه الناس للبحث عن السلطة والثروة في صحبة الأمراء أو الخلفاء أو أغنياء التجار في نموّ العلاقات الشخصية وازدهارها. وأصبح رجال مذكورون مثل حارثة بن بدر وأنس بن زنيم (وفي بعض الروايات بن أبي أناس أو إياس) ويزيد بن مفرّغ الحميري وغيرهم يعرفون بعلاقات الصداقة الشخصية التي تربطهم بالأمراء أكثر مما يعرفون بعلاقاتهم القبلية. ونجم عن سعي أمثال هؤلاء لإحراز رضى أولياء نعمتهم ضرب من الشعر موازٍ لذلك الشعر القبلي المعروف بالنقائض ويتخذ أسلوب المناقضة إهاباً له. ولكن مركز الثقل في هذا الشعر كان الفرد: مزاياه وعيوبه الشخصية. فالمنافسة العنيفة بين حارثة بن بدر وأنس – صديقي عبيد الله بن زياد وكان يغري بينهما – كانت تدور في عمومها حول موضوع واحد هو خيانة الأصدقاء. فحين نظم حارثة بن بدر هذين البيتين في أنس :

تبدلت من أنس أنــه كذوب المــودة خوَّانهــا

---

٤٧ ديوان أبي الأسود ٢١٢ – ٢١٣ ؛ الأغاني ١١/ ١١١ .

٤٨ ابن قتيبة: الشعر والشراء ٢/٦٢٧ .

أراه بصيراً بضُرّ الخليل ... وشرّ الأخلاء عُوَرانها[٤٩]

ردّ عليه أنس بقوله :

إن الخيانة شرّ الخليل ... والكفر عندك ديوانها

بصرت به في قديم الزمان ... كما تُبصر العين إنسانها[٥٠]

وهذه العلاقة الشخصية القوية بين الوليّ ومولاه تظهر في صورة قوية في كلمات أنس التي وجهها لعبيد الله بن زياد :

سل أميري ما الذي غيّره ... عن وصالي اليوم حتى ودعه

لا تُهني بعد إكرامك لي ... فشديد عادة منتزعه

لا يكن وعدك برقاً خلباً ... إن خير البرق ما الغيث معه[٥١]

ولعله من المناسب أن نشير هنا إلى أن الخلافات الفكرية والمذهبية إلى جانب الميول السياسية والحزبية كان لها دورها الهام في إضعاف روح التضامن الجماعي وإذكاء الروح الفردية. وما حدث لأبي الأسود الدؤلي في هذا المجال يوضح ما نحن بصدده. فقد كان شيعياً متشدداً ولكنه وجد نفسه وسط مجموعة لا تشاركه آراءه، بل كانت صريحة في عدائها له. فجيرانه من بني قشير كانوا عثمانية يحصبون بيته بالحجارة كل ليلة ويزعمون ان الله كان يفعل ذلك به[٥٢]. وهذا العداء المفرط وما يصاحبه من شعور بالانعزال والوحدة يولد بالضرورة مشاعر تضامن وصداقة قوية بين أفراد هذه المجموعات أو الأقليات التي تخرج عن التيارات الفكرية أو الدينية أو السياسية العامة. وولع أبي الأسود بالصداقة أمر ملفت للنظر، ويشهد

---

٤٩ الأغاني ٢٣/٢١ .

٥٠ نفسه . وانظر ٢٣ – ٢٤ ؛ ديوان أبي الأسود ١٢٦، ١٢٧، ١٢٧ – ٩، ١٣٠ لمناقضات مشابهة .

٥١ الأغاني ٢٥/٢١ .

٥٢ ديوان أبي الأسود ١٧٦ – ١٨٠ ؛ الأغاني ١١٦/١١ ؛ دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الثانية : أبو الأسود.

له الإشارات الكثيرة في ديوانه، الذي يعتبر بحق دفاعاً شخصياً مجيداً عن الصداقة[٥٣]. وتظهر في مقطوعاته الكثيرة التي يوجه فيها اللوم والتأنيب لأصدقائه حساسيته المفرطة واهتمامه الكبير بكل ما يتعلق بعلاقات الصداقة من وفاء وخيانة. فهو يشير إلى عذابه الطويل في هذه الأبيات :

تعوّدت مسّ الضرّ حتى ألفتـه　　وأسلمني طـول البلاء إلى الصبر
ووسَّع صدري للأذى كثرة الأذى　　وكان قديماً قد يضيق به صدري
إذا أنـا لم أقبل من الدهر كلّ ما　　ألاقيه منه طال عتبي على الدهر[٥٤]

ويحصى عدداً من محاولاته التي فشل في إقامة علاقة صداقة فيها[٥٥] ويدعو إلى الحذر في معاملة الأصدقاء فيقول :

أحبب إذا أحببت حبـاً مقاربـاً　　فإنـك لا تدري متى أنت نـازع
وأبغض إذا أبغضت غير مبـاعـد　　فإنـك لا تدري متى أنت راجـع
وكن معدناً للحلم واصفح عن الخنا　　فإنـك راء ما حييت وسامـع[٥٦]

ولكن متى توطدت الصداقة فالصبر والحلم واجب :

إذا أنت لم تعـفُ عـن صاحـب　　أساء وعاقبته إن عـثر
بقيت بلا صاحب فاحتمل　　وكن ذا قبول إذا مـا اعتذر[٥٧]

بيد أن شعر أبي الأسود في الصداقة مفارق في كثير من جوانبه لشعره الذي

---

٥٣ ديوان أبي الأسود ١٠٩، ١٢٢، ١٢٤ – ١٤٣، ١٥٣ – ١٥٦، ١٥٨، ١٦٤ – ٥، ١٧١ – ٣، ١٨٥ – ٦، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٢ – ٣، ٢٠٦ – ٨، ٢١٤ – ١٥، ٢١٦ – ١٧، ٢١٩، ٢٢٤، ٢٤١، ٢٤٥، ٢٤٦ – ٩، ٢٥٠ .

٥٤ نفسه ٢٢٧ – ٨ ؛ ياقوت: إرشاد ٢٨٢/٤ .

٥٥ ديوان أبي الأسود ١٢٢ ، ٢٠٢ ، ٢٤٨ .

٥٦ نفسه ١٣٨ – ٩ ؛ الأغاني ١١/ ١١٦ .

٥٧ نفسه ٢٤١ .

يتناول فيه العلاقات القبلية والجماعية. فرغم أنه افتخر بشجاعة قومه حين قال :

وانّي لمن قـوم إذا حاربـوا العــدى أغاروا بفتيان مغاوير كالشهب[٥٨]

إلّا أن اتجاهه فيما عدا ذلك مختلف. فإحساسه بالرابطة الإسلامية قوي وواضح رغم قوله الذي مرّ بنا حيث جعل مجامعة الإسلام ومجد العروق خير ما يفخر به إنسان[٥٩]. فهو يبرر امتناعه عن شتم ذوي القربى بقوله :

وإني ليثنيني عــن الجهــل والخنا وعن شتم ذي القربى خلائق أربع
حياء وإسلام وبُقْيا وإنــني كريم ومثلي قد يضرّ وينفع[٦٠]

وقد أشار إلى اضمحلال رابطة التضامن الجماعي في قصيدة أعلن فيهـا استقلاله عن قومه :

فإن يـك قومي أهلُ شـاءٍ وجـامل ومالٍ كثير لا تعــدّ مساربــه
فمـا لي في أمــوال قــومي حـاجة ولا عزّهـم ما عاجل الظلّ آيبه
وكنتم كغيث الرّكّ مــن يرع دونــه يقصِّر ومن يطلب حيا فهو جادبه
فما تركت أحلامكم من صديقكم لكم صاحب إلّا قد ازوَرَّ جانبه[٦١]

وما دامت رابطة الجماعة قد ضعفت أو انحلت فلا بد من البحث عن بديل ومن ثم جاء سعي أبي الأسود الحثيث وراء الأصدقاء خارج مجموعته القبلية. ونلاحظ نفس الاتجاه عند شعراء الخوارج الذين يفيض شعرهم بأقوى العواطف عند الحديث عن الأصدقاء الذين يسقطون في ميدان النضال كما رأينا في حالة عمران بن حطان وألمه الممض لموت صديقه أبي بلال مِرْدَاس بن أُدية[٦٢] .

---

٥٨ نفسه ١٣٤ .

٥٩ نفسه ١٦٥ ؛ وانظر ص ٢٦٠ – ٢٦١ أعلاه .

٦٠ نفسه ١٤٩ – ١٥٠ ؛ الأغاني ١١٧/١١ .

٦١ نفسه ٢٤٩ .

٦٢ شعر الخوارج المقطوعات ٥، ١٣، ٢٠، ٢٧، ٥٠، ٦٢، ٧٠، ٧٣، ٧٧، ٨٤، ٩٣، ٩٥ .

الفصل الرّابع

الموالي

مهدت إقامة العرب بالمصر السبيل لاتصالهم اتصالاً مباشراً واسعاً بسكان المنطقة من الانباط الذين كانوا يعيشون على فلاحة الأراضي الزراعية إلى جوارهم، وبأسرى الحرب من الفرس الذين كانوا يساقون بالآلاف إلى المدينة[1] . بيد أن ما نجم عن الفتوح في هذا المجال لم يكن إلّا حلقة أخيرة في سلسلة طويلة من تطور العلاقات بين العرب وجيرانهم ترجع بدايتها إلى ما قبل الإسلام بكثير. فقد كانت قبائل شرق الجزيرة مجاورة للفرس واختلط بعضها مثل بني العَمّ بهم[2] ، وقد جرّ عليهم ذلك هجاء جرير كما رأينا[3]. أما الروايات عن شيوخ العرب الذين تزوجوا إلى فارسيات فكثيرة. ويذكرون في هذا المجال أن كسرى أهدى المِذَبَّة جدّة قُفَيْرة الجدة الكبرى للفرزدق، لزُرَارة بن عُدُس بن دارم[4] ، وقد أمد ذلك جريراً بحجته الأساسية التي بنى عليها هجاءه للفرزدق .

---

١ انظر الباب الأول ص ٣٢ – ٤٩ .

٢ الطبري ١/٢٥٣٥ .

٣ انظر الباب الثالث ص ١٣٢ .

٤ النقائض ٢١١ .

وقد جعلت الفتوح زواج العرب إلى الفارسيات أمراً عادياً نجم عنه ظهور طبقة جديدة من المولدين عُرفوا بالهجناء. وطبقاً لتقاليد العرب فإن الهجين دون مرتبة الصريح، وكان الجاهليون يحرمونهم حق الوراثة(٥). وكانت سياسة بني أمية تحول بينهم وتولي الخلافة أو المناصب الهامة لأن العرب لا يخضعون لغير العرب في زعمهم(٦). بيد أن الكثيرين منهم(٧) تسنموا مناصب عالية في الدولة لمكانة آبائهم العرب ونفوذهم، مما عرضهم لنقدات الشعراء وهجائهم. ولعلّ خير ما يشهد على حساسية موقف هؤلاء المولدين في المجتمع ما حدث لأسرة زياد التي حكمت البصرة من ٤٥ هـ/ ٦٦٥م إلى ٦٤ هـ/ ٦٨٣م مع يزيد بن مفرّغ الذي كان مولى وينتسب إلى حمير(٨). وكانت حجة يزيد عليهم قائمة على اختلافهم عن العرب وأنهم من أصل أجنبي. وقد بدأ هجومه عليهم بالتساؤل عن فعلة معاوية حين أقرّ بأخوة زياد له. قال:

ألا أبلغ معاوية بن حرب	مغلغلة من الرجل اليماني
أتغضب أن يقال أبوك عفّ	وترضى أن يقال أبوك زاني
وأشهد أن إلّك من زياد	كإلّ الفيل من ولد الأتان
وأشهد أنها حملت زياداً	وصخر من سمية غير دان(٩)

وتعجب الشاعر من المكانة الاجتماعية التي كان يحتلها أبناء سمية الثلاثة مشيراً بذلك إلى تعقد النظام الاجتماعي الذي أتاح لكل منهم الاستمتاع بوضع مختلف

---

٥ العقد الفريد ١٤٣/٧.

٦ نفسه ١٤٤/٧؛ هكذا فقد مسلمة بن عبد الملك (٦٣ - ١٢٠ هـ/ ٦٨٢ - ٧٣٨م) حقه في الخلافة لأن أمه غير عربية: ولم يتول ابن مولاة الخلافة قبل عام ١٢٦ هـ/ ٧٤٤م حين نصِّب يزيد الثالث وكانت أمه جارية صغدية خليفة في أعقاب ثورة دامية.

٧ انظر الباب الأول ص ٤٨ - ٤٩.

٨ ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢٨٩/٢؛ الأغاني ٥٢/١٧؛ ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٣١٩/١.

٩ ابن قتيبة: الشعر ٣٢٢/١؛ العقد الفريد ١٤٧/٧؛ انظر الطبري ١٩١/٢.

عن وضع أخيه. قال :

إنّ زيـاداً ونافعـاً وأبـا ... بكرة عندي من أعجب العجب
إن رجـالاً ثـلاثـة خلقـوا ... من رحم أنثى مخالفي النسب[١٠]
ذا قرشي كمـا يقـول وذا ... مولى وهـذا ابن عمه عربي[١١]

ثم يبطل حجة زياد من أن أمه سمية كانت من بني تميم بقوله :

فأقسم ما زياد من قريش ... ولا كانت سمية مـن تميـم
ولـكن نسل عبـدٍ مـن بـغـيّ ... عريق الأصل في النسب اللئيم[١٢]

وقال لعَبَّاد وعبيد الله ابنى زياد :

أعبّـاد مـا للؤم عنـك محـوّل ... ولا لـك أم في قريش ولا أب
وقل لعبيد الله مالك والدٌ ... بحق ولا يدري امرؤ كيف تنسب[١٣]

ويزعم أن أصلهم نبطي فيقول :

ألا أبلغ عبيد الله عـني ... عبيد اللؤم عبـد بـني علاج
عليّ لـكم قـلائـد باقيـات ... يثرن عليكمو نقـع العجاج
تدعيت الخضارم مـن قريش ... فما في الدين بعدك مـن حجاج
أبن لي هـل بيثرب زَنْـدَوَرْد ... قِرى آبـائك النبط العجاج[١٤]

ويطلب منهم الرجوع إلى قراهم لمواصلة كدحهم اليومي ، فيقول :

---

١٠ زياد كان فيما زعموا ابن أبي سفيان ونافع ابن الحارث بن كَلَدة الثقفي ، أما أبو بكرة فابن نُفَيْع بن مسروح ، عبد حبشي .

١١ ابن قتيبة : الشعر والشعراء ٣٢٣/١ .

١٢ الأغاني ٦٧/١٧ ؛ وسمية أمة فارسية ؛ انظر دائرة المعارف الإسلامية الأولى مادة أبي بكرة .

١٣ نفسه ٥٩/١٧ .

١٤ نفسه ٦٥/١٧ ؛ انظر أيضاً ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ .

إنّ العُبَيْــد ومــا أدّت طروقتــه لأعبد مــن زوان لا يصلّونــا
بزندورد، خــذوا منها مساحيكـم واستبدلوا بالمآزيـر التبابينــا[١٥]

وكان الفرزدق قبلها (حوالي ٥٣ هـ / ٦٧٢ م) قد أكّد أصل زياد الفارسي حين أنّب مسكين الدارمي على رثائه له بقوله :

أتبكي امرأ مــن أهل ميسان كافراً ككسرى على عِدّانه أو كقيصرا[١٦]

وقد بلغ هجاء ابن مفرّغ لآل زياد من الانتشار والذيوع حداً خشوا منه على سمعتهم ومكانتهم فقبض عليه عبيد الله وعباد وأودعاه السجن وعرّضاه لصنوف من التعذيب والمهانة لم ينقذه منها إلّا تدخل الخليفة (معاوية أو يزيد ابنه) الذي أنجاه من موت محقق[١٧] .

كان إحساس العرب بامتيازهم عن رعاياهم من غير العرب يزداد عمقاً باتساع اتصالهم المباشر بهم. وكان شعورهم بالسخط والغضب على ما يرونه من إفساد لنقائهم العنصري من جراء اختلاط هؤلاء الأجانب بهم بارزاً في هجاء الشعراء ونقائضهم. والوسيلة التي لاحظناها من قبل[١٨] والتي كان الشعراء يسلكونها في هجاء خصومهم بإعلان بعد هؤلاء الخصوم عن العرب لم تكن في كل الأحيان وليدة الخيال أو الاختلاق. إذ كان لبعض هذه الاتهامات أساس من الصحة. فقد رأينا أن جدّة الفرزدق كانت فارسية الأصل وكانت أم البعيث جارية اصفهانية[١٩] أو سجستانية[٢٠] . وكان عدد الفرس والمولدين منهم عظيماً كما مر بنا في توسل

---

١٥ ابن سلام ٥٥٦ – ٧ .

١٦ ديوان الفرزدق ٢٠١/١

١٧ انظر ابن قتيبة : الشعر ٣٢٠ – ٣ ؛ الطبري ١٩٢/٢ – ٥ ؛ ياقوت : إرشاد ٢٩٨/٧ ؛ ابن سلام ٥٥٤ – ٦ ، الأغاني ٥٤/١٧ – ٧ ؛ بلا ١٥١ ؛ وانظر شعر ابن مفرغ الذي جمعه بلا في

١٨ انظر الباب الثالث ص ١٣٦ . Mélanges Louis Massignon, Damascus, 1957, III, 195-232.

١٩ النقائض ٤٠ .

٢٠ ابن سلام ٣٢٦ .

الأحنف بن قيس لمعاوية بشأنهم[٢١]. وقد عرّض اختلاط النسب بهذه الكيفية الكثيرين منهم لهجمات الساخطين من الشعراء. فحين أغضب عمرو بن عفراء الضبي الفرزدق هجاه هذا بقوله :

ولو كنت ضبياً صفحت ولو سرت   على قدمي حَيَّاته وعقاربه
ولكن ديافيّ أبوه وأمه   بحوران يعصرن السليط أقاربه[٢٢]

وكان صالح بن كدير المازني غنياً ولكنه كان بخيلاً فقال فيه الفرزدق :

إن تسأل الأشياخ من آل مازن   تُردّ إلى علج كثير القوادح
وكم في قرى ميسان من علج قرية   قريب، بكفيه الوشوم، لصالح[٢٣]

وكان جوار بعض القبائل العربية لهؤلاء الانباط مادة طيبة للشعراء اعتمدوا عليها في تصويرهم بأنهم أجانب لا علاقة لهم بالعرب. وكان هذا واضحاً في هجاء الفرزدق لقبيلة طيء إذ قال لهم مرة :

وما طيء إلّا قبائل أُنزلت   إلى أهل عين التمر من كل جانب
فما علمت طائية من أب لها   ولو سألت عن أصلها كل ناسب[٢٤]

وسماهم في مناسبة أخرى أنباطاً حين قال :

وما كنت أخشى طيئاً أن تسبني   وهم نبط لم تعتصب بالعمائم
نبيط القرى لم تختمر أمهاتهم   ولا وجدت مسّ الحديد الكوالم
وما يعلم الطائي ممن أب له   ولو سألوا عن طيء كل عالم
وما يمنع الطائي إلّا رصاصة   بها نقش سلطان على الناس قائم[٢٥]

---

٢١ انظر الباب الأول ص ٤٩ .

٢٢ ديوان الفرزدق ٤٦/١ ؛ دياق من قرى الشام انظر النقائض ٢٩ .

٢٣ نفسه ١٢٤/١ ؛ وانظر نماذج أخرى ؛ نفسه ١١٩/١ ، ١٧٢ ؛ الأغاني ٢٤/١٩ .

٢٤ نفسه ٤١/١ .

٢٥ انظر ص ٢٩٢ أدناه .

متى يهبط الطائي أرضاً ولـــم يكن به وشم موشوم يكن غنم غانم[٢٦]

وقد سخر نفس الشاعر بالمثل من الأزد وسماهم «أنباط العراق»[٢٧]. وقد جعلت معرفة العرب للانباط المقارنة بينهم وبين خصومهم سهلة كما يظهر ذلك في هجاء جرير لبني سليط حين قال :

إن سليطاً كاسمهـــا سليـــط لولا بنو عمرو وعمرو عيـط

قلت ديافيون أو نبيط[٢٨]

والواضح أن العرب كانوا يأنفون من اختلاط الدم حتى من ناحية الأم كما بيَّن ذلك الفرزدق في مدحه لعباد بن عبَّاد بن علقمة :

صلت الجبين كريـم العـود منتجب لم يدر ما طعم ثَدْيَي أُم أولاد[٢٩]

ويبدو أن هذه الأمة أو السرية لم تكن تتمتع بمكانة اجتماعية محترمة كما يستشف من كلام الفرزدق عن ابنته مَكِّية وكانت أمها جارية زنجية :

فإن لا تعـــدوا أمهـا مـن نسائكـم فإن أباها والــد لن يشينهـــا[٣٠]

وكان زواج المولى من عربية حرة نادراً في البداية محفوفاً بالمخاطر كما مر بنا من قبل[٣١]. ولكن بتحسن أحوال الموالي وارتفاع درجتهم في السلم الاجتماعي باكتسابهم الأموال وتشربهم ثقافة العرب ازدادت فرصهم في التزوج إلى الحرائر وفي المصادر أخبار عن هذه الظاهرة. وقد كان زواج يحيى بن أبي حفصة جدّ

---

٢٦ ديوان الفرزدق ٢/٢٧٥ ؛ وانظر أيضاً ١/١١٤ – ١١٥ ؛ ٢/١١٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧٠ ، ٢٨٨ ، ٣٤١ ؛ العمدة ١/١٠٩ – ١١٠

٢٧ ديوان الفرزدق ٢/٢٧٠ .

٢٨ النقائض ٢٩ .

٢٩ ديوان الفرزدق ١/١٧٠ .

٣٠ العقد الفريد ٧/١٠٤ .

٣١ انظر الباب الأول ص ٤٩ .

مروان بن أبي حفصة الشاعر مصدر جدل وشقاق كبير. فقد كان أبوه أبو حفصة مولى يهودياً لعثمان بن عفان اعتقه يوم الدار لأنه أبلى يومئذ؛ وكان قد أسلم على يدي عثمان فأثرى وكثر ماله، وتولى الخزن لبني أمية[٣٢]. وكان يحيى ابنه تزوج عمرة بنت إبراهيم بن النعمان بن بشير الأنصاري على صداق عشرين ألف درهم وسيَّر إليها مهرها قبل أن يبني بها. فأثار ذلك ثائرة الناس ولاموا إبراهيم في ذلك فقالوا: زوجت عبداً وفضحت نفسك وأباك. وعيّره أحدهم بقوله :

لعمري لقد جلَّلت نفسك خزية ... وخالفت فعل الأكثرين الأكارم
ولو كان جدّاك اللذان تتابعا ... ببدر لما راما صنيع الألائم

وأرادوه على انتزاعها فأبى وعظم الأمر في ذلك جداً وينسبون إلى إبراهيم أنه قال في ذلك :

فما تركت عشرون ألفاً لقائل ... مقالاً ولم أحفل مقالة لائم
فإن كنت قد زوجت مولى فقد مضت ... به سُنّة قبلي وحبّ الدراهم[٣٣]

وأثار زواج يحيى هذا أو أبوه في رواية أخرى[٣٤] من فتاة تميمية أخرى تدعى خولة بنت مقاتل بن طلبة بن قيس بن عاصم، وكان قيس بن عاصم سيد أهل الوبر، خواطر الناس وثائرة الشعراء. فقال في ذلك القُلاخ العنبري :

نبئت خولة قالت حين أنكحها ... لطالما كنت منك العار أنتظر
أنكحت عبدين ترجو فضل مالهما ... في فيك مما رجوت الترب والحجر
لله درّ جياد أنت قائدها ... برذنتها وبها التحجيل والغرر[٣٥]

---

٣٢ ابن المعتز: طبقات الشعراء المحدثين ٤٤ .

٣٣ نفسه ٤٤ ؛ العقد الفريد ١٤٥/٧ – ٦ .

٣٤ المرزباني: معجم الشعراء ٢٢٧ .

٣٥ ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٧٣٩/٢ – ٧٤٠ ؛ كامل المبرد ٢١٣/٤ ؛ العقد الفريد ١٤٦/٧ ؛ ابن المعتز: طبقات ٤٤ .

وحين علم الشاعر أنه مهرها خِرَقاً (أي ملابس) قال في ذلك :

سلام على أوصال قيس بن عاصم   وإن كُنَّ رمساً في التراب بواليا
أضيعتمو خيلاً عراباً فأصبحت   كواسد لا ينكحن إلّا المواليا
ولم أر أثواباً أجرَّ لخزية   وألأم مكسوًّا وألأم كاسياً
من الخِرَق اللائي صببن عليكم   بِحَجْر فكنّ المبقيات البواليا

ويقال ان يحيى بن أبي حفصة أجابه بقوله :

تجاوزت حزْناً رغبة عن بناته   وأدركت قيساً ثانياً من عنانيا[٣٦]

وحزْن والد الشاعر. وقال جرير يعيّرهم بذلك :

رأيت مقاتل الطلبات حلىً   فروج بناته كمر الموالي
لقد أنكحتم عبداً لعبد   من الصهب المشوهة السبال
فلا تفخر بقيس ان قيساً   خرئتم فوق أعظمه البوالي[٣٧]

ومما يوضح نفور العرب عامة من تزويج بناتهم الموالي ما جاء في أخبار هشام الدستواني الإباضي الذي كانت الإباضية تبعث إليه من صدقاتها بثياب دستوانية فكان يكسوها الأعراب الذين يكونون بالحباب فأجابوه إلى قول الإباضية وكانوا قبل ذلك لا يزوجون الهجناء فأجابوه إلى التسوية وزوّجوا هجيناً فقال الهجين في ذلك :

إنا وجدنا دَسْتَوانينا   الصائمين المتعبدينا
أفضل منكم حسباً وديناً   أخزى الإله المتكبرينا
أفيكم من ينكح الهجينا[٣٨]

---

٣٦ كامل المبرد ٤/٢١٤ .

٣٧ نفسه ٢١٥ .

٣٨ الجاحظ : البيان والتبيين ١/٤٣ .

ولم يكن العداء يقف عند حدّ الزواج. فلم يكن العرب يخفون احتقارهم العام لهم ولم يكن الشك يخالجهم في لؤمهم. قال جرير :

وما جعل القوادم كالذنابي　　　وما جُعل الموالي كالصميم[٣٩]

وقد بيَّن ذو الرمة منزلتهم الاجتماعية الدنيا حين مدح بلال بن أبي بُردة بقوله :

بحور وحكام قضاة وسادة　　　إذا صار أقوام سواكم مواليا[٤٠]

ويبدو احتقار العرب لمشاعرهم في بيت جرير الذي هجا فيه طُعْمة بن قُرْط الذي طلب منه ثمن ضيافته. قال جرير :

قالوا اشتروا جزرة منا فقلت لهم　　　بيعوا الموالي واستحيوا من العرب[٤١]

وكانت هذه المواقف تثيرهم وتدفعهم أحياناً للرد. فحين قال جرير :

لا تطلبن خؤولة في تغلب　　　فالزنج أكرم منهم أخوالا[٤٢]

تصدى له رياح بن سنيح الزنجي مدافعاً عن قومه وهاجياً له[٤٣] .

وقد عرّضهم الحجاج للمهانة والإذلال حين أرجعهم لقراهم وختم على يد كل رجل منهم اسم البلدة التي وجهه إليها. وقد عبّر أحد الرجاز عن ذلك في قوله :

جارية لم تدر ما سَوْق الإبل　　　أخرجها الحجاج من كِنّ وظل

لو كان بدر حاضراً وابن حَمَل　　　ما نقشت كفّاكِ من غير جَدَل[٤٤]

وظل هذا النقش علامة إذلال للموالي واستغله الشعراء في هجائهم كما فعل

---

٣٩ ديوان جرير ٤٣٣ .

٤٠ ديوان ذي الرمة ٦٦٠ .

٤١ ديوان جرير ٤٦ ؛ وانظر لردهم عليه كامل المبرد ١٩٣/٤ .

٤٢ نفسه ٣٦٣ .

٤٣ انظر كامل المبرد ٨٢/٦ ؛ وعن زنج البصرة انظر كامل ابن الأثير ٣١٤/٤ – ٥ .

٤٤ العقد الفريد ٣٦٨/٣ ؛ كامل المبرد ١٠/٥ .

الفرزدق في هجائه السالف لطيء[٤٥]. وهجا شاعر آخر أحد الموالي بقوله :

وأنت من نقش العجـلي[٤٦] راحته وفرّ شيخك حتى عاذ بالحكم[٤٧] [٤٨]

وقد يضاف إلى هذا المعاملة التي كان يلقونها حين يلتحقون بالجيش[٤٩]. وقد مرت بنا أبيات حارثة بن بدر[٥٠] التي تبرز مكانتهم الدنيا بالقياس إلى من سواهم من الأعراب والعرب. وكانت تواجههم عقبات اجتماعية جمّة أسلفنا القول عن بعضها[٥١] .

ولم تكن في ثقافة المولى وتعليمه ضمانات كافية لإحرازه أي مرتبة اجتماعية. فحين نقد عبد الله بن الحضرمي[٥٢] شعر الفرزدق لم يلق له هذا بالاً أكثر من قوله :

ولـو كـان عبد الله مـولى هجوتـه ولكن عبد الله مـولى مـواليـا[٥٣]

وكان مسلكه مع عنبسة الفيل مماثلاً. فحين علم أن هذا النحوي المولى يروي لجرير شعراً فيه التفت إلى وضاعة أصل أبيه مَعْدان الذي كان رجلاً من أهل ميسان قدم البصرة وأقام بها وسبب تسميته بمعدان الفيل انه كان لعبد الله بن عامر فيل بالبصرة وقد استكثر النفقة عليه فأتاه معدان فتقبل نفقته وتولى أمره فكان يدعى معدان الفيل. فقال الفرزدق فيه :

---

٤٥ انظر ص ٢٨٧ أعلاه .

٤٦ أحد بني سعد من عجل تولى أمر ترحيل الموالي للحجاج .

٤٧ الحكم بن أيوب عامل الحجاج على البصرة .

٤٨ العقد الفريد ٣/٣٦٧ ؛ انظر أيضاً ٣٦٨ .

٤٩ انظر العقد الفريد ٥/١٦٣ لما فعله معاوية وعبد الملك وهشام بشأنهم .

٥٠ انظر ص ٢٧٢ أعلاه .

٥١ انظر الباب الأول ص ٤٢ – ٤٩ .

٥٢ انظر الباب الأول ص ٦٦ .

٥٣ الأنباري: النزهة ١١ ؛ السيوطي: بغية الوعاة ٢٨٢ .

لقد كان في معـدان والفيـل زاجر لعنبسة الراوي عـليّ القصائـدا[٥٤]

وكانت حساسية عنبسة لهذا الهجاء كبيرة إذ يروى أن بعض عمال البصرة سأل عنبسة عن هذا البيت وعن الفيل. فقال عنبسة: لم يقل الفيل وإنما قال اللؤم. فقال لعنبسة: إن أمراً تفرّ منه إلى اللؤم لأمر عظيم[٥٥] .

بيد أن تقدم هؤلاء الموالي كان حثيثاً ومثيراً ولم يكن للعرب في معظم الأحوال من موقف سوى التعبير عن عواطفهم المتوفرة عن طريق الكلمة الساخرة. عن يونس ابن حبيب قال: لما بنى داره فيلُ مولى زياد بالسيابجة صنع طعاماً ودعا أصحاب زياد، فدخلوا الحمام المعروف بحمام فيل وخرجوا فتغدوا عنده، وركب فيل وأصحابه تلك الهماليج والمقاريف والبغال، واجتاز بهم معه على حارثة بن بدر وأبي الأسود الدؤلي وهما جالسان. فقال أبو الأسود :

لعمر أبيك ما حمـام كسرى عـلى الثلثين من حمـام فيل

فقال له حارثة :

وما إيجافنـا خلـف المـوالي بسنتنا عـلى عهد الرسول[٥٦]

وقد ساعدت كثرة هذه العناصر غير العربية[٥٧] ونجاحها في كل جوانب الحياة في تخفيف حدة الصدام بين العرب والموالي داخل المصر. ورغم ما أوردناه من شواهد على عداء العرب لهم فإن الصورة العامة في البصرة كانت أميل للتسامح والقبول. ولعله لسيادة روح المودة والتعاطف بين الجانبين يعزى فشل هذه المجموعة الكبيرة من الموالي الذين نبغ فيهم كبار اللغويين والنحويين والمحدثين والقرّاء ممن أرسوا دعائم الحياة الثقافية في البصرة، في إبراز شاعر واحد منها يعبّر عن قضاياها

---

٥٤ السيرافي: أخبار النحويين البصريين ٢٤ ؛ النزهة ٧ ؛ ياقوت: إرشاد ٩١/٦ ؛ بغية الوعاة ٣٦٨ .

٥٥ ابن الأنباري: النزهة ٦ – ٧ ؛ السيرافي ٢٤ .

٥٦ الأغاني ٤٣/٢١ ؛ البلاذري: فتوح البلدان ٤٩٤ .

٥٧ انظر الباب الأول ص ٤٧ ، ٦٠ .

ما خلا بشاراً الذي بلغ نضجه في العصر العباسي[٥٨]. صحيح أن بعض اللغويين أمثال عبد الله بن الحضرمي وعيسى بن عمر كانوا في نظر معاصريهم معادين للعرب[٥٩]، وان عبيد الله بن زياد كان أول من جمع مثالب العرب[٦٠]، إلّا أن النغمة رغم كل ذلك كانت نغمة هادئة تنبي عن روح تسامح ووفاق. وكان الشعراء في ساعات صفوهم يقرّون للفرس بأفضالهم ومزاياهم. وكثيراً ما تتكرر في أشعارهم صفة «بني الأحرار»[٦١] إشارة لقدماء الفرس[٦٢]، مما استغله بشار من بعد في الفخر بالفرس[٦٣]. وكانت الروابط العاطفية التي تصل بينهم وبين كثيرين من العرب سواء عن طريق التزوج أو غيره تترك آثارها على مسلك الطرفين. قال الفرزدق عن ابنته التي يبدو أن أمها كانت فارسية الأصل:

فإن يـك خالهـا من آل كسرى ... فكسرى كـان خيراً مـن عِقال
وأكثر جزية تهـدى إليـه ... وأصبر عند مختلف العـوالي[٦٤]

وعبَّر جرير عن تجربته الشخصية مع زوجه الفارسية الأصل حين قال لها:

لقـد زدت أهـل الريّ عندي مـودة ... وحبَّبت أضعافـاً إليّ المواليا[٦٥]

وقال في مدح ابنه منها بلال:

إنّ بلالاً لم تَشِنْه أمـه ... لم يتناسـب خـاله وعمـه

---

٥٨ انظر الباب الأول ص ٦٠.
٥٩ النزهة ١١؛ البغية ٢٨٢؛ الموشح ٤١.
٦٠ انظر الباب الثالث ص ١٢٤.
٦١ السهيلي: الروض الأنف (القاهرة ١٩١٤) ١/٥٥؛ ابن الشجري: الأمالي ١/١٧٤.
٦٢ انظر ديوان الفرزدق ١/٢٦٩، ٣٠٧؛ ٢/١١١.
٦٣ الأغاني ٣/٣٣.
٦٤ نفسه ١٩/٢١؛ ديوان الفرزدق ٢/٩٥.
٦٥ ديوان جرير ٤٩٦؛ كامل المبرد ٥/٥٣.

كأنّ ريــح المسك مستحمـه　　　مـا ينبغي للمسلمين ذمــه[٦٦]

ولم يلبث بلال هذا أن شبّ عن الطوق وبدأ يفخر بأخواله الفرس، فقد قال يناقض أحد إخوانه من جهة أبيه الذي كان يسخر منه :

يـا ربّ خـــالٍ لي أغـرَّ أبلجـا　　　من آل كسرى يغتدى متوّجا

ليس كخال لك يُدعى عَشَنّجا[٦٧]

وكان الراجز أبو نخيلة رغم محاولاته الدائبة الانتساب إلى العرب – إذ ابتاع داراً في بني حِمَّان من تميم ليصحح بها نسبه[٦٨] مما جلب عليه سخرية رؤبة[٦٩] والفرزدق[٧٠] –، إلّا أنه كان في نفس الوقت يفخر بدمه الفارسي في مثل قوله :

أنــا ابن سعد وتوسطت العجـــم　　　فأنــا فـيما شئت من خال وعم[٧١]

وكان أثر الموالي في البلاط الأموي كبيراً واضطر إسهامهم في انجاح السياسة الأموية جريراً إلى مدحهم وذهب في ذلك مذهباً بعيداً حين أعلن مساواتهم بالعرب معتمداً في هذه الدعوى على الزعم الذي ساد من أن العرب والفرس يرجعون بأصولهم إلى سيدنا إبراهيم الخليل[٧٢]. قال جرير (حوالي ١٠٢ هـ/ ٧٢٠ م) :

وأبنـاء اسحق الليوث إذا ارتـدوا　　　محامل موت لابسين السَّنَـوَّرا

فيوماً سرابيل الحديد عليهم　　　ويوماً تـرى خـزاً وعصباً مُنَيَّرا

إذا افتخروا عَدُّوا الصَّبَهْبَذ منهـم　　　وكسرى وآل الهرمـزان وقيصرا

ترى منهم مستبصرين عـلى الهدى　　　وذا التاج يضحي مـرزباناً مسوّرا

---

٦٦ نفسه ٤٣٧ .

٦٧ كامل المبرد ٥/٥١ .

٦٨ الأغاني ١٨/١٤٥ .

٦٩ ديوان رؤبة ٨٧ ؛ ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٢/٥٨٤ .

٧٠ الأغاني ١٨/١٤٢ .

٧١ كامل المبرد ٥/٥٤ ؛ ابن قتيبة: الشعر ٢/٥٨٣ .

٧٢ الطبري ١/٤٣٣ .

أغـرّ شبيهاً بالفنيـق إذا ارتـــدى ... على القُبْطري الفــارسيّ المُزَرَّرا
وكـان كتاب فيهـــم ونبوة ... وكانوا بإصطخر الملوك وتُسـترا
لقد جاهد الوضَّاح[٧٣] بالحق معلماً ... فأورث مجـــداً باقيـاً أهل بـربـرا
أبونـا أبـــو اسحق يجمـــع بيننـــا ... أب كان مهديًّا نبيــاً مطهـرا
ومنّا سليمان النـبي الـــذي دعـــا ... فأُعْطي بنياناً ، وملكـــاً مسخرا
وموسى وعيسى والذي خـرَّ ساجداً ... فأنبت زرعاً دمـع عينيه أخضرا
ويعقوب منـــا زاده الله حكمة ... وكان ابن يعقوب أمينــاً مُصَوّرا
فيجمعنا والغُرَّ أبناء ســـارة ... أبٌ لا نبـالي بعـده مـن تعذّرا
أبونا خليل الله ، والله ربنا ... رضينا بمـــا أعطى الإله وقَدَّرا[٧٤]

قال شاهد عيان: رأيتهما (جريراً والفرزدق) في مسجد دمشق والفرزدق في عصابة من خندف والناس عنق على جرير – قيس وموالي بني أمية – وهم يسلمون عليه ويسألونه: يا أبا حَزْرة، كيف كنت في مسيرك ؟ وقال عمارة بن عقيل بن بلال: وافته في يومئذ مائة حلة من بني الأحرار[٧٥] .

---

٧٣ مولى بربري لبني أمية استبسل في إخماد فتنة يزيد بن المهلب عام ١٠٢ هـ/ ٧٢٠ م .
٧٤ ديوان جرير ١٨٦ – ٧ ؛ النقائض ٩٩١ .
٧٥ الأغاني ٦٥/٧ ؛ ابن سلام ٣٤٧ – ٨ .

البَابُ السَّادس

الشِعرُ والوَسَطِ الفَنِّي

الفصل الأول

الشعر والتحول الثقافي

كان لازدهار الشعر في بيئة البصرة آثاره البعيدة على الإنتاج الفكري عامة. فقد لعب الشعر دوراً كبيراً في تطوير ألوان الثقافة وفروع المعرفة المختلفة التي اشتهرت بها مدينة البصرة كما تأثر بها. وليس هذا بغريب، إذ أن الشعر كأعظم نتاج للعبقرية العربية قد تسلَّط – في الإسلام كما كان الحال في الجاهلية – على العقل العربي، وأثّر تأثيراً بعيد المدى على مجرى كثير من التيارات الفكرية في الإسلام. فقد كان للتقدير الكبير الذي أسبغه عليه الأمويون أثره القوي في ردّ ماله من اعتبار، وفي استعادة الأرض التي حاول الإسلام لأسباب معلومة أن يزيحها من تحت أقدام الشعراء[1]. وقد اعتبر هؤلاء الأمويون الدراسات الدينية والفلسفية واللغوية وغيرها من المناحي الفكرية التي كانت تنمو في نفس الوقت – بالمقارنة – في مستوى أدنى من ناحية التقييم الرسمي. ويكاد الباحث يحس بأن المشتغلين بهذه الأعمال الفكرية كان يُنْظر إليهم بعين الريبة وتشك السلطة الحاكمة في ولائهم للنظام القائم. فمعظم علماء اللغة – ما خلا أبا عمرو بن العلاء[2] –

---

١ انظر الباب الثاني .

٢ ياقوت: إرشاد ١٦٤/٧ – ٥ .

اتهموا بميلهم للخوارج[٣] أو للشيعة[٤] أو رموا بالتخليط[٥] ومعاداة العرب[٦]. ولم يشجع الخلفاء وعمالهم على الأمصار العلماء الذين كانوا يبذلون من ذات أنفسهم لإقامة صروح العلوم المختلفة التي لم يكتمل بناؤها ويستقم أمرها إلّا بعد سقوط الأسرة الأموية. فإن عالماً كقَتَادة بن دِعَامَة السدوسي (ت ١١٧ هـ / ٧٣٥ م) والذي تواترت شهرته في الخلف كثقة في رواية الحديث[٧]، لم ينل ما أسبغه عليه خلفاء بني أمية من نوال وعطاء إلّا لتضلعه في رواية الشعر وأخبار العرب[٨].

وقد وطدت هذه النظرة الرسمية للشعر من سلطانه وأكسبته رغبة القبائل العربية المتقدة في إحياء أمجادها الغابرة روحاً جديدة مما جعل للشعراء صوتاً قوياً داوياً وأمدهم بسلطان لا يستهان به. وما دام الشعر قد بلغ هذه المنزلة من القوة في العصر الأموي فإن نظرة التقدير والإجلال لن تقتصر على ما استحدث من شعر وإنما تمتد إلى جذور هذا الشعر المستحدث. ومن ثمَّ أصبح الشعر الجاهلي – لسان العرب الأصلاء وديوان أمجادهم – باطراد المقياس الذي لا تقاس به جودة الشعر فحسب بل الفصاحة والبلاغة من حيث هي[٩]. وأخضع العلماء القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ – التي تعتبر قمة البلاغة والفصاحة – لنفس المقياس. وشمروا عن سواعدهم يبحثون وينقبون عن الشواهد في الشعر الجاهلي ليبرهنوا على فصاحة كثير من الكلمات والعبارات التي وردت في القرآن والحديث. وإذا أعوزهم الدليل ونضب معين ما حفظوا من شعر دون حاجتهم لجأوا إلى النحل والتزوير.

---

٣ نفسه ١٤٠/٦ ؛ النزهة ٨ .

٤ العقد الفريد ٤٧/٢ ؛ إرشاد ياقوت ٢٩٧/٧ .

٥ النزهة ١٧ ، ٨٤ .

٦ المرزباني: الموشح ٤١ .

٧ ابن سعد ٢/٧ ص ١ – ٣ ؛ الجاحظ: البيان ٢٠٤/١ – ٥ .

٨ ابن سلام ٥١ – ٥٢ ؛ إرشاد ياقوت ٢٠٢/٦ – ٣ .

٩ انظر الباب الأول ص ٦٧ .

والأمر الهام الذي يذكر في هذا الصدد أن المشتغلين بالدراسات المختلفة الأخرى وقعوا في اطراد تحت تأثير هذه الاتجاه الطاغي. ومما يوضح قوة هذا الاتجاه السلفي الذي يستمد وحيه من بلاغة الجاهلية أنه حتى الموالي ممن كان بعضهم كارهاً للعرب مبالغاً في عدائه لهم لم يستطيعوا التخلص من سيطرة الشعر الجاهلي على عقولهم .

ويمكن القول في تفسير هذه الظاهرة بأن معظم المشتغلين في هذه الحقول العلمية كانوا من غير العرب ممن كانوا يبذلون قصارى جهودهم في التعمق في العربية حتى يبزوا العرب في لسانهم[١٠] ، وبالتالي فقد تقبّلوا بالتسليم في حياتهم الاجتماعية والعقلية المقياس الذي اعتبره معاصروهم من العرب العمدة والمثل الأعلى. وقد كان للهبوط المطرد في مستوى الفصاحة اللغوية لدى العرب الذين سكنوا الحواضر – والذي ضاعف منه سيل المهاجرين من غير العرب الذي اكتسح الأمصار ومدن الجزيرة العربية على السواء – أثره الكبير في بلورة الاتجاه العام نحو تقديس الشعر القديم باعتباره مستودع اللغة العربية الفصيحة البعيدة عن الشوائب .

وكان لا بد للحماس الذي اتسمت به حركة الشعر وتسجيله والنظرة الحادبة التي نظر بها بعض اللغويين إلى هذا التراث من أن تتركا أثرهما على العلاقات التي توشجت بين الطبقة الصاعدة من علماء اللغة وبين معاصريهم من الشعراء[١١] . وكون البصرة أول مركز لهذه النهضة العامة في الدراسات الأدبية واللغوية أمر كبير الدلالة على أن معظم الشعراء الفحول في البصرة – وبالتالي في العصر الأموي – ألفوا شعرهم في نفس الوقت الذي كان فيه العلماء البصريون يخرجون للوجود كقوة فعالة في المجتمع الأمر الذي لا يستطيع الشعراء – على الأقل – إغفاله بحال من الأحوال. والواقع أن أبعاد هذه النهضة الأموية امتدت إلى أكثر من مجرد إبداع

---

١٠ نفسه ص ٤٦ – ٤٧ ، ٤٩ .

١١ نفسه ٦٥ – ٦٦

هذه الفروع المختلفة من العلوم التي ازدهرت في تلك الفترة فأثرت بأشكال مختلفة على الأساليب التي نظر بها الشعراء إلى شعرهم ونظموه بمقتضاها. وبنفس القدر فإن هذا التأثر لم يكن من جانب واحد، بل إن أثر الشعراء على هذا النشاط الفكري كان حقيقياً وبعيد المدى. ولكي نقوّم دورهم في هذا المجال يجب أن نتذكر دائماً أن هؤلاء العلماء الذين عاشوا في البصرة في العصر الأموي كانوا محدودين بسياج تخصصهم في استنباط وإرساء قواعد الفنون والدراسات اللغوية، وإن أمر جمع ودراسة الشعر ما كان احتكاراً لهم مقصوراً عليهم، بل إن مجموعات أخرى – من بينها الشعراء – كانوا أكثر منهم نشاطاً في هذا المجال. فقد كانت الرغبة الملحة لجمع الشعر القديم ودراسته وثيقة الاتصال بالمنحى العام للتطور الاجتماعي والديني والسياسي للمجتمع الأموي. وكان هذا النشاط – في بعض جوانبه – اتجاهاً شعبياً، وبرزت إلى الوجود مجموعات مميزة في شكل رواة اهتمت بجمع ما استطاعت العثور عليه من شعر لتلبية الحاجة العامة والطلب المتزايد للشعر. وكان اهتمام كثير من هؤلاء الرواة لا يتركز في دراسة الشعر بقدر ما يتركز في طلب التسلية والترويح عن الحلقات ومجالس البلاط[١٢]. وكان اهتمام الشعراء به لا يقتصر على ما يمدهم به من مادة تاريخية وقبلية مما يدخل في نسيج نظمهم، بل يتعدى ذلك إلى النظرة العامة التي نظر بها هؤلاء الشعراء إلى الشعر القديم كأرضية أو خلفية أساسية لا غنى عنها لأي إبداع شعري. ولذلك فقد اعتبر الاشتغال برواية الشعر ميسم الشاعر الفحل. فقد سئل رؤبة بن العجاج عن الفحل من الشعراء فقال هو الراوية، يريد أنه إذا روى استفحل[١٣]. وقد قال رؤبة هذا :

لقد خشيت أن تكون ساحراً ... راوية مرًّا ومرًّا شاعرا

ويدعم حكم رؤبة على الفحولة نشاط شاعر كالفرزدق الذي تلقى انجازاته

---

١٢ ابن سلام ٥٠ ؛ انظر شوقي ضيف: التطور والتجديد في العصر الأموي .

١٣ ابن رشيق: العمدة ١٩٧/١ .

في هذا المجال الكثير من الضوء على الخلفية الثقافية التي ارتكز عليها التقليد الشعري في البصرة. فقد وصفه الجاحظ في بيانه بأنه راوية الناس وشاعرهم وصاحب أخبارهم[١٤] وقال عنه ابن قتيبة انه خير راوية لشعر امرىء القيس[١٥]. وقد نوّه الاخباريون بروايته لشعر الحطيئة[١٦]. وقد نبّه الفرزدق على منابع ثقافته الشعرية عندما باهى بقدماء الشعراء الذين ورث عنهم الشعر فقال :

وهب القصائد لي النوابغ إذ مضوا	وأبو يزيد وذو القروح وجرول
والفحل علقمة الذي كانت له	حلل الملوك كلامه لا ينحل
وأخو بني قيس وهن قتلنه	ومهلهل الشعراء ذاك الأول
والأعشيان كلاهما ومرقش	وأخو قضاعة قوله يتمثل
وأخو بني أسد عبيد إذ مضى	وأبو دؤاد قوله يتنحل
وابنا أبي سلمى زهير وابنه	وابن الفريعة حين جد المقول
والجعفري وكان بشر قبله	لي من قصائده الكتاب المجمل
ولقد ورثت لآل أوس منطقاً	كالسم خالط جانبيه الحنظل
والحارثي أخو الحماس ورثته	صدعاً كما صدع الصفاة المعول
يصدعن ضاحية الصفا عن متنها	ولهن من جبلى عماية أثقل
دفعوا إليّ كتابهن وصية	فورثتهن كأنهنّ الجندل[١٧]

وإحساس الشاعر العميق بمنجزات أسلافه من الشعراء يتمثل في القصة التي رواها أبو عبيدة الذي قال: أتى رجل من بني تميم الفرزدق، فقال: قد قلت شعراً فانظر فيه. وأنشده. فقال الفرزدق: يا ابن أخي إن الشعر كان جملاً بازلاً عظيماً

---

١٤ الجاحظ : البيان والتبيين ١/٢٥٦ .

١٥ ابن قتيبة: الشعر والشعراء ١/٧٠ ؛ العقد الفريد ٨/١٠٩ ؛ الأغاني ١٩/٢٧ .

١٦ العمدة ١/١٩٨ .

١٧ الموشح ٣٦٣ .

فأخذ امرؤ القيس رأسه، وعمرو بن كلثوم سنامه، وعبيد بن الأبرص فخذه، والأعشى عجزه، وزهير كاهله ، وطرفة كركرته، والنابغتان جنبيه، وأدركناه ولم يبق منه إلّا الذارع والبطون فتوزعناه بيننا. فقال الجزار: لم يبق إلّا الفرث والدم وقد تعنيت وقمت لكم فمروا لي به. قلنا: هو لك. فأخذ الفرث والدم فطبخه وأكله ثم خرئه، فشعرك من خرء الجزار. فقال: هذا رأيك ! فوالله لا ذكرته لأحد بعدك[١٧].

وقد يكون أبو عبيدة لفق القصة ونحلها الشاعر، ولكن قيمتها تتركز في دلالتها على شيوع الاعتقاد بأن الفرزدق متضلع في رواية الشعر القديم وحفظه[١٨]، كما تدل على ذلك أبياته السابقة. وكان الشعراء الفحول أمثال ذي الرمة[١٩] وعمر بن أبي ربيعة[٢٠] يسألونه رأيه في شعرهم. وما كان الفرزدق - رغم شهرته - بدعاً في ذلك بل كان واحداً من كثيرين نهلوا من نفس المورد وترسموا عين التقليد كما ذكر هو في إحدى قصائده[٢١]. وقد كان النقد الحصيف الذي وجهه البعيث البصري لمعاصريه من الشعراء أمام الوليد بن عبد الملك شاهداً على ذلك[٢٢].

وما دام الشعراء متضلعين في الشعر وروايته فهم أحق الناس بالحكم على بعضهم. وقد قامت معظم المنازعات بينهم من جراء أحكام نقدية أصدرها شاعر على آخر، أو من جراء تحيز طرف ثالث لشاعر ضد آخر كما حدث في قضية النزاع الطويل بين جرير والفرزدق. وقد عمقت الاعتبارات القبلية والعوامل السياسية والاجتماعية الأخرى من هذه المنازعات الأدبية[٢٣] ووجهتها الوجهة التي نشهدها في النقائض. والواقع أن النغمات الاجتماعية التي صاحبت كثيراً من ألوان النشاط

---

١٨ السيوطي: المزهر ٢٩٨/٢ .

١٩ الموشح ٣٦٢ ؛ الخزانة ١٠٧/١

٢٠ الموشح ٢٠٦ .

٢١ ديوان الفرزدق ١٦٠/٢ .

٢٢ العقد الفريد ٢٠٥/٦ - ٢١٠ .

٢٣ انظر الباب الثاني ص ١٠٨ .

النقدي جعلت الشعراء شديدي الحساسية لما يوجه إلى أشعارهم من نقدات، واتَّسم ردّ الفعل عندهم بالعنف والمبالغة في ردع الناقدين. وفي مثل هذا الجو المتكثف الذي تلتحم فيه المشاعر القبلية بالتعابير الشعرية أو تكاد يصبح التفريق بين هذين العنصرين من الصعوبة بمكان[٢٤]. ولعلّ هذا يفسر لنا ما نلاحظه من أن معظم الذين أبدوا آراءهم في الشعر كانوا من الشعراء الذين يستطيعون أن يكيلوا الصاع صاعين إذا ووجهوا بالنقد والهجاء. وقد أحجم كثير ممن كانت لديهم الملكة والمقدرة عن إبداء آرائهم في شعر معاصريهم خوفاً من العواقب كما حدث للمهلب ابن أبي صفرة حين طلبوا منه التفضيل بين جرير والفرزدق فرفض ودلّ السائلين على من يهون عليه أمرهما عبيدة بن هلال الخارجي[٢٥] .

وقد كان مما يضعف موقف كثير من علماء اللغة الأوائل في هذا الميدان أن معظمهم من الموالي، وبالتالي فقد كانوا أكثر تعرّضاً للهجاء والتجريح كما حدث لعنبسة الفيل وعبد الله بن الحضرمي مع الفرزدق[٢٦] . فعلى الرغم من أن عنبسة أبدى إعجابه بالقيمة الفنية لشعر جرير ونقد عبد الله ما اعتبره أخطاء نحوية في شعر الفرزدق[٢٧] ، إلّا أن هذا الأخير تجاهل هذه الدوافع الحقيقية للنقد، واندفع يهاجم أصل هذين العالمين وولاءهما. وقد هاجم الفرزدق أبا عمرو بن العلاء لسبب لم تذكره المصادر، ثم رجع عن ذلك وحاول استرضاءه، فقال :

ما زلت أفتح أبـوابـا وأغلقهـــا ... حتى أتيت أبا عمرو بن عَمَّار[٢٨]

---

٢٤ نفسه . ومثال ذلك ما حدث حين التقى الراعي والأخطل عند بشر فسألهما أيكما أشعر .فقال الراعي: «أما الشعر فالأمير أعلم به ولكن والله ما تمخضت تغلبية عن مثلك». (ابن سلام ٤٤٢ – ٣) وكانت أم بشر مثل الراعي قيسية .

٢٥ انظر الباب الثاني ص ٩٣ .

٢٦ انظر الباب الخامس ص ٢٩٢ .

٢٧ ابن قتيبة: الشعر والشعراء ١/٣٥ – ٦ ؛ الموشح ٩٩ ، ١٠٠ – ٢ .

٢٨ الجاحظ: البيان ١/٢٥٦ .

ولكن ذلك لم يرض أبا عمرو الذي قال :

هجوت زِبّـان ثم جئت معتـذراً   من هجو زِبّان لم تهج ولم تدع[٢٩]

ويظهر أن تخصص هؤلاء العلماء الأوائل الضيّق واهتمامهم الهامشي بالشعر كوسيلة لمدهم بالشواهد التي تدعم مناهجهم النحوية واللغوية قد حصر نقدهم وقصره على جوانب من الشعر يعتبرها الشعراء بالطبع مظاهر جانبية ليست من لبّ التجربة الشعرية. فمعظم نقدات ابن الحضرمي كانت تتركز في الجانب النحوي والحكم الأدبي الوحيد الذي ورد عنه - كُثَيِّر أشعر شعراء الإسلام - يكاد ينقضه كل النقاد الآخرين[٣٠]. ولكن المحيط الثقافي المتطور في سرعة كان يساعد على خلق الظروف والتسهيلات التي تفتح الأبواب أمام أولئك العلماء الذين يهتمون بالشعر لذاته. فقد ذكرت المصادر أن أبا نوفل بن أبي عقرب كان معلم أبي عمرو وشعبة بن الحجاج (٨٥ - ١٦٠ هـ)[٣١]. فكان أبو عمرو يسأله عن الشعر واللغة وكان شعبة يسأله عن الأحاديث، ولا يكتب أحدهما ما يكتبه الآخر[٣٢]. وقد أصبح أبو عمرو بن العلاء هذا العمدة في الشعر ونقده. وبمرور الزمن تطورت العلاقة بين العلماء والشعراء من العداء والتحرش إلى ضرب من الاعجاب المتبادل. وعلى الرغم من أنه كان للعلماء في نهاية المطاف القدح المعلَّى في أمر التأثير على مجرى الشعر كما سيتضح لنا بعد قليل إلّا أن الجو العام كان مهيئاً لاعتماد العلماء والشعراء على بعضهم بعضاً. إذ أن كلا الجانبين كان معرضاً لنفس المؤثرات الثقافية التي صقلت عقليات المفكرين وأخضعتهم للقيم والمثل الثقافية السائدة. فالموقف المتعالى الذي وقفه الفرزدق حين هجا ابن الحضرمي وخاطبه مع غيره من النحويين

---

٢٩ النزهة ١٥ .

٣٠ ابن سلام ٤٤ ؛ السيوطي: المزهر ٢٩٩/٢ .

٣١ ابن سعد ٢/٧ ص ٣٨ ؛ البيان والتبيين ٨٦/٢ .

٣٢ المزهر ١٩٤/٢ ؛ انظر الباب الأول من هذا الكتاب ص ٦٧ - ٦٨ .

في تحدّ بقوله: «عليّ أن أقول وعليكم أن تحتجوا»[٣٣]، لم يحل بينه وبين طلب معونة ابن الحضرمي الفنية في إصلاح خطأ في شعره نبهه إليه النقاد[٣٤]. وقد تنبه العلماء من جانبهم إلى الثروة الضخمة التي حفل بها انتاج معاصريهم من الشعراء مما أرضى طموحهم العلمي واهتماماتهم اللغوية. وكان يونس بن حبيب (٩٠ – ١٨٢ هـ) يقول: لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث اللغة[٣٥]. ولعلَّ هذا هو السبب الذي حبَّب شعر هذا الشاعر للعلماء بالمقارنة بانتاج جرير[٣٦]. وقد سخر جرير من ذلك ولم يأبه به واعتبره أمراً عائقاً لسيرورة الشعر لأنك قلَّ أن تجد عالماً واحداً بين مائة من الرجال[٣٧]. وهناك في الواقع دلالات تشير إلى أن الصعوبة النسبية والوعورة التي يجبهنا بها شعر الفرزدق بالمقارنة بشعر جرير – وان كانت في جذورها الدفينة وليدة مزاج عاطفي وعقلي اختص به الفرزدق – قد تحكمت فيها اعتبارات نابعة من اختلاط الشاعر بالعلماء والنحاة. قال ابن سلام: كان يداخل في الكلام وكان ذلك يعجب أصحاب النحو[٣٨]. وقد لاحظ ابن الأثير تعلّق الشاعر بهذا الصنيع فقال: كأنه كان يقصد إلى ذلك في شعره ويتعمده لأن مثل هذا لا يجيء إلّا متكلفاً مقصوداً[٣٩]. وقد عبروا عن الجهد الذي يبذله الفرزدق في شعره بقولهم السائر: الفرزدق ينحت من صخر وجرير يغرف من بحر[٤٠].

وفي الحقيقة إنّ أحكام هذا الشاعر النقدية الكثيرة المنتشرة في كتب الأدب[٤١]

---

٣٣ ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٣٥/١ .

٣٤ الموشح ١٠٠

٣٥ إرشاد ياقوت ٢٥٩/٧ ؛ البيان ٢٥٦/١ .

٣٦ الأغاني ٧٢/٧ ؛ انظر الباب الثاني ص ٩٨ .

٣٧ الباب الثاني ص ٩٩ .

٣٨ ابن سلام ٣٠٨ ؛ وانظر ٣٠٩ – ٣١٢ لنماذج ؛ الأغاني ١٥/١٩ – ١٦ .

٣٩ الجامع الكبير ١١٤ ؛ الموشح ١٠٤ .

٤٠ ابن سلام ٣٨٧ .

٤١ انظر ابن سلام ٤٤ ؛ المزهر ٢٩٩/٢ في امرىء القيس ؛ ابن سلام ١٠٥ في النابغة ؛ نفسه ٤٦٨ ؛=

وتضلعه في اللغة ورواية الشعر جعلته أقرب إلى مجالس علماء عصره من أي شاعر آخر ما خلا رؤبة بن العجاج. وليس من قبيل الصدف أن يثني عليهما أبو عمرو ابن العلاء بقوله: «لم أر بدوياً أقام في الحضر إلّا فسد لسانه غير رؤبة والفرزدق»[٤٢] والواقع أن منجزات الشعراء على الصعيد الثقافي قد أجبرت العلماء من نواح عديدة على تغيير مواقفهم المتصلبة من الشعر المعاصر. فنهج أبي عمرو بن العلاء المتشدّد في تناول اللغة والذي اضطره ليقيم كل شواهده على الشعر الجاهلي كما رأينا من قبل[٤٣]، قد لان وأسلس حين واجه جودة شعر عمر بن أبي ربيعة والذي اعتبره أبو عمرو حجة في اللغة[٤٤]. وقد اضطرته جودة شعر معاصريه من أهل البصرة ليقول «لقد نبغ هذا المحدث وحسن حتى هممت بروايته»[٤٥]. وعلى العموم فلم يكن أبو عمرو من الناحية العملية معادياً للشعر الذي يؤلف في أيامه على الرغم من منهجه المتزمت الذي كان يرى في الشعر الجاهلي المثل الأعلى الذي لا يجاري. وقد دلّ تفضيله البالغ لشعر الأخطل والذي قال عنه «لو عاش الأخطل يوماً واحداً في الجاهلية لما فضلت عليه أحداً»[٤٦]، وحبه الشديد لشعر بشّار بن برد[٤٧] على أنه لم يكن منصرفاً الانصراف كلّه للقديم أو أن إعجابه به كان دائماً على حساب الحديث. فقد زاوج بين شعراء عصره وبين من رآهم مشابهين لهم من الجاهليين، فكان يشبه جريراً بالأعشى والفرزدق بزهير والأخطل بالنابغة[٤٨]. وحكمه

= الموشح ١٧٢، ٣٦٢، ٣٦٣، الخزانة ١/١٠٧ في ذي الرمة؛ الموشح ٢٠٦ في عمر بن أبي ربيعة.

٤٢ الخزانة ١/٢٠٤.

٤٣ انظر الباب الأول ص ٦٨.

٤٤ الموشح ٢٠١، ٢٠٢؛ الأصمعي: فحولة الشعراء ٤٩٩.

٤٥ ابن قتيبة: الشعر والشعراء ١/٧؛ المزهر ٢/٣٠٤.

٤٦ الأغاني ٧/١٧٢، ١٧٣ – ٤، ١٧٧ – ٨.

٤٧ نفسه ٣/٢٦.

٤٨ نفسه ٧/٣٨؛ انظر ١/٩٤، ١٢٠؛ الشعر والشعراء ١/٤٤٨؛ ابن سلام ٥٥.

المشهور «ختم الشعر بذي الرمة والرجز برؤبة»[49] يؤكد إعجابه بما كان يقوم به معاصروه في ميدان نظم الشعر، وملاحظته الذكية عن طبيعة شعر ذي الرمة ذي الأثر الموقوت والذي سرعان ما يضمحل ويزول[50]، لم تنقص من إعجابه الكبير بهذا الشاعر حتى في حضرة أمير صارم متضلّع في اللغة والشعر محب للجدل كبلال بن أبي بردة (ت ١٢٠ هـ/ ٧٣٨ م)[51]. ففي ختام جدل عنيف بين الأمير والشاعر حول القراءة الصحيحة لبيت جاهلي اختار أبو عمرو التوسط بأن صحَّح كلتا القراءتين، وعندما سأله بلال إن كان يأخذ عن ذي الرمة في شواهده اللغوية أجاب بأنه فصيح ولكننا نأخذ عنه بتمريض أي بتوهين[52]. وعندما خرجا من عنده قال ذو الرمة لأبي عمرو: والله لولا أني أعلم أنك حططت (حطبت) في حبله وملت مع هواه لهجوتك هجاء لا يقعد إليك اثنان بعده[53]. وفي مرة أخرى عندما وضّح أبو عمرو لذي الرمَّة ما يجب أن يقال في الردّ على انتقاد وجهه بلال ابن أبي بُردة لقصيدة أنشدها إياه الشاعر، قال ذو الرمة: «يا أبا عمرو أنت مفرد في علمك وأنا في علمي وشعري ذو أشباه»[54].

ومثل هذه الصلات الحميمة بين الشعراء والعلماء كانت وليدة الظروف المتشابهة التي وجد الجانبان أنفسهم فيها. فإن اجتماعاتهم المتصلة مع بعضهم في بلاط الخلفاء ومجالس الأمراء واعتمادهم تقريباً على نفس المصدر لكسب لقمة العيش قد منحهم إحساساً بأنهم ينتمون لبعضهم بعضاً. قال عيسى بن عمر[55] (ت ١٤٩ هـ):

---

٤٩ الأغاني ١١/١٦ ؛ المزهر ٣٠١/٢ ؛ ابن خلكان: وفيات ٥١٣/١ .

٥٠ الأغاني ١١٥/١٦ ؛ ابن سلام ٤٦٧ ؛ الموشح ١٧١ .

٥١ ابن سلام ٤٨٣ .

٥٢ الأغاني ١٢٢/١٦ ؛ ابن سلام ٤٨٣ – ٤ .

٥٣ الأغاني ١٢٢/١٦ ؛ ابن سلام ٤٨٣ – ٤ .

٥٤ الموشح ١٨٠ .

٥٥ انظر الباب الأول ص ٦٥ ؛ والباب الثاني ص ١٠٤ .

قدمت من سفر فدخل عليّ ذو الرمة الشاعر فعرضت لأن أعطيه شيئاً فقال: أنا وأنت نأخذ ولا نعطي[٥٦]. وقد تطورت العلاقات بين هذين الرجلين إلى الحدّ الذي أصبح فيه عيسى بن عمر يكتب شعر ذي الرُّمة[٥٧]. وليس هذا بدعاً في العلاقات فقد دلَّت الطريقة التي عبّر بها جرير عن إعجابه وتلذّذه بإنشاد أبي عمرو لشعر المجنون حين نزل جرير به وهو في طريقه من الشام عما يكنه الشاعر للعالم من تقدير كبير[٥٨].

هذه العلاقة الوثيقة بين الشعراء والعلماء لم يقتصر أثرها على التقريب بين الجانبين في مجال العلاقات الشخصية فحسب، بل كان لها أثر بعيد في تطور الشعر البصري خاصة والأموي عامة. فاهتمام العلماء بألفاظ وتعابير العرب الأقحاح، وإيمانهم بأن المصدر الحقيقي لهذه الثروة يقبع في الصحراء أحدث أثره على حياة الشعراء وصناعتهم من جوانب عدة. فإن المكانة المرموقة التي بدأ هؤلاء العلماء يحتلونها في المجتمع باطراد والأهمية المتزايدة التي نالوها عمقت من إحساس الشعراء بمتطلبات اللغويين والنحاة. وأصبحت الصحراء بمثابة ألدرادو (أرض الذهب) للعلماء والباحثين. ودلّ الذعر الذي اعترى ذا الرمة عندما تأكد من أن الناس قد اكتشفوا مقدرته على الكتابة والقراءة – وهي من علامات التحضر – ودلت التبريرات الواهية التي اختلقها لينفي عن نفسه تهمة الكتابة[٥٩] على حرصه البالغ على ألّا يشك العلماء في (صلاحياته) كبدويّ قحّ. وقد عاب عليه بعض هؤلاء العلماء سكناه البصرة وأكله البقول والموالح وكل ذلك من مميزات الحضر[٦٠]. وهكذا

---

٥٦ العقد الفريد ٣٤٧/٢ ؛ إرشاد ياقوت ١٠٢/٦ .

٥٧ الجاحظ: الحيوان ٢١/١ ؛ المزهر ٢٢٠/٢ ؛ وانظر الباب الثاني ص ١٠٤ .

٥٨ العقد الفريد ٢١٧/٦ .

٥٩ العسكري: ديوان المعاني ١٢٠/٢ ؛ الموشح ١٧٧ – ٨ ؛ المزهر ٢٢٠/٢ ؛ وانظر الباب الثاني من ١٠٤ أعلاه ؛ وانظر الخزانة ١٠٢/١ لشاهد آخر عن أبي النجم العجلي .

٦٠ الموشح ١٨٠ ؛ الخفاجي: سرّ الفصاحة ١٥٠ ؛ وانظر الباب الأول ص ٦٨ .

عدّ الشعراء الذين استقروا في المراكز المتحضرة أدنى درجة وصار شعرهم أكثر عرضة للرفض من قبل العلماء كشاهد على الألفاظ الفصيحة والأساليب البليغة كما حدث للكميت والطرمّاح[٦١] اللذين اتهما رؤبة بن العجاج بأنهما كانا يسألانه عن الغريب ثم يجده بعد ذلك في أشعارهما[٦٢]. وقد رأى أبو عمرو بن العلاء في إقامة جرير والفرزدق الطويلة في الحضر عيباً بالغ الخطورة[٦٣].

وقد أدى هذا الترحيب من جانب فقهاء اللغة بالأعراب المتبدين كرواة للغة موثوق بهم إلى تدفق أعداد غفيرة من رواة البدو إلى المصر، وأصبح هؤلاء المصدر الذي استقى منه علماء البصرة مادتهم الأساسية[٦٤]. وقد قدرت الكتب التي سجل فيها أبو عمرو ما نقله عن هؤلاء البدو بأنها كانت تملأ بيتاً حتى السقف ولكنه أحرقها جميعاً في لحظة من لحظات الهبوط النفسي أو العقلي أو التنسك[٦٥]. وعسى أن يكون هذا التعلق بمظاهر الحياة البدوية هو الذي أوحى بالمسلك المتكلف لشاعر كرؤبة لم يعهد فيه مداومة السكن في الصحراء إذ أنه كان يقيم في المصر ويغشى دواوين الأمراء. ولكنه رغم هذا التمرس بحياة الحاضرة ظل يأكل الفئران جهراً في المدينة، ولما عابوا عليه ذلك قال لهم: هو والله أنظف من دواجنكم ودجاجكم اللواتي يأكلن الأقذار، وهل يأكل الفأر إلّا نقيّ البُرّ ولباب الطعام[٦٦]؟ وكانت حتى الطريقة التي يرتدي بها ملابسه مقصوداً بها الإثارة ولفت الأنظار،

---

٦١ الموشح ٢٠٨؛ الخفاجي: سر الفصاحة ٣٣٥؛ الأغاني ١٨/٢.

٦٢ ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٥٦٧/٢؛ انظر ديوان الطرماح مقدمة كرنكو ص ٢٤.

٦٣ الأغاني ١٨/٢؛ الموشح ٢٠٨؛ الخفاجي ٣٣٥.

٦٤ أهم هؤلاء الرواة أبو الزّعراء (الأغاني ١٠٤/١١)، أبو خيرة (النزهة ١٦، الفهرست ٤٥)، أبو فِراس، أبو سَرِيرة، الأغطش (المزهر ١٠٩/١)، أبو ضَمْضَم (الشعر والشعراء ٥/١، العقد الفريد ١٥٨/٦) وانظر بيئة البصرة لبلا (باريس) ١٣٧ – ١٣٨.

٦٥ انظر الباب الأول ص ٦٧.

٦٦ الأغاني ٨٧/٢١؛ ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٥٧٦/٢.

فقد ذكر أبو زيد الأنصاري أن رؤبة دخل السوق وعليه برنكان أخضر فجعل الصبيان يعبثون به ويغرزون شوك النخل في برنكانه ويصيحون به يا مرذوم يا مرذوم. فجاء إلى الوالي فقال أرسل معي الوزعة فإن الصبيان قد حالوا بيني وبين دخول السوق، فأرسل معه أعواناً فشدّ على الصبيان ففرّوا من بين يديه فدخلوا داراً في الصيارفة[٦٧]. وما كان الصبية ليفعلوا به كل ذلك لولا أن مظهره كان من الغرابة بمنزلة كبيرة حتى على البصريين الذين يزدحم سوق إبلهم المسمى بالمربد بشتى الأصناف والألوان من البدو الأمر الذي يجعل أزياءهم مهما بلغت من الغرابة مألوفة حتى في أعين الصبية العابثين. وقد أصبح رؤبة هذا (ت ١٥٤ هـ) من أكبر الثقات في رواية اللغة. قال عنه صاحب الأغاني «وقد أخذ عنه وجوه أهل اللغة وكانوا يقتدون به ويحتجون بشعره ويجعلونه إماماً»[٦٨]. وقد كان له ما يمكن أن يسمى بصالون اعتاد عقده كل جمعة في حارة بني تميم بالبصرة. وكان العلماء يرتادون مجلسه ويسألونه عن اللغة والغريب، وكثيراً ما افتخر اللغوي الشهير يونس بن حبيب بأنه غلام رؤبة[٦٩]. والواقع أن معرفة رؤبة العميقة باللغة والنحو التي حببته إلى علماء البصرة لا تخفى في إنتاجه. قال الحكم بن قَنْبَر: كنا نقعد إلى رؤبة يوم الجمعة في رحبة بني تميم فاجتمعنا يوماً فقطعنا الطريق، ومرّت بنا عجوز فلم تقدر على أن تجوز في طريقها فقال رؤبة:

تنح للعجوز عــن طريقهــا إذ أقبلت رائحة من سوقهــا
دعها فما النحويّ من صديقها[٧٠]

وقد بلغ من تضلع رؤبة وأبيه العجاج في اللغة أنهما كانا كما يقول ابن جني

---

٦٧ نفسه ٨٩.

٦٨ نفسه ٨٤.

٦٩ الأغاني ٨٥/٢١؛ المزهر ٢١٨/١.

٧٠ الأغاني ٨٩/٢١.

في خصائصه يرتجلان ألفاظاً لم يسمعاها ولا سبقا إليها[٧١]. وكانت مكانتهما لدى فقهاء اللغة لا تنازع. عن الأصمعي قيل ليونس: من أشعر الناس ؟ قال: العجاج ورؤبة. فقيل له: لم ولم نعن الرجاز ؟ فقال هم أشعر من أهل القصيد، إنما الشعر كلام فأجوده أشعره[٧٢]. وعندما مات رؤبة قال الخليل بن أحمد: دفن الشعر واللغة والفصاحة اليوم[٧٣] .

والواقع أن ما قيل عن إدخال الكميت والطرِمَّاح الغريب الذي يسألان رؤبة عنه في شعرهما والهجمات العنيفة التي وجهها رؤبة لذي الرّمَّة حين اتهمه بسرقة شعره[٧٤] ، كلها تشير إلى العلاقة الوثيقة بين هذا الضرب من الشعر الذي ينظمه هؤلاء الشعراء وبين نشاط العلماء وفقهاء اللغة. وقد جلى هذه النقطة عقبة بن رؤبة ابن العجاج حين تحدّى بشار بن برد بقوله: أنا والله وأبي فتحنا للناس باب الغريب وباب الرجز والله إني خليق أن أسدّه عليهم[٧٥]. وبالنظر إلى هذه العلاقة فليس من الشطط أن يقال إن بعث شعر الرجز في الشكل الذي اتخذه في شعر العجاج وابنه رؤبة – وغيرهما من رجّاز العصر الأموي، بل والعباسي – كان خاضعاً في كثير من جوانبه لمتطلبات اللغويين والنحاة[٧٦]. وقد كان رؤبة يعي كل ذلك، وكانت عيونه دوماً مركزة على النحاة والعلماء حتى في مدائحه للأمراء. فعندما مدح نصر بن سيار قال :

إذا الرواة بلغوا ما أهدي   فلا يغرنك مني بعدي
وأنا في تخيري وجـــدى   إذا تنخلت جيـــاد القـــد

---

٧١ المزهر ٧١/١ .
٧٢ الأغاني ٨٩/٢١ ؛ المزهر ٣٠١/٢ .
٧٣ الأغاني ٩١/٢١ .
٧٤ ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٥١٦/٢ .
٧٥ الأغاني ٣٧/٣ .
٧٦ شوقي ضيف: التطور والتجديد .

يلتمس النحوي فيهـا قصدي مجّدت نصراً وهو أهل المجد[٧٧]

وفي قصيدة أخرى يمدح فيها القاسم بن محمد الثقفي وضح مبلغ الجهد وإعمال الفكر والصناعة الذي يبذله في تأليف شعره حين قال :

مـا أنـا بالفـاني ولا المغمـر أنسج نسج الصنـع المحـبر
كيف تـراني انتحي في الـدفتر على قضيب الذاهبات الشبّر
لا ينظر النحويّ فيهـا نظـري وإن لـوى لحييه بالتحكـر
وهو دهيّ العـلم والتعبر حتّي استقامت بي على التيسر[٧٨]

والتعليل الأساسي لهذا الحشد العظيم من الألفاظ المتوعرة والحوشية التي تبدو لنا الآن وكأنها تصكّ آذان مستمعيها وقد حيّرت بعض كبار علماء اللغة في حينها[٧٩] يتركز في الحاجة اللغوية، وشاهدنا على ذلك كثرة ما تستشهد به معاجم اللغة ومظانها من شعر رؤبة وأبيه العجاج[٨٠]. وقد عبّر رؤبة عن حاجة عصره الملحّة لمثل هذه المادة الغريبة حين أبدى سخطه على إلحاح يونس بن حبيب وملاحقته إياه بالأسئلة إذ قال: حتى متى تسألني عن هذه الأباطيل وأزوقها لك ؟ أما ترى الشيب قد بلغ في رأسك ولحيتك[٨١] ؟.

ولا ندري إلى أي مدى كان رؤبة وأبوه العجاج يعكسان في نشاطهما اللغوي والشعري لهجة تميمية متميزة[٨٢]، إذ أن علماء اللغة نادراً ما يشيرون إلى ذلك في المعاجم، بل يستشهدون بأشعارهما على اللغة في عمومها. ومما يجدر بنا ملاحظته

٧٧ ديوان رؤبة ٤٨ .
٧٨ ديوان رؤبة ٦١ ؛ وانظر الأغاني ٨٩/٢١ لعناية رؤبة الفائقة بإرضاء النحاة في نظمه .
٧٩ ابن قتيبة: كتاب المعاني ٤٧٨/١ .
٨٠ دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الثانية مادة العجاج .
٨١ ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٥٧٦/٢ ؛ السيرافي: أخبار النحويين ٣٥ .
٨٢ ابن سلام ٦٥ ؛ الموشح ٢١٧ .

في هذا المجال انه على الرغم من أنه لا شك في أن معظم الألفاظ والتعابير في رجزهما تعكس ظروف الحياة القاسية الجرداء في الصحراء وأنها تمثل جانباً صحيحاً من التراث العربي المتناقل، إلّا أن مدى شيوع مثل هذا الحوشي من الكلام يحتاج إلى تحقيق ونظر. ويظهر أنه كان محدوداً جداً. فلم يكن البدو بعامة مولعين بالطبيعة بمثل هذه الأوابد التي تكد الذهن وتلوي اللسان، والتي يحفل بها هذا الشعر الرجزي، والذي وصفه أحد المحدثين بشعر المتون[٨٣]. ففي مجال المفاضلة بين شاعرين يقولان شعراً أسلس نسبياً من هذا الرجز فضل أهل البادية كما يقول ابن سلّام جريراً على الفرزدق وكان الفرزدق مولعاً بالغريب[٨٤]. وليس معنى ذلك اننا نشك أن تكون البادية مصدر هذا التراث الحوشي. ولكن الذي يدعو إلى الشك هو تيسر هذه الذخيرة المستعصية لكل من هبّ ودبّ حتى في أعماق الصحراء. والذي يجب أن نتنبه له في هذا الصدد أن هؤلاء الشعراء الرجاز وأمثالهم بذلوا جهوداً مضنية في البحث والتنقيب وتمرّسوا بصناعتهم عن طريق الدراسة كما فعل نظراؤهم من فقهاء اللغة المنهجيين في الأمصار. وقد عبّر العجب الذي أبداه رؤبة من بلاغة أبي مسلم الخراساني قبيل سقوط الدولة الأموية عن بعض هذا إذ قال: تا الله ما رأيت أعجمياً أفصح منه، وما ظننت أن أحداً يعرف هذا الكلام غيري وغير أبي[٨٥].

والواضح أن العجاج ورؤبة ومعظم رواة البدو ما كانوا بدواً أجلافاً عاديين يؤخذون خبط عشواء كنماذج لعامة ساكني الصحراء من البدو، ولكنهم بعكس ذلك كانوا نتاج النشاط الثقافي في البصرة وتأثيره القوي على الصحراء. فأمثال هؤلاء الرواة الذين أصبحوا فيما بعد ثقاتاً في اللغة والشعر عرفوا ما كان يريده منهم اللغويون

---

٨٣ شوقي ضيف: التطور والتجديد.

٨٤ ابن سلام ٣١٦ ؛ الموشح ١١٥.

٨٥ الأغاني ٨٧/٢١.

فبذلوا الجهد للتمكن من صناعتهم ولتزويد أنفسهم بالمعرفة التي اشتهروا بها في مقبل الأيام. فمعظم الشعراء الذين أغرقوا في تصوير مظاهر الحياة البدوية كانت لهم بعض الصلات بتلك الحياة ولو لبعض الوقت من حياتهم. وتلقف الكثيرون منهم معارفهم من الصحراء التي أخصبها ما كان يحدث في المصر من نشاط. وقد أدت تطلعات هؤلاء الأعراب إلى حياة أفضل وأغنى في الحواضر التي تعج بالملذات والمتع إلى ثورة أو قل نشاط ثقافي مماثل مركزه البادية ذاتها ويدور حول دراسة الشعر واللغة. فقد أصبحت الصحراء مصنعاً لتطوير «الخامات» ومدّ المصر بما يحتاج إليه من مواهب ومواد. فعندما خاصم أبو نخيلة الراجز التميميّ أباه وهو صبي غادر البصرة وأقام في الصحراء حيث تأدب وتعلّم كيف ينظم في فنيّ القصيد والرجز حتى اشتهر[٨٦] وأصبح فيما بعد أستاذاً للخليفة الوليد بن يزيد الأموي[٨٧]. ومثل هذا حدث لذي الرُّمَّة الذي كان في بداية أمره معلماً بالبادية[٨٨] ثم انتقلت شهرته إلى عبد الملك بن مروان عن طريق شهادة جرير والفرزدق[٨٩] .

وما اقتصر الأمر على التعليم بل إن رغبة هؤلاء البدو الجامحة في لفت أنظار سامعيهم من أهل الحضر واستدرار إعجابهم شجّع الاتجاه نحو سرقة انتاج الآخرين وانتحاله. وقياساً على الأمثلة الكثيرة التي انتحل فيها الشعراء أشعار غيرهم – وكان الفرزدق فارس هذا الميدان[٩٠] – فإنه من المحتمل أن يكون كثير من هذا الشعر الذي ألّفه شعراء بدويون ممن أقاموا بالبادية قد انتقل بواسطة هؤلاء الشعراء الذين هاجروا إلى الحاضرة وأصبح ينسب إلى هؤلاء الناقلين. والأمثلة على ذلك كثيرة.

---

٨٦ نفسه ١٨/١٣٩ – ١٤٠ .

٨٧ ابن المعتز : طبقات ٦٣ .

٨٨ الموشح ١٧٠ ؛ ابن سلام ٤٦٧ .

٨٩ الموشح ٢٣٩ .

٩٠ انظر الباب الثاني ص ١٠٦ .

وما مسلك أبي نخيلة في هذا المجال وانتحاله حتى لشعر معاصره رؤبة والذي يسكن معه في نفس المدينة ببعيد[٩١]. وقد اضطر رؤبة أن يقول له مرة: يا أبا نخيلة ألم ننهك أن لا تعرض لشعري إذا كنتُ حاضراً، فاذا غبت فشأنك به! ثم وصل معه إلى حلّ بين بين حين قال له: إياك وإياه ما كنت بالعراق فإذا أتيت الشام فخذ منه ما شئت[٩٢]. ويكفي لتقدير عدد الشعراء الذين اندثرت ذكراهم أو سرق شعرهم أن نذكر هنا ما رواه ابن قتيبة عن ثلاثة شعراء من بني سعد بن تميم لم ينتقلوا إلى المصر فضاع شعرهم الرجزي، ويذكر أن درّة رؤبة بن العجاج التي اعتبرها النقاد خير شعره: وقاتم الأعماق خاوي المخترق[٩٣] هي مما نظمه أحد هؤلاء الثلاثة[٩٤].

وهكذا أصبحت الصحراء بجانب إنتاجها للرواة الذين اعتمد عليهم اللغويون منبعاً ثرًّا للشعر الذي يصوّر حياة البادية، والذي كان يجد رواجاً كبيراً في أوساط المتحضرين لأسباب اجتماعية تذكر في موضعها. واستمرت الصحراء لفترة طويلة منجماً زاخراً بالخير لمدّ المصر بالمواد «الخام» في شتى الميادين كما أسلفنا. والشعراء البدو الذين شفعوا فنهم الجمالي بمعرفة دقيقة باللغة تحت تأثير الحركة الثقافية في البصرة كذي الرُّمَّة ورؤبة ظهرت آثارهم واضحة في أعمال النحاة وأصحاب المعاجم اللغوية. وقصيدة ذي الرمة «أحجية العرب»[٩٥]، وهي ضرب من الشعر التعليمي تناول فيها الشاعر أكثر من عشرين لغزاً تدور حول حياة الصحراء تقوم خير شاهد على العلاقة الوطيدة بين هؤلاء الشعراء والعلماء.

---

٩١ الأغاني ١٨/١٤٠، ١٤٥؛ الموشح ٢١٩، ٢٢٠.

٩٢ الموشح ٢١٩، ٢٢٠.

٩٣ ديوان رؤبة.

٩٤ ابن قتيبة: الشعر والشعراء ١/٥.

٩٥ ديوان ذي الرمة ١٦٩ – ١٨٣.

وكان أثر النشاط الثقافي على الشعر من جانب آخر ذا فعالية من حيث صقل عقليات الشعراء بحكم احتكاكهم المباشر بحملة الأفكار والداعين لها من ذوي النظر في الفلسفة والكلام والسياسة وما شاكلها مما كانت تعج به البصرة والكوفة وغيرهما من الأمصار. والواقع أن الشعراء الكبار الذين أصبحوا من الفحول كالفرزدق وجرير وذي الرمة ورؤبة وبشار في مرحلة متأخرة كانوا أفراداً ذوي ثقافه عالية شديدي الاتصال بالحركات الفكرية في عصرهم، وقد أسهم بعضهم فيها وشارك في تطورها. فقد كان الفرزدق يتصل بحلقة الحسن البصري ويشترك فيها بينما كان جرير يلمّ بحلقة ابن سيرين[٩٦]. وكانت الروح العامة لهذه الحلقات تتسم بالجدل والمناظرة والمناقشة. وقد أسهمت الصراعات الفكرية بين أصحاب المذاهب المختلفة كالقدرية والجبرية، وجو المنازعات العام بين الفرق والأحزاب السياسية الدينية مثل الشيعة والخوارج وما إليهم في خلق ذلك الضرب من الشعر القائم على الجدل والمناقضة. وروح الجدل والشقاق هذه قد بلغت درجة كبيرة حتى بين أصحاب الاتجاه الواحد كما عبر عن ذلك زيد بن جندب شاعر الأزارقة من الخوارج حين نعى على أصحابه التفرق وهم يتهاوون تحت ضربات المهلب بن أبي صفرة :

قل للمحلين قد قرّت عيونكم ... بفرقة القوم والبغضاء والهرب
كنا أناساً على دين ففرقنا ... قرع الكلام وخلط الجد باللعب
ما كان أغنى رجالاً ضل سعيهم ... عن الجدال وأغناهم عن الخطب[٩٧]

واستغل الشعراء نفس النهج الذي وصل قمته في نقائض جرير والفرزدق وعشرات الشعراء الذين التحموا معهما. وكانت النتيجة لذلك أن ما نتج في ميدان الشعر كان يمت – من ناحية الشكل إن لم يكن من ناحية الروح – بوشائج ورحم

---

٩٦ العقد الفريد ٢٢٢/٦ ؛ ابن سلّام ٢٨٥ .

٩٧ شعر الخوارج ٣٥ القطعة ٦٨ .

لألوان الجدل والمناظرات التي كانت تقوم في المربد بين المتكلمين والمفكرين وأصحاب الفرق. ولم يتجلَّ هذا الاتجاه في مجال الشعر القبلي أو الخصومات بين الأفراد كما حدث بين حارثة بن بدر الغداني وأنس بن زنيم[٩٨] فحسب بل نراه – وإن كان على درجة أدنى – في ميدان الأفكار العامة والمعاني. فعندما نظم الفرزدق بيته :

فإني أنا الموت الذي هو ذاهب بنفسك فانظر كيف أنت تحاوله

حلف بالطلاق أن جريراً لا يغلبه فيه، فكان جرير يتمرّغ في الرمضاء ويقول أنا أبو حزرة حتى قال :

أنا الدهر يفني الموت والدهر خالد فجئني بمثل الدهر شيئاً يطاوله[٩٩]

ويمكن ملاحظة أثر الفكر على الشعر في مناح مختلفة. فأثر الحسن البصري والقصاص والمتكلمين على شعر الفرزدق ورجز العجاج واضح في المقطوعات الكثيرة التي تحدثا فيها عن الجنة والنار والبعث وهجاء إبليس بطريقة تشبه طريقة الوعاظ وقد سلفت الإشارة إليها[١٠٠] . ولكن هذا الأثر يتعدى هذه الحدود التعليمية والوعظية إذ أن كثيراً من الأفكار التي كان الجدل يثور حولها في هذه المجالس كانت تجد طريقها إلى الشعر. سأل رجل الحسن فقال: يا أبا سعيد الرجل يقول لا والله بلى والله في كلامه. قال الحسن: لا يريد اليمين. فقال الفرزدق: أو ما سمعت ما قلت في ذلك ؟ قال الحسن: ما كل ما قلت سمعوا، فما قلت ؟. قال قلت :

ولست بمأخوذ بلغو تقوله إذا لم تعمّد عاقدات العزائم[١٠١]

---

٩٨ انظر الباب الخامس ص ٢٧٩ .

٩٩ الأغاني ٣٢/١٩ ؛ العمدة ٢٠٩/١ .

١٠٠ انظر الباب الخامس ص ٢٦٤ – ٢٦٦ .

١٠١ ديوان الفرزدق ٣٠٧/٢ ؛ ابن سلام ٢٨٣ – ٤ ؛ انظر لهذه الفكرة ديوان جرير ٤٥٤ ؛ النقائض ٧٥٤ ؛ ديوان ذي الرمة ٢٩٤ . وانظر ما قاله الفرزدق في حلقة الحسن عن نكح الحلائل في الباب الخامس ص ٢٣٩ أعلاه .

وجو البصرة الذي يعكس وضعاً اجتماعياً وسياسياً معتدلاً طبع الشعر بروح مماثلة. فعلى الرغم من الثورات العنيفة والصراع الداخلي الذي كانت البصرة مسرحاً له، إلّا أنها نهجت منهجاً معتدلاً في السياسة العامة وتقبلت حكم الأمويين كحقيقة واقعة بحكم أنهم حماة الجماعة المسلمة[١٠٢] . ولم يكن هذا الموقف نابعاً من اعتبارات سياسية فحسب، بل كان يصدر عن وجهة نظر دينية وفلسفية محددة تبلورت عن طريق إجماع الرأي العام المستنير في البصرة. ففكرة القدر وضرورة الخضوع لما قضى به الله تساهم على نحو ما في تأكيد سلطة الدولة والتي اعتبرت موازية لسلطة الجماعة المسلمة مساوية لها. ومن المهم أن ننبه هنا إلى أنه حتى الذين كانوا يؤيدون الرأي المخالف من القدرية أصحاب حرية الإرادة لم يقفوا دائماً موقف العداء من الأمويين. فالحسن البصري رفض أن ينضم للثائرين على الأمويين ووقف بحزم ضد العصاة[١٠٣] وهو موقف جلب عليه سخط الخوارج[١٠٤] . ولكن الأمويين رأوا في مذهب حرية الإرادة خطراً يهدّد دولتهم فعذّبوا معتنقيه[١٠٥] .

وقد عكس الشعر، خاصة ذلك الموجّه للأمويين، هذه الروح المعتدلة. وحتى الشعراء الذين عرفوا بميولهم الشيعية، كأبي الأسود الدؤلي والفرزدق، نادراً ما أظهروا هذه الميول في الشعر الذي وصلنا عنهم. ومما يوضح أن التضاد بين فكرتي القدر والجبر كان اتجاهاً فكرياً عاماً أكثر من مجرد غشاء واه لتبرير الانحياز السياسي الجدل الشهير الذي دار بين ذي الرمة المشهور بميوله القدرية ورؤبة الذي كان يمثل اتجاه الجبر السائد في البصرة[١٠٦] ، حول قدرة الله على الإيذاء وقد أورده

---

١٠٢ انظر الباب الأول ص ٦١ .

١٠٣ نفسه .

١٠٤ ابن سعد ١/٧ ص ١٢٧ .

١٠٥ نفسه ١٢٢ قال حماد بن زيد عن أيوب قال: أنا نازلت الحسن في القدر غير مرة حتّى خوفته السلطان فقال لا أعود فيه بعد اليوم .

١٠٦ انظر ديوان رؤبة ٦ لهجاء للقدرية .

الشريف المرتضى في أماليه[١٠٧]. ومما يزيد هذا الأمر جلاء ما رواه إسحق بن سويد أنه قال: قلت لذي الرمة وسمعته ينشد قوله :

وعينان قـال الله كونـا فكانتـا فعولان بالألباب ما تفعل الخمر[١٠٨]

قال: فقلت له: فهلّا قلت: فعولين. فقال: لو قلت سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر كان خيراً لك[١٠٩]! يريد اسحق: كونا فعولين فينسب الفعل لله وهو رأي الجبرية بينما يريد ذو الرمة: وعينان فعولان فينسب الفعل للعينين وهو اتجاه القدرية في حرية الإرادة .

أما الاتجاه المعتدل الذي كان ينتظم حياة البصرة الفكرية والسياسية على السواء[١١٠] فقد عبّر عنه الصلتان العبدي في أبياته التي توضح في ذات الوقت نفور أهل البصرة من أصحاب المذاهب المتطرفة :

أرى أمـة شهرت سيفها وقـد زيد في سوطها الأصبحي
بنجديـة وحـروريـة وأزرق يـدعـو إلى أزرقي
فملّتنـا اننـا المسلمون على دين صدّيقنـا والنبي[١١١]

---

١٠٧ المرتضى: الأمالي ١٤/١ .

١٠٨ ديوان ذي الرمة ٢١٣ .

١٠٩ الأغاني ١٢٢/١٦ .

١١٠ ابن سلام ٤٣٩ للراعي : وديوان الفرزدق ١٢/١ ؛ ٨٩/٢ ، ٣١١ .

١١١ كامل المبرد ٢٤٦/٢ ؛ وانظر النزهة ٨ لأبيات نصر بن عاصم الذي رفض كل فرق الخوارج .

الفصل الثاني

البيئة وشكل الشعر

القوى الاجتماعية التي تتحكم في بناء الوضع الاجتماعي لأمة من الأمم تملي على المجموعة نماذجها الفكرية كذلك. والشعر – وهو من أقوى أدوات الفكر تعبيراً عن مدى وسرعة التغير الاجتماعي – يتأثر بالضرورة في شكله ومحتواه بما يحدث في المجتمع ككل. والعلاقة بين الشكل والمضمون في الشعر علاقة عضوية في صميمها، وعدم جدوى معالجة أحد عنصريها بمعزل عن الآخر قد أصبحت حقيقة لا تقبل الجدل في النقد المعاصر. وهذا الفهم لا ينطبق على وضع أكثر من إنطباقه على موضوع الأسلوب الذي كثيراً ما عولج بعد تجريد وكأنه نشاط أدبي صرف لا يمت بوشيجة إلى خلفيته الاجتماعية. ونحاول في هذا الفصل أن ندلل – دون أن نغرق في الظواهر الأدبية الصرف – على هذا الفهم بما حدث في شعر البصرة في العصر الأموي. وسنكتشف أن قدراً من شكل هذا الشعر وتركيبه كان إلى حدّ كبير – وإن كان أدنى درجة في ذلك من محتواه – نتيجة للعوامل الاجتماعية التي تخلق ألواناً من الظروف في المجتمع تستلزم ضروباً بعينها من وسائل التعبير .

ونقرر في البداية أن ضروب الشعر المختلفة وألوان الأساليب المتعددة التي حفل بها شعر البصرة ما كانت كلها دائماً وليدة التقاليد الأدبية المتوارثة بحيث يقال إن الأجيال اللاحقة ما كان لها فيها أكثر من فضل التناول والاقتباس. بل كان الكثير من هذه الضروب والألوان نتيجة مباشرة لظروف جدت في مجتمع البصرة المتطور الزاخر بالحياة، والعوامل المتحكمة في هذه الظروف كثيرة. فهناك غير العامل الحضاري الواضح الأثر عوامل أخرى اجتماعية وثقافية أحدثت تنويعاً بعيد المدى في حقل النشاط الثقافي مما نجم عنه فروع متخصصة من المعرفة. وما كان للشعر وهو نشاط ثقافي أن ينجو من آثارها، فحكمت الظروف على الشعراء أن يتخصصوا لا في مادة الشعر وحدها، بل في الشكل الذي يحمل هذه المادة على السواء. وهكذا نجد - على سبيل المثال - إن بعث شعر الرجز وازدهاره في هذه الفترة كان نتيجة طبيعية لعوامل ثقافية واجتماعية معينة ما كان من الممكن لهذا الضرب من الشعر الشعبي الذي تجافاه الشعراء منذ القدم، واحتقروه أن يتطور بدونها. وحتى في هذه الفترة الذهبية لازدهار الرجز ما كان كل الشعراء فرسان ميدانه. والواقع أن كثيرين منهم واجهوا صعوبات كبيرة حين حاولوا النظم فيه. وقد تظاهرت الروايات على أنه كان مجالاً شبه محتكر تخصص فيه فرع بعينه من بني تميم هم بنو سعد. فقد روى عن ذي الرمة أنه قال: «قلت الرجز، فلما رأيتني لا أقع من الرجلين (يعني العجاج ورؤبة) أخذت في القصيد وتركته». وقد علّق صاحب الموشح على هذا الاعتراف بقوله: «كان لذي الرمة رجز فلما خشى أن يعرّه عاد إلى القصيد»[1] وواضح أن هذا التعليل من المرزباني له اعتبار كبير في عقلية ذي الرمة الذي كثيراً ما شكا - كما سنرى - من أن معاصريه يهضمونه حقه في الفحولة. وقد واجهت هذه الصعوبة جريراً فقال «واني لأرى من الرجز أمثال آثار الخيل في الثرى ولولا اني أخاف ان تستنفر مني لأكثرت منه»[2]. وهذه

---

١ المرزباني: الموشح ١٧٤.

٢ الأغاني ٧/٥٥.

الحساسية من جانب هذين الشاعرين المجيدين تشف عما تحتها من منافسة حادة كانت تنتظم الشعراء المعاصرين حول موضوع التجويد وامتلاك ناصية الأداء الشعري مما يزيد في فرصهم في التفوق المادي والأدبي[٣] . وقد وضح هذه الناحية الفرزدق حين أبدى اعجابه بشعر عمران بن حِطّان الخارجي فقال: «لقد أحسن بنا ابن حطان حيث لم يأخذ فيما أخذنا فيه ولو أخذ فيه لأسقطنا، يعني لجودة شعره»[٤]. ولم يكن هذا الشعور قاصراً على الشعراء فحسب بل إن الجماهير الغفيرة التي تتلقى شعرهم وتستجيب له كانت تدري من ذلك الكثير. فعندما نظم أبو نخيلة في بداية حياته الشعرية قصيدة يمدح بها مسلمة بن عبد الملك لم ترق للأمير حين أنشدها إياه وبدا عليه الملل فخاطب الشاعر بقوله، فيما يروي صاحب الأغاني: «ممن أنت ؟ فقلت: من بني سعد. فقال: ما لكم يا بني سعد والقصيد، وإنما حظكم في الرجز»[٥] .

والواقع أن ارتفاع الرجز إلى مرتبة الاحترام في العصر الأموي والتحامه المشهود بمجرى الشعر العربي العام – بعد أن كان يضرب في مجاهل قاحلة من قبل – وثيق الصلة بالتطورات التي جدّت في مركزي التحضر بالعراق في الكوفة والبصرة. فقد كان الرجز فيما سلف يعتبر في منزلة دون القصيد، وكان الرجز والقريض تيارين منفصلين والحديث عنهما في المصادر يكاد ينزلهما بمنزلة الشعر والنثر في مصطلح المحدثين. فقد قال أبو عبيدة: «ما زالت الشعراء تقصر بالرجاز حتى قال أبو النجم: الحمد لله الوهوب المجزل، وقال العجاج: قد جبر الدين الإله فجبر. وقال رؤبة: وقاتم الأعماق خاوي المخترق، فانتصفوا منهم»[٦]. والحقيقة التي وضحها نلينو

---

٣ انظر الجاحظ: البيان والتبيين ١٨٠/١ ، ٢٧٢/٣ (السندوبي) لقائمة بأسماء الشعرأ الذين جمعوا بين الرجز والقصيد .

٤ الأغاني ١٥٥/٢٠ ، وانظر الباب الثاني ص ١١٣

٥ نفسه ١٤٠/١٨ .

٦ نفسه ٧٨/٩ .

من قبل من أن هذا البحر أو قل هذا الضرب من الشعر كان أداة شعبية تلبي حاجة الارتجال[٧] تفسّر لنا احتقار كبار الشعراء في العصر الجاهلي له، وانصرافهم عن القول فيه إلّا في حدود ضيقة حتى جاء العصر الإسلامي. قال البكري[٨]: «ما كانت العرب في الجاهلية تطيل الاراجيز وإنما أطالها المخضرمون والإسلاميون كالأغلب العجلي الصحابي وأبي النجم والعجاج ورؤبة والزفيان السعدي وذي الرمة وخلف».

وقد حدث أكبر تطور له على أيدي الرجاز الأمويين الذين ارتفعوا به إلى مقام الاعتراف به كشكل تعبيري يقف على قدم المساواة مع الشكل الآخر من الشعر الذي سموه بالقصيد. وما كان لهذا الماضي المليء بالاحتقار أن يزول بشكل حاسم بل بقيت منه ذكريات في عقول الناس كما يدل على ذلك قول اللعين المنقري[٩] في بحر البسيط حين هاجم الراجز رؤبة:

أبالاراجيز يا ابـن اللـؤم تـوعـدني   وفي الأراجيز جلب اللؤم والفشل

والواقع أن إمكانيات الرجز المحدودة فيما يتعلق بتناول المواضيع التقليدية خاصة الهجاء لا تحتاج إلى الاطالة في الإيضاح. فعندما نعى جرير على هشام المرئي تفوق ذي الرمة عليه في الهجاء بقوله: «غليك العبد!» (يعني ذا الرمة)، فقال هشام: «فما أصنع يا أبا حزرة وهو يقول القصيد وأنا أقول الرجز، والرجز لا يقوم للقصيد، فلو رفدتني!»[١٠]. ولعلَّ هذا هو سرّ عدم تفوق رؤبة والعجاج في مجال الهجاء[١١]. وقد برّر العجاج هذا العجز بحجة واهية حين قيل له: «لم لا تهجو؟

---

٧ الأدب العربي لنلينو (باريس) ١٤٦؛ بلا؛ بيئة البصرة (باريس) ١٥٨ — ١٦٠.

٨ أراجيز العرب ٤.

٩ المبرد: الكامل (المرصفي) ٣/٣٨؛ الجاحظ: الحيوان ٤/٨٨.

١٠ ابن سلام ٤٧٣؛ الأغاني ٨/٥٥ — ٦.

١١ الأغاني ٢١/٨٨.

فقال: ولِمَ أهجو ؟ إن لنا أحساباً تمنعنا من أن نظلم وأحلاماً تمنعنا من أن نظلم، وهل رأيتم بانياً لا يحسن أن يهدم ؟ ثم قال: أتعلمون إني أحسن أن أمدح ؟ قالوا نعم. قال: أفلا أحسن أن أجعل مكان «أصلحك الله» «قبّحك الله»، ومكان «حياك الله» «أخزاك الله»[١٢]. وقد ردّ ابن قتيبة فيما يروي ابن رشيق[١٣] هذا القول على العجاج بأن الهجاء أيضاً بناء وليس كل بان لضرب بانياً لغيره.

وكثيراً ما حاول العجاج تفادي التعرض لشعراء القصيد خاصة جرير الذي اشتهر بعنف هجائه ولذع لسانه[١٤]. قال روح الكلبي: كنت عند عبد الملك بن بشر بن مروان فدخل جرير فلما رأى العجاج أقبل عليه ثم قال له: والله لئن سهرت لك ليلة ليقلّن عنك نفع مقطعاتك هذه. فقال العجاج: يا أبا حزرة والله ما فعلت ما بلغك، وجعل يعتذر ويحلف ويخضع، فلما خرج قال له رجل: لشدّ ما اعتذرت إلى جرير. قال: والله لو علمت أنه لا ينفعني إلّا السّلاح لسلحت»[١٥] وحين تفرض عليهم الظروف الدخول في معارك هجائية يشتبكون عادة مع رصفائهم من الشعراء الرجاز كما حدث في حالة العجاج مع أبي النجم[١٦]، ورؤبة مع أبي نخيلة[١٧].

وليس من الشطط أن نشير هنا إلى مـا أسلفنا القول فيه من أن نمّو الرجز وتطوره في العصر الأموي له سمات مشتركة مع أوجه التطور الثقافي المختلفة التي كانت تتفتح براعمها في هذه الفترة بالذات في مدينة البصرة، فقد كان نمو

---

١٢ ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٤١/١، ٥٧٣.

١٣ ابن رشيق: العمدة ١١٢/١.

١٤ انظر الباب الثاني ص ١١٠.

١٥ الأغاني ٨٨/٢١.

١٦ الشعر والشعراء ٥٨٢/٢؛ الحيوان ٧٠/٦؛ نلينو ١٥٣.

١٧ الشعر والشعراء ٥٨٣/٢ — ٤.

الرجز – إلى حدّ ما – استجابة لحاجة لغوية[١٨] ، وأهم من ذلك إحساس الشعراء الرجاز – وقد وجدوا أنفسهم عاجزين عن منافسة الشعراء الذين يستخدمون شكل القصيد التقليدي – بضرورة تطوير فنهم بحيث يعبّر عن مواضيع وأفكار تروق لسكان الحاضرة من العرب وترضي أذواق الباحثين من فقهاء اللغة. وما هذا الإيغال في رسم مناظر الصحراء والمبالغة في تصوير حيوانها وشجرها وما إليه إلّا تعبير عن النشوة البالغة التي يجدها المتحضرون من العرب في اجترار ذكريات البادية التي ارتبطت بها حياتهم الشعورية والعقلية لقرون طويلة، ولكنهم قد بعدوا عنها الآن بفعل التطور الحضاري الطاغي الذي نقلهم إلى الأمصار فلم يعد إلّا الحنين والتشوق العارم لأطياف الماضي كما يحن الإنسان إلى أيام طفولته ومراتع صباه. وما كان لهذه الصلة بالصحراء أن تنقطع ، وهم وإن بعدوا عنها حضارياً يقبعون في أطرافها. فقد كان العرب في أمصارهم يعلمون أن منبع ثقافتهم ومصدر الوحي فيها يتمثل في الصحراء، وكان الشعراء الرجاز ، مثلهم في ذلك مثل شعراء البادية الذين نبغوا في تصوير حياة الصحراء كذي الرمة، يلبّون حاجة هؤلاء الحالمين من الحضر. وسرعان ما اقترن الرجز بمظاهر الحياة العربية الأصيلة التي يسعى المتحضرون من العرب لحفظها والتمسك بها. وتلك نقلة بعيدة، إذ أنه كان في الماضي أداة في يد الأفراد العاديين يقولونه دون تعمل في أناشيد العمل والرقص والحرب والرعي والسقي، ومردّ الحوشي من اللفظ فيه لا إلى تمثيله اللغة الجاهلية المصفاة بل إلى اختلاف اللهجات القبلية التي يتحدث بها الأفراد، ويتحاشاها الشاعر الذي ينظم القصيد لانه يتحدث في شعره بلغة الشعر النموذجية التي اصطنعها الشعراء الفحول، ولعله من هنا جاء احتقارهم للرجز .

أما في العصر الأموي فقد انعكست الموازين بشأن الرجز نسبة للتطور الاجتماعي الذي ذكرناه، وأصبح الرجز بحقّ مستودعاً لتراث العرب في الصحراء من الناحية

---

١٨ انظر شوقي ضيف: التطور والتجديد ٣٤٠ والفصل السابق من هذا الباب .

الاجتماعية واللغوية. سأل المنتجع النبهاني - أحد رواة الأعراب - رجلاً من أعيان البصرة عن التعليم الذي يتلقاه أبناؤه، فقال له: الفرائض. فقال المنتجع: «ذاك علم الموالي لا أبالك، علمهم الرجز فإنه يهرّت أشداقهم»[١٩]. وقد دفع كل ذلك الشعراء للتسابق لإشباع الحاجات الملحة التي فرضتها ظروف الحياة الجديدة. وقد كان هذا التسابق يصل أحياناً إلى حدود المغالاة والمفارقات. فعندما اتهم العجاج[٢٠] أو رؤبة[٢١] الكميت والطرماح بأنهما كانا لا يفهمان الغريب الذي كانا يسألانه عنه، ثم يجده بعد ذلك في شعرهما وقد وضعاه في غير مواضعه، كان محقاً حين قيل له: ولم ذاك؟ فقال: لأنهما قرويان يصفان ما لم يريا فيضعانه في غير موضعه، وأنا بدويّ أصف ما رأيت، فأضعه في مواضعه[٢٢]. وقد أوقع مثل هذا السلوك الكثيرين في مواطن الحرج، فقد تعرّض ذو الرمة الذي كان معلماً بالبادية ويكثر من الحضور للبصرة وقد اعتبره أبو عمرو حجة في الفصاحة[٢٣]، تعرّض لحرج بالغ حين تصدّى له خياط في مربد البصرة فبين له أخطاءه في وصف الطلول وتشبيه المحبوبة بعنز (لولا مدرياها وأذنها)، فقام ذو الرمة وذهب ولم ينشد بعدها في المربد حتى مات الخياط فيما يروي صاحب الأغاني[٢٤]. وقد حفل شعر ذي الرمة هذا بألوان مشرقة ولوحات باقية لحياة الصحراء[٢٥]، وما أنجزه في هذا الميدان يوضح مدى رواج شعر الصحراء الذي نبع في بلاط الأمراء وحلقات العلماء. فعلى الرغم من اتهام رؤبة له بسرقة أشعاره[٢٦] ومجابهته له بذلك أمام ممدوحه بلال بن أبي بردة[٢٧]، وعلى الرغم

---

١٩ كامل المبرد (المرصفي) ١٩٣/٤.

٢٠ الأغاني ١٨/٢.

٢١ الموشح ١٩٢.

٢٢ الأغاني ١٨/٢.

٢٣ الموشح ١٩١ - ٢؛ الأصمعي: فحولة الشعراء ٥٠٣.

٢٤ الأغاني ١١٨/١٦ - ٩.

٢٥ انظر عبد الله الطيب: شرح أربع قصائد لذي الرمة، وشوقي ضيف: التطور والتجديد ٢٦٥.

٢٦ الأغاني ١٢١/١٦.

٢٧ نفسه ١٢٣.

من اتفاق معاصريه على أنه لا يحسن أن يهجو أو يمدح[٢٨] ، إلّا أن فنه كان يلقى الإعجاب من ممدوحيه الذين يتوجه إليهم بشعره[٢٩] . والغريب في أمر هذا الشعر أن أقل ما فيه هو مدح الممدوح ، فقد كان اهتمامه بفنه يطغى على موضوعه الأساسي في المدح ، فهناك قصائد بطولها في ديوانه قصد بها المدح ، ولكنه في الواقع يصرفها إلى وصف الرحلة ومظاهر الصحراء. ففي قصيدة استغرقت سبع صفحات من ديوانه المطبوع في كمبردج[٣٠] لا نجد إلّا بيتاً واحداً فقط فيه اسم الممدوح في حين وهب القصيدة لحياة الصحراء. وفي قصيدة أخرى مكونة من تسعة وستين بيتاً في مدح عبد الملك بن بشر بن مروان[٣١] لا ينال الممدوح منها سوى أربعة أبيات. وكذلك الحال في قصيدة أخرى من تسعة وخمسين بيتاً لا يتفضل فيها على ممدوحه عبيد الله بن معمر إلّا بأربعة أبيات[٣٢] . وقل مثل ذلك في قصيدته في عمر بن هبيرة[٣٣] وغيرها من القصائد .

وعلى الرغم من أن تجويد ذي الرمة في هذا الضرب من الشعر قد أثار عليه حسد جرير والفرزدق فيما يروي الرواة[٣٤] ، إلّا أنه ما كان كبير المرتبة في مقياس الشاعرية العام ، لأنه قصر ملكته الشعرية على موضوع محدود الأبعاد نسبياً محدود الجمهور ، وقد لاحظ الشاعر نفسه المكانة المتواضعة التي أحلها إياه معاصروه في ميزان الشاعرية. فسأل الفرزدق – وقد رآه يعجب بقصيدة أنشدها إياه – لم لا أعد في الفحول ؟ فقال له الفرزدق : يمنعك من ذلك صفة الصحارى وأبعار الابل[٣٥] .

---

٢٨ نفسه ١٢١ ؛ الموشح ١٧٢ ، ١٧٦ ؛ العمدة ٢٠٦/١ .

٢٩ انظر رأي بلال في الأغاني ١٢٣/١٦ .

٣٠ ديوانه ١٣٢ – ٨ .

٣١ نفسه ٣٥٥ – ٣٧١ .

٣٢ نفسه ٥٤٧ – ٦٠٠ .

٣٣ نفسه ١٨٤ – ١٩٢ .

٣٤ الأغاني ١١٢/١٦ ؛ الخزانة ١٠٦/١ .

٣٥ ابن سلام ٤٦٨ ؛ الموشح ١٧٢ ؛ الخزانة ١٠٧/١ .

وضيق مجال الشاعرية هذا ما كان مقصوراً على ذي الرمة الذي وصفوه بأنه ربع شاعر لهذا السبب[٣٦]، فقد كان هناك شعراء آخرون متخصصون. فقد اعتبر ابن فسوة خير من يصف الإبل وما كان يخلو له شعر من وصفها كما يقول الأصفهاني[٣٧] وقد سخر شاعر من استغراقه في هذا النشاط حين هجاه بقوله :

أودى ابن فسوة إلّا نعته الإبلا[٣٨]

ورأى المعاصرون في عمر بن لجأ أنعت الناس لحلوب في الرجز كما يقول الأصمعي[٣٩]، وقد جلب له هذا التخصص سخرية جرير حين هجاه في الديوان بقولـه :

أوصفتم الجمـل الكريـم بناتـه لكن بنات أبيك غير كـرام[٤٠]

وقد نال الراعي الذي عاش في هذه الفترة لقبه هذا نتيجة لتوسعه في وصف النوق[٤١] فقد قال عنه الأصمعي[٤٢] : «إنه أنعت الناس لحلوب في القصيد»، وقد لاحظ جرير استهتاره في هجاء قومه من بني هوازن من جهة وتفانيه في مدح النوق من جهة أخرى فعبّر عن هذه المفارقة في قوله يهجوه :

وقرضك في هـوازن شر قـرض تهجِّنهـا وتمتدح الوطـابا[٤٣]

والظاهر أن تضييق الراعي لمجاله الشعري قد فرضه هو على نفسه بطريقة

٣٦ الموشح ١٧٢ ؛ دائرة المعارف الإسلامية الأولى مادة ذي الرمة .

٣٧ الأغاني ١٤٣/١٩ .

٣٨ نفسـه .

٣٩ الأصمعي : فحولة الشعراء (ZDMG) ٥٠١ .

٤٠ ديوان جرير ٤٢٧ .

٤١ الأغاني ١٦٨/٢٠ ؛ ابن سلام ٢٥٠ ؛ فحولة ٥٠١ .

٤٢ فحولة الشعراء ١ – ٥ .

٤٣ الأغاني ١٧١/٢٠ .

إرادية لا بعجز في شاعريته، فقد كان الرجل شاعر مضر بشهادة أبي عبيدة[٤٤]. وقد وضح ابن سلّام ذلك حين قال: «كان يقال له في شعره: كأنه يعتسف الفلاة بلا دليل، أي أنه كان لا يحتذى شعر شاعر ولا يعارضه»[٤٥]. وكان ذلك منه حرصاً على الأصالة، ونفوراً من التقليد في عصر اشتدت فيه المنافسة بين الشعراء، فلم يبق أمام المجيدين منهم غير التخصص وتحديد المجال. ولعلّ هذا الموقف – أكثر من تغلّب جرير عليه (كان فحل مضر حتى ضغمه الليث – يعنون جريراً[٤٦]) – هو السبب الحقيقي الذي أدى إلى اضمحلال شأنه كشاعر بعد ظهور شعراء واسعي الأفق الشعري يروق إنتاجهم المتنوع لقطاعات أوسع من الجمهور المتلقي للشعر، وعلى رأس هؤلاء جرير والفرزدق.

وقد دلّت رهافة الحاسة النقدية والاهتمام البالغ بالشعر وتذوقه – مما كان يظهر في ملاحظات الممدوحين من الحكام والأمراء وغيرهم من جمهور الشعر – على أن الشعراء كانوا مدفوعين – في اختيارهم لمجالات تخصصهم – برغبة قوية في التجويد لإرضاء جمهور ذوّاق لا يرحم، مسلّح بالمعرفة الشعرية. فعندما وصف رؤبة ساقي الفرس بأنهما:

يهوين شتّى ويقعن وقفا

بادره الأمير سلم بن قتيبة بقوله: أخطأت في هذا يا أبا الجحاف، جعلته مقيداً، وكل ما استطاع الشاعر أن يدافع به عن نفسه قوله: «أدنني من ذنب البعير أصفه لك كما يجب»[٤٧]. والواقع أن تخصص رؤبة والعجاج ما كان في الخيل بل كانا صاحبي إبل ونعتها كما يقول ابن سلام[٤٨].

---

٤٤ النقائض ٤٢٧ .

٤٥ الطبقات ٤٣٤ .

٤٦ نفسه ٤٣٥ ؛ ديوان جرير ٥٨ – ٦٥ .

٤٧ الأغاني ٢١/٩٠ – ٩١ ؛ الشعر والشعراء ٢/٥٧٧ .

٤٨ الطبقات ١٠٧ .

ومثل هذه المشاق التي واجهها هؤلاء الشعراء وهم ينظمون شعرهم تلقي ضوءاً مفيداً على الطبيعة الانتقالية للمرحلة التي كانت تمرّ بها بيئتهم. فإن البدو الذين اجتذبتهم حياة الحاضرة بما فيها من مباهج وفرص للثراء كانوا يفقدون من جراء انتقالهم للأمصار الصلة بحياة الصحراء الحقيقية، ولكن بما أنهم كانوا يتخذون من هذه الصحراء مادة لأشعارهم التي يتكسبون بها، فكان لزاماً عليهم أن يعوضوا عما يمكن أن يكون قد فاتهم من ذلك عن طريق التعلم وحفظ الشعر القديم والإتكاء عليه كمثال يحتذى، ولم يكن ذلك مقصوراً على الأعراب في الإسلام فحسب بل كان ذلك أمر كثير من الفحول الجاهليين الذين كانوا في كثير من الأحيان يجترون ثقافة ويخضعون لمواضعات وقوالب فنية يتناولها الخلف عن السلف ويتدارسونها، إذ أنهم ما كانوا يعيشون كل ما قالوه أو وصفوه في أشعارهم. ودعوى العجاج السالفة بأنه بدوي يصف ما يرى فيضعه موضعه، لا تقبل على علاتها نسبة للأخطاء الكثيرة التي كان يرتكبها وهو يصف مظاهر عادية من مظاهر الصحراء لا تفوت على البدويّ الحقيقي المتمرس بحياة الصحراء. فعندما وصف حمار وحش منفرداً نبهه بدويّ إلى أن حمار الوحش لا يكون منفرداً بل تصحبه إناثه وأنشده في ذلك شاهداً من الشعر[٤٩]. أما أخطاء ابنه رؤبة ومفارقاته فأكثر من أن تحصى وكلها تشير إلى جهل ببعض الحقائق البسيطة عن حياة الصحراء والشعر الجاهلي المتعلق بها. فحين قال :

كنتم كمن أدخل في جحر يدا　　　فأخطأ الأفعى ولاقى الأسودا

جعل الأفعى دون الأسود وهي فوقه في المضرّة كما يقول الأصمعي[٥٠]. وفي بيت آخر أخطأ في وصف الظليم فجعل له عدة إناث كما يكون للحمار وليس للظليم إلّا أنثى واحدة[٥١]. وهناك أمثلة كثيرة أخرى أوردها الأصمعي في الشعر

---

٤٩ الشعر والشعراء ٥٧٣/٢ .

٥٠ نفسه ٥٧٩ .

٥١ العسكري: كتاب الصناعتين ٩٠ .

والشعراء لابن قتيبة[٥٢]. وهناك أخطاء مماثلة أحصيت لذي الرمة في وصف الكلاب والابل والنساء وما إليها[٥٣]. ويجب أن نلاحظ هنا أنه بنفس القدر كانت عدم معرفتهم الدقيقة بحياة الحاضرة توقعهم في أخطاء تبعث أحياناً على الضحك، كأن يقول رؤبة: «أوفضة أو ذهب كبريت»، فقد سمع بالكبريت الأحمر فظن أنه ذهب[٥٤]، أو حين يجعل العجاج الزجاج يرشح[٥٥]، أو حين يظن أبو نخيلة ان الفُستق ضرب من البقول[٥٦].

والواقع أن ارتباط تطور الشعر الأموي خاصة في البصرة بالشعر الجاهلي التقليدي يفسّر إلى حدّ كبير غلبة العناصر البدوية عليه ليس في المضمون فحسب كما رأينا من قبل[٥٧]، بل في لغة الشعر ومجازه، ولا يستثنى من ذلك حتى الشعراء الذين عاشوا في الحاضرة طوال حياتهم. ولكن حركة التغير الاجتماعي مسَّت حتى هذا الشعر التقليدي وأثرت فيه من جوانب متعددة كما رأينا.

وكان أثر الحياة الدينية كبيراً وقد نبهنا في الفصل السابق إلى أثر القصاص والوعاظ في هذا المجال. والحقيقة المتمثلة في كون الرجز – وهو أعظم ألوان الشعر محافظة – أكثرها تعرضاً لمثل هذا التأثير الديني تلقي المزيد من الضوء على الدوافع الكامنة وراء بعث هذا الضرب من الشعر، وهي بهذا تؤكد أن هذا الشعر – على الرغم من ازدحامه بشتى الصور عن حياة الصحراء وأفكارها – لا يعبر بالضرورة عن مشاعر بدوية حقيقية بقدر ما هو – في عمومه – صور مصنوعة تلائم حاجات

---

٥٢ الشعر والشعراء ٥٨٠/٢ – ٣ .

٥٣ نفسه ٥١٨/٢ – ٩ ؛ الأغاني ١١٨/١٦ – ٩ ؛ الموشح ١٨٠ ، ١٨٣ – ٥ .

٥٤ ديوان رؤبة ٤١ ؛ المزهر ٣١٣/٢ .

٥٥ الشعر والشعراء ٥٧٤/٢ .

٥٦ نفسه ٥٨٤ .

٥٧ انظر الباب الخامس الفصل الأول .

الحاضرة وخاصة حاجات العلماء والمتعلمين. وهذا العامل الديني لم يؤثر على المعنى والمحتوى فحسب بل أثر أيضاً على الشكل والأخيلة الشعرية .

ويبرز هذا في أوضح صوره في تخلي بعض الشعراء خاصة العجاج ورؤبة عن المقدمات الطللية التقليدية في كثير من اشعارهم، واستبدالها بمقدمات دينية وأدعية[٥٨] . وقد أحسّ شعراء آخرون بالحاجة إلى إدخال عناصر إسلامية فيما كان يعبّر عنه بأساليب قديمة. فبدل من أن يطلب ذو الرمة من الله السقيا لصاحبيه كما يقضي العرف الجاهلي يخاطبهما مرة بقوله :

ولا زلتما في حبرة ما بقيتما … وصاحبتما يوم الحساب محمدا[٥٩]

ويقول لهما في مناسبة أخرى :

يا صاحبي انظرا آواكما درج … عالٍ وظل من الفردوس ممدودا[٦٠]

وقد استغل الشعراء كثيراً من المؤسسات والأفكار الإسلامية وكثيراً ما نجدهما إلى جانب الصور التقليدية. وهكذا نجد بقايا المسجد تجد مكانها في المقدمة الطللية إلى جانب الآثار الأخرى المعهودة كما يمثلها بيت ذي الرمة :

عفت غير آري وأعضاد مسجد … وسفع مناخات رواحل مرجل[٦١]

والمسجد كأهم بناء في المجتمع الإسلامي ظهر أيضاً في هجاء جرير للفرزدق في بيت اعتبره الفرزدق أقسى ما هجي به وذلك في قوله :

ودت سكينة أن مسجد قومها … كانت سواريه أيور بغال[٦٢]

---

٥٨ انظر ديوان العجاج ١٤ ، ١٥ ، ٢٤ ، ٤٠ ؛ وديوان رؤبة ٢٥ .

٥٩ ديوان ذي الرمة ١٢١ .

٦٠ نفسه ١٣٢ ، وانظر ٣٠٤ .

٦١ ديوان ذي الرمة ٥٠٢ .

٦٢ النقائض ٣٢٢ ، ١٠٥٣ .

وقد استعمله الفرزدق في النسيب أيضاً حين قال :

تهادى إلى بيت الصلاة كأنها   على الوعث ذا ساقٍ مهيض كسيرها[٦٣]

واستخدم جرير المصحف أيضاً في المقدمة الطللية ليصف ما عفا من الربع[٦٤] .

وأثر الإسلام على التركيب الداخلي للشعر أبعد مدى من كل ذلك. فقد استغل ذو الرمة فكرة الثواب الإسلامية ليصوّر بها تفاني الثور الوحشي في مهاجمته كلاباً للصيد حين قال :

فكرّ يمشق طعناً في جواشنها   كأنه الأجر في الإقبال يحتسب[٦٥]

وعندما يهزم نفس الثور الكلاب ويشتد في الهرب يصور الشاعر سرعة الجري مستعيناً بصورة الشياطين التي تسترق السمع فتسلط عليها الشهب الواردة في القرآن[٦٦] :

كأنه كوكب في إثر عفرية   مسوّم في سواد الليل منقضب[٦٧]

وقد وصف نفس الشاعر حرباء الصحراء المعهود وقد سلقته الشمس بقوله :

كأن يدى حربائها متشمساً   يدا مذنب يستغفر الله تائب[٦٨]

واستغلت الشعائر الدينية في تصوير الأفكار المجردة كما قال ذو الرمة وهو يصف نوم صاحبه :

سقاه الكرى كأس النعاس ورأسه   لدين الكرى من آخر الليل ساجد[٦٩]

واستعاروا تشبيهات القرآن ومجازه بتوسع ليحدثوا الأثر المطلوب. فحين أراد

---

٦٣ ديوان الفرزدق ١/٣٦٣ ؛ النقائض ٥١٧ ؛ وانظر النقائض ٧٩٠ .

٦٤ النقائض ٥٧٩ .

٦٥ ديوانه ٢٥ .

٦٦ سورة الجن ٨ – ٩ .

٦٧ ديوانه ٢٧ .

٦٨ نفسه ٥٩ .

٦٩ نفسه ١٣٠ ؛ وانظر ١٥٨ ، ١٥٩ .

جرير أن يبين ضلال الفرزدق ونزغه قال :

ضللت ضـلال السامري وقـومـه دعاهم فظلوا عاكفين على عجل[٧٠]

وحين أراد الفرزدق أن يدلل على وضاعة أصل جرير قال له :

ضربت عليك العنكبوت بنسجها وقضى عليك به الكتاب المنزل[٧١]

وأحياناً تقتبس آيات بأكملها مع تحوير طفيف كما جاء في بيت الفرزدق حيث ضمنه آيتين كريمتين[٧٢] :

دعوت الذي سوى السموات أيده ولله أدنى من وريد وألطف[٧٣]

ويظهر أثر البيئة الحضرية أيضاً في الاستعارات والتشبيهات التي أوحت بها مظاهر المدنية المتعددة. فجرير يستعين بصفة البناء في تصوير ضخامة الناقة حين يقول :

لها مخرم يطوي على صعدائها كطي الدهاقين البناء المشيدا[٧٤]

ويستعير ذو الرمة مشهداً حضرياً مألوفاً لتصوير حركة ذيل الناقة :

كما ذببت عـذراء غـير مشيحة بعوض القرى عن فارسي مرفل
بأذناب طاؤوسين ضمَّت عليهما جميعاً وقامت في بقير وقرقل[٧٥]

وقد صُوِّرت الحيوانات في حيوية وإشراق حين استعان الشعراء بالأخيلة المستوحاة من طبيعة الحياة الحضرية الغنية. فكثيراً ما حلى العجاج ثور الوحش بأزهى الألوان

---

٧٠ النقائض ١٦٥ ؛ وانظر سورة طه ٨٧ – ٨٨ .
٧١ النقائض ١٨٣ ؛ انظر سورة العنكبوت ٤١ .
٧٢ سورة الذاريات ٤٧ وسورة ق ١٦ .
٧٣ النقائص ٥٥٣ .
٧٤ نفسه ٤٧٩ ؛ وانظر ديوان العجاج ٢٧ .
٧٥ ديوانه ٥١٠ – ٥١١ .

وكساه أفخم الثياب التي يلبسها المترفون. فقد وصف الثور بالنصراني المدبج بملابس العيد في قوله :

عاد إلى كناسه كما يعود العيد نصرانيّ

وبيعة لسورها عليّ[٧٦]

وقد صوّر نفس الشاعر مشية ثور آخر بقوله :

يمشي كمشي المرح الفخير

سرول في سراول الصفور تحت رفـل السند المـزرور

أو مـرزبـان القـريـة المخمور دهقن بالتـاج وبالتسويـر[٧٧]

وكثيراً ما استعان العجاج بمشية الأمير لتصوير مشهد الثور وهو يتبختر :

يمشي بأنقاء أبي حـبريـر مشي الأمير أو أخي الأمـير

يمشي السبطرى مشيـة التحبـير أو فيخمان القريـة الكبـير[٧٨]

ولا يظهر الأثر العميق للبيئة الحضرية في مكان أكثر منه في أوصاف الشاعر الدقيقة حيث تمتزج الألوان والمواد في أشكال حية كما يبدو في صورته عـن تكوين السراب :

ونسجت لوامع الحرور

بـرقرقـان آلهـا المسجور سبائباً كسرق الحرير[٧٩]

وتدخل الألوان المشرقة والثياب البراقة في الوصف كما قال في وصف الثور :

حتى إذا ما إن جلا الجليّ

---

٧٦ ديوانه ٦٩ .

٧٧ نفسه ٢٩ .

٧٨ نفسه ٣١ .

٧٩ ديوان العجاج ٢٧ .

عنه غدا واللون نـــواريّ كأنـــه متـوّج رومـيّ
عليـــه كتان وآخـني أو مقول تـوج حميريّ[٨٠]

ولم تكن الحياة الحضرية مجرد أداة لبعث الحياة في صور البادية ولكنها أيضاً غاية في نفسها يستمتع بها لذاتها. ولا يظهر أثر حياة البصرة على جرير في نسيبه الرقيق فحسب، بل يبرز بشكل أوضح في وصفه للحضريات كما جاء في قوله عن إحداهن :

جاريـــة مـــن ساكني الأسواق لباسة للقمص الرقـــاق
أبغض ثـوبيهـا إليهـا البـاقي تأكل من كيس امرىء وراق
قد وثقت إن مـــات بالنفـــاق فهو عليهـا هـين الفــراق
تضحك عـــن ذي أشر بـراق كالأقحوان اهتز في البراق[٨١]

وصورة جرير هذه تؤكد النتيجة التي توصّل إليها مواطنه الفرزدق حين قال :

فقلت إن الحـواريـــات معطبـــة إذا تَفَتَّلْن من تحت الجلابيب[٨٢]

والحواريات هن فاتنات المدن البيضاوات .

وقد تركت حياة البصرة التجارية أثراً ضعيفاً على التركيب الشعري، ويستطيع الباحث أن يعثر على بعض الأبيات التي يبرز فيها هذا الأثر كقول يزيد بن مفرّغ :

وأقمتمو سـوق الثنـاء ولم تكـــن سوق الثناء تقـام في الأسواق[٨٣]

وقد استخدم رؤبة الاصطلاحات التجارية حين تحدث عن الشيب في قوله :

فليت أيـام الصبا عواكرا وليت مبتـاع الشباب التـاجرا

---

٨٠ نفسه ٧٠ .

٨١ ديوان جرير ٣١٠ .

٨٢ ديوان الفرزدق ٢٣/١ ؛ وانظر ٢١٠/١ – ٢١١ لصورة جميلة عن فتاة أخرى .

٨٣ ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢٨٩/٥ .

نعطيه حـكراً قبـل أن يحاكرا   في البيع لو ردّ الشباب الناضرا[٨٤]

ولكن الشاعر يعلم أن ذلك محال، وعبّر عنه بقوله :

الشيب لا سوق له إن سوقا[٨٥]

ولو حدث ففيه غبن :

والشيب لـو يبـاع بالتسمسر   للتاجر المبتاع شر متجر[٨٦]

وكان تطويع الشعر للتعبير عن الحياة في جوانبها المتعددة نتيجة لقدرات فنية فائقة، وعرق كثير سفح تحت عرائس الشعر أو شياطينه، والمشقة التي يتكبدها الشاعر في النظم – وقد ذكرت الروايات عن الفرزدق الكثيرة في هذا المجال[٨٧] – تبرر مبلغ الاعتزاز الذي يوليه فنه، فقد قال الفرزدق مرة إن شعره يفوق شعر أساتذته الجاهليين[٨٨]. والواقع أنه لم يكن للشعراء الخيار في تجويد أدوات فنهم بحيث يصح أن نقول انهم كانوا «محترفي» شعر. فقد كان العصر عصر احتراف وتخصص في الفنون والعلوم. وكان عليهم أن يعالجوا فنهم كصناعة معقدة تحتاج لمهارات عديدة يسندها الجهد والموهبة، وقد عبّر ذو الرمة عن بعض هذا في قوله :

وشعر قـد أرقت لـه غريب   أجنبـه المسانـد والمحـالا
فبت أقيمه وأقـد منه   قوافي لا أعـد لهـا مثـالا
غرائب قـد عرفن بكل أرض   من الآفاق تفتعل افتعـالا[٨٩]

وقد قارن رؤبة كثيراً بين فن الشاعر ومهارة النساج المجيد فقال مرة :

---

٨٤ ديوان رؤبة ٥١ .

٨٥ نفسه ١٠٩ ؛ وانظر ٣٠ .

٨٦ نفسه ٥٧ .

٨٧ انظر العسكري: ديوان المعاني ١/١١٣ ؛ العمدة ١/٢٠٤ ، ٢٠٧ .

٨٨ ديوان الفرزدق ٢/١٤٢ .

٨٩ ديوان ذي الرمة ٤٤٠ – ١ ؛ وانظر ١٦٨ – ٩ .

إني وكنت الشاعر المستنطقا   أنسج نسج الصنع المحققا
تحبيره والخسروان الأعتقا[٩٠]

وصوّر نفسه في مناسبة أخرى نساجاً منسجه الدفتر :

ما أنا بالفاني ولا المغمر   أنسج نسج الصنع المحبّر
كيف تراني أنتحي في الدفتر   على قضيب الذاهبات الشبّر[٩١]

ومن جانب آخر كان هذا الاحتفال بالتجويد والاهتمام البالغ بالفن يعكسان المستوى العالي الذي بلغه الجمهور المتلقى في مجال التذوق والنقد. فقد كان كثير من الخلفاء والأمراء والأشراف الذين يحيطون بهم نقدة للشعر خبيرين بجيده، وكان على الشعراء الذين يتوجهون إليهم بالشعر أن يبذلوا من ذات أنفسهم وفنهم الكثير قبل أن يحوزوا على رضاهم[٩٢] .

وقد دفعت الحاجة لإرضاء الصفوة في المجتمع - والتي كانت تضع للناس المقاييس اللغوية والفنية بالإضافة إلى ما تقدمه من منافع مادية - بالشعراء إلى انتهاج طرائق في تأليف الشعر نتج عنها ضرب من الشعر كثيراً ما افتخر قائلوه بأنه «غريب». وهذا اصطلاح يجب التنبه إلى معناه الحقيقي في هذا الشعر. فهو لا يرد في كثير من شعر جرير والفرزدق وذي الرمة وغيرهم بمعنى الحوشي أو الموغل في الصعوبة، كما هو الحال في كثير من شعر الرجز، ولكنه يأتي بمعنى «غير المألوف أو غير المطروق»، أو بعبارة أخرى هو شعر مبتكر لم يقلّد فيه شاعره غيره، وبالتالي فهو حديث بمعنى novel في المصطلح الغربي الحديث،

---

٩٠ ديوان رؤبة ١١٥ .

٩١ نفسه ٦١ ؛ وانظر ٣٨ ؛ ابن قتيبة: كتاب المعاني ٨١٤/٢ .

٩٢ انظر على سبيل المثال الموشح ٢١٥ - ٦ لرأي الوليد بن عبد الملك في شعر العجاج ؛ ونفس المصدر ١٧٨ - ٩ لنقد بلال لشعر ذي الرمة ، و ٢٣٩ لرد فعل عبد الملك بن مروان لقصيدة لذي الرمة ، والأغاني ١٤٠/١٨ لمقابلة مسلمة لأبي نخيلة .

وأبيات ذي الرمة السالفة في هذا المعنى تشفع لهذا التفسير .

وقد كانت هناك اعتبارات أخرى تدفع بأسلوب الشعر في اتجاهات أخرى. فقد لاحظنا في مجال آخر الاتجاه لتقسيم الشعراء إلى أولئك الذين يعجب بهم العامة والذين يعجب بهم الخاصة من العلماء والمثقفين[٩٣] . وقد أدى انفصام النظام الاجتماعي ببروز طبقة الصفوة في جانب وطبقة الجماهير البائسة التي كانت تفقد فصاحتها بسرعة أمام ضغط التطور الحضري في جانب آخر إلى تعميق هذا الاتجاه، وكان أن بلغت الدوافع في هذا السبيل مبلغاً من القوة في نهاية العصر الأموي بحيث فرضت على الشاعر الواحد أن يتخذ في شعره أسلوبين يتوجه بكلّ إلى الطبقة المعنية كما يبدو بوضوح في شعر بشار الذي كان يقول شعراً شعبياً عامياً حين يريد إبلاغ العامة، ويقول شعراً بالغ الجودة والرصانة حين يخاطب الخاصة، ويقول في تعليل ذلك «انه لكل مقام مقال»[٩٤] . وهذه الظاهرة لا تقتصر على شعر بشار والسيد الحميري بل نراها أيضاً في شعر الرجز الموغل في المحافظة. فقد كان الرجز ، تحت تأثير القصاص والوعاظ ، يتطور ليصبح مرة أخرى أداة شعبية كما كان في أول المطاف وقبل أن يتطور في العصر الأموي. وقد تطوع الرجز تحت أيدي أبي نخيلة[٩٥] والعماني[٩٦] ، فأصبح أداة سهلة لتصوير تجارب الحياة اليومية وتفاهاتها المحببة. وقد كانت من علامات التطور الحضري دخول كثير من الألفاظ الفارسية في الشعر ، ولم يخل شعر الفحول أمثال جرير والفرزدق[٩٧] من ذلك، وإن كان الذين فتحوا المجال لهذا الاقتباس هما ابن مفرغ الحميري[٩٨] والعماني[٩٩] .

---

٩٣ انظر الباب الثاني ص ٩٩ . الموشح ١٤٠ – ١ .

٩٤ الأغاني ٣٢/٣ ؛ وانظر البهبيتي: تاريخ الشعر العربي ص ٣٣٣وما بعدها .

٩٥ الأغاني ١٤٣/١٨ – ١٥٠ .

٩٦ ابن المعتز : طبقات ١٠٩ – ١١٤ ؛ الأغاني ٧٨/١٨ – ٨٢ ؛ البيان والتبيين ٤٨/١ ، ١٣١ .

٩٧ النقائض ٣٣٤ ، ٧٨٧ ، ٨٤٥ ، ٨٦٨ ؛ ديوان الفرزدق ٨٣/١ ، ١٧٨ ، ٢٨١ .

٩٨ البيان ١٣٢/١ . ٩٩ نفسه

مراجع الكتاب

المصادر العربيّة

ابن الأثير (ضياء الدين) الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور (بغداد ١٩٥٦).

ابن الأثير (عز الدين) الكامل في التاريخ (لايدن ١٨٦٧ – ١٨٧٤).

اللُّباب في تهذيب الأنساب (القاهرة ١٣٥٧ هـ).

ابن الأنباري (أبو البركات): نزهة الألباء في طبقات الأدباء (تحقيق السامرائي، بغداد، ١٩٥٩).

ابن جِنّي سرّ صناعة الإعراب (القاهرة ١٩٥٤ م).

الخصائص (القاهرة ١٩٥٤ م).

: المنصف (القاهرة ١٩٥٤ م).

ابن حجر العسقلاني تهذيب التهذيب (حيدر أباد ١٣٢٥ هـ).

ابن حوقل كتاب المسالك والممالك (لايدن ١٨٧٣ م).

ابن خلكان وفيات الأعيان (بولاق ١٢٩٩ هـ).

ابن دريد الاشتقاق (القاهرة ١٩٥٨ م).

ابن رشيق العمدة (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٥٥ م).

ابن سعد	كتاب الطبقات الكبرى (لايدن ١٩٠٤ – ١٩١٥ م) .
ابن سلّام الجمحي	طبقات فحول الشعراء (تحقيق شاكر ، القاهرة ١٩٥٢ م).
ابن عبد ربه	العقد الفريد (تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة ١٩٤٠م)
ابن العماد الحنبلي	شذرات الذهب (القاهرة ١٣٥٠ هـ) .
ابن الفقيه	مختصر كتاب البلدان (لايدن ١٨٨٥ م) .
ابن قتيبة	أدب الكاتب (القاهرة) .
	كتاب المعارف (القاهرة ١٩٣٥ م) .
	الشعر والشعراء (تحقيق شاكر القاهرة ١٣٦٤ – ١٣٦٦ هـ).
	عيون الأخبار (برلين ١٩٠٠ م) .
	كتاب المعاني الكبير (تحقيق كرنكو، حيدر أباد ١٩٤٩م).
ابن المعتز	كتاب البديع (تحقيق كراتشكوفسكي، لندن ١٩٣٥ م).
:	طبقات الشعراء المحدثين (القاهرة ١٩٥٦ م) .
ابن منظور :	لسان العرب (بولاق ١٣٠٧ هـ) .
ابن النديم :	الفهرست (القاهرة ١٣٤٨ هـ) .
أبو الأسود الدؤلي :	ديوان أبي الأسود (تحقيق عبد الكريم الدجيلي، بغداد
:	١٩٥٤ م) .
أبو زيد	النوادر في اللغة (بيروت ١٨٩٤ م) .
أبو عبيد (القاسم بن سلام) :	كتاب الأموال (القاهرة ١٣٠٢ هـ) .
أبو عبيدة	انظر بيفان .
أبو نعيم الاصفهاني :	حلية الأولياء (القاهرة ١٩٣٢ – ٨) .
أبو يوسف :	كتاب الخراج (القاهرة ١٣٠٢ هـ) .
إحسان عباس :	شعر الخوارج (تحقيق، بيروت ١٩٦٤) .
أحمد أمين :	ضحى الإسلام (القاهرة ١٩٥٦ م) .
	فجر الإسلام (القاهرة ١٩٤٥ م) .
الإصطخري	كتاب المسالك والممالك (لايدن ١٨٧٠ م) .
الإصفهاني (أبو الفرج)	كتاب الأغاني (١ – ٢٠ بولاق؛ ٢١ لايدن ١٨٨٨ م) .
الأصمعي :	فحولة الشعراء (تحقيق Torrey في ZDMG ١٩١١ ،

ص ٤٨٧ - ٥١٦ .

الآمدي : كتاب المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء (تحقيق كرنكو القاهرة ١٩٣٥ م) .

بشار بن برد : ديوان بشار (تحقيق الطاهر بن عاشور القاهرة ١٩٥٠ م).

البغدادي (أبو بكر) : تاريخ بغداد (القاهرة ١٩٣١ م) .

البغدادي (عبد القادر) : خزانة الأدب (تحقيق الميمني، القاهرة ١٣٤٧ هـ) .

البكري (أبو عبيد) : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٩ م) .

البكري (محمد توفيق) : أراجيز العرب (القاهرة ١٣١٣ هـ) .

بلا (شارل) : الجاحظ (ترجمة ابراهيم الكيلاني - دمشق ١٩٦١ م) .

البلاذري : أنساب الأشراف (ج ٤ ب المقدس ١٩٣٨ م؛ ج٥ القدس ١٩٣٦ م؛ ج ١١ لايبزج ١٨٨٣ م) .

فتوح البلدان (بيروت ١٩٥٧ م) .

البهبيتي (نجيب محمد) : تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري (القاهرة ١٩٥٠ م) .

بيفان : نقائض جرير والفرزدق، جمع أبي عبيدة (لايدن ١٩٠٧م).

البيهقي : المحاسن والمساوىء (أوروبا ١٩٠٢ م) .

الثعالبي : لطائف المعارف (القاهرة ١٩٦٠ م) .

الجاحظ : كتاب البخلاء (لايدن ١٩٠٠) .

البيان والتبيين (تحقيق السندوبي، القاهرة ١٩٣٢ م) .

كتاب التاج (القاهرة ١٩١٤ م) .

: كتاب الحيوان (القاهرة ١٩٠ - ١٩٠٦ م) .

كتاب العثمانية (القاهرة ١٩٥٥ م) .

جرير : ديوان جرير (بيروت ١٩٦٠ م) .

الحوفي (أحمد محمد) : أدب السياسة في العصر الأموي (القاهرة ١٩٦٠ م) .

الخفاجي : سرّ الفصاحة (القاهرة ١٩٥٣ م) .

دائرة المعارف الإسلامية الأولى والثانية (الانجليزية) .

الدينوري : الأخبار الطوال (لايدن ١٨٨٨ م) .

ذو الرّمّة	ديوان ذي الرمة (كامبردج ١٩١٩ م) .
الرازي (أبو حاتم)	كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية (القاهرة ١٩٥٧ م) .
رؤبة	ديوان رؤبة (برلين ١٩٠٣ م) .
الزبيدي	طبقات النحويين (تحقيق كرنكو في مجلة Rivista delgi Studi Orientali, Rome VIII, 1919 pp. 107 -156
زكي (أحمد كمال)	الحياة الأدبية في البصرة (دمشق ١٩٦١ م) .
الزهيري (محمود غناوي)	نقائض جرير والفرزدق (بغداد ١٩٥٤ م) .
السيرافي	أخبار النحويين البصريين (تحقيق كرنكو ، بيروت ١٩٣٦م)
السيوطي	بغية الوعاة (القاهرة ١٩٠٨ م) .
	المزهر (طبعة صبيح القاهرة) .
الشايب (أحمد)	تاريخ النقائض في الشعر العربي (القاهرة ١٩٥٤ م) .
الشيباني	الجامع الكبير (القاهرة ١٣٥٦ هـ) .
الصفدي	نكت الهميان (القاهرة) .
الصولي	أدب الكتّاب (القاهرة ١٣٤١ هـ) .
:	كتاب الأوراق، أخبار الشعراء (لندن ١٩٣٤ م) .
ضيف (شوقي)	التطور والتجديد في الشعر الأموي (القاهرة ١٩٥٩ م) .
	الفن ومذاهبه في الشعر العربي (القاهرة ١٩٦٠ م) .
الطبري	تاريخ الأمم والملوك (لايدن ١٨٩٠ م) .
طه حسين	حديث الأربعاء (القاهرة ١٩٥١ م) .
	الفتنة الكبرى: عثمان (القاهرة ١٩٥١ م) . علي وبنوه .
عبد الله الطيب	شرح أربع قصائد لذي الرمة (الخرطوم) .
:	المرشد لصناعة أشعار العرب (القاهرة وبيروت) .
العجاج :	ديوان العجاج (برلين ١٩٠٣ م) .
العسكري (أبو أحمد)	المصون في الأدب (الكويت ١٩٦٠ م)
العسكري (أبو هلال)	ديوان المعاني (تحقيق كرنكو، القاهرة ١٣٥٢ هـ) .
	كتاب الصناعتين (القاهرة ١٩٥٢ م) .
العلي (أحمد صالح) :	التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة (بغداد ١٩٥٣م)

الفرزدق : ديوان الفرزدق (بيروت ١٩٦٠ م) .

فلك : العربية (ترجمة، القاهرة ١٩٥١ م) .

فيصل (شكري) : المجتمعات الإسلامية في القرن الأول (بيروت ١٩٦٦ م).

قدامة بن جعفر : نقد الشعر (لايدن ١٩٦٥ م) .

القالي (أبو علي) : الأمالي، وذيل الأمالي (بولاق ١٣٢٤ هـ) .

القلماوي (سهير) : أدب الخوارج (القاهرة ١٩٤٥ م) .

المبرد : الكامل، شرح السيد علي المرصفي المسمى رغبة الآمل من كتاب الكامل (٨ أجزاء القاهرة ١٩٢٣ م) .

المخزومي (مهدي) : مدرسة الكوفة (بغداد ١٩٥٥ م) .

المرتضى (السيد) : الأمالي (القاهرة ١٩٠٧ م) .

المرزباني : معجم الشعراء (القاهرة ١٩٦٠ م) .

: الموشح (القاهرة ١٣٤٣ هـ) .

المرصفي : انظر المبرد .

المسعودي : مروج الذهب (باريس ١٨٦١ - ١٨٧٧ م) .

: التنبيه والإشراف (لايدن ١٨٩٣ م) .

المقدَّسي : أحسن التقاسيم (لايدن ١٨٧٧ م) .

نصر بن مزاحم : وقعة صفين (القاهرة ١٣٦٥ هـ) .

النويري : نهاية الأرب (القاهرة ١٩٢٣ م) .

الهمداني : كتاب صفة جزيرة العرب (لايدن ١٨٨٤ م) .

وكيع : أخبار القضاة (القاهرة ١٩٥٠ م) .

ياقوت : إرشاد الأريب (تحقيق مارقوليوث، القاهرة ١٩٢٣-١٩٢٥م)

: معجم البلدان (لايبزج ١٨٦٦ م) .

المصادر الأجنبية

1. Barbier de Meynard : "Le Séid Himyarite", Journal Asiatique, No. iv, 1874, pp. 159-284.
2. Dennett : Conversion and the Poll-Tax in Early Islam, Harvard, 1950.
3. Goldziher : Abhandlungen Zur Arabischen Philologie, Leiden, 1896.
4. : Memorial Volume, pt 1, ed, Slowinger, Budapest, 1948.
5. : Muhammedanische Studien, Halle, 1888-90.
6. Hell : "al-Farazdak's Lieder auf die Muhallabiten", Z.D.M.G., Lix-Lx, 1905-6.
7. Hitti : History of the Arabs, London, 1963.
8. Levy : The Social Structure of Islam, Cambridge, 1962.
9. Løkkegaard : Islamic Taxation, Copenhagen, 1950.
10. Nallino : La Litterature Arabe, trans. Pellat, Paris, 1950.
11. Nicholson : A Literary History of the Arabs, Cambridge, 1930.
12. Nôldeke-Schwally : Geschichte des Qorans, 1909.
13. Pederson : "Qussas", Mélange Goldziher, i, 233, 1948.
14. Pellat : Le Milieu Basrien et la formation de Gahiz, Paris, 1953.
15. Schaeder : "Hasan al-Basri", Der Islam, 1-83, xiv, (1925).

16. Watt, W. Montgomery: Free will and Predestination, London, 1948.

17. : Islam and the Integration of Society, London, 1961.

18. : Islamic Philosophy and Theology, Edinburgh, 1927.

19. Wellhausen : The Arab Kingdom and its Fall, Calcutta 1927.

محتويات الكتاب

الباب الأول

الفصل الثالث

الباب الثاني

منزلة الشعر في مجتمع البصرة

الفصل الأول

الفصل الثاني

الباب الثالث ١١٥

الشعر والحياة القبلية

الفصل الأول

الفصل الثاني

تم طبع هذا الكتاب على مطابع دار القلم في بيروت ص. ب ٦٦٦٤